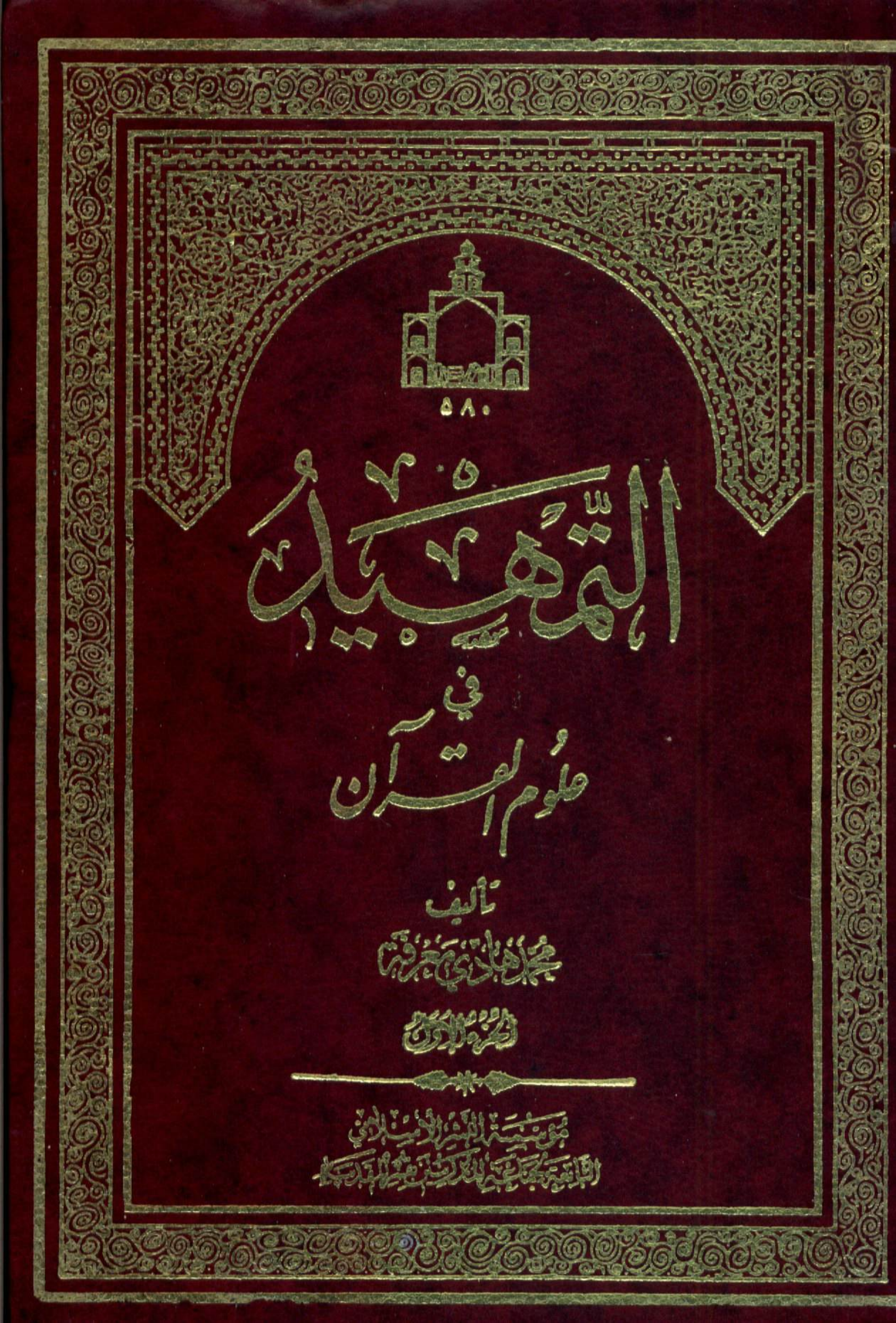
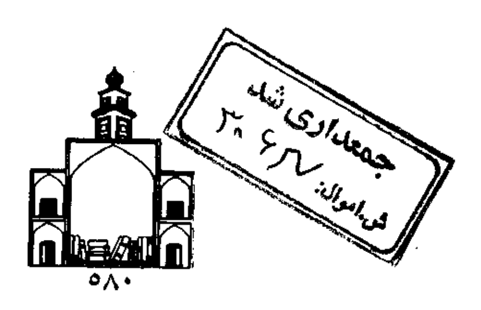

٥٨٠
التمهيد
في
علوم القرآن
تأليف
محمد هادي معرفة
الجزء الأول
مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة



التمهيد

دراسات مبسطة عن مختلف شؤون القرآن الكريم

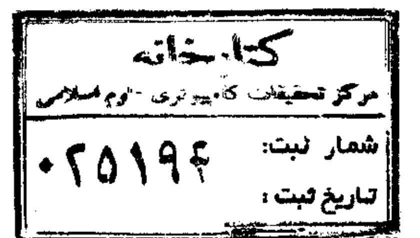
تأليف

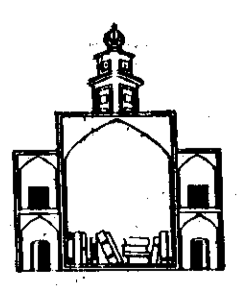
محمد هادي معرفة

الجزء الأول

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة





التمهيد

(ج١)

■ المؤلف: الاستاذ المحقّق الشيخ محمّد هادي معرفة □
■ الموضوع: علوم القرآن □
■ تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي □
■ عدد الصفحات: ٤٩١ □
■ المطبوع: □
■ الطبعة: □
■ التاريخ: □

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة



الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد وآله الطيّبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم الى قيام يوم الدين.

لا شكّ ولا ريب أنّ القرآن هو كتاب الله المنزل على رسوله الأمين لهداية الناس وإرشادهم وتزكيتهم وإخراجهم من ظلمات الجهل والغواية الى نور العلم والهداية، وهو دستور لجميع البشرية من حين نزوله الى الأبدية، وهو الفرقان الذي يفرّق بين الحقّ والباطل، والتبيان لكلّ شيء، والهادي لسبل الخير والصلاح، والمحذّر من كلّ شرّ وضلال، وهو كتاب الله القويم الذي لايعتريه أيّ خطأ واشتباه، ولا تمسّه أيدي المضلّين، وهو الرابط بين الخالق وخلقه، والمبيّن لأحكام الله وشرايعه، وهو الكتاب الذى أعجز الكلّ من جنّ وإنس من أن يأتوا بمثله ولو بسورة واحدة، وأخبرهم بأنّهم لايقدرون على ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو الكتاب الذي بشّر المتقين بالرحمة والرضوان وأوعد الكافرين بالغضب والنيران، وهو الذي له بطون مختلفة وتأويلات عديدة لايصل الى كنهها إلّا الله والراسخون في العلم.

ولأجل تنوير البشرية بمفاهيمه ومعانيه وتطبيقه على مختلف شؤون الحياة الفردية والاجتماعية اهتمّ المسلمون- حين صدوره من المشرّع الحكيم الى رسوله العظيم محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله - في حفظه وتفسيره، وهذا الاعتناء والاهتمام قد استمرّ بعد رحلته صلوات الله عليه وآله قرناً بعد قرن، فأخذ علماء الإسلام وفضلاء الامّة دقائق تفسيره ومعانيه من معادن الحكمة والثقل الآخر للكتاب الكريم- اللذين تركهما الرسول الأعظم وأخبر بأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض- وهم أهل بيت الوحي والعصمة سلام الله عليهم أجمعين. فقد بذلوا عنايتهم وجهدهم في البحث عن شتّى جوانب القرآن الكريم،

واهتمّوا بالتكلّم عن ناسخه ومنسوخه،ومحكمه ومتشابهه، وتنزيله وتأويله، وعامّه وخاصّه، وإطلاقه وتقييده، وترتيله وتجويده.وقد ركّزوا على هذه المسائل لأجل دفع شبهات المضلّين والمنحرفين حول الاعجاز والوحي وانتماء التحريف إليه وما شاكل ذلك، وهذا مايعبّرون عنه اليوم بـ«علوم القرآن».

وهذه السيرة المباركة من علمائنا العظام مستمرّة إلى يومنا هذا، وستستمرّ إلى زمان ظهور الحجّة المهديّ المنتظر أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.انشاء الله

ومن اولئك الذين بذلوا طاقاتهم في هذا المجال العلّامة الألمعي والاستاذ المحقق سماحة الشيخ محمَّد هادي معرفة-حفظه الله تعالى- حيث قدّم حصيلة جهوده المحمودة للدفاع عن حريم القرآن العظيم وتبيين قداسته وتزييف مايُفترى عليه من الأكاذيب والأباطيل على ضوء ماجاء في السنّة المطهّرة من طريق أهل البيت عليهم السّلام، فألّف كتابه المسمّى بـ«التمهيد في علوم القرآن» في عدّة أجزاء(١)،وجعله مقدمة لتفسيره «الوسيط» كما صرّح به في مقدمة الكتاب.

وقد قامت، المؤسّسة بطبعه ونشره -بعد تحقيقه ومقابلته وتنظيم فهارس مختلفة له- وتقديمه الى طلّاب العلم والفضيلة والى جميع من يرتوي من منهل معارف الكتاب العزيز، نسأل الله تعالى أن يوفق سماحة المؤلف لإتمام بقية الاجزاء، كما ونسأله سبحانه أن يوفق الاخوة الكرام-الذين ساهموا في إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة لاسيّما الحاج محي الدين الواعظي والسيّد علي الطباطبائي ورعد البهبهاني والحاج كمال الكاتب- وإيانا لنشر تعاليم القرآن الكريم وسنّة النبيّ العظيم وآله المنتجبين وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

---

(١) من الجدير بالذكر أنّ ثلاث أجزاء من هذا الكتاب قد طبع سابقاً، والمؤسسة قامت بطبعها لمرّة ثانية مع إضافات كثيرة وتعليقات وتصحيحات مفيدة من المؤلّف حفظه الله، علاوة على طبع الجزء الرابع منه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

وبعد.. فإنّ دراسة شؤون القرآن الكريم في مختلف جوانبه المتنوّعة، دراسة ممتعة هي في نفس الوقت ضرورة إسلاميّة ملحّة، يستجيبها كلّ مسلم واع وجد من هذا الكتاب السماوي الخالد حقيقة ناصعة وبرهاناً من الله صادقاً، فيه تبيان كلّ شيً وهدى ورحمة للعالمين:

أوّلاً، هو سند الإسلام الحي، ومعجزته الباقية، الذي لايزال الإسلام يتحدّى به جموع البشريّة ـ في نداء صارخ ـ: لو تستطيع أن تأتي بمثله! لكنّها ـ بكلّ صراحة وضراعة ـ تعترف بعجزها المستمر مع كرّ العصور.

«قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أن يَاتُوا بِمِثْلِ هَذا الْقرْآنِ لاَيَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْكَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»[1].

ثمّ، هو دستور الإسلام الجامع، والكافل لإسعاد البشريّة في كافّة ميادين الحياة الإجتماعية والإداريّة والسياسيّة وغيرها أجمع، وقد تحقّقت هذه الواقعيّة المشرقة، يوم سارت ركب البشريّة في ضوء هذا المشعل المضيء.

«يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمايُحْيِيكُمْ»[2].

وأيضاً، تجاوبه الوثيق مع فطرة الإنسان الأصيلة، انسجاماً متشابكاً مع

---

(١) الاسراء: ٨٨.

(٢) الانفال: ٢٤.

جبلّته الأولى التي فطر عليها. وهذا التجاوب يبدو ـ بكلّ وضوح ـ على محيّى كافّة تشريعاته وتنظيماته وجميع أحكامه الشاملة. الأمر الذي يجعل من هذا القانون السماوي الجامع، نظاماً منبثقاً من صميم الإنسانيّة، جاء ليؤمّن عليه جميع حاجاته النزيهة في مختلف شؤون الحياة.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»(١).

كما وأنّه أتحف للبشريّة جمعاء بمعارف وتعاليم جليلة، كان المستوى البشري ـ ولايزال ـ يقصر عن البلوغ إليها، لولا سماح القرآن بمثلها ـ بكلّ سخاء ـ وجعلها في متناولها القريب، في أبلغ بيان وأبدع أسلوب حكيم.

«وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»(٢) «عَلَّمَ الإنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ»(٣) «مَا كُنْتَ تَعْلَمُها أَنتَ وَلاقَوْمُكَ مِنْ قَبلِ هذا»(٤).

وأخيراً: هيمنته الخارقة على نفوس بشريّة كبيرة، كانت تأبى الرضوخ لغير الحقّ الصريح، فأشرف بها على واقعيّة مشهودة كانت دلائل الصدق لائحة على محيّاها بوضوح، ومن ثم استسلمت لقيادته الحكيمة مذ تعرّفت الى حقيقته الصارخة.

«لكِنِ الرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ»(٥).

تلك خصائص وميزات بارزة امتاز بها هذا الكتاب الإلهي العظيم، الذي لم يكد يمض من انبثاق نوره اللئلاء أكثر من نصف قرن، حتى ملك رقاب أمم كبيرة، وسيطر على رقعة واسعة من الأرض كانت مهد الحضارة الإنسانيّة منذ زمن سحيق. فدوّخ صداه الأجواء، وهزّت لهيمنته العادلة أرجاء العالم المعمور.

الأمر الذي جعل من هذا القرآن موضع اهتمام العلماء ومنصرف عناية

---

(١) الروم: ٣٠.
(٢) النساء: ١١٣.
(٣) العلق: ٥.
(٤) هود: ٤٩.
(٥) النساء: ١٦٢.

الباحثين في مختلف العصور والدهور.

* * *

ومنذ الصدر الأوّل قد بذل كبار الصحابه وفضلاء التابعين عنايتهم البالغة في البحث عن شتّى جوانب القرآن الكريم، واهتمّوا بالتكلّم عن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وتنزيله وتأويله، وعامّه وخاصّه، وإطلاقه وتقييده وترتيله وتجويده وعن كافّة شؤونه المترامية. وهكذا لم يزل يطرد ويتوسّع دائرة الدراسات القرآنية عبر القرون والأعصار. كما طفحت من نتائج تلكم البحوث والدراسات جوامع الحديث والتفسير في مختلف الأدوار.

أمّا عهد التدوين فيرجع الى مؤخّر القرن الأوّل، فكان أوّل من صنّف في القراءة هو يحيى بن يعمر (توفي سنة ٨٩هـ) أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي. ألّف كتابه في «القراءة» في قرية واسط، ويضمّ الاختلافات التي لوحظت في نسخ القرآن المشهورة. كما في «تأريخ التراث العربيّ» لفؤاد سزگين.

* وفي القرن الثاني، صنّف الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (ت ١١٠) كتابه في «عدد آي القرآن».

وعبدالله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨) كتابه في «اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق» و«المقطوع والموصول» في الوقف والوصل.

وشيبة بن نصاح المدني (ت ١٣٠): «كتاب الوقوف».

وأبان بن تغلب (ت ١٤١) صاحب الإمام علي بن الحسين السجّاد (عليه السلام) هو أوّل من صنّف في «القراءات» بعد ابن يعمر. وله كتاب «معاني القرآن» أيضاً.

ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦). أوّل من صنّف في «أحكام القرآن».

ومقاتل بن سليمان المفسّر (ت ١٥٠). له كتاب «الآيات المتشابهات».

وأبوعمرو بن العلا زبان بن عمار التيمي (ت ١٥٤): «الوقف والابتداء» وكتاب «القراءات».

وحمزة بن حبيب، أحد القرّاء السبعة (ت ١٥٦) صاحب الإمام جعفر بن

محمد الصادق (عليه السلام) له كتاب في «القراءة».

ويحيى بن زياد الفرّاء (ت ٢٠٧): «معاني القرآن» و«اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف» و«الجمع والتثنية في القرآن».

ومحمدبن عمر الواقدي، الكاتب العلّامة والمؤرّخ الشهير (ت ٢٠٧). له كتاب «الرغيب» في علوم القرآن وغلط الرجال.

وأبو عبيدة معمّربن المثنى (ت ٢٠٩): «إعجاز القرآن» في جزئين و«معاني القرآن».

*وفي القرن الثالث، صنّف أبو عبيدالقاسم بن سلام (ت ٢٢٤) «فضائل القرآن» و«المقصور والممدود» في القراءات، و«غريب القرآن»، و«الناسخ والمنسوخ» و«إعجاز القرآن». وهو من أوّليات الكتب المدوّنة في الموضوع.

وعلي بن المديني (ت ٢٣٤) صنّف في أسباب النزول.

وأحمدبن محمدبن عيسى الأشعري شيخ القمّيين ووجههم (توفي حدود ٢٥٠) له كتاب «الناسخ والمنسوخ».

والإمام أبوزرعة العراقي (ت ٢٦٤) نظّم ألفيّته في تفسير غريب القرآن.

وأبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦): «تأويل مشكل القرآن» و«تفسيرغريب القرآن» و«إعراب القرآن». وكتابه في القراءات.

وأبوالعباس محمدبن يزيد المبرّد النحوي (ت ٢٨٦): «إعراب القرآن».

وأبو عبدالله محمدبن أيّوب بن ضريس (ت ٢٩٤) كتب فيما نزل بمكة ومانزل بالمدينة، وكتاب «فضائل القرآن».

وأبوالقاسم سعدبن عبدالله الأشعري القمّي (ت ٢٩٩) صنّف رسالة جامعة في صنوف آيات القرآن، عثر عليها العلّامة المجلسي، ونقلها متقطّعة في موسوعته الكبرى[١].

---

(١) راجع بحارالأنوار: ج ٩٣ ص ٩٧.

ومحمد بن خلف بن المرزبان (ت٣٠٩) «الحاوي في علوم القرآن» ٢٧ جزءً.

وأبومحمد الحسن بن موسى النوبختي (تح ٣١٠). له كتاب «التنزيه وذكر متشابه القرآن».

وأبوبكر بن أبي داود، عبدالله بن سليمان السجستاني (٢٣٠-٣١٦). له كتاب «المصاحف» و«الناسخ والمنسوخ». ورسالة في القراءات.

* وفي القرن الرابع، صنف أبوبكر محمد بن الحسن الأزديّ ـ المعروف بابن دريد ـ (ت ٣٢١) كتابه في غريب القرآن. وهو من كبار أُدباء الشيعة الإماميّة، نحويّ لغويّ معروف.

وأبوالبركات عبدالرحمان بن أبي سعيد الأنباري (ت٣٢٨): «البيان في إعراب القرآن» و«عجائب علوم القرآن».

وثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩): «فضائل القرآن».

وأبوبكر محمد بن العزيز السجستاني (ت ٣٣٠) الذي اشتهر بكتابه «غريب القرآن» رتبه على حروف المعجم، وأكمله في ١٥ عاماً.

وأبو جعفر أحمد بن محمد النحّاس (ت٣٣٨): «إعراب القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» و«معاني القرآن».

وأبوعبدالله محمد بن إبراهيم ـ المعروف بابن أبي زينب ـ الكاتب النعماني (تح ٣٥٠) صنّف رسالة جامعة في صنوف آيات القرآن. نقلها برمّتها العلامة المجلسي[1]. كان خصّيصاً بالكليني، يكتب له كتاب الكافي.

وأبو محمد القصاب محمد بن علي الكرخي (تح ٣٦٠). له «نكت القرآن».

وأبو عبدالله أحمد بن محمد بن سيّار (ت٣٦٨) كاتب آل طاهر وصاحب

---

(١) بحارالأنوار: ج٩٣.

الإمامين الهادي والعسكري (عليهما السلام). له كتاب «ثواب القرآن» و«التنزيل والتحريف».

وأبوبكر أحمدبن علي الرازي الجصّاص (ت ٣٧٠) صنّف في أحكام القرآن، وهو كتاب كبير طبع في ثلاث مجلّدات.

«الحجّة في القراءات» لأبي علي الفارسي. علم من أعلام الإماميّة ممّن ازدهر به القرن الرابع في علمه وفضله وأدبه، وقد أجاز للصاحب بن عبّاد. وكتابه هذا من أحسن الكتب في موضوع القراءات وتوجيهها وفنّ القواعد العربيّة (توفي عام ٣٧٧).

وأبوالحسن عبّادبن عباس الطالقاني (ت ٣٨٥) -أيضاً- صنّف في أحكام القرآن. وهو والد الوزير الصاحب بن عبّاد.

«النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرّماني (توفي عام ٣٨٦) ويغلب على الكتاب طابع كلاميّ عريق في الاعتزال الجدلي.

ومحمدبن علي الأدفوي (ت ٣٨٨): «الاستغناء» في علوم القرآن، مائة جزء رأى منها صاحب الطالع السعيد عشرين مجلداً.

«بيان إعجاز القرآن» للأديب اللغويّ المحدّث أبي سليمان حمدبن محمدبن إبراهيم الخطابي البستي[1] (توفي عام ٣٨٨) هذه الرسالة -على وجازتها- تعدّ من أجمل الرسائل الموضوعة في بيان إعجاز القرآن بشكل فنيّ رائع ويعجبني أن أقول: إنّها أوفى رسالة في هذا المضمار.

والقاضي أبوبكر محمدبن الطيّب الباقلّاني (ت ٤٠٣): «إعجاز القرآن».

وأبوالحسن محمدبن الحسين الشريف الرضي (ت ٤٠٤): «تلخيص البيان» في مجازات القرآن، و«حقائق التأويل» في متشابه التنزيل، عثرت مؤسسة منتدى النشر بالنجف الأشرف على الجزء الخامس من هذا الكتاب

---

(١) بست: مدينة قرب كابل من بلاد خراسان.

عام ١٣٥٥هـ فقامت بتحقيقه ونشره، فطبع أوّلاً في النجف ثم في بيروت.

«حجة القراءات» للقاضي أبي زرعة عبدالرحمان بن محمد (ت ح ٤١٠) وقد سلك مسلك أبي علي الفارسي وتبعه في خطواته، طبع في جامعة بنغازي بتونس وطبعة أخرى في بيروت.

وهبة الله بن سلامة (ت ٤١٠): «الناسخ والمنسوخ».

* وفي القرن الخامس، صنّف الشيخ المفيد أبوعبدالله محمدبن محمدبن النعمان (ت ٤١٣) كتابه في إعجاز القرآن، وكتاب «البيان» في أنواع علوم القرآن.

«متشابه القرآن» و«تنزيه القرآن عن المطاعن» كلاهما لأبي الحسن عمادالدين القاضي عبدالجبار (توفي عام ٤١٥).

وأبوالقاسم الحسين بن علي الوزير المغربي الشيعي (ت ٤١٨) هو سبط ابن أبي زينب النعماني، من أصل فارسي، كتب «خصائص القرآن».

وأبوالحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٣٠): «البرهان في علوم القرآن».

وأبو محمد مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧): «الكشف عن وجوه القراءات السبع» في جزئين، يذكر علل اختلاف القراءات وحججها، وهو أثر لطيف.

وأبو عمرو الداني (ت ٤٤٤): «التيسير» في القراءات السبع و«المحكم» في النقط و«المقنع» في رسم مصاحف الأمصار.

وأبومحمد علي بن أحمدبن سعيدبن حزم الظاهري (ت ٤٥٦): «الناسخ والمنسوخ».

وشيخ الطائفة أبوجعفر محمدبن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠): في مقدمة تفسيره «التبيان» تكلّم في مزعومة التحريف فزيّفها، وعن النهي عن التفسير بالرأي، وعن حجّيّة ظواهر القرآن، وعن صنوف معاني القرآن، وعن ظهر القرآن وبطنه، وعن محكمه ومتشابهه، وعن أقسام النسخ الجائز والممتنع، وعن

أسامي القرآن واسامي سوره وآياته... وما الى ذلك.

وأبوالحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨): «أسباب النزول» و«فضائل القرآن».

«الرسالة الشافية» في الإعجاز لأبي بكر عبدالقاهر الجرجاني (توفي عام ٤٧١) سلك فيها مسلك التحدّي الكاشف عن عجزالعرب عن مقابلته.

وأبوالقاسم الحسين بن محمد الراغب الاصبهاني (ت ٥٠٢): «المفردات» في غريب القرآن. وهو أثر جد لطيف، وعبّر عنه بعض أساتذة الفنّ: أنّه معجزة من معاجز الفنّ القرآني.

«أحكام القرآن» لأبي بكر محمدبن عبدالله المعروف بابن العربي في أربع مجلدات (ت ٥٤٣).

وتاج القرّاء محمودبن حمزةبن نصر الكرماني (توفي بعد الخمسمائة): «اسرار التكرار في القرآن».

* وفي القرن السادس، كتب أمين الإسلام أبوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨) تفسيره الخالد «مجمع البيان» وجعل في مقدّمته فنوناً سبعة، بحثاً عن جوانب خطيرة من شؤون القرآن، على غرار مقدّمة التبيان، مع تنقيح وزيادة.

وأبوالفضل حبيش بن إبراهيم بن محمد التفلسي (ت ٥٥٨): «وجوه القرآن» بالفارسيّة.

وقطب الدين أبو الحسين سعيدبن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣) صنّف «فقه القرآن». قيل: هو أوّل من صنّف في تفسير آيات الأحكام من علمائنا الإماميّة. لكن سبقه الى ذلك محمدبن السائب الكلبي، وعبّادبن عباس الطالقاني، تقدّم ذكرهما.

وأبوالقاسم عبدالرحمان، المعروف بالسهيلي (ت ٥٨١) آلّف في مبهمات القرآن: «التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام».

ورشيد الدين أبوجعفر محمدبن عليّ بن شهرآشوب (ت ٥٨٨) تلميذ

القطب الراوندي صنّف رسالته الخالدة «متشابهات القرآن ومختلفه» في جزئين.

وأبو محمد القاسم بن فيرة الشاطبي إمام القرّاء (ت ٥٩٠): «حرزالأماني ووجه التهاني» القصيدة المشهورة في القراءات تعرف بالشاطبيّة.

وأبوالفرج عبدالرحمان بن علي، المعروف بابن الجوزي (ت٥٩٧) صنّف «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» و«المجتبى في علوم تتعلّق بالقرآن».

* **وفي القرن السابع،صنّف** أبوالبقاء عبدالله بن الحسين العكبري (ت٦١٦) «إملاء ما منّ به الرحمن» في وجوه الإعراب والقراءات.

وعلم الدين علي بن محمد السخاوي (ت٦٤٣): «جمال القرّاء وكمال الإقراء» في القراءات.

وأبوالقاسم تلميذ شرف الدين أبي الحسن علي بن المفضّل المقدسي (ت ح ٦٥٠) ألّف رسالة وجيزة تتضمّن ماورد في القرآن من لغات القبائل. وهو أثر لطيف. طبعت على هامش الجلالين. ولخّصها جلال الدين السيوطي في النوع السابع والثلاثين من كتابه «الإتقان».

وزعم طابع الرسالة أنّها لأبي**القاسم بن سلام**، ومن ثم اشتبه في موضعين، الأوّل: أنّ ابن سلام هو أبوعبيد القاسم بن سلام. والثاني: أنّ ابن سلام (توفي ٢٢٤).مع أنّ المؤلّف يذكر استجازته من علي بن المفضّل (المتوفى٦١١) فلايتقدّم عليه بأربعة قرون!

وابن أبي الأصبع، عبدالعظيم بن عبدالواحد (ت ٦٥٤): «بديع القرآن». أثر لطيف يشرح أنواع البديع الوارد في آيات القرآن.

وأبو محمد عبدالعزيز بن عبدالسلام ـ المشهور بالعزـ (ت ٦٦٠) كتب في مجاز القرآن.

وقدوة العارفين، رضي الدين، أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤) صنّف كتابه الجامع «سعدالسعود» في مختلف شؤون

القرآن وتأريخه وتفسير مشكله.

وأبوشامة شمس الدين عبدالرحمان بن إسماعيل (ت ٦٦٥): «المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز».

ومحمدبن أبي بكرالرازي (ت٦٦٦): «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، تحتوي على ١٢٠٠ سؤال وجواب في غرائب آي التنزيل.

* * *

هذا... وأمّا التأليف في علوم القرآن، بما تحويه هذه الكلمة من معنى شامل، فلم يحظ به سوى القرنين: الثامن والتاسع.

*في القرن الثامن، ألّف الإمام بدرالدين محمدبن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤) كتابه القيّم «البرهان في علوم القرآن». جعله على سبع وأربعين نوعاً، استوعب فيها فنون هذا العلم.

وفي هذا القرن ـ أيضاً ـ ألّف بدرالدين محمدبن إبراهيم، المعروف بابن جماعة (ت٧٣٣) كتابه «كشف المعاني عن متشابهات المثاني».

وكمال الدين عبدالرحمان بن محمد الحلّي، المعروف بابن العتائقي (ت ح ٧٧٠): «الناسخ والمنسوخ».

وأبو الفداء إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤): «فضائل القرآن».

*وفي القرن التاسع، صنّف جلال الدين البلقيني (ت ٨٢٤) كتابه «مواقع العلوم في مواقع النجوم» على ستة أمور، كلّ أمر يحتوي على أنواع تختلف عدداً. ومجموع الأنواع خمسون نوعاً.

وفي بدء الأمر أخذ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١) من هذا الكتاب أصلاً جامعاً لفنون هذا العلم، فنقّحه وهذّبه في كتاب أسماه «التحبير في علوم التفسير» في ٢٠٢ نوعاً. فرغ منه سنة ٨٧٢هـ.

ثم عثر على كتاب «البرهان» للإمام الزركشي فاستحسنه ووجده أحسن

ما صنّف في هذاالباب، فصوّب اهتمامه الى تنقيحه وتحريره، فألّف عليه كتابه الخالد الحافل بفنون هذا العلم «الإتقان» في ٨٠ نوعاً، فكان خاتمة المؤلّفات على هذا النمط البديع الجامع، ولم تسمح القرون المتأخّرة بسوى رسائل مختصرة تعالج طرفاً من شؤون القرآن.

وفي هذا القرن ـ أيضاً ـ قام الفاضل السيوري أبو عبدالله المقدادبن عبدالله الحليّ الأسديّ (ت ٨٢٦) بتأليف «كنزالعرفان في فقه القرآن».

وأبوالخير شمس الدين محمدبن محمد المعروف بابن الجزري (ت ٨٣٣): «النشر في القراءات العشر» و«غاية النهاية» في طبقات القرّاء و«فضائل القرآن».

«الناسخ والمنسوخ» لشهاب الدين أحمدبن عبدالله بن سعيد البحراني، المعروف بابن المتوّج (توفي عام ٨٣٦) كان من أعلام الإماميّة معاصراً للشهيد الأوّل تتلمذ عليه، وقد شرحه القارئ عبدالجليل الحسيني (٩٧٦) وقدّمه للأمير أحمد (حاكم جيلان)، وترجمه الى الفارسية الدكتور محمد جعفر الإسلامي المعاصر.

وأبوالفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢): «الإتقان في فضائل القرآن».

«معترك الاقران» في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي (٩١١) أوسع كتاب جامع لأطراف الكلام في الموضوع، وضعه على أُسلوب فني رتيب طبع في ثلاث مجلّدات كبار. وكتاب «اسرارالترتيب» وغيرهما.

* **وفي القرن العاشر، صنّف** القاضي زكريا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٦) كتابه «فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن».

وأبو عبدالله جمال الدين محمدبن أحمدبن سعيد المكيّ (ت ٩٣٠) «الإحسان في علوم القرآن».

ومحمدبن يحيى الحلبي التاذفي (ت ٩٦٣): «القول المذهّب» في بيان ما في

القرآن من الرومي المعرّب. والظاهر أنّه أخذه من «المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرب» تأليف جلال الدين السيوطي.

«أحكام القرآن» المسمّى بـ«زبدة البيان» للمولى أحمد بن محمد الشهير بالمقدّس الأردبيلي (ت٩٩٣) تأليف علمي وضع على أساس التحقيق والتدقيق.

* وفي القرن الحادي عشر، كتب المولى صدرالدين محمدبن إبراهيم الشيرازي (ت ١٠٥٠) رسالته الوجيزة في متشابهات القرآن، على ضوء فلسفة الإشراق.

والمولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١) جعل في مقدمة تفسيره «الصافي» ١٢ فنّاً، بحثاً عن جوانب خطيرة من شؤون القرآن.

«أحكام القرآن» المسمّى بـ «مسالك الافهام» للفاضل الجواد الكاظمي من أعلام القرن الحادي عشر.

والمولى محمدباقر المجلسي (ت ١١١١) خصّص من موسوعته الكبرى «بحارالأنوار» ـ وهي تربو على ١٠٠ مجلد ـ جزءين بالبحث عن شؤون القرآن الكريم. هما الجزء: ٩٢ والقسم الأوّل من الجزء: ٩٣ عالج فيهما القضايا القرآنية على ضوء مذهب أهل البيت (عليهم السلام) ونقد آراء مخالفة.

وضعه على ١٣٠ باباً. وتكلّم في الباب: ١٢٨ في صنوف آيات القرآن برواية النعماني عن أميرالمؤمنين (عليه السلام). وفي الباب: ١٢٩ عمّا ورد من موهم التناقض في القرآن بتفصيل، في محاورة وقعت بين بعض الزنادقة وبين الإمام أميرالمؤمنين ـ أيضاً ـ فأجاب عليها بإجابات شافية، يكون الإطلاع عليها ضرورياً.

والسيّد هاشم بن سليمان الحسيني البحراني (ت ١١٠٩) صدر تفسيره «البرهان» بالتكلم عن طرف من شؤون القرآن في ١٦ مقدّمة.

* وفي القرن الثاني عشر، صنّف ابن البنّاء أحمد بن محمد الدمياطي (ت ١١١٦): «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر».

والمولى أبوالحسن بن محمد طاهر بن عبدالحميد النباطي الفتوني

(ت١١٣٨): «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار». جعله على ثلاث مقدّمات، كلّ مقدمة مشتملة على مقالات تختلف عدداً، وتحت كلّ مقالة فصول بأعداد مختلفة أيضاً. ومجموع الفصول التي تكلّم فيها عن شؤون القرآن هي: ٢٥ فصلا. وفي المقالة الثانية من المقدّمة الثالثة أسهب في بيان تأويل كلمات جاءت في القرآن، رتّبها حسب حروف المعجم، يربو عددها الألف ومائتي كلمة ـ ١٢٠٠ ـ تكلّم عن تأويلهن واحدة واحدة. ووضع خاتمة كتابه على ثماني فوائد.

والشيخ مصطفى بن عبدالرحمان بن محمد الأزميري (ت١١٥٥): «بدائع البرهان في وصف حروف القرآن».

والحسن بن علي بن أحمد المنطاوي (ت ١١٧٠): «إتحاف فضلاء الأمّة» في القراءات السبع.

والشيخ عطيّة الأجهوري (ت١١٩٠): «إرشاد الرحمان» في أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وأُصول علم التجويد.

والوحيد البهباني المولى محمدباقر بن محمد أكمل، المعروف بالأُستاذ الأكبر (ت١٢٠٦) صنّف رسالته التحقيقيّة بشأن «حجّية ظواهر الكتاب».

* وفي القرن الثالث عشر، ألّف المولى محمدجعفر بن سيف الدين الاسترآبادي (ت١٢٦٣): «حلّ مشاكل القرآن».

وأُستاذ المتأخّرين المولى مرتضى بن محمد أمين الأنصاري التستري، (ت ١٢٨١): رسالة في حجّية ظواهر الكتاب.

والمولى محمدتقي الهروي الاصبهاني (ت ١٢٩٩): «خلاصة البيان في حلّ مشكلات القرآن».

والميرزا محمدبن سليمان التنكابني (ت١٣٠٢): «حجّية القراءات السبع» و«حجّية ظواهر الكتاب».

والمولى محمدتقي بن محمدحسين الكاشاني (ت ح ١٣١٦): «إيضاح المشتبهات» في تفسير مشكل القرآن.

* **وفي القرن الأخير** أقبل كثير من العلماء على تأليف كتب ورسائل حول تأريخ القرآن وعلومه وسائر شؤونه:

فألّف السيد أحمد حسين بن رحيم علي الأمروهي (ت ١٣٢٨): «مناهج العرفان في علوم القرآن».

والشيخ محمدعلي سلامة: «منهج الفرقان في علوم القرآن».

ومحمدغوث النائطي الأوكاتي: «نثرالمرجان في رسم القرآن» في سبع مجلدات.

والأستاذ محمد عبدالعظيم الزرقاني: «مناهل العرفان في علوم القرآن».

والمولى المحقّق حيدرقلي بن نورمحمد المعروف بسردار كابلي: «تحفة الأحباب» في بيان آي القرآن وسوره والمكي والمدني وغيرها.

والدكتور محمد عبدالله دراز: «النبأ العظيم» نظرات جديدة في القرآن.

والأُستاذ محمد الغزالي: «نظرات في القرآن».

والأُستاذ المحقّق الشيخ أبوعبدالله الزنجاني: «تأريخ القرآن».

والأُستاذ مصطفى صادق الرافعي: «إعجاز القرآن».

والشيخ خليل ياسين العاملي: «أضواء على متشابهات القرآن» يحتوي على ١٦٠٠ سؤال وجواب.

والدكتور صبحي الصالح: «مباحث في علوم القرآن».

والأُستاذ سيّد قطب: «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن».

والإمام المجاهد العلّامة الشيخ محمدجواد البلاغي، جعل في صدر تفسيره «آلاء الرحمان» مقدّمة منيفة تحتوي على أهمّ المباحث القرآنية، وأتى فيها بنظرات مستجدّة يكون الإطلاع عليها ضرورياً. وطبعت هذه المقدّمة ـ أيضاً ـ مع تفسيرالسيّد عبدالله شبّر المطبوع بمصر أخيراً.

والمرجع الديني الأكبر سماحة سيّدنا الأُستاذ الامام الخوئي ـ دام ظله ـ وضعَ في مقدمة تفسيره «البيان» فصولاً مسهبة حقّق فيها عن جوانب خطيرة من

شؤون القرآن، لها قيمتها واثرها الكبير في الأوساط العلميّة الراهنة، لايستغني الباحث عن مراجعتها.

وفضيلة العلامة الكبير السيّد محمدحسين الطباطبائي قدس سره: «قرآن در إسلام» بحث حافل بأهمّ المسائل القرآنية. فضلاً عن أبحاث زان بها تفسيره القيّم «الميزان».

هذا.. غيض من فيض... ولم أكن تقصّيت الكتب المصنّفة في علوم القرآن بصورة شاملة، سوى الغالبيّة المعروفة. الأمر الذي يكفي لإبداء مابذله علماؤنا الأعلام من جهود جبّارة حول تحقيق هذا الكتاب المقدّس الخالد، ومدى اهتمامهم البالغ بشأنه العزيز، شكرالله مساعيهم الجميلة، وأفاض عليهم سجال رحمته الواسعة، آمين.

* * *

ومنذ القرن الثاني عشر، واكب علماء الإفرنج علماء الإسلام في البحث والتنقيب عن شؤون القرآن بنواح شتى، فبدأوا يبحثون عن تأريخه، وعن الكتب المؤلّفة فيه، وعن تفسيره وما أشبه ذلك. وحوالي منتصف القرن الرابع عشر قامت ألمانيا بعمل عظيم محمود، ذلك أنّ المجمع العلمي في مونيخ بألمانيا عنى عناية خاصّة بالقرآن الكريم، وجمع كلّ مايمكن الحصول عليه من المصادر الخاصّة بالقرآن وعلومه. وأدلى هذا الأمر الى الأُستاذ «برجشتراسر» الذي كان قد بدأ بالعمل في حياته، فلمّا توفي سنة ١٣٥٢هـ: ١٩٣٣م عهد المجمع بالسير في هذا المشروع الى العالم «اوتو پرتيزل» أُستاذ اللغة العربية في مونيخ.

وهذا الأُستاذ كتب الى المجمع العلمي العربي في دمشق كتاباً يقول فيه:

«ولقد نوينا تسهيلا لمحبّي الاطلاع أن تدوّن كلّ آية من القرآن الكريم في لوحة خاصّة تحوي مختلف الرسم الذي وقفنا عليه في مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة التي عثرنا عليها في المتون المتنوّعة، ومتبوعة بالتفاسير العديدة التي ظهرت على مدى العصور وتوالي القرون».

وأخذ في نشر أهمّ الكتب المؤلّفة في القرآن، ككتاب «التيسير» في القراءات السبع، لأبي عمروالداني. وكتاب «المقنع» في رسم مصاحف الأمصار، مع كتاب «النقط» أيضاً له. وكتاب «مختصر الشواذ» لابن خالويه. وكتاب «المحتسب» لابن جنّي. وكتاب «غاية النهاية» في طبقات القرّاء، لشمس الدين ابن الجزري. وكتاب «معاني القرآن» للفرّاء. ورسالة في تأريخ علوم القرآن باللغة الألمانيّة. وهي تحتوي على أسماء المؤلفات في علوم القرآن الموجودة في الآفاق، ودورالكتب في العالم.

أدلى بهذه المعلومات فضيلة الأُستاذ الشيخ أبوعبدالله الزنجاني في كتابه الوجيز «تأريخ القرآن» وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

غير أنّ الشعلة التي كادت تتوهّج وتتوسّع، فاجأها الانطفاء المرير، على أثر اندلاع نيران الحرب العالميّة الثانية القاسية، على يد ألمانيا نفسها ـ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م ـ فباله من أسف.

* * *

وكنت منذ تعلّمت القراءة مشغوفاً بدراسة شؤون القرآن الكريم ومطالعة الكتب المصنّفة في مختلف جوانبه المتنوّعة. وكنت أجد من ذلك متعة ولذّة فائقة، حتى خضت عبابها وإذا هي ضرورة اسلامية ملحّة، لابدّ لكلّ مسلم أن يتعرّف إليها إن كان يريد التحقّق من أقوى دعامة لهذا الدين الحنيف. فقمت أدرس من شؤونه بدقّة وإمعان، وأسجّل من مطالعاتي لقطات إمّا نقداً فيما شككت في صحّته، أو إعجابا بما استطرفته من موضوع.

والآن ـ وبعد سنين ـ اجتمعت لديّ من تلكم المذكّرات عدد ضخم وفي حجم كبير، فجعلت أرتبها وأنظّمها، وإذا هي تصلح لتأليف كتاب يحتوي على أبواب وفصول في متنوّع البحوث القرآنية فأسميته «التمهيد»، لاني جعلت من هذه الأبحاث كمقدّمة لتفسيري «الوسيط». واسأله تعالى أن يوفقني لإتمامه، ولأن أكون قد خدمت جيلي المسلم بنظرات مستجدّة حول القرآن الكريم، ربّما

لايجدها الباحث في موسوعة سواه، أو يصعب عليه تناولها، وهي في مطاوي كتب ذوات أحجام كبيرة أو بعيدة عن متناول العموم.

والذي شدّ من عزمي على إنجاز هذا الأثر المتواضع، أنّي لمست فراغاً في مكتبة الطائفة في عهدنا الحاضر ـ وقد كانت غنيّة قبل اليوم ـ فيما يخصّ جانب البحوث القرآنية مستوفاة ما عدى بحوث قليلة عالجت طرفاً من شؤون القرآن الكريم، و بقيت الجوانب الأُخر ـ وهي كثيرة ـ قابعة في زاوية الخمول، لا يجدها الباحث إذا ما حاول التطلّع على رأي الطائفة في ضوء مذهب أهل البيت (عليهم السلام).

ومن ثم جعلت أتتبّع الآثار والآراء وانقدها نقداً موضوعيّاً، عرضاً على نصوص تأريخية ثابتة وروايات متواترة أو محفوفة بقرائن قطعيّة.

وسيبدو من خلال بحوثنا الآتية مدى انحرافات أودت بكثير من أئمّة النقد والتمحيص، مغبّة تسرّعهم في بتّ الأمر أو عصبيّتهم لمذهب أو طريقة خاصّة في تحقيق الآراء والآثار. فلم أفرغ من مسألة إلّا وكنت مطمئنا من صحّتها ومستوثقاً من أصالتها مبلغ جهدي الذي بذلت فيها حسب المستطاع.

كما ولم أغفل ـ مدّة بقائي في النجف الاشرف (١٣٧٩ـ ١٣٩١هـ)، و بعد المهاجرة الى مدينة قم المقدسة (نهاية عام ١٣٩١) ـ من إلقاء محاضرات جامعيّة على طلبة المعاهد الدينيّة العالية. وإفساح المجال لهم في المناقشة والتساؤل، تحقيقاً لغاية التثبّت الكامل فيما استجددته من نظريّات، وتحكيماً لمتفق الآراء المتنوّرة في كلّ مسألة عزمت البتّ فيها قطعياً.

و لنفس الغاية كنت ـ أحياناً ـ أقوم بنشر كرّاسات أستعرض عليها بحوثاً قرآنيّة كانت كنماذج عن مباحث مسهبة، أُلخّص فيها من آراء ومناقشات، لأستلفت أنظار زملائي الأفاضل، تجاوباً مع أفكارهم الثمينة، وتفاهماً معهم على صعيد النقد النزيه. ومن ثمّ أُقدّم لهم شكري الجزيل وتقديري المتواصل لهذا التجاوب الودّي الكريم جزاهم الله عن القرآن خير جزاء. و وفقنا جميعاً لمرضاته. إنه وليّ قدير وهو الموفّق.

قم المقدسة ـ محمد هادي معرفة

شهر رمضان المبارك ١٣٩٥هـ



الوحـي والقـرآن

ظاهرة الوحي

* الوحي في اللغة.
* الوحي في القرآن.
* الوحي الرسالي.
* وقفةٌ عند مسألة الوحي.
* جانب روحانية الإنسان.
* براهين تثبت وجود النفس.
* الوحي عند فلاسفة الغرب.
* أنحاء الوحي الرسالي.
* موقف النبي من الوحي.
* النبوّة مقرونة بدلائل نيّرة.
* قصة ورقة بن نوفل.
* الوحي لايحتمل التباساً.
* أسطورة الغرانيق.

ظاهرة الوحي

الوحي -في اللغة-: إعلام سريع خفيّ، سواء أكان بايماءة أو همسة أو كتابة في سرّ، وكلّ ما القيته الى غيرك في سرعة خاطفة حتى فهمه فهو وحي، قال الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيّرت — دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أنّي أُحبّها — فأثّر ذاك الوحي في وجناتها

وقال تعالى عن زكريا (عليه السلام): «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أن سَبِّحُوا بُكْرَة وَعَشِيّاً»[1] أي أشار إليهم على سبيل الرمز والإيماء.

قال الراغب: اصل الوحي، الإشارة السريعة، ولتضمّن السرعة قيل: أمر وحيّ أي سريع. وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرّد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة[2].

وقال ابن فارس: «و، ح، ي» أصل يدلّ على إلقاء علم في إخفاء أو غيره، والوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة. وكلّ ماألقيته الى غيرك حتى علمه فهو وحي، كيف كان[3].

---

(١) مريم: ١١.
(٢) المفردات: ص٥١٥.
(٣) معجم مقاييس اللغة: ج٦ ص٩٣.

ولعل هذا التعميم في مفهوم الوحي -عند ابن فارس- كان في اصل وضعه، غير أنّ الاستعمال جاء فيما كان خفياً:

قال أبوإسحاق: أصل الوحي في اللغة كلّها: إعلام في خفاء، ولذلك سمي الإلهام وحياً.

وقال ابن بري: وحى إليه وأُوحي: كلّمه بكلام يخفيه من غيره. ووحي وأوحى: أومأ. قال الشاعر:

فأوحت إلينا والأنامل رسلها(١).

أي أشارت بأناملها.

ولعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السرعة فيه، فالإيماءة السريعة تخفى -طبعاً- على غير المومى إليه. يقال: موت وحيّ أي سريع. ومنه «الوحا الوحا» أي البدار البدار، يقال ذلك عند الاستعجال ومنه الحديث: «وإن كانت خيراً فتوحه» أي إسرع إليه. قال ابن الأثير: والهاء للسكت(٢).

قال الزمخشري: أوحى إليه وأومى بمعنى. ووحيت إليه وأوحيت: إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره. وتوحّى أي أسرع، قال الأعشى:

مثل ريح المسك ذاك ريحها صبّها الساقي إذا قيل: توح(٣)

الوحي في القرآن:

واستعمله القرآن في اربعة معانٍ:

١- نفس المعنى اللغوي: الإيماءة الخفيّة. وقدمرّ في آية مريم.

٢- تركيز غريزيّ فطريّ، وهو تكوين طبيعيّ مجعول في جبلّة الاشياء، استعارة من إعلام قوليّ لإعلام ذاتي، بجامع الخفاء في كيفيّة الإلقاء والتلقّي، فبما أن الوحي إعلام سرّي، ناسب استعارته لكلّ شعور باطنيّ فطريّ. ومنه

---

(١) لسان العرب: ج١٥ ص٣٨٠.

(٢) النهاية: ج٥ ص١٦٣.

(٣) أساس البلاغة: ج٢ ص٤٩٦.

قوله تعالى «وأَوْحىٰ رَبُّكَ إلىَ النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلي مِن كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً»[١] فهي تنتهج وفق فطرتها، وتستوحي من باطن غريزتها، مذلّلة لما أُودع فيها من غريزة العمل المنتظم، ومن ثم فهي لاتحيد عن تلك السبيل.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «وَأَوْحىٰ في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها»[٢] أي قدّر. وقد استوحى العجاج هذا المعنى من القرآن في قوله:

أوحى لها القرار فاستقرّت ... وشدّها بالراسيات الثبت[٣]

٣ـ إلهام نفسيّ، وهو شعور في الباطن، يحسّ به الإنسان إحساساً يخفى عليه مصدره أحياناً، وأحياناً يلهم أنّه من الله. وقد يكون من غيره تعالى.

وهذا المعنى هوالمعروف عند الروحيّين بظاهرة التلباثي: «التخاطر من بعيد» وهو خطور باطني آني لايعرف مصدره. قالوا: إنّها فكرة تنتقل من ذهن إنسان الى آخر، والمسافة بينهما شاسعة. أوالقاء روحيّ، من قبل أرواح عالية أو سافلة[٤] وقيل: إنّها فكرة رحمانيّة توحيها الملائكة، تنفثها في روع إنسان يريدالله هدايته، أو وسوسة شيطانيّة تلقيها أبالسة الجنّ لغرض غوايته.

* * *

ومن الإلهام الرحماني قوله تعالى «وأَوْحَيْنا إلىٰ اُمِّ مُوسىٰ أنْ أَرْضِعيهِ فَإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخافي وَلاَ تَحْزَني إنَّا رَآدُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرسَلينَ».[٥]

---

(١) النحل: ٦٨.

(٢) فصلت: ١٢.

(٣) لسان العرب: ج١٥ ص٣٨٠.

(٤) راجع رؤوف عبيد، مفصل الإنسان روح لاجسد: ج١ ص٥٤٢.

(٥) القصص: ٧.

قال الأزهري: الوحي هنا: إلقاء الله في قلبها. قال: ومابعد هذا يدلّ ـ والله أعلم ـ على أنّه وحي من الله على جهة الإعلام، للضمان لها «إنّا رادّوه إليك». وقيل: إنّ معنى الوحي هنا: الإلهام. قال: وجائز أن يلقي الله في قلبها أنّه مردود إليها وإنّه يكون مرسلاً. ولكن الإعلام أبين في معنى الوحي هنا[١].

والشيخ المفيد ـ قُدّس سرّه ـ أخذ الوحي هنا بمعنى الإعلام الخفي، في كتابه «أوائل المقالات». لكنه في كتابه «تصحيح الاعتقاد» جعله بمعنى رؤيا أو كلام سمعته أمّ موسى في المنام. وقال ـ بصدد إيضاح معنى الوحي ـ: أصل الوحي هوالكلام الخفي، ثمّ قد يطلق على كلّ شيء قصد به إفهام المخاطب على السرّ له عن غيره[٢].

وأمّا التعبير بالوحي عن وسواس الشيطان وتسويله خواطر الشرّ والفساد، فجاء في قوله تعالى: «وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شياطين الإنسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً»[٣]. وقال: «وإنّ الشياطِينَ لَيُوحُونَ إلىٰ أَوْلِيائهِمْ لِيجادِلُوكُمْ»[٤] ويفسّره قوله: «مِنَ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّاسِ»[٥].

كما جاء التعبير عمّا يلقيه الله الى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم، بالوحي أيضاً في قوله تعالى: «إذْيُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكةِ أنّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الّذينَ آمَنُوا»[٦].

وأمّا التعبير بالوحي عمّا يلقيه الله الى نبيّ من أنبيائه بواسطة ملك أو بغير واسطة لأجل تبليغ رسالة الله، فهو معنى رابع استعمله القرآن وهو موضوع بحثنا

---

(١) لسان العرب: ج ١٥ ص ٣٨٠.

(٢) راجع أوائل المقالات: ص ٣٩، وتصحيح الاعتقاد: ص ٥٦.

(٣) الانعام: ١١٢.

(٤) الانعام: ١٢١.

(٥) الناس: ٤-٦.

(٦) الانفال: ١٢.

في الفصل التالي.

٤ـ الوحي الرسالي:

الوحي الرسالي، معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً، معبراً عن القرآن أيضاً بأنّه وحي أُلقي على النبيّ (صلى الله عليه وآله): «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أوحَيْنا إليكَ هَذا الْقرآن»[١]. «وكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قرآناً عَربيّاً لِتُنذِرَامّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا»[٢]. «اتْلُ مَا أُوحِيَ إليْكَ من الكِتابِ»[٣].

وظاهرة الوحي بشأن رسالة الله، هي أولى سمات الأنبياء، امتازوا بها على سائر الزعماء والمصلحين أصحاب العبقريّات الملهَمين. ولم يكن النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله) بدعاً من الرسل في هذا الاختصاص النبويّ، ولاأوّل من خاطب الناس باسم الوحي السماويّ، ومن ثم فلاعجب في هذا الاصطفاء مادام ركب البشريّة منذ بداية سيرها لم تزل يرافقها رجال اصلاحيّون يهتفون بهذا النداء الروحيّ، ويدعون الى الله باسم الوحي وتبليغ رسالة الله.

«أكانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِر النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكافرونَ إنَّ هذَا لَساحرٌ مُبِينٌ»[٤].

ودفعاً لهذا الاستنكار الغريب قال: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْراهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وهارونَ وسُلَيْمانَ وآتينا دَاوُدَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ

(١) يوسف: ٣.
(٢) الشورى: ٧.
(٣) العنكبوت: ٤٥.
(٤) يونس: ٢.

مُوسىٰ تكْلِيماً. رُسُلاً مُبشّرِينَ ومُنْذرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً. لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أنزلَ إلَيْكَ أنزلَهُ بِعْلِمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَىٰ باللهِ شَهِيداً. إنَّ الّذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلّوا ضلالاً بَعِيداً»[١].

والوحي الرسالي لايعدو مفهومه اللغويّ بكثير، بعد أن كان إعلاماً خفيّاً، وهو اتصال غيبيّ بين الله ورسوله، يتحقّق على أنحاء ثلاثة، كما جاءت في الآية الكريمة: «وَمَا كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّه إلّا وَحْياً أوْمِن وَرَاء حِجابٍ أوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بإذْنِهِ مَا يَشَاءُ إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»[٢].

فالصورة الأُولىٰ: القاء في القلب ونفث في الروع. والثانية: تكليم من وراء حجاب، بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)[٣] ولايرى شخص المتكلّم. والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلّغه الى النبيّ، إمّا عيانا يراه، أولايراه ولكن يستمع الى رسالته.

إذن فالفارق بين الوحي الرسالي وسائر الإيحاءات المعروفة، هو جانب مصدره الغيبي اتصالاً بماوراء المادة. فهو إيحاء من عالم فوق، الأمر الذي دعى بأولئك الذين لايروقهم الاعتراف بماسوى هذا الإحساس المادي، أن يجعلوا من الوحي الرسالي سبيله الى الإنكار، أو تأويله الى وجدان باطنيّ ينتشي من عبقريّة واجده وسنبحث عن ذلك في فصل قادم.

(ملحوظة) بما أنّ الوحي ظاهرة روحيّة، فإنه بأيّ أقسامه إنّما كان مهبطه قلبه الشريف (شخصيّته الباطنة: الروح) سواءٌ أكان وحياً مباشرياً من الله أم بواسطة جبرائيل. قال تعالى: «فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ»[٤]. «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ

---

(١) النساء: ١٦٣-١٦٧. (٢) الشورىٰ: ٥١.

(٣) لكن لابهذه الأذن المادية وإلا لسمعه الآخرون ايضاً، بل بذلك السمع الذي يخص باطنه، قال تعالى: «فإنّهُ نزّلَهُ عَلىٰ قَلْبِكَ».

(٤) البقرة: ٩٧.

الأَمِين عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرِينَ»[١] والقلب هو لبّ الشيء وحقيقته الأصيلة...

قال سيّدنا الطباطبائي: «وهذا إشارة الى كيفيّة تلقّيه (صلى الله عليه وآله) القرآن النازل عليه، وأنّ الذي كان يتلقاه من الروح هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة التي هي أدوات لإدراكات جزئيّة خارجيّة.. فكان (صلى الله عليه وآله) يرى شخص الملك ويسمع صوت الوحي، لكن لا بهذه السمع والبصر الماديّتين، وإلاّ لكان أمراً مشتركاً بينه وبين غيره، ولم يكن يسمع أو يبصر هو دون غيره. فكان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه ولا يشعر الآخرون الحاضرون...»[٢].

اللّهم سوى ماورد بشأن مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام)، كان يرى مايراه النبيّ ويسمع مايسمعه إلاّ أنّه ليس بنبيّ كما قال له الرسول (صلى الله عليه وآله) [٣]

وسيأتي تفصيل أنحاء الوحي الرسالي وما كان يعرضه (صلى الله عليه وآله) عند نزول الوحي.

---

(١) الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

(٢) تفسير الميزان: ج ١٥ ص٣٤٦. برحاء الوحي: شدة ألمه والاحساس بكربه.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ١٩٢ ص٣٠١ صبحي الصالح

وقفة عند مسألة الوحي

وبعد.. فإنّ الوحي ـ الوحي الرسالي ـ في واقعه: إتصال روحي بماوراء المادة، يحصل للأنبياء بداعي الرسالة، فيحملون رسالة الله الى الناس في وعي وأمانة وإخلاص.

أمّا وكيف يحصل هذا الاتصال الروحي، وماهي مقوماته وماهي عناصره الأوّليّة، فهذا أمر خفي علينا، نحن العائشين على الأرض، ولا نملك سوى أحاسيس مادية ومعايير ماديّة، لا تمكننا فهم حقائق هي فوق المادة وماوراء المادّة.

وهذا الخفاء من جهة قصورنا الذاتي، دعى ببعض المتشاكسين إنكار النبوّات من رأس، متذرّعين بحجة تباعد مابين العالمين، العالم العلوي والعالم السفلي، ذاك ناصع بيضاء لطيف، وهذا منكدر ظلماء كثيف، وإذلا رابط بين نور وظلمة، ولا صلة بين لطيف وكثيف، فلا علقة تربط أحدّالعالمين بالآخر. لكن إذا ما عرفنا من هذا الإنسان وجوداً برزخياً ذا جانبين، هو من أحدهما جسمانيّ كثيف، وفيه خصائص المادّة السفلى. ومن جانبه الآخر روحانيّ لطيف، وهو ملكوتيّ رفيع، لم يكن موقع لهذه الشبهة رأساً.

الإنسان وراء شخصيّته هذه الظاهرة، شخصية أُخرى باطنة، هي التي تؤهله ـ أحياناً ـ للارتباط مع عالم روحاني أعلى، إذ كان مبدؤه منه وإليه منتهاه: «إنا لله وإنا إليه راجعون»[1] هذا هو واقع الإنسان الحقيقي، ذو التركيب المزدوج

(١) البقرة: ١٥٦.

من روح وجسم، ومن ثم فهو برزخ بين عالمي المادّة وماوراء المادّة، فمن جهة هو مرتبط بالسماء ومن أُخرى مستوثق بالأرض. قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ.ثمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عظاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً» الى هنا تكتمل خلقة الإنسان الماديّة، ثم يقول: «ثُمَّ أنشأنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالِقِينَ»[1]. وهذا الخلق الآخر هو وجود الإنسان الروحي، وهو وجوده الأصيل. الذي أشارت إليه آية أُخرى: «وَبَدأَ خَلْقَ الإنْسانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سلالةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ»[2]. قال الإمام الصادق (عليه السلام): «إنَّ الله خلق خلقا وخلق روحاً. ثم أمر ملكاً فنفخ فيه...»[3]. فهذا هو الإنسان، مخلوق متركّب من جسم هو ماذي، وروح هو لا ماذيّ، فبوجوده الماذيّ خلق، وبوجوده اللا ماذيّ خلق آخر. وبوجوده هذا الآخر يستأهل للاتصال بالملأ الأعلى، لا بوجوده ذاك المادي الكثيف.

* * *

نعم جاءت فكرة إنكار الوحي، نتيجة للنظرة الماديّة البحتة الى هذا الإنسان، وهي نظرة قاصرة بشأن الإنسان، سادت أُروبا في عصر نشوء الفكرة الماديّة عن الحياة، والتي جعلت تتقدّم وتتوسّع كلّما تقدّمت العلوم الصناعيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأخذت المقاييس المعنويّة في الحياة تتدهور تراجعاً الى الوراء. وكادت الموجة تطبق العالم أجمع، لولا أن انتهضت الفكرة الروحية في أمريكا ومنها سرت إلى أروبا كلّها فجعلت مسألة الوحي تحيى من جديد.

قال الأُستاذ وجدي: كان الغربيّون الى القرن السادس عشر كجميع

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٤. (٢) السجدة: ٧-٩. (٣) بحارالأنوار: ج ٦١ ص ٣٢ ح ٥.

الأُمـم المتديّنة يقـولـون بالوحي، وكانت كـتبهم مشحونة بأخبـار الأنبياء، فلمّا جـاء العلـم الجديد بشـكوكه وماديّـاته، ذهبـت الفلسفـة الغربـيّة الى أنّ مسألة الوحي، هي من بقايـا الخرافات القديمة، وتغـالت حتى أنكرت الخالق والروح معاً، وعلّلت ماورد عـن الوحي في الكتب القـديمة بأنّه إمّا اختلاق مـن المتنبأة أنفسهـم لجذب الـناس إليهم وتسخيـرهم لمشيئتهم، وإمّـا هذيان مرضي يـعتري بعض العصـبيّين، فـيخيّل إليهم أنّـهم يرون أشباحـاً، تكلّمهـم وهم لايرون في الواقع شيئاً.

راج هذا التعليل في العالم الغـربي، حتى صار مذهب العـلم الرسمي. فلمّا ظهرت آية الروح في أمريكـا سنة ١٨٤٦م وسرت منها الى أُروبا كلّها، وأثبت الناس بـدليـل محسوس وجود عالم روحـانـيّ آهل بالعـقـول الكبيـرة والأفـكار الثاقبـة، تغيّـر وجه النظر في المسـائل الروحـانيّة، **وحييت مسألة الوحي** بعد أن كانت في عداد الأضـالـيل القديمة. وأعـاد العلماء البحـث فيها على قاعدة العـلم التجريبي المقرّر، لاعلى اسلوب التقليد الديني، ولا من طريق الضرب في مهـامّ الخيالات، فتأدّوا الى نتائج، وإن كانت غير ماقرّره علماء الدين الإسلامي، إلّا أنّهـا خطـوة كبيـرة في سـبيل إثبـات أمر عظيم كـان قـد أُحيل الى عـالم الأُمور الخرافيّة[١].

جانب روحانية الإنسان:

قلنا: إنّ موجةً إلحاديّة لم تطل غير قرنين، كادت تطبق العالم المتمدّن، لولا أن قام في وجـهـهـا واقع الأمر، الـذي تجلّـى أخيـراً على **محيي العلم**، فـانقـاد له العلماء المحقّـقون أجمع، ومـن ثم اندحـرت تلـك الفكـرة الإلحاديّـة، وتراجـعـت القهقرى تراجعاً مع الأبد.

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين: ج ١٠ ص ٧١٣.

غير أنّنا نجد أنفسنا في ضرورة النظر الى **أدلّة** أقامها فلاسفة قدماء ومحدّثون، بشأن إثبات النفس، أي وجود الإنسان الباطن، ليكون هذا الإنسان مزدوج الشخصيّة: روحاً وجسداً، وليكون هذا الأخير آلة لاارادية، يسيّرها وجود الإنسان الباطني، الذي هو وجود الإنسان الحقيقي الأصيل. وهذه النظرة المزدوجة الى الإنسان كانت ولا تزال هي الفكرة السائدة عن الحياة، في الأوساط المتديّنة في العالم القديم، وتواصلت في سيرها حتى حييت معالمها من جديد، وكانت الأديان السماويّة كلّها تؤيّدها أيضاً وتجعلها الأساس لجميع تعاليمها وبرامجها في التشريع والعبادات.

وإليك بعض البراهين **الفلسفيّة** اوّلا ممّا أقامها فلاسفة إسلاميّون. وهي كثيرة ومتنوّعة، اخترنا لك مايلي، ثم نعقّبها بأدلّة حديثة جاء بها العلم التجريبي الحديث.

براهين فلسفية لاثبات النفس:

جاءت الفلسفة العقليّة بأدلّة ضافية، تثبت وجود النفس بصورة واضحة، تكلّم عنها الشيخ أبوعلي ابن سينا في كتابيه «الشفاء» و«الإشارات». ثم تكلّم عنها غيره من فلاسفة إسلاميّين، كابن رشد، ونصيرالدين، والرازي، والنيسابوري، وابن حزم، وصدر المتألّهين، والحكيم السبزواري، وأخيراً سيّدنا الطباطبائي. وغيرهم كثيرون. وإليك منها:

١ ـ الإنسان في كينونة ذاته:

لهذا الإنسان وجود باطن، يدعى بالنفس، هوالذي يشكّل كينونته الذاتية الثابتة، ويكون وجوده الأصيل الحقيقي، **والذي لايتغيّر** مهما تغيّر هذا **الجسد** الظاهر. وهذا مايجده كلّ إنسان من ذاته أنّه **شيء** وراء **هذا** الجسد. وتوضيحاً لهذا الجانب من وجود الإنسان الحقيقيّ نستوضح مايلي:

* إنّنا نجد في كياننا الذاتي شيئاً نعبّرعنه: بـ«أنا»، لا يمكننا التعبير عنه بغير هذا اللفظ، كما لا نستطيع التعبير بهذا اللفظ عن أي شيء سواه في وجودنا.

حينما نقول: «أنا» نقصد من أنفسنا وجوداً باطناً هو الذي يشكّل كينونتنا الذاتيّة، لا شيء آخر سواه، فلا نعبّر عن أي جارحة من جوارحنا أو أي عضو من أعضائنا الجسدية، بـ «أنا» سواء أكانت أعضاء داخليّة كالقلب والكبد والمخ والمعدة وأمثالها، أو كانت أعضاء خارجيّة كالرأس واليد والرجل والبطن وأمثالها كلّ ذلك لا يصحّ التعبير عنه بـ «أنا» بل ولا عن الجسم كلّه.

نعم عندما نريد النفس والذات ـ وهو وجود باطن حقيقيّ أصيل ـ نقول: أنا.

فالإنسان في كينونة ذاته وجود آخر غير وجوده الجسدي الظاهر.

* الإنسان يسند جميع ما في وجوده الجسدي ـ سواءً كانت خارجيّة أم داخليّة ـ الى نفسه، فيقول: رأسي، يدي، رجلي، قلبي، مخّي، بدني، وهذا «المضاف إليه» في جميع ذلك، شيء وراء تلك «المضافات» كلّها. الأمر الذي يدلّ على تباين ما بين الجسد وذلك الوجود الحقيقي الأصيل المنسوب إليه تلكم الأشياء.

وأمّا إضافة النفس أو الروح الى الذات: «نفسي». «روحي» فهي من إضافة الشيء الى نفسه كما في «ذاتي» بشهادة الوجدان بعدم فهم تغاير ما بين المضاف والمضاف إليه في ذلك، على عكسها في إضافة أعضاء الجسد الى النفس.

* الإنسان ينسب جميع أفعاله وتصرّفاته وهكذا جميع حالاته وصفاته الى نفسه، يقول: تكلّمت، تعلّمت، أعطيت، أخذت، سافرت، ذهبت، بعت اشتريت...

لا يريد بذلك إسنادها الى شيء من جوارحه، لا يريد أنّ لسانه هو الذي تكلّم. أو قلبه هو الذي تعلّم. أو يده هي التي أعطت أو أخذت. أو رجله هي

التي مشت أو ذهبت... وإنّما يريد أنه بذاته فعل هذه الأمور، وكانت جوارحه آلات توصّل بها الى مآربه وحاجاته.

فكلّ أحد يجد من نفسه وجوداً ـ وراء هذه الأعضاء الجسديّة ـ هوالذي يفعل ويتصرّف وينسب إليه جميع حالاته وتقلّباته.

* **إنّا نوجّه الخطاب أو التكليف**، وكلّ مايستتبعه من مدح أو ذمّ أو تحسين أو تقبيح، وكذا كلّ أمر أو نهي أو بعث أو زجر، الى الإنسان، لانريد به جسده **ولا شيئاً من أعضائه وجوارحه**. وإنّما نريد بذلك ذاته ونفسه، وهوالمقصود بقولنا: «أنت» لاشيء آخر.

ونتساءل: من المخاطب بقولنا: أنت؟. ومن المأمور أوالمنهي عندما نأمر أو نزجر؟، ومن الموجّه إليه المدح أو القدح؟

لاشك أنّه وجود الإنسان الحقيقيّ الثابت وهو ذاته ونفسه، ليس إلّا.

* **إنّ في وجود هذا الإنسان** شيئاً لايغفل عنه أبداً. وما عداه فإنّه قد يغفل عنه أحياناً. الإنسان قد يغفل عن جسده وعن كلّ مايتعلّق بجسده من أعضاء وجوارح داخليّة وخارجيّة، لكنّه لايستطيع الغفلة عن ذاته هو. فذاته متمثّلة لديه في جميع حالاته وتقلّباته. فوجود الإنسان الحقيقيّ هو ذاته ـ الذي لا يغفل عنه أبداً ـ لا جسده ولا أعضاؤه ـ ممّا يغفل عنه أحياناً ـ لأنّ الذات ـ وهو حقيقة الشيء ـ **هو الذي لايغفل عنه** وأمّا الذي يغفل عنه فيبدو أنّه ليس من الذات الأصيل[1].

الأمر الذي يدلّ على أن وجود الإنسان الحقيقيّ شيء وراء الجسد، وهو ذاته ونفسه، لاشيء في وجود الإنسان يمكن التعبير عنه بالذات أو النفس سوى الروح، فهو وجود الإنسان الحقيقي الأصيل.

---

(١) ومن هنا كان قولهم المعروف: «غير المغفول عنه غير المغفول عنه». لتكون الغير الأُولى أداة معدولة، لأنّها صارت جزء الموضوع. والغير الثانية أداة سلب محصّلة، لأنّها لسلب النسبة حينئذٍ. أي الذي لايغفل عنه أبداً يختلف عن الذي يغفل عنه أحياناً.

٢ـ الإنسان في صفاته وغرائزه:

الإنسان يملك صفات وغرائز هي ثابتة له أو تبقى له طول الحياة، كما أنّ له صفات وحالات تتغيّر حسب تغيّر الأوضاع والأحوال. وأنّ صفاته الثابتة الغريزيّة صفات قائمة بنفسه ومن ثم فهي باقية مدى الحياة. وأمّا صفاته المتبدّلة ـ وتسمّى بعوارض ـ فهي قائمة بجسمه، ومن ثم فهي متغيّرة، الأمرالذي يدلّ على جانبين من وجود هذا الإنسان، وتوضيحاً لهذا الفرق بين نوعين من صفاته نشرح النقاط التالية:

* لاشك أنّ هذا الجسد، بما فيه من أجهزة وغدد وتلافيف وأعصاب وعروق، وحتى العظام والغضاريف، في تغيّر وتبدّل دائب ـ ظاهرة الإحراق والتعويض ـ وقد قيل: إنَّ جسم الإنسان يتبدّل كليّاً في كلّ سبع سنوات.

وهذا التغيّر المستمرّ في جسم الإنسان يستدْعي ـ طبعاً ـ تبدّلا في صفات وحالات قائمة بهذا الجسم. أمثال الصحة والمرض والسمن والهزال والقوّة والضعف والطفولة والشباب والكهولة والهرم.

لكن الإنسان يملك الى جانب هذه الصفات والأحوال المتغيّرة. صفات وغرائز ثابتة، لايعرضها أيّ تغيّر أو تبدّل رغم تبدّل الجسم وتغيّره، وهي صفات الحبّ والبغض والرغبة والرهبة، وملكات الكرم والبخل، والشجاعة والجبن،والسماحة والحسد، وماشاكلها من صفات ذاتيّة لا ترتبط مع الجسم أيّ ارتباط.

إذن فما هوالمحلّ القائم به هذه الصفات الراسخة؟

لاشيء يصلح محلّا لها سوى النفس «الروح»!

وهنا اعتراض معروف نتعرّض له في الفصل القادم[1].

---

(١) في ذيل الدليل الثاني من الأدلة الحديثة الآتية.

* الإنسان لايزال ينمو وتستحكم قواه الجسديّة الى حدّ معيّن، ثم يقف في مستوىً واحدٍ، ومن بعده يأخذ في الهبوط والانتكاس تدريجيّاً، فهو الى العقد الثالث من عمره ـ تقريباً ـ آخذ في النموّ الجسدي، والى العقد الخامس هو على مستوىً واحدٍ وبعده يأخذ في ضعف تدريجي. حتى إذا طعن في السن يتسرّع هبوطه ضعفاً فوق ضعف.

«اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ»[1].

هذه طبيعة الإنسان الجسديّة. وأمّا حياته العقليّة فلاتتساوق مع ظاهرة الجسم في سرعة التبدّل والتغيّر، فهو لايزال ينمو في قواه العقليّة وتزداد حيويّة ونشاطاً عبر العقود الخمسة من عمره، فبينما الجسم آخذ في الهبوط التدريجي منذ العقد الرابع، وإذا بالجانب العقلي من الإنسان بعد، مستمر في طريقه الى الكمال، الأمر الذي يدلنا على أنّ في وجود الإنسان جانبين، هو من أحدهما آخذ في الهبوط ومن الآخر آخذ في الصعود، ذاك سائر في الاكتمال، وهذا راجع في طريقه الى الانتكاس.

* قد يحصل نقص في عضو أو أعضاء من جسد الإنسان، فيصبح الجسم ناقصاً لامحالة، لكن هذا النقص الجسدي لايؤثّر نقصاً في ذات الإنسان، فهو هو بعد، على كماله الإنساني الأوّل، ليس الإنسان الذي فقد رجله أو يده أو عضواً آخر من جسده خارجيّاً كان أم داخليّاً، إنساناً ناقصاً في إنسانيّته، وإن كان ناقصاً في هيكله الجسدي، ومن هنا نعرف أنّ في وجود الإنسان شيئين: روحاً وجسداً، والنقص في أحدهما لايؤثّر نقصاً في الآخر.

وأمّا القولة المشهورة: العقل السليم في البدن السليم، فتعني: أنّ الآلة كلّما كانت أسلم كان العمل بها أتقن، نظراً لأنّ الروح يستخدم في فعالياته

---

(١) الروم: ٥٤.

الحاضرة، آلات البدن مادام قيد هذا الجسد، فكلّما كان البدن أكمل وأنشط كان العمل به ايسر وأتمّ.

٣ـ الإنسان وظاهرة الإدراك :

الإنسان في داخل وجوده ذوطاقة جبّارة، تختلف تماماً عن قواه الجسديّة المحدودة. إنّه في جانب عقليّته يذهب الى أبعاد شاسعة لانهاية لها، ويتحلّق في أجواء لاأمد لها، كما وينطلق الى ماوراء المادّة والى آفاق واسعة، انطلاقة لاوقفة لها عند حدّ.

إنّه يدرك ، وظاهرة الإدراك ذاته ظاهرة غير ماديّة، إذلايوجد فيها أيّ خاصيّة من خواصّ المادّة إطلاقاً، إنّها لا تقبل انقساماً الى أبعاد ثلا ثة. ولا تحمل ثقلاً ولاهي محدودة بالجهات.

إنّه يدرك ، وقسم من مدركاته تفوق حدود المادّة في جميع أبعادها ومميّزاتها بصورة مطلقة: إنّه يدرك معاني كليّة ليست تتحقّق خارجياً البتة. إنّه يفهم ملازمات عقليّة، والملازمة ذاتها لاوجود لها سوى طرفيها اللازم والملزوم. إنّه يعلم بأمور غائبة عن الحسّ. ويفكّر في شؤون ماوراء الإحساس.

وبكلمة جامعة: الإنسان يعرف، والمعرفة في كيان الإنسان ظاهرة غير ماديّة، في حين أنّ اللامادي لايقوم بماديّ، فأين محلّها من وجود الإنسان؟

ونتيجة على ذلك نعترف ـبالضرورة من بديهة العقلـ أنّ وراء وجود هذا الإنسان الجسدي الظاهر، وجوداً آخر لامادّي، هو «النفس» الذي تقوم به ظاهرة الإدراك ، ومجال النفس أوسع من المادّة بنسبة فائقة.

وتوضيحاً لهذا الجانب النفسي من ظاهرة الإدراك نقول:

قد تنعكس في ذهنية الإنسانـ عندما يواجه منظراً طبيعياًـ **صورة منطبقة مع الواقع تمام الانطباق في جميع أبعادها وسماتها**، من حركة ولون وزهور وأشجار، وجبال وأنهار، وأبعاد وأغوار. وتتجلّى هذه الصورة بنفس الأبعاد والسمات

كلّما تذكّرها، فيجدها حاضرة نفسه على مقاييسها الأُولى.. تلك، ظاهرة التذكّر، فياترى أين محلّها الذي تقوم به؟

وثانية نقول: الإنسان يجد صورة المنظر كلّما تذكّرها بنفس الأبعاد والمقاييس والحركات والألوان، كأنّه يشاهدها الآن، صورة طبق الواقع تماماً، إنّ هذه الصفحة التي تقع عليها هذه الصورة، وتسمّى بصفحة الذهن صفحة ذات أبعاد توازي نفس أبعاد المنظر، حسبما يجدها الإنسان حاضرة نفسه الآن. أين تقع هذه الصفحة المتّسعة، من وجود الإنسان؟

إنّ جزيئات المخ، تنطبع عليها صور المحسوسات، لكنهافي غاية الصغر. لا تتناسب والأبعاد التي يجدها الإنسان عند التذكّر.

إننّا لاننكر وجود جزيئات مخيّة تحتفظ في نفسها صور المشاهدات، لكن ذلك وحده ليس إدراكاً ولا تذكّراً لأنّ هذه الصّور موجودة، وهي مستمرّة في وجودها حتى مع الغفلة، وتتجلّى مع التذكّر وعند إلتفات النفس. وهو إدراك متجدّد للصورة بعد أن كان إدراكاً لذات الصورة.

لعلّك تقول، إنّ تلك الصّور المنطبعة على جزيئات المخّ قد تبدو للنفس وقد تخفى وبهذا تعلّل ظاهرتي «التذكّر» و«الغفلة»!

لكنّا نتساءل: إذا كانت هذه الصّور تبدو وتخفى، فتجاه أيّ شيء تبدو، وعن أيّ شيء تخفى؟ وهذه المقابلة بين أيّ شيء وشيء؟

وبعبارة أُخرى: إنّ هذه الصّور تتجلّى. لكنها لمن تتجلّى؟ ومن المواجه له؟ لاشك أنّ المواجهة امر قائم بجانبين، فإذا كانت الصّور المنطبعة تشكّل جانباً من هذه المواجهة، فأين الجانب الآخر المواجه له؟ نعم إنَّ الصّور المنطبعة على جزيئات المخّ تتجلّى أمام النفس، فالنفس شيء، وهذه الجزيئات شيء آخر فالنفس وهو وجود الإنسان الباطن هوالذي يشكّل الجانب الآخر من هذه المواجهة النفسيّة، والنفس هي التي تدرك تلكم الصّور متى تذكّرتها، وهو إدراك متجدّد وإن شئت فسمّه التذكّر.

إنَّ جزيئات المخّ أفلام تنعكس صورها على صفحة النفس الواسعة عند التذكّر، وعندما تتّجه النفس الى ماخزنتها في آلة الإدراك . وبذلك تتحقّق تلك المقابلة والمواجهة القائمة بطرفين.

فالصحيح: إنّ ظاهرة الإدراك والتذكّر، ظاهرة نفسيّة، تقوم بنفس الإنسان، وهو وجوده الباطن «الروح» ومن ثم لا توجد فيها خصائص المادّة إطلاقاً، فلا محدوديّة ولا تزاحم أبداً.

* * *

وأيضاً فإن الإدراك حكم للنفس: هذا ذاك أو ذاك هذا. وهذا يدلّنا على أمرين:

الأوّل: إنّ وراء هذه الصّور المنتقشة على صفحة الضمير، وجوداً آخر هوالذي يحكم عليها بأنّ هذا ذاك أو ذاك هذا، وليس سوى النفس التي تحكم بذلك .

الأمر الثاني: إنّ الحكم ذاته بما أنّه غير ماذي ـ لعدم وجود خواصّ المادّة فيه إطلاقاً ـ فإنّ الحاكم بذلك ـ وهوالنفس ـ أيضاً غير ماذي، بالمعنى المعروف للمادّة. وذلك اقتضاء للسنخيّة بين الأثر ـ وهوالحكم ـ والمؤثّر ـ وهوالحاكم

كما أنّ الإدراك يتعلّق بأُمور كليّة هي ثابتة في صقع النفس لا تتغيّر ولا تتجدّد، الأمر الذي يتنافى وظاهرة التغيّر والتجدّد المستمرين في جميع جزيئات الجسم بصورة عامّة.

وأخيراً فإنّ ظاهرة التذكّر ليست سوى إعادة لإدراك أمر سابق، كان موجوداً وهو مستمرّ، وليس إدراكاً لشيء جديد، وإن كان نفس الإدراك جديداً.

إنّنا عندما نتذكر شيئاً نجده عين ماوجدناه سابقاً، ومحفوظاً في خزانة الذهن، من غير ما تفاوت أو تغيير، فلوكان قائماً بغير النفس، أي بأجزاء هذا الجسم العنصري، لكان هذا المدرك ـ بالفتح ـ ثانياً غير المدرك أوّلاً، إذ لاشيء

في الجسم إلّا وهو آخذ في التبدّل والتغيّر لفترة محدودة، ولاسيّما إذا كان التذكّر بعد أمد طويل.

فإمّا أن نخطّىء ذاكرتنا ـ التي حكمت بالعينيّة ـ أو نسلّم بلا ماديّة ظاهرة الإدراك والتذكّر، الأمر الذي يجعل الأخير هو الصحيح، حيث كانت بداهة الوجدان هي المحكّمة في هذا الرفض أو القبول.

أدلّة حديثة على وجود الروح:

أمّا الفلسفة الحديثة فأخذت من التعمّق في علم الفزيولوجيا «علم وظائف الأعضاء»، براهين جليّة على صحّة وجود النفس وتمييزها عن الدماغ ووظيفته:

أوّلا: إنّ الأعصاب المنتشرة على سطح الجسم لا تؤثّر فيها العوامل الخارجيّة على حدّ سواء، بل يقتضي لها مؤثّرات معيّنة لاهتزاز الألياف الدقيقة المؤلّفة منها. مثلاً انّ التأثيرات النظريّة لا فعل لها في عصب السمع وبالعكس. فإذا اتّخذنا مثلاً حاسة البصر موضوعاً لبحثنا نرى أنّ الحركة التموّجيّة في الأثير، بتأثيرها في شبكة العين، تحدث اهتزازاً في العصب البصري، وهذا الاهتزاز يمتدّ الى الطبقة البصريّة المستقرّة في وسط الدماغ ومن هناك يندفع الى مركز الحواس، حيث ينتشر في القلالي الدقيقة، ويوقظ الخلايا العصبيّة المتعلّقة بالتأثيرات البصريّة. وعليه فكلّ نوع من التأثيرات الحسيّة تتفرّق ثم تتجمّع في مكان مخصوص من الدماغ وقد أثبت التشريح وجود أماكن معيّنة في الدماغ، ونواح محدودة يتجمّع فيها ويتكاثف ويتحوّل ما تنقله إليها الحواس من التأثيرات الخارجيّة. وقد قام علماء الفزيولوجيا ببعض امتحانات على الحيوانات الحيّة، أظهروا بها أنّهم بنزعهم عن هذه الحيوانات قطعاً أصليّة من المادّة المخيّة قد افقدوها قوّة ادراك التأثيرات النظريّة أو السمعيّة. بل أثبت العلّامة «شيف» بالامتحان، أنّ الحرارة ترتفع في جزء من أجزاء دماغ

الكلب، نسبة لنوع التأثيرات الواصلة إليه من إحدى الحواس.

وإذا سألنا المادّيين: كيف تتحوّل هذه الحركات الاهتزازيّة، بعد وصولها الى مراكزها النسبيّة من الدماغ، الى أفكار فهميّة؟ فيجيبونا: أنّ هذه الاهتزازات، حينما تبلغ القلالي الحسيّة من الدماغ يحدث فيها من ردّ الفعل مايحدث في قلالي النخاع الشوكي!

لكن غير خاف على أحد مايتمّ في حادث ردّ الفعل هذا، وهو: أنّ محركات الأعصاب الحسيّة تنقل الى القلالي الدقيقة من النخاع الشوكي تهيّجاً ينعكس الى القلالي الغليظة، فتهتزله الأعصاب المحرّكة المناسبة لها، وعلى هذه الصورة يرتدّ الاهتزاز الى نقطة مصدره تحت هيئة تأثير محرّك . هذا شرح ما يحدث في ضفدعة قطع رأسها، ومع هذا فتتشنّج رجلها لدى مسيسها بحامض مهيّج.

والأمر نفسه يحدث في مؤثرات القلالي الحسيّة من الدماغ، أي أنّ القلية القشريّة عندما يبلغها الاهتزاز الخارجي تنتصب لدرجة ما وتتنبّه حاسيّتها الذاتيّة، وتفرغ القوّة الكامنة فيها، ثمّ تمتدّ الحركة إلى ماجاورها من القلالي وتوقظ القوّة المضمورة فيها حتى تبلغ القلالي الغليظة،وهذه تنقلها الى المادّة الرماديّة ذات الأخاديد، من الدماغ، التي تقوّي الاهتزازات، وتدفعها الى الأعضاء تحت هيئة تأثير، أو بالأحرى: آمر محرّك .

إنّنا نسلّم مع ناكري النفس بكيفيّة مجرى الحسّ هذا، المعبّر عنه بالاهتزاز العصبي، وبلوغه الى الدماغ ثم ارتداده من هناك تحت هيئة آمر محرّك ، ولكن فات غرماءنا حادث خطير جرى مابين البلوغ والارتداد وهو «حادث الإدراك» أي دراية الشخصيّة الإنسانية بما حدث لها من الأمور الخارجيّة، لأنّ تلك الاهتزازات والتهيّجات العصبيّة ماهي إلاّ حركات ماديّة تولّد حركات أخرى، ولكنها لاتحدث إدراكاً ومانتيجتها سوى أنّ تنبّه القوّة العاقلة لإدراك مصدر هذا التنبيه، وعلّته وأثره. وبدون ذلك لايكون للاهتزاز أوالحركة الخارجيّة أدنى مفعول في قوّة الفهم.

إنَّ القلية العصبيــة المركّبة من كميّات متناسبة من الكوليسترين والماء والفسفور وحامض الأُوميك ... الخ ليست بذاتها قوّة مدركة. والحركة الاهتزازية هي بذاتها حركة ماديّة محضة، فكيف يولد اهتزاز هذه القلية العصبيّة وانتصابها إدراكاً؟

هذا ما عجز الماديون عن تبيانه، أمّا الفلاسفة الروحيّون فيعلموننا بوجود شخصيّة عاقلة فينا، تدعى «النفس» تنتبه بهذا الاهتزاز، الى ماطرأ من الحوادث الخارجيّة وعندما يتمّ انتباهها هذا يحدثُ الإدراك !

ويؤيّد ذلك بأجلى بيان، حادث «الذهول».

مثلاً عندما نكون مستغرقين داخل حجرتنا في عمل من الأعمال، فربّما نغفل عن سماع تكتكة الساعة، بل حتى عن طرق ناقوسها أيضاً، ومع هذا فإنّ اهتزازات الصوت أثّرت في عصب سمعنا وبلغت حتى الدماغ من دون أن ننتبه لها. وما ذاك إلّا لكون نفسنا مشتغلة بأفكار أُخرى لم تنتبه، ولا أثّرت فيها اهتزازات القلالي الدماغية فلم يحصل الإدراك السمعي.

وبالاختصار نجد أنّ المادّة هي بذاتها عديمة الاختيار، لا تولّد شيئاً من تلقاء نفسها، والمادّة الدماغيّة هي آلة لتبيان إحساسات النفس العاقلة، وأفكارها. فلا تعقل هي لما يصدر بواسطتها من التعبيرات الفكريّة كآلة الساعة مثلاً لا تدرك حركة الأوقات التي تشير إليها، كما لا تدرك قراطيس الكتاب الافكار المسطرة عليها. «ومن زعم أنّ الدماغ يدرك الفكر، فهو كمن يزعم أنّ الساعة تدرك حركة الوقت. أو القرطاس يدرك معاني الكتابة!».

* * *

ثانياً: قرّر علماء الفزيولوجيا ـ إجمالاً ـ أنّ كلّ حركة تصدر من الإنسان أو الحيوان، يصحبها احتراق جزء من المادّة العضليّة. وكلّ فعل من الإرادة أو الحسّ يتأتّى عنه فناء في الأعصاب. وكلّ عمل فكريّ ينتج عنه إتلاف في الدماغ.

وبكلمة جامعة: إنّه لايمكن لذرّة واحدة من المادّة أن تصلح مرّتين للحياة، فعندما يبدو من الحيوان أو الإنسان عمل عضليّ أو عقليّ، فالجزء من المادّة الحيّة التي صرفت لصدور هذا العمل تتلاشى تماماً. وإذاتكرّرالعمل فمادّة جديدة تصلح لصدوره ثانية وثالثة وهلمّ جراً. وهذا الإتلاف هو بمناسبة قوّة الظهورات الحيويّة، فحيثما اشتدّ ظهور الحياة ازداد تلف المادّة الحيّة.

نعم هذا التلف الدائم يصحبه تعويض مستمرّ من المادّة المستجدّة الداخلة في الدم بواسطة الهواء والمواد الغذائيّة.

وهذان العاملان ـ أي عامل الاتلاف وعامل التجديد ـ مرتبطان ببعضهما في الكائن الحي ارتباطاً لاينفصم وبالإجمال يمكن القول: إنّ الاتلاف شرط ضروريّ للتعويض. وهذا العمل الثاني ـ أي العمل التجديدي وهو عمل باطنيّ سريّ ـ لاظهور له في الخارج، في حين أنّ عوامل الاتلاف تبدو ظاهرة للعيان، فندعوها «ظواهر الحياة» وماهي إلّا بوادر الموت، لأنّ ظهورها لايتمّ إلّا بإتلاف جزء من انسجتنا العضويّة.

ينتج ممّا تقدّم: أنّ في وسط تنازع هذين العاملين، يتجدّد جسمنا مراراً عديدة في مدار الحياة. ويتمّ هذا التجديد على ما ارتأى الفزيولوجي «موليشوت» في كلّ ثلاثين يوماً. أمّا «فلورنس» فيزعم أنّ ذلك لايتمّ إلّا في سبع سنين. وقد قام هذا العلّامة بامتحانات على الأرانب أثبت فيها تجدّد عظامها ذرّة فذرّة في مدة محدودة.

وبعد فإنّ ناكري النفس يزعمون أنّ قوّة الذاكرة عبارة عن اهتزازات فسفوريّة تتخزّن في القلية العصبيّة من الدماغ بعد وصول التأثيرات الخارجيّة إليها!

فإن صحّ ذلك ـ وإذ تقرّر أنّ كلّ مافينا من العظام والأنسجة العضليّة والقلالي العصبيّة تتلاشى وتتجدّد في مدة معلومة لا تتجاوز السبع سنين ـ اقتضى لقوّة الذاكرة أن تتناقص فينا بالتدريج، الى أن تتلاشى في كلّ سبع

سنوات، وأن نضطرّ في كلّ سبع سنين الى تجديد كلّ ما تعلمناه سابقاً، والحال انّنا نشعر بأنّ الأمر ليس كذلك وأنّ تيار المادّة المتجدّدة فينا باتصال، لم تحدث أدنى تغيير في ذاكرتنا. وانّ اموراً حدثت لنا أيام الصبا تخطر على بالنا زمن الهرم.

وبالإجمال: كلّ مافينا يؤيّد ثبات شخصيتنا، وعدم تغيّرها، رغماً عن استبدال كلّ ذرّات كياننا المادّي.

وهذا دليل قاطع على وجود قوّة روحيّة فينا تدعى «النفس» يقيها جوهرها البسيط من التحوّلات والتقلّبات على المادّة الهيوليّة، وفيها ينطبع ذكر الحوادث الماضية والعلوم التي اكتسبناها بإجهاد العقل والفكر.

* * *

وقد يعترض البعض: بأنّ الخلايا المخيّة في تنقّلات ذرّاتها تدريجياً، لعلّها تنقل ماعليها من صور ونقوش ذاكريّة، الى ذرّات مستجدّة، كما تنتقل قسمات الوجه وألوان منطبعة على ظاهر الجسد، وحتى الخال، الى ذرّات جديدة من البشرة، ومن ثم يبقى شكل الجسد ولون الخال طول الحياة، وبذلك يعلّل ـأيضاًـ ظاهرة بقاء الذاكرة المنتقلة من ذرّات فانية الى ذرّات مستجدّة في المخّ.

لكن فات هذا المعترض: أنّ المنتقل من الصفات الباقية، هي الطبيعيّة الناتجة من داخل الذات، لا العارضة التي طرأت من أحوال المحيط الخارج. مثلاً: لون الخال إنّما يبقى، أي ينتقل من ذرّات فانية الى ذرّات مستجدّة، لأنّه طبيعيّ ذاتيّ، فلا بدّ أنّ نفس الذرّات التي كانت تشكّل ظاهرة الخال في حالة سابقة، أن تتبدّل وتتجدّد الى ذرّات أخرىٰ تشكّل نفس الظاهرة أيضاً. أمّا الصفات العارضة كاللون العارض من لفحة الشمس، فإنّها تخصّ ذرّات الجسم المواجهة للعوامل الأُولىٰ، فإذا فنيت تلك الذرّات المواجهة تدريجياً، فإن اللون العارض أيضاً يذهب تدريجياً، مالم تتجدّد تلك العوامل الأُولىٰ.

وعليه فإنّ التي تودعها ذرّات مخيّة فانية الى ذرات مستجدّة، هي صفات

ذاتيّة كقابلية الانطباع والانتقاش والتلقّي، أمّا نفس الصّور والنقوش، فبما أنّها صفات طارئة عليها، وليست ذاتيّة ناتجة من داخل الطبيعة، فلابدّ أن تذهب تدريجياً مع فناء ذرّات سابقة. ولا تعود باقية إلّا مع إعادة العوامل الأُولىٰ، اللهمّ إلّا أن نقول بأنّ النفس هي التي تكرّر بقاء الصّور على الذرّات المستجدّة، وهذا يلتئم مع مطلوبنا في هذا البحث.

* * *

ثالثاً: منذ قرن ونيّف وجدت طريقة بحثيّة تؤيّد وجود النفس بنوع حسّي، وهي طريقة «المغنطيسيّة الحيوانيّة» وفيها يشاهد انفصال الروح عن الجسد وقيامها بأعمال مدهشة تنبي عن صحة وجودها الذاتي وصدور أعمال فكريّة بمعزل عن الحواس.

إنّ المغنطيسيّة الحيوانيّة ـ على ما حدّد منشئها الحديث «انطونيوس مزمر» ـ هي: عبارة عن سيال رقيق جداً ينبعث من جسم الفاعل في المغنطيسيّة الى الشخص المنفعل، بواسطة إشارات وحركات، بل نظرة حادقة تصدر من الأوّل الى الثاني.

إنّ هذه الظاهرة الروحيّة قديمة جداً، لكنّها كانت أو كادت تعدّ متأخراً من الخرافات البائدة، حتى جاء العلماء الروحيّون «فيسان» و«كرنيليوس» و «باراسلوس» ممّن عاشوا في القرن الرابع عشر والخامس عشر، فأحيوا هذا العلم الروحي من جديد ووضعوا له أُصولا وقواعد، نشرها فيما بعد «انطونيوس مزمر»[١]. ومن ثم شاع وذاع هذا العلم واعترف به العلماء جميعا، فهو اليوم من الحقائق الراهنة التي تنمو وتزداد صيتا وأعواناً. الأمر الذي لايبقى معه شكّ في أنّ الإنسان في كينونته الباطنة وجوداً آخر، ذا طاقة جبّارة، يفعل بها أفعالاً يعجز عنها هذا البدن المادّي، وتضعف عنها قواه الجسديّة.

---

(١) المذهب الروحاني: ص٤٣.

وقد جمع من هذه الظواهر، وأسماء علماء قاموا بتحقيقها وتمحيصها، الأستاذ رؤوف عبيد في كتابه «الإنسان روح لاجسد» ثمّ فصّلها في «مفصّل الإنسان روح لاجسد» فراجع.

* * *

وظاهرة روحيّة أخرى: «تحضير الأرواح» جاءت أيضاً ـ في العصر الأخير ـ لتؤيّد وجود الروح وراء هذا البدن العنصري الماديّ، ليكون الإنسان وراء وجوده الظاهر المحسوس، وجوداً آخر باطنا، ينفصل عنه أحياناً ـ في هذه الحياة ـ ونهائياً بعد الممات.

وقد ظهرت آية ذلك لأوّل مرّة في أمريكا سنة ١٨٤٦م، وسرت منها الى أُروبا كلّها، وأُثبتت بدليل علميّ تجريبيّ وجود عالم روحاني ـ وراء هذا العالم الماديّ ـ آهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة، ومن ثم تغيّر وجه النظر في المسائل الروحانيّة، وحييت مسألة بقاء الروح بعد مفارقة الجسد من جديد بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة. وأعاد العلماء البحث فيها على قواعد العلم التجريبيّ الحديث، ووصلوا الى نتائج هامّة، كانت خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أُحيل الى عالم الخرافات.

تألفت في لندرة من سنة ١٨٨٢م جمعيّة دعيت باسم «جمعية المباحث الروحيّة» تحت رئاسة الأُستاذ جويك المدرّس بجامعة كمبروج، وهو من أكبر العقول في إنجلترا. وعضويّة الأُستاذ السير اوليفر لودج الملقب بدارون علم الطبيعة، والسير وليم كروكس أكبر كيماويي الإنجليز، والأُستاذ فردريك ميرس، وهودسون، المدرّسين بجامعة كمبروج، والأُستاذ وليم جيمس المدرس بجامعة هارفارد بأمريكا، والأُستاذ هيزلوب المدرّس بجامعة كولومبيا، والعلماء الكبار، غازني وباريت، وبودمور، والعلّامة الكبير شارل ريشية المدرّس بجامعة الطب الباريزيّة والعضو بالمجمع العلميّ الفرنسيّ والرياضيّ الكبير كاميل فلامريون الفلكيّ الفرنسيّ المشهور، وعدد كبير غيرهم من كبار علماء الارض.

وكان الغرض من هذه الجمعيّة: البت في المسألة الروحيّة وتحقيق حوادثها بأُسلوب النقد الصارم، والحكم بقبولها نهائياً في العلم إن كانت حقيقة. أو تقرير إبعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأُمور الوهميّة.

فمضى على هذه الجمعيّة حوالي نصف قرن، حققت في خلالها أُلوفاً من الحوادث الروحيّة، وعملت من التجارب في النفس وقواها، مالايكاد يدرك، لولا أنّه مدّون في محاضر تلك الجمعيّة في نحو خمسين مجلّداً ضخماً. فكان من ثمرات جهادها إثبات شخصيّة ثانية للإنسان، أي أنّنا أحياء مدركون في حياتنا الحاضرة، لابكلّ قوى الروح التي فينا، بل بجزء من تلك القوى سمحت لنا بها حواسّنا الخمس القاصرة. ولكن لنافوق ماتعطيه لنا حواسّنا هذه حياة أرقى من هذه الحياة، لا تظهر بشيئ من جلالها إلّا إذا تعطّلت فينا هذه الشخصية العاديّة بالنوم العادي أو النوم الصناعي المغناطيسي أو بالموت.

وقد سجّل الأُستاذ «فريد وجدي» شهادات ضافية من علماء كبار بهذا الشأن، في دائرة معارفه[1]، والأُستاذ «أمين الهلالي» في كتابه: المذهب الروحاني[2]، والدكتور «رؤوف عبيد» في كتابه: الإنسان روح لاجسد[3]، والأُستاذ «جيمس آرثر. فندلاي» في كتابه: على حافة العالم الأثيري[4]، وغيرهم كثيرون، فراجع.

* * *

فذلكة البحث:

وخلاصة ماسبق من الأبحاث: انّ الإنسان يملك في وجوده جانبين، هو من

(١) إثبات الروح بالبراهين الحسيّة، مادة روح: ج٤ ص٣٦٤- ٤٠٠. الوحي وفلاسفة الغرب، مادّة وحي: ج١٠ ص٧١٢- ٧٢٠.

(٢) الباب الثاني، إثبات وجود النفس بالأدلّة الطبيعيّة: ص٣٦- ٤٤. والباب الثالث: إثبات خلود النفس بالحوادث الروحيّة: ص٦٢- ٦٤.

(٣) الفصل التاسع، بين العقل والمخ: ج١ ص٦٤٩- ٦٨١، مفصّل الإنسان وروح لاجسد.

(٤) الفصل الثالث، المادة والعقل: ص٤٧- ٥١ ترجمه أحمد فهمي الطبعة الثالثة.

أحدهما جسمانيّ، ومن الآخر روحانيّ، فلا غرو أن يتّصل- أحياناً- بعالم وراء المادّة، ويكون هذا الاتصال مرتبطا بجانبه الروحي الباطن. وهو اتّصال خفيّ، الأمر الذي يشكّل ظاهرة الوحي.

الوحي: ظاهرة روحيّة، قد توجد في آحاد من الناس، يمتازون بخصائص روحيّة تؤهلهم للاتصال بالملأ الاعلى، إمّا مكاشفة في باطن النفس أو قرعاً على مسامع، يحسّ به الموحى إليه إحساساً مفاجئاً يأتيه من خارج وجوده، وليس منبعثا من داخل الضمير، ومن ثم لايكون الوحي ظاهرة فكريّة تقوم بها نفوس العباقرة- كما يزعمه ناكرو الوحي- كلّا، بل إلقاء روحانيّ صادر من محلّ أرفع الى مهبط صالح أمين.

قال تعالى: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ»[1].

نعم شيء واحد لانستطيع إدراكه، وإن كنّا نعتبره واقعاً حقّاً، ونؤمن به إيماناً صادقا، وهو: كيف يقع هذا الاتصال الروحيّ؟ هذا شيء يخفى علينا إذا كنّا نحاول إدراكه بأحاسيسنا المادّيّة أو نريد التعبير عنه بمقاييسنا اللفظيّة الكلاميّة، إنّها الفاظ وضعت لمفاهيم لا تعدو الحسّ أولا تكاد. وكلّ ما باستطاعتنا إنّما هوالتعبير عنه على نحو التشبيه والاستعارة أو المجاز والكناية لاأكثر، فهو ممّا يدرك ولا يوصف، فالوحي ظاهرة روحيّة يدركها من يصلح لها. ولا يستطيع غيره أن يصفها وصفاً بالكنه، ماعدا التعبير عنها بالآثار والعوارض هذا فحسب.

الوحي عند فلاسفة الغرب:

أشرنا فيما سبق أنّ فلاسفة أُروبا بعد أن عادوا الى الاعتراف بوجود

---

(١) يونس: ٢.

شخصيّة باطنة للإنسان، تسمّى بالروح، وعلموا أنّها هي التي كوّنت جسمه في الرحم وهي التي تحرّك جميع عضلاته وأعضائه التي ليست تحت إرادته كالكبد والقلب والمعدة وغيرها، فهو إنسان بها لابهذه الشخصيّة العاديّة.. عادوا يعترفون أيضاً بالوحي، الوحي الذي يدّعيه الأنبياء ملء كتبهم النازلة المنسوبة الى السماء.

ولكن فسّروه تفسيراً يختلف عمّا قرّره علماء الدين الإسلامي- على ماسبق تعريفه بأنّه إلقاء من خارج الوجود إمّا قذفا في قلب أو قرعاً في سمع-.

قالوا: الوحي عبارة عن إلهامات روحيّة تنبعث من داخل الوجود، أي الروح الواعية هي التي تعطينا تلكم الإلهامات الطيبّة الفجائيّة في ظروف حرجة، وهي التي تنفث في روع الأنبياء مايعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر نفس تلك الروح المتقبّعة وراء جسمهم، متجسّدة خارجاً فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء، وماهي إلّا تجلّي شخصيّتهم الباطنة، فتعلّمهم مالم يكونوا يعلمونه من قبل، وتهديهم الى خير الطرق لهداية أنفسهم وترقية أُمتهم وليس بنزول ملك من السماء ليلقي عليهم كلاماً من عندالله.

هذا مايراه العلم الأُروبي التجريبي الحديث في مسألة الوحي.

ودليلهم على ذلك: أنّ الله أجلّ وأعلى من أن يقابله بشر أو يتصل به مخلوق، وأنّ الملائكة مهما قيل في روحانيّتهم وتجرّدهم عن المادّة فلا يعقل أنهم يقابلون الله أو يستمعون الى كلامه، لأنّ هذا كلّه يقتضي تحيّزاً في جانبه تعالى، ويستدعي عدم التنزيه المطلق اللائق بشأنه جلّ شأنه. ولأنّ الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلى من الروح الإنساني التي هي من روح الله نفسه، فمثلهم ومثلها سواء.

وبهذه النظريّة حاولوا حلّ ما عسىٰ أن يصادفوه في بعض الكتب السماويّة من أنواع المعارف المناقضة للعلم الصحيح طبيعيّاً وإلهيّاً. فهم لايقولون بأنّ تلك

الكتب قد حرّفت عن أصلها الصحيح النازل من عندالله، ولكنّهم يقولون بأنّ الشخصيّة الباطنة لكلّ رسول إنّما تؤتي صاحبها بالمعلومات على قدر درجة تجلّيها وعبقريّتها، وعلى قدر استعداده لقبول آثارها ومن ثم قد تختلط معارفها العالية بمعارف باطلة آتية من قبل شخصيّته العاديّة، فيقع في الوحي خلط كثير بين الغثّ والسمين، فترى بجانب الأُصول العالية التي لم يعرفها البشر الى ذلك الحين، اصولاً أُخرى عاميّةً اصطلح عليها الناس الى ذلك الزمان [١].

* * *

وبعد: فإذا ما أخضعتهم الحقيقة العلميّة، على طريقة تجريبيّة قاطعة، بأنّ وجود الإنسان الحقيقيّ هو شخصيّته الثانية القابعة وراء هذا الجسد، وأنّه يبقى خالداً بعد فناء الجسد، فما عساهم امتنعوا من الاعتراف بحقيقة الوحي كما هي عند المسلمين؟! لاشكّ أنّ ماوصلوا إليه خطوة كبيرة نحو الواقعيّة، لانزال نقدّرها تقديراً علمياً، لكنّها بلا موجب توقّفت أثناء المسير ودون أن تنتهي الى الشوط الأخير.

إنّ منارالعلم وضوء الحقيقة قد هدياهم الى الدرب اللائح، وكادوا يلمسون الحقيقة مكشوفة بعيان، فوجدوا وراء هذا العالم عالماً آخرمليئا بالعقول. ووجدوا من واقع الإنسان شخصيّة أُخرى وراء شخصيّته الظاهرة: فهاتان مقدّمتان أذعنوا لها، وقد أشرفتا بهم على الاستنتاج الصحيح وصاروا منه قاب قوسين أو أدنى، لكنهم بلاموجب توقّفوا، وأنكروا حقيقة كانوا على وشك لمسها.

فعلى ضوء هاتين المقدّمتين، لامبرّر لعدم فهم حقيقة اتّصال روحيّ خفيّ يتحقّق بين ملأ أعلى وجانب روحانيّة هذا الإنسان. فيتلقّى بروحه إفاضات تأتيه من ملكوت السماء وإشراقات نوريّة تشعّ على نفسه من عالم وراء هذا

---

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين: ج ١٠ ص٧١٥، فيما نقله عن العلاّمة «ميرس-Myers» من كتابه «الشخصيّة الإنسانيّة»: ص٧٧ فما بعد.

العالم المـاديّ. وليس اتصـالاً أو تقاربـاً مكـانياً لـكي يستلزم تحيّزاً، في جـانبه تـعالى. وأظنّـهـم قاسـوا مـن أُمور ذاك العـالم غيرالمـاديّ بمقـاييس تخصّ العالم الماديّ›مع العلم أنّ الألفاظ هي التي تكون قاصرة عن أداء الواقع، وأنّ التعبير بنزول الوحي أو الملك تعبير مجازيّ، وليس سوى إشراق وإفاضة قدسيّة ملكوتيّة يجدها النبيّ (عليه السلام) حاضرة نفسه، ملقاة عليه من خارج روحه الكريمة. وليست منبعثة من داخل كيانه هو.

هـذا هو حقيقة الـوحـي الذي نعترف به، مـن غير أن يقتضي تحيّزاً في ذاته تعالى.

أمّا التـعليل الـذي يعلّلون به ظاهـرة الوحي، فـهو في واقعه إنـكار للـوحي وتكـذيب مـلـتوٍ لـلانبيـاء بصورة عـامّة، كمـاهم فسّـروا معجـزة إبراء الأكـمه والأبرص بظاهرة الهبنو تـوزم (المغناطيسيّة الحـيوانيّة) فجعلـوا من المسيح (عليه السلام) إنساناً مشعوذاً ـ حاشاه ـ يستغلّ من عقول البسطاء مجالاً متسعاً لترويج دعوته، بأساليب خدّاعة ينسبها الى البارئ تعالى...!

ونحن نقدّس ساحة الأنبياء من أيّ مراوغة أو احتيال مسلكيّ، وحاشاهم من ذلك. وماهي إلّا واقعيّة بنوا عليها دعوتهم الإصلاحيّة العامّة، واقعيّة يـعـتـرف بها العلـم سـواء في مـراحله القديمـة أو الجـديـدة الحاضرة. إذن لامبرّر لتأويل ماجاء في كتب الأنبياء من ظاهرة الوحي، اتصالاً حقيقياً بمبدأ أعلى.

نعـم: إنّ مـابقي بأيـدي الـنـاس من تـراجـم كتب مـنسوبة الى الأنـبـياء السـالفين، لم تبـق سـالمة مـن تطـاول أيدي المحرّفين، ومـن ثمّ ففيهـا مـن الغثّ والسمين الشيءالكثير، ونحن نربـأ بعلماء محقّقين أن يجعلـوا من موضوع دراستهم لشؤون الأنبياء (عليهم السلام) تلكم التراجم المحرّفة.

أنحاء الوحي الرسالي

قال تعالى: «وَمَا كانَ لِبَشرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلَّا وَحْياً» أي إلهاماً وقذفاً في روعه، وهو إلقاء في الباطن، يحسّ به الموحى إليه كأنّما كتب في ضميره صفحة لامعة، أو رؤياً في منام «أو من ورَاءِ حِجَابٍ» أي يكلّمه تكليما يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلّم موسى (عليه السلام) بخلق الصوت في الهواء يخرق مسامعه، ويأتيه من كلّ مكان، وكما كلّم نبينا (صلى الله عليه وآله) ليلة المعراج.

والتكليم من وراء حجاب كناية أو تشبيه بمن يتكلّم محتجباً، أو المراد بالحجاب الحجاب المعنوي، لبعد الفاصلة بين كمال الواجب ونقص الممكن.

«أوْ يُرْسِلَ رَسُولاً»: ملكاً من الملائكة «فَيُوحِيَ بإذْنِهِ مَايَشاءُ» إمّا إلقاء على السمع أو نقراً في القلب «إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ».

«وكَذٰلِكَ» أي على هذه الأنحاء الثلاثة: إلهاماً وتكليما وإرسال ملك[1] «أوْحَيْنا إليْكَ رُوحاً»: هي الشريعة أو القرآن «مِنْ أمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرى مَا الْكِتابُ وَلا الإيمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادنا وَإنَّكَ لَتَهْدِى إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»[2].

هذه أنحاء الوحي بوجه عامّ وبصورة إجماليّة. أمّا بالنسبة الى نبيّنا محمد

---

(١) راجع بحار الأنوار: ج١٨ ص٢٤٦.

(٢) الشورى: ٥١ـ٥٢.

(صلى الله عليه وآله) فكان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا ـ أكثرياً ـ كان في بدء نبوّته. وأُخرى وحياً مباشريّاً من جانب الله، بلا توسيط ملك. وثالثة مع توسيط جبرئيل عليه السلام. غير أنّ الوحي القرآني كان يخصّ الأخيرين إمّا مباشرة أو على يد ملك. وإليك بعض التفصيل:

١ ـ الرؤيا الصادقة:

كان أوّل ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة، كان (صلى الله عليه وآله) لايرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ـ وهو كناية عن تشعشع نورانيّ كان ينكشف لروحه المقدّسة، تمهيداً لإفاضة روح القدس عليه صلوات الله عليه وآله ـ ثم حبّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنّث فيه[1]، الليالي أُولات العدد، قبل أن يرجع الى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع الى خديجة فتزوّده لمثلها[2]، حتى فجأه الحقّ، وهو في غار حراء: جاءه الملك فقال: «أقرأ...»[3].

قال علي بن إبراهيم القمّيّ: «إن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) لـمّا أتى له سبع وثلاثون سنة، كان يرى في منامه كأنّ آتياً يأتيه، فيقول: يا رسول الله. ومضت عليه برهة من الزمن وهو على ذلك يكتمه، وإذا هو في بعض الأيّام يرعى غنما لأبي طالب في شعب الجبال إذ رأى شخصاً يقول له: يا رسول الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرئيل أرسلني الله إليك ليتّخذك رسولاً...»[4].

---

(١) التحنّث: التحنّف، وهو الميل الى الحنيفيّة، كناية عن التعبّد الذي هو مطهرة للعبد، قال ابن هشام: تقول العرب: التحنّث والتحنّف، فيبدلون الفاء من الثاء، كما في جدث وجدف أي القبر. قال: وحدّثني أبوعبيدة أنّ العرب تقول: فمّ في موضع ثمّ، راجع السيرة: ج ١ ص ٢٥١.

(٢) التزوّد: استصحاب الزاد.

(٣) صحيح البخاري: ج ١ ص ٣. وصحيح مسلم: ج ١ ص ٩٧. وتاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٩٨.

(٤) بحارالأنوار: ج ١٨ ص ١٨٤ ح ١٤ و ١٩٤ ح ٣٠.

قال الإمام الباقر (عليه السلام): «وأمّا النبيّ فهو الذي يرى في منامه، نحو رؤيا إبراهيم (عليه السلام) ونحو ما كان رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من أسباب النبوّة قبل الوحي، حتى أتاه جبرائيل (عليه السلام) من عندالله بالرسالة...»[١].

قوله: «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرسالي المأمور بتبليغه. لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النبيّ» قبل أن يكون رسولاً. وهو إنسان أُوحي إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتصل بالملأ الأعلى اتصالا روحيّاً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبيّنا (صلى الله عليه وآله وسلم) قبيل بعثته المباركة.

قال صدرالدين الشيرازي: «يعني أنّه (صلى الله عليه وآله) اتصفت ذاته المقدّسة بصفة النبوّة وجاءته الرسالة من عندالله، باطنا وسرّاً، قبل أن يتصف بصفة الرسالة أو ينزل عليه جبرائيل معاينا محسوساً بالكلام المنزل المسموع. وإنّما جاءه جبرائيل معاينا حين جمع له من أسباب النبوّة ما جمع للأنبياء الكاملين، كإبراهيم، من الرؤيا الصادقة والإعلامات المتتالية بحقائق العلوم والإيحاءات بالمغيّبات. والحاصل: أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) استكمل باطنه وسرّه قبل أن يتعدّى صفة الباطن منه الى الظاهر، فاتصف القالب بصفة القلب محاكياً له، والأوّل نهاية السفر من الخلق الى الحقّ، والثاني نهاية السفر من الحقّ بالحقّ الى الخلق»[٢].

* * *

نعم ربّما كانت الرؤيا الصادقة سبيل الوحي إليه (صلى الله عليه وآله) فيلقى إليه العلم أحياناً في المنام، قال أميرالمؤمنين (عليه السلام): «رؤيا الأنبياء وحي»[٣]. ولكن لم يكن شيء من ذلك قرآنا، إذ لم يعهد نزول قرآن

---

(١) الكافي: ج ١ ص ١٧٦ ح ٣. وبحارالأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٦ ح ٢٧.

(٢) شرح اصول الكافي: (صدرالمتألهين): كتاب الحجة ج ٣ ص ٤٥٤.

(٣) امالي الشيخ الطوسي: ص ٢١٥ وبحارالأنوار: ج ١١ ص ٦٤ ح ٤.

عليه في المنام. نعم وإن كان بعض رواه أسباباً لنزول القرآن، كما في قوله تعالى: «لَقَدْ صَدقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسجِدَ الحَرامَ إن شَاءَ اللهُ...»[١] فقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك، عام الحديبيّة[٢] وصدقت عام الفتح[٣]. وكما في قوله: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الّتي أَرَيْنَاكَ إلَّا فِتْنَةً للنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ في الْقُرْآنِ»[٤] فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر، عن سعيد بن المسيّب، قال: رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بني أُميّة على المنابر، فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إنّما هي دنيا أعطوها وهي قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنا الرُّؤيَا...» يعني بلاء للناس [٥].

هذا... وقد ذكر بعضهم أنّ سورة الكوثر نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المنام، لرواية أنس بن مالك، قال: بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسّماً. فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فقال: أُنزلت عليّ آنفا سورة، فقرأ: «بِسْمِ الله الرَّحمن الرَّحيم. إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...» الخ[٦].

قال الرافعي: إنّهم فهموا من ذلك أنّ السورة نزلت في تلك الإغفاءة، لكن الأشبه أنّه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة عليه قبل ذلك، فقرأها عليهم وفسّرها لهم. قال: وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي- ويقال لها: برحاء الوحي- وهي سبتة شبه النعاس كانت تعرضه من ثقل الوحي.

قال جلال الدين: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، والتأويل الأخير أصحّ من الأوّل لأنّ قوله «آنفاً» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نزلت في

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) وهي سنة ست من الهجرة.

(٣) وهي سنة ثمان.

(٤) الاسراء: ٦٠.

(٥) الدرالمنثور: ج ٤ ص ١٩١، وتفسير الطبري: ج ١٥ ص ٧٧.

(٦) الدرالمنثور: ج ٦ ص ٤٠١.

تلك الحالة، ولم يكن الإغفاء اغفاء نوم بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي[١] وآنف بمعنى: قبيل هذا الوقت.

أقول لاشكّ أنّ سورة الكوثر مكـيّة، وهذا هو المشهور بين المفسّرين شهرة تكاد تبلغ التواتر. قالوا: نزلت بمكة عندما عابه المشركون بأنّه أبتر لاعقب له، أو أنّه مبتور من قومه منبوذ.

وهكذا لـمّا مات ابنه عبدالله مشت قريش بعضهم الى بعض متباشرين، فقالوا: إنّ هذا الصابي قد بتر الليلة.

قال ابن عباس: دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) من باب الصفا وخرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص الى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو آنفاً؟ قال ذلك الأبتر ـ يريد به النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ فأنزل الله ـ جلّ جلاله ـ سورة الكوثر، تسلية لنفس نبيّه الزكيّة[٢].

هذا وأنس عند وفاة النبـيّ (صلى الله عليه وآله) لم يبلغ العشرين، إذ كان عند مقدمه (صلى الله عليه وآله) المدينة طفلا لم يتجاوز التسع وقيل: ثماني سنوات[٣]، فكيف نثق بحديث منه يخالف إطباق الأُمّة على خلافه، وأنّها نزلت بمكة في قصة جازت حدّ التواتر؟!

الأمر الذي يرجّح الوجه الأوّل من اختيار الإمام الرافعي، أو نجعل من رواية أنس حبلها على غاربها!

نعم أخرج مسلم والبيهقي هذه الرواية من وجه آخر، ليس فيه «أُنزلت عليّ». قال أغفى النبيّ (صلى الله عليه وآله) إغفاءة ثم رفع رأسه فقرأ: «بِسمِ

---

(١) الإتقان: ج١ ص٢٣.

(٢) راجع أسباب النزول للسيوطي بهامش الجلالين: ج٢ ص١٤٢. والدرالمنثور:ج٦ ص٤٠١.

(٣) اسدالغابة: ج١ ص١٢٧.

الله ِالرَّحمٰنِ الرَّحيـم. إنّا أعْطَيْناكَ الْكَوثَرَ...» الخ ثمّ فسّرها بنهر في الجنة. قال البيهقي: وهذا اللفظ أولى، حيث لايتنافى وما عليه أهل التفاسير والمغازي من نزول سورة الكوثر بمكة (١).

٢ـ نزول جبرائيل:

كان الملك الذي ينزل على النبيّ (صلى الله عليه وآله) بالوحي هو جبرائيل (عليه السلام) فكان يلقيه على مسامعه الشريفة، فتارة يراه، إمّا في صورته الأصليّة ـ وهذا حصل مرّتين ـ أو في صورة دحية بن خليفة. وأخرىٰ لايراه، وإنّما ينزل بالوحي على قلبه (صلى الله عليه وآله): «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ»(٢).

قال تعالى: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوىٰ. إن هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ»: جبرائيل. مثال قدرته تعالى «ذُو مِرةٍ» أي ذو عقليّة جبارة «فَاسْتَوىٰ»: استقام على صورته الأصليّة. وهذا هو المرّة الأُولىٰ في بدء الوحي «وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلىٰ»: سدّ مابين الشرق والغرب «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّىٰ».

فجعل يقترب من النبيّ (صلى الله عليه وآله) «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنىٰ فأَوْحىٰ» الله بواسطة جبرائيل «إلىٰ عَبْدِهِ» محمد (صلى الله عليه وآله) «مَا أَوْحىٰ. مَا كَذَبَ الْفُؤادُ»: فؤاد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) «مَا رَأىٰ» فكان قلبه (صلّى الله عليه وآله) يصدّق بصره فيما يرى أنّه حقّ «أَفَتُمَارُونَهُ عَلىٰ مَا يَرىٰ. وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ» مرة ثانية في مرتبة أنزل من الأُولىٰ «عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ. إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشىٰ. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ»(٣) فكان الذي يراه حقيقة واقعة، ليس وهماً ولا خيالاً.

وقال: «إنّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»: جبرئيل «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ

---

(١) الدرالمنثور: ج٦ ص٤٠١.
(٢) الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤.
(٣) النجم: ٣ـ ١٧.

مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ»: محمد (صلى الله عليه وآله) «بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ»: راى جبرئيل في صورته الأصليّة «بِالأُفُقِ الْمُبِينِ»[١] إشارة الى المرّة الأُولىٰ أيضاً.

قال ابن مسعود: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم ير جبرئيل في صورته إلّا مرّتين، احداهما أنّه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسدّ الأُفق. وأمّا الثانية فحيث صعد به ليلة المعراج، فذلك قوله «وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلىٰ»[٢].

والصحيح أنّ المرّتين كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء. ظهر له جبرئيل في صورته التي خلقه الله عليها، مالئاً اُفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيّبه النبيّ (صلى الله عليه وآله) تهيّباً بالغاً، فنزل عليه جبرئيل في صورة الآدميّين فضمّه الى صدره، فكان لاينزل عليه بعد ذلك الّا في صورة بشر جميل.

والثانية كانت باستدعائه (صلى الله عليه وآله) الذي جاءت به الروايات: كان لايزال يأتيه جبرئيل في صورة الآدميّين. فسأله رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يريه نفسه مرّة أُخرىٰ على صورته التي خلقه الله، فأراه صورته فسدّ الاُفق. فقوله تعالى: «وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلىٰ» كانت المرّة الأُولى. وقوله «نَزْلَةً أُخْرَى» كانت المرّة الثانية[٣].

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً، فيكلّمني فأعي مايقول[٤].

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): إنّ جبرائيل كان إذا أتى النبيّ (صلى الله عليه وآله) لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد[٥].

---

(١) التكوير: ١٩-٢٣.

(٢) الدرالمنثور: ج٦ ص١٢٣.

(٣) مجمع البيان: ج٩ ص١٧٣ و١٧٥ وج١٠ ص٤٤٦. وتفسير الصافي: ج٢ ص٦١٨.

(٤) صحيح البخاري: ج١ ص٣.

(٥) كمال الدين: ص٨٥.

هذا.. وكان جبرئيل ـ عندما يتمثّل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ـ يبدو في صورة دحية بن خليفة الكلبي. وبتعبير أصحّ: يبدو في صورة شبيهة بدحية. كما جاء في تعبير ابن شهاب: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يشبّه دحية الكلبي بجبرائيل، حينما يتصوّر بصورة بشر[١].

وذلك لأنّ دحية كان أجمل إنسان في المدينة، كان إذا قدم البلد خرجت الفتيات ينظرن إليه[٢].

والسبب في ذلك: أنّ جبرائيل كان حينما يتمثّل بشراً، يتمثّل صورة إنسان خلقه الله على الفطرة الأُولى، والإنسان في أصل خلقته جميل، فكان يتمثّل جبرئيل في أجمل صورة إنسانيّة. وبما أنّ دحية كان أجمل إنسان في المدينة، كان الناس يزعمون من جبرئيل ـ وهو يتمثّل بشراً ـ أنّه دحية الكلبي، ومن ثم كان العكس هو الصحيح. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي، وكان دحية رجلاً جميلاً. والظاهر أنّ الجملة الأخيرة هي من كلام أنس، راوي الحديث[٣] أي على صورة تشبهها صورة دحية. وكان الصحابة يزعمونه دحية حقيقة، ومن ثم نهاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يدخلوا عليه إذا وجدوا دحية عنده. قال: إذا رأيتم دحية الكلبي عندي فلايدخلن عليّ أحد[٤].

وكان جبرئيل قد يتمثّل للصحابة أيضاً بصورة دحية، كما في غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة شاهده الصحابة على بغلة بيضاء[٥].

وشاهده أيضاً عليّ (عليه السلام) دفعات بمحضر النبيّ (صلى الله عليه

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة: ج ١ ص ٤٧٤.

(٢) الإصابة: ج ١ ص ٤٧٣.

(٣) الإصابة: ج ١ ص ٤٧٣. واسد الغابة: ج ٢ ص ١٣٠.

(٤) بحار الأنوار: ج ٣٧ ص ٣٢٦ ح ٦٠ عن كتاب التفصيل لابن الأثير.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٢٤٥.

وآله) وتكلّم معه، والنبيّ (صلى الله عليه وآله) راقد[١].

وأمّا نزول الملك عليه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضاً، امّا إلقاءعلى مسامعه وهو يصغي إليه، أو إلهاماً في قلبه فيعيه بقوّة. قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِين علىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»[٢].

كان (صلى الله عليه وآله وسلم) في أوائل نزول الملك عليه بالوحي، يخشى أن يفوته اللفظ ومن ثمّ كان يحرّك لسانه وشفتيه ليستذكره ولاينساه، فكان يتابع جبرائيل في كلّ حرف يلقيه عليه، فنهاه تعالى عن ذلك و وعده بالحفظ والرعاية من جانبه تعالى قال: «لاَتُحرّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِه.إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإذا قرأناهفَاتَبعْ قرآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»[٣] وربّما كان (صلى الله عليه وآله) يقرأ على أصحابه فورقراءة جبرئيل عليه، وقبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النازلة، حرصاً على ضبطه وثبته، فنهاه تعالى أيضاً وقال: «وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً»[٤] فاطمأنه تعالى بالحفظ والرعاية الكاملة. فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك إذا أتاه جبرئيل، استمع له، فإذا انطلق قرأه كماأقرأه[٥] قال تعالى: «سَنقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ»[٦].

وإشارة الى هذا النحو من الوحي الذي هو نكت في القلب قال (صلى الله عليه وآله): «إنَّ روح القدس نفث في روعي»[٧] وهو سواد القلب، كناية عن السرّ الباطن، والمقصود: روحه الكريمة.

---

(١) بحارالأنوار: ج٢٠ ص٢١٠ وج٢٢ ص٣٣١- ٣٣٢ ح٤٣. ومجمع البيان: ج٨ ص٣٥١.
(٢) الشعراء: ١٩٢- ١٩٥.
(٣) القيامة: ١٦- ١٩.
(٤) طه: ١١٤.
(٥) الطبقات: ج١ ص١٣٢.
(٦) الاعلى: ٦.
(٧) الإتقان: ج١ ص٤٤.

٣ـ الوحي المباشر:

ولعلّ أكثرية الوحي، كان مباشريّاً لايتوسّطه ملك، على ماجاء في وصف الصحابة حالته (صلى الله عليه وآله) ساعة نزول الوحي عليه، كان ذا وطء شديد على نفسه الكريمة، يجهد من قواه وتعتريه غشوة منهكة، فكان ينكّس رأسه ويتربّد وجهه ويتصبّب عرقا، وتسطو على الحضور هيبة رهيبة، ينكّسون رؤوسهم صموداً، من روعة المنظر الرهيب. قال تعالى: «إِنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً»[١]. قال الإمام الصادق (عليه السلام): كان ذلك إذا جاءه الوحي وليس بينه وبين الله ملك، فكانت تصيبه تلك السبتة[٢] ويغشاه مايغشاه، لثقل الوحي عليه. أمّا إذا أتاه جبرائيل بالوحي فكان يقول: هو ذا جبرئيل أو قال لي جبرائيل ...[٣].

قال الشيخ أبو جعفر الصدوق: «إنَّ النبي (صلّى الله عليه وآله) كان يكون بين أصحابه فيغمى عليه وهو ينصاب عرقاً، فإذا أفاق قال: قال الله كذا وكذا وأمركم بكذا ونهاكم عن كذا. قال: وكان يزعم أكثر مخالفينا أنّ ذلك كان عند نزول جبرائيل. فسئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن الغشية التي كانت تأخذ النبي (صلّى الله عليه وآله) أكانت عند هبوط جبرائيل؟ فقال: لا إنّ جبرئيل كان إذا أتى النبيّ (صلى الله عليه وآله) لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنّما ذاك عند مخاطبة الله عزّوجلّ إيّاه بغير ترجمان وواسطة»[٤].

* * *

---

(١) المزمل: ٥.

(٢) هي إغماءة تشبه النعسة.

(٣) محاسن البرقي: كتاب العلل ص٣٣٨ ح١٢١. وأمالي الشيخ الطوسي: ص٣١. وبحارالأنوار: ج١٨ ص٢٧١ ح٣٦.

(٤) كمال الدين: ص٨٥. وبحارالأنوار: ج١٨ ص٢٦٠ ح١٢.

وفيما يلي أوصاف جرت على ألسنة الصحابة، يذكرون مشهوداتهم عن الحالة التي كانت تعتري رسول الله (صلى الله عليه وآله) ساعة نزول الوحي عليه:

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «نزلت على النبيّ (صلى الله عليه وآله) سورة المائدة، وهو على بغلته الشهباء، فثقل عليه الوحي حتى وقفت، وتدلّى بطنها، حتى رأيت سرّتها تكاد تمسّ الأرض، وأُغمي على رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى وضع يده على ذؤابة شيبة بن وهب الجمحي ...»[١].

وقال عبادة بن الصامت: «كان إذا نزل الوحي على النبيّ (صلى الله عليه وآله) كرب له وتربّد وجهه»[٢]. وفي رواية: «نكّس رأسه ونكّس أصحابه رؤوسهم فلمّا سرى عنه رفع رأسه»[٣].

وقال عكرمة: «كان إذا أُوحي الى رسول (صلى الله عليه وآله) وقذ لذلك ساعة كهيأة السكران»[٤].

وقال ابن أروى الدوسي: «رأيت الوحي ينزل على النبي (صلى الله عليه وآله) وإنّه على راحلته فترغو، وتفتل يديها حتى أظنّ أنّ ذراعها ينقصم، فربّما بركت وربّما قامت موتدة يديها حتى يسري عنه، من ثقل الوحي. وإنّه لينحدّر منه مثل الجمان»[٥].

---

(١) تفسير العياشي: ج١ ص٢٨٨ ح٢ والذؤابة: شعر مقدم الرأس.

(٢) الطبقات ج١ ص١٣١. «كرب» ـ بالبناء للمجهول ـ: أي انقبضت نفسه وتغيّرت حالته. «تربّد» أي تغيّرلون وجهه الى الغبرة.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين: ج١٠ ص٧١٢.

(٤) الطبقات: ج١ ص١٣١. «وقذ» ـ بالبناء للمجهول ـ: أي غشي عليه. والموقوذ: من غلبه النعاس فصار كهيأة السكران.

(٥) الطبقات: ج١ ص١٣١. «ترغو» أي تضجّ وتكابد من شدّة الثقل. «تفتل يديها» أي تباعد بينهما. «ينقصم» أي ينكسر. «قامت موتدة» أي وقفت جامدة لاحراك لها، وثبتت قوائمها كالمسمار المثبت في الأرض. «التحدّر»: الانصباب السريع، «الجمان»: اللؤلؤ. والواحدة: جمانة. شبه بذلك

←

وقالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنَّ جبينه ليتفصّد عرقاً»[١]. وقالت أيضاً: «إنَّه كان ليوحى على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو على راحلته فيضرب بجرانها»[٢].

وقال ابن عباس: «كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) إذا نزل عليه الوحي، يعالج من ذلك شدّة، وألماً شديداً وثقلا، ويتصدّع رأسه»[٣].

وقال ابن شهرآشوب: وروي أنّه كان إذا نزل عليه الوحي، نكّس رأسه ونكّس أصحابه رؤوسهم. ومنه يقال: برحاء الوحي[٤].

وروى ابن قيم: «أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) جاءه الوحي مرّة، وفخذه على فخذ زيدبن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضّها»[٥].

و روى صاحب المنتق، قال: وفي الحديث المقبول أنّه (صلى الله عليه وآله) أُوحي إليه وهو على ناقته فبركت ووضعت جرانها بالأرض فما تستطيع أن تتحرّك. وأنّ عثمان كان يكتب للنبيّ (صلى الله عليه وآله) وفخذه على فخذ عثمان فغشيه الوحي، فثقلت فخذه على فخذ عثمان حتى قال: خشيت أن ترضّها[٦].

* * *

قطرات عرق جبينه الطيّب.

(١) صحيح البخاري: ج١ ص٣. «التفصد»: قطع العرق الذي ينصب منه الدم بتدفّق، استعارة لكثرة انصباب عرقه الطيّب حين نزول الوحي.

(٢) مجمع البيان: ج١٠ ص٣٧٨. وبحارالأنوار: ج١٨ ص٢٦٤ ح٢٠. «الجران» من البعير مقدم عنقه. يقال: القى البعير جرانه أي برك.

(٣) بحارالأنوار: ج١٨ ص٢٦١ ح١٣ عن المناقب ج١ ص٤١.

(٤) بحارالأنوار: ج١٨ ص٢٦١ ح١٣عن المناقب: ج١ ص٣١. والبرحاء: شدة الكرب والألم.

(٥) زادالمعاد: ج١ ص١٨.

(٦) بحارالأنوار: ج١٨ ص٢٦٣-٢٦٤ ح٢٠. وعثمان هذا هو ابن مظعون، كما جاء التصريح به في رواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) في كتاب سعد السعود: ص١٢٢. وبحارالأنوار: ج١٨ ص٢٦٨و٢٦٩ ح٣٢.

وأخيراً فقد وصف هو (صلى الله عليه وآله) نزول الوحي عليه بما يدهش:

سأله عبدالله بن عمر: هل تحسّ بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرّة يوحى إليّ إلّا ظننت أنّ نفسي تُقبض![١].

وسأله الحارث بن هشام، قال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) كيف يأتيك الوحي؟ فقال (صلى الله عليه وآله): «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال[٢]. وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني، فأعي مايقول[٣] وهو أهونه عليّ»[٤].

وتذييلاً على هذه الرواية ـ وهي متواترة الى حد ما ـ يجب أن ننبّه القارىء على نقاط هامة:

أوّلاً: صلصلة الجرس في هذه الرواية، كناية عن صوت متعاقب كصوت الناقوس المصلصل المجلجل، كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يسمع صوتا متداركاً كجلجلة الناقوس، هو صوت الوحي المباشر، فكان (صلى الله عليه وآله) ينصت له بكلّ وجوده حتى يتلقاه كملا. وكان ذا وقع شديد على نفسه الكريمة. وهذا التعبير «صلصلة الجرس» يشي بشدّة الوقع، حيث تتابع الصوت المتدارك يؤثّر على حاسة السمع تأثيراً نافذاً في الأعماق، فكأنّما يأخذ بلبّ القلب، أخذاً متواصلاً قويّاً ومن ثم قال (صلى الله عليه وآله): ظننت أنّ نفسي تقبض.

والظاهر أنّ هذه الصلصلة كانت تمهيداً لنزول الوحي عليه (صلى الله عليه

---

(١) الإتقان: ج١ ص٤٤. عن مسند أحمدبن حنبل.

(٢) سنشرح هذا الكلام فيا ننبّه عليه تالياً.

(٣) صحيح البخاري: ج١ ص٣. والطبقات: ج١ ص١٣٢. وبحارالأنوار: ج١٨ ص٢٦٠. والصلصلة: صوت تداكّ الحديد بعضه مع بعض.

(٤) هذه الزيادة جاءت في راوية أبي عوانه في صحيحه. راجع فتح الباري ج١ ص٣٠. والإتقان: ج١ ص٤٤.

وآله وسلم) كي يستعدّلذلك الا تصال الروحي الشديد. ومن ثم قال: ثم أسكت عند ذلك، أي أنصت حيث الإشعار بنزول الوحي.

نعم كان للوحي ذاته دويّ شديد بالغ الشّدة، لم يكن يتحمّله أهل السماوات العلى.

قال أبو جعفر محمدبن علي الباقر (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى «حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»[١] : «كان أهل السماوات لم يسمعوا وحياً في الفترة بين المسيح (عليه السلام) وبعثة محمد (صلى الله عليه وآله) فلمّا بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا، فصعقوا أجمعين. فلمّا فرغ الله من الوحي، انحدر جبرئيل، كلّما مرّ بأهل سماء فزع عن قلوبهم، أي كشف عنهم تلك الغشية. فجعل بعضهم يقول لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»[٢].

وفي حديث ابن مسعود: «إذا تكلّم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان ـ الحجر الأملس ـ فيفزعون»[٣].

وقال ابن عباس: «كان إذا نزل الوحي كان صوته كوقع الحديد على الصفوان، فيصعق أهل السماء حتى إذا فزع عن قلوبهم ـ أي رفع عنهم الفزع ـ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ، قالت الرسل (عليهم السلام): الْحَقّ»[٤].

وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «إذا أراد الله أن يوحي بأمر، تكلّم بالوحي، فإذا تكلّم أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صُعقوا وخرّوا سجّداً...»[٥].

وبعد.. فلا نكاد نستغرب من غشية تعتري رسول الله (صلى الله عليه وآله)

---

(١) سبأ: ٢٣.
(٢) تفسيرعلي بن ابراهيم: ص ٥٣٩.
(٣) الإتقان: ج ١ ص ٤٤.
(٤) الدرالمنثور: ج ٥ ص ٢٣٥.
(٥) الدرالمنثور: ج ٥ ص ٢٣٦.

ساعة نزول الوحي عليه إذا كان أهل السماوات لا تتحمّل وقع صوته المدهش.

* * *

ثانياً: هذا النمط من الوحي الشديد الوقع على نفسه الكريمة، كان يخصّ الوحي المباشر، كما تقدّم حديثه. كما أنّ الرواية ذاتها تشي بهذا التفصيل، حيث جعلت من النوع الأوّل مثل صلصلة الجرس، فكان صوت الوحي النازل عليه مباشرة. ومن ثم قال (صلى الله عليه وآله): وكان أشدّه عليّ، وجعلت من النوع الثاني ما يكلّمه الملك مشافهة فيعي مايوحى إليه في حينه، لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان حينئذ في حالته العاديّة.

وزعم جلال الدين: أنّ النوعين اللذين أشارت إليهما الرواية: أحدهما ماكان الملك النازل بالوحي مختفيا. والآخر ماكان متمثّلاً[1] وهذا مخالف لما يفهم من الرواية ذاتها، كما نبّه بذلك شيخنا الصدوق[2]. ومرّ في حديث الإمام الصادق (عليه السلام)[3].

* * *

ثالثاً: إنَّ الجذبة الروحيّة القويّة في الصورة الأُولى ربّما كانت توهم انفلات شيء من الوحي، حينما يفقد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعيه الظاهر. لكنه (صلى الله عليه وآله) تدارك هذا الوهم بأنّه كان بعدما يتقشّع غشوته يجد كلّ ما أُوحي إليه حاضرة ذهنه الشريف، كأنّما كتب في كتاب، ولم ينفلت منه شيء. وهذا معنى قوله (صلى الله علىه وآله): «فيفصم عنّي وقد وعيت».

والسبب في ذلك: أنّ الوحي في صورة المباشرة كان يخالط لبّه، ويتسرّب الى أعماق وجوده (صلى الله عليه وآله) بما انفذه الله في قلبه الكريم «سَنُقْرِئُكَ

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ٤٤.

(٢) كمال الدين: ص ٨٥. وبحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٠ ح ١٢.

(٣) محاسن البرقي: كتاب العلل ص ٣٣٨ ح ١٢١. وبحار الأنوار ج ١٨ ص ٢٧١ ح ٣٦.

فَلا تَنْسَىٰ»[١].

وبهذا يتضح معنى الحديث الذي رواه ابن أبي سلمة عن عمّه، أنّه بلغه أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين، يأتيني جبرئيل فيلقيه عليّ، كما يلقي الرجل على الرجل[٢]، فذلك الذي يتفلّت منّي. ويأتيني في شيء[٣] مثل صوت الجرس، حتى يخالط قلبي،فذاك الذي لايتفلّت منّي»[٤].

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): فذلك الذي يتفلّت منّي ،أي الذي كان يكاد يتفلّت منه ،لأنّه كان سماعاً مباشراً من ملك الوحي، وسرعان ماينسى الإنسان مايسمعه من غيره إذا لم يعه وعياً. فهذا النمط من الوحي كان بمعرض النسيان وخوف التفلّت ـ كما هو شأن السماع المجرّد إذا لم يتقيّد بالكتابة في وقته ـ لا أنّه كان يتفلّت منه بالفعل. أمّا في صورة الوحي المباشر فحيث كان يخالط لبّه وينفذ في أعماق قلبه الكريم، فلم يكن يخشى عليه التفلّت أصلاً.

هذا وقد وقع بعض الباحثين، في خلط من هذا الحديث[٥] ورفضه آخرون. لكن المعنى على ماذكرنا صحيح، توافقه سائر الأحاديث.

تجربة روحيّة:

رأينا من المناسب أن نأتي هنا بذكر شاهد واحد من مئات الشواهد، والتي مرّت الإشارة إليها على صحّة وجود النفس، وأنّ للإنسان روحاً مستقلّة عن الجسم، وهي لا تنحلّ بانحلاله، ويمكنها الاتصال بعالم ماوراء المادّة... وهي

(١) الاعلى: ٦.

(٢) أي كما يلقي الرجل بكلامه على صاحبه. وهذا هو الصورة الثانية مما تقدّم.

(٣) أي الوحي ذاته يأتيني بلا توسيط ملك . وهي الصورة الأُولى ممّا تقدّم.

(٤) الطبقات: ج ١ ص ١٣١.

(٥) فتح الباري: ج ١ ص ١٨.

طريقة التنويم الصناعي أو التنويم المغناطيسي. وهذه التجربة حضرها الأستاذ الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني سنة ١٣٥١ هجرية بالقاهرة مع حشد مثقّف، وشهد تفاصيلها بنفسه بمرآى الملأ ومسمع. وهذه التجربة أثبتت كيف يمكن التأثير على ذهنية الوسيط وتغيير عقيدته بفعل المنوّم، فيوحي إليه وهو في حالة الإغماء، ويأمره بالاحتفاظ به الى مدّة كذا، ثم يوقظه وإذا بالذي أُوحي إليه حاضر ذهنه الى تمام المدّة:

قام المحاضر ـ وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي ـ وأحضر الوسيط، وهو فتى فيه استعداد خاصّ للتأثّر بالأُستاذ، والأُستاذ فيه استعداد خاصّ للتأثير على الوسيط، فالأوّل ضعيف النفس، والثاني قويّها. نظر الأُستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة نافذة، وأجرى عليه حركات يسمّونها سحبات، فماهي إلّا لحظة حتى رأينا الوسيط يغط غطيط النائم، وقد امتقع لونه، وهمد جسمه، وفقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحدنا يخزه بالأُبرة وخزات عدّة، ويخزه كذلك ثان وثالث، فلا يبدي الوسيط حراكاً، ولا يظهر أي عرض لشعوره وإحساسه بها. وحينئذ تأكّدنا أنّه قد نام ذلك النوم الصناعي.

وهنالك تسلّط الأُستاذ على الوسيط يسأله: ما اسمك؟ فاجابه باسمه الحقيقيّ، فقال الأُستاذ: ليس هذا هو اسمك، إنّما اسمك كذا (وافترى عليه اسماً آخر) ثم أخذ يقرّر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق، بواسطة أغاليط يلقّنها إيّاه في صورة الأدلّة، وبكلام يوجّهه إليه في صيغة الأمر والنهي، وهكذا أملى عليه هذه الأُكذوبة املاء وفرضها عليه فرضاً، حتى خضع لها الوسيط وأذعن.

ثمّ أخذ الأُستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرة بعد الأُخرى في فترات متقطّعة، وفي أثناء الحديث على حين غفلة، كل ذلك وهو لايجيب، ثم نناديه كذلك باسمه المصنوع فيجيب دون تردّد ولا تلعثم.

ثمّ أمر الأُستاذ وسيطه أن يتذكّر دائماً أنّ هذا الاسم الجديد هو اسمه

الصحيح حتى الى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته. ثمّ أيقظه وأخذ يتمّ محاضرته ونحن نفجأ الوسيط بالاسم الحقيقيّ فلا يجيب، ثم نفجؤه باسمه الثاني فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط الى حاله الأُولى من العلم باسمه الحقيقيّ...

قال الأُستاذ الزرقاني: وبهذه التجربة ثبت لي ماقرب الى الوحي فهماً عمليّاً، فالوحي اتصال روحيّ يتأثّر الموحى إليه بما يلقي إليه الموحي في حالة يتسلّخ من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حالته العاديّة، ويظهر أثر التغيّر عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي، وينطبع ماتلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد الى حالته الأُولى، وجد ماتلقاه ماثلاً في نفسه، حاضراً في قلبه، كأنّما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً.

ثم يقول: اتظنّ أنّ المخلوق يستطيع التأثير في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير الغريب، ولايستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثّر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي؟ كلا ثم كلا، إنّه على كلّ شيء قدير[١].

أقول ونحن اذ لانسلّم بجميع التفاصيل التي جاءت بها طريقة التنويم المغناطيسي، ولا نصدّق بجميع مظاهرها بصورة مطلقة، إذ لا تخلو أحياناً عن الشعوذة لكنّا نعترف بصحّتها وإمكانها في الجملة، ومن ثم فباستطاعة هذه الطريقة العلميّة الحديثة المعترف بها إجمالياً، إثبات ظاهرة الوحي ـ ولو إجمالياً ـ وفي هذا كفاية على نحو الإيجاب الجزئي.

موقف النبي من الوحي:

هنا موضوعان لهما أهميّة كبيرة بشأن رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم الى الله، لابدّ من معالجتهما بصورة علميّة مقبولة. وقد تكلّم فيهما عامّة أهل السنّة بطريقة

---

(١) مناهل العرفان: ج ١ ص ٦٠.

غير مألوفة، وربّما لايستسيغها العقل الفطري في شيء. أمّا علماؤنا الإماميّة فتكلّموا فيها بطريقة عقليّة على أساس الاستدلال البرهاني مدعماً بالنقل المأثور عن ائمّة أهل البيت (عليهم السلام):

الاوّل: كيف عرف النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه مبعوث؟ وَلِمَ لم يشكّ في أنّ الذي أتاه شيطان، واطمأنّ أنّه جبرائيل؟

الثاني: هل يجوز على النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيّلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي، أو يلقي عليه ابليس ما يظنّه وحياً من الله؟

والأكثر في الموضوع الأوّل جعلوا من النبيّ (صلى الله عليه وآله) مرتاعاً في أوّل أمره، خائفاً على نفسه من مسّ جنون، عائذاً الى أحضان زوجه الوفيّة، لتستنجد هي بدورها الى ابن عمّها ورقة بن نوفل، فيطمئنه هذا بأنّه نبيّ ويؤكّد عليه ذلك حتى يطمئن ويستريح باله.

أمّا الموضوع الثاني فقد أجازوا لإبليس أن يتلاعب بوحي السماء فيلقي على النبيّ مايظنّه وحياً- كما في حديث الغرانيق- لولا أن يتداركه جبرائيل فيذهب بكيد الشيطان.

وقد ذهب أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في كلا الموضوعين مذهباً نزيهاً، وجعلوا من النبيّ (صلى الله عليه وآله) أكرم على الله من أن يتركه الى إنسان غيره ولا ينير عليه الدلائل الواضحة على نبوّته الكريمة في تلك الساعة الحرجة. كما لايدع للشيطان أن يستحود على مشاعر نبيّه الكريم: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُننا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ»[1].

هذا.. ويجدر بنا ونحن نحاول تنزيه جانب رسول الله (صلى الله عليه وآله) ممّا ألصقوه بكرامته، أنّ نتكلّم في كلا المجالين بصورة مستوفاة، كلّاً على حدة.

---

(١) الطور: ٤٨.

النبوّة مقرونة بدلائل نيّرة:

يجب على الله ـ وجوباً منبعثا من مقام لطفه ورأفته بعباده ـ أن يقرن تنبيئه إنساناً بدلائل نيّرة لا تدع لمسارب الشك مجالاً في نفسه، كما أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، ليكون من الموقنين[١]. وكما «نودي يا مُوسىٰ. إنّي أنَا ربُّكَ»[٢] «ياموسى إنَّهُ أنَا الله الْعَزيزُ الْحَكِيمُ»[٣] «يا مُوسىٰ لا تَخَفْ إنّي لاَيَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ»[٤].

هذا هو مقتضى قاعدة اللطف، وقد بحث عنها علماء الكلام[٥]، وتتلخص في تمهيد سبيل الطاعة. فواجب عليه تعالى أنّ يمهّد لعباده جميع مايقرّبهم الى الطاعة ويبعدهم عن المعصية. وهذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد، وإلّا كان نقضاً لغرضه من التكليف. ومن ثم وجب عليه تعالى أن يبعث الأنبياء وينزل الشرائع ويجعل في الأُمم ما ينير لهم درب الحياة، أمّا الى سعادة فباختيارهم. أو الى شقاء فباختيارهم أيضاً[٦].

وطبقا لهذه القاعدة لايدع ـ تعالى ـ مجالاً لتدليس أهل الزيغ والباطل، إلّا ويفضحهم من فورهم «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ»[٧] فالحقّ دائما يعلو ولايعلى عليه، والحقّ والباطل كلاهما، على وضح الجلاء، لايكدّر وجه الحقّ غبارالباطل أبداً، «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذَا هُوَ زَاهِقٌ»[٨]. «إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذينَ آمَنُوا

(١) مقتبس من الآية: ٧٥ من سورة الانعام.

(٢) طه: ١١ـ١٢.

(٣) و(٤) النمل: ٩ـ ١٠.

(٥) علم منشعب عن الفلسفة الحكمية، يبحث عن أحوال المبدأ والمعاد في ضوء العقل وارشاد الشريعة.

(٦) راجع شرح تجريد الاعتقاد للعلّامة الحلي: ص ١٨١.

(٧) الحاقة: ٤٤ـ ٤٦.

(٨) الأنبياء: ١٨.

في الحـيّاةِ الدُّنْيـا»[١]. وهذا إنّما هـو نصـر واعتلاء مـبدئي، فالحـقّ دائمـاً ظاهر منصور، وأنّ رسـالة الأنـبياء دائمـاً تكـون هي الغـالبـة الظافرة، «ولقد سَبَقت كَلِمتُنا لِعبادِنا المُرسَلين. إنَّهُمْ لَهُم الْمَنصُورُونَ. وَإنَّ جُندَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ»[٢]. نعم «إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعيفاً»[٣].

قـال الإمام الصادق (عليه السـلام): «أبى الله أن يـعرّف باطلا حقّاً. أبى الله أن يجعل الحقّ في قلب المؤمـن باطلا لاشك فيه. وأبى الله أن يجعـل الباطل في قلب الكافـر المخالف حقّاً لاشـكّ فيه. ولولم يجعـل هذا هكذا ما عُـرف حقّ من باطل».

وقال: «ليس من باطـل يقوم بازاء الحقّ، إلّا غلب الحـقّ البـاطل. وذلك قوله تعالى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذَا هُوَ زَاهِقٌ»»[٤].

هذا.. وقد سأل زرارة بن أعين، الإمام أبا عـبدالله الصادق (عليه السلام) عـن نفس الموضوع قال: قلـت لأبي عبدالله: كيف لم يخف رسول الله (صلى الله عـليه وآلـه) فيما يأتيـه من قبل الله أن يـكون ممّـا يـنزع به الشيـطان؟ فقـال (عـليه السلام): «إن الله إذا اتخـذ عـبـداً رسـولاً، أنـزل عـليـه السـكـيـنـة والـوقار- أي الطمأنـينـة والاتزان الـفـكري- فـكان الذي يأتيـه من قبل الله، مثـل الذي يراه بعينه»[٥] أي يجعلـه في وضح الحقّ، لاغبار عليـه أبداً، فيرى الواقع ناصعاً جليّاً لايشـكّ ولا يضطـرب في رأيه ولا في عقله. وقـد أوضـح الإمـام (عليه السلام) ذلـك في حديث آخر، سئل (عـليه السلام): كيف علـمت الرسل أنّها رسل؟ قال: «كشف عنهم الغطاء»...[٦].

قـال العلّامـة الطبرسي: «إنّ الله لايـوحي الى رسولـه إلّا بالبـراهين الـنيرة

---

(١) غافر: ٥١. (٢) الصافات: ١٧١-١٧٣. (٣) النساء: ٧٦.

(٤) محاسن البرقي: كتاب مصابيح الظلم، ح ٣٩٤ و٣٩٥، ص ٢٢٢.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠١ ح ١٠٦ وبحار الأنوار ج ١٨ ص ٢٦٢ ح ١٦.

(٦) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٥٦ ح ٥٦.

والآيات البيّنة، الدالّة على أنّ ما يوحى إليه إنّما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولا يفزع ولا يفزّع ولا يفرق»[١].

وقال القاضي عياض: «لايصحّ ـ أي في حكمته تعالى، وهو إشارة الى قاعدة اللطف ـ أن يتصوّر له الشيطان في صورة الملك، ويلبس عليه الأمر، لا في أوّل الرسالة ولابعدها. والاعتماد ـ أي اطمئنان النبيّ ـ في ذلك دليل المعجزة. بل لايشكّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله الحقيقي إمّا بعلم ضروريّ يخلقه الله له، أو ببرهان جليّ يظهره الله لديه. لتتمّ كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلمات الله»[٢].

إذن فلابدّ أن يكون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) حين انبعاثه نبيّاً على علم يقين، بل عين يقين من أمره، لايشكّ ولا يضطرب، مستيقنا مطمئناً باله مرعيّاً بعناية الله تعالى ولطفه الخاص، منصوراً مؤيّداً، ولا سيّما في بدء البعثة فيأتيه الناموس الأكبر وهو الحقّ الصراح معايناً مشهوداً، وهي موقعيّة حاسمة لاينبغي لنبيّ أن يتزلزل فيها أو يتروّع في موقفه ذلك الحرج العصيب: «إِنِّي لاَيَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ».

* * *

وأيضاً فإنَّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) لم يختره الله لنبوّته، إلاّ بعد أن أكمل عقله وادّبه فأحسن تأديبه. وعرّفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض مايستأهله للقيام بمهمة السفارة وتبليغ رسالة الله الى العالمين. كما فعل بإبراهيم الخليل (عليه السلام) قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله) من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره...[٣]» وقال الإمام

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٨٤.

(٢) رسالة الشفا: ص ١١٢.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة: ١٩٢ ص ٣٠٠ صبحي الصالح.

العسكري (عليه السلام): «إنَّ الله وجد قلب محمد (صلى الله عليه وآله) أفضل القلوب وأوعاها فاختاره لنبوّته...»[١]. كما قال ـ ص ـ: «ولابعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع «عقول أمّته...»[٢].

قال العلّامة المجلسي: «منذ أن أكمل الله عقله، لم يزل مؤيّداً بروح القدس يكلّمه ويسمع صوته ويرى الرؤيا الصادقة، حتى بعثه الله نبياً رسولاً»[٣].

والدلائل على أنّه (صلى الله عليه وآله) منذ بدايته كان مورد لطفه تعالى وعنايته الخاصّة كثيرة، وقد عرف قومه فيه النبوغ والجدارة الذاتيّة، ولمسوا فيه الصدق والأمانة والذكاء والفطنة، فوجدوه مزيجاً من الاستقامة وحصافة العقل، حتى حبّب الى الناس جميعاً ولقّبوه بالصادق الأمين، أميناً في رأيه، وأميناً في سلوكه.

وكان قبيل بعثته تظهر له علائم النبوّة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته وهو في سن السابع والثلاثين ـ كما في رواية علي بن ابراهيم القمي[٤] ـ فكان يرى الرؤيا الصادقة، وكان يختلي بنفسه في غار حراء، متفكراً في أسرار الملكوت، متعمّقاً في ذات الله متطلّعاً سرّ الخليقة، حتى فجأه الحقّ وقد بلغ سن الأربعين. فقد كان ممهّداً نفسه لذلك، عارفاً بسمات أمر قد أشرفت طلائعه منذ حين.

وهكذا إنسان لايفزع ولا يفرق ولا يظنّ بنفسه الجنّة أو عارضه سوء، ليلتجأ الى امرأة لاعهد لها بأسرار النبوّات أو رجل[٥] كان حظّه من العلم أن قرأ كتبا محرّقة وآثاراً بائدة، لم يثبت آنذاك أنّه لمس حقائق ومعارف من الملك والملكوت كانت موجودة فيها لحدّ ذاك، غير ممسوخة عن فطرتها الأُولى.

---

(١) بحارالأنوار: ج١٨ ص٢٠٥-٢٠٦ ح٣٦.
(٢) الكافي الشريف ج١ ص١٢-١٣.
(٣) بحارالأنوار: ج١٨ ص٢٧٧.
(٤) بحارالأنوار: ج١٨ ص١٨٤ ح١٤ وص١٩٤ ح٣٠.
(٥) هو: ورقة بن نوفل ابن عم خديجة.

على أنّ النّبي محمداً (صلى الله عليه وآله) كان أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين وخاتم سفراء ربّ العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه ونفسه يتلوىٰ في أحضان القلق والاضطراب، خائفاً على نفسه مسّ جنون أو الاستحواذ على عقله الكريم ـ على ماجاءت في روايات آتية لاقيمة لها عندنا ـ.

إذن فقد كان موقف النبيّ (صلى الله عليه وآله) تجاه نزول الحقّ عليه ـ في بدء البعثة ـ موقف إنسان واع بجليّ الأمر، عارف بحقيقة الحقّ النازل عليه، في اطمئنان بالغ وسكون نفس وانشراح صدر، لم يتردّد ولم يشك ولم يضطرب، كمالم يفزع ولم يفرق. وسنذكر قصّة بدء البعثة على ماجاءت في روايات أهل البيت (عليهم السلام) وهي تشرح جوانب من موقف النبي (صلى الله عليه وآله) آنذاك ملؤها عظمة وإكبار وأبّهة وجلال.

قصة ورقة بن نوفل:

تلك كانت قصة البعثة، وفق ماجاءت في أحاديث اهل البيت، وهم أدرى بما في البيت، وإليك الآن حديثاً آخر عن بعثة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) على ماجاءت في روايات غيرهم:

روى البخاري ومسلم و ابن هشام والطبري وأضرابهم: «بينما كان النبي (صلى الله عليه وآله) مختلياً بنفسه في غار حراء إذ سمع هاتفا يدعوه، فأخذه الروع ورفع رأسه وإذا صورة رهيبة هي التي تناديه، فزادبه الفزع وأوقفه الرعب مكانه، وجعل يصرف وجهه عمّا يرى، فإذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً ويتقدّم ويتأخّر فلاتنصرف الصورة من كلّ وجه يتّجه إليه. وأقام على ذلك زمناً، ذاهلاً عن نفسه، وكاد أن يطرح بنفسه من حالق من جبل، من شدّة ما ألمّ به من روعة المنظر الرهيب. وكانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتمس النبيّ (صلى الله عليه وآله) في الغار فلايجده، حتى إذا انصرفت الصورة، عاد هو راجعاً، وقلبه مضطرب ممتلئاً رعبا وهلعاً، حتى دخل على خديجة وهو يرتعد فرقاً

كـأن بـه الحـمّى، فنظر الى زوجه نظـرة العـائذ المستنـجـد، قـائلا: يا خديجة: مالي؟! وحدّثهابـمارآى، وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيـرته. قال: لـقد اشفقت على نفسـي، وما أراني الّا قد عرض لي[١] وقال: إنَّ الأبعد- يعني نفسه الكريمة- لكاهن أو مجنون!

فرنـت إليـه زوجه الوفـيّة بـنظرة الإشفاق، وقالـت: كلّا يـا ابن عم، ابشر واثبت، والله لايخزيك أبـداً. فوالـذي نفس خديجة بيده، إنّي لأرجـو أن تكون نبيّ هذه الأمّة، إنَّك لتصـل الرحم، وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتعين على النوائب، وما أُوتيت بفاحشة قط. وهكذا طمأنته بحديثها المرهف.

ثم قامت بتجربة ناجحة: قالت: يا ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هـذا الذي يأتيك؟ قال: نـعـم. قالت: فإذا جاءك فاخـبرني به. فجاءه الملك كما كـان يأتيـه. فقال رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه): يا خديجـة، هذا هو قد جاءني. فقالـت: نعم، فقم يا ابن عم واجلس على فخذي اليسرى. فقام رسول الله (صلى الله عليـه وآله وسلم) فـجلس عليهـا. فقالت: هـل تراه؟ قال: نـعم. قالت: فتحوّل واقعـد على فخذي اليمنى، فتحوّل رسول الله (صلى الله عـليه وآله) فجلس عليها. فقالـت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت فتحوّل واجلس في حجري، فـتحول وجلس في حجرهـا، ثم تحسّرت[٢] وألقت خمارها، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس في حجـرها. فقالت: هل تراه يا ابن عم؟ قال: لا. فقالت: يا ابن عم، ابشروا ثبت، فوالله إنَّه لملك وما هو بشيطان.

ثم توكيداً لـمـا استنـتجته مـن تجربتها، انطـلقت الى ابن عمّها ورقـة بن نوفل وكان متنصّـراً قارئاً لـلكتب، فقصّت علـيه خبر ابن عمّها محمـد (صلى الله عليه وآلـه) فقـال ورقة: قـدّوس قدّوس لئن كـنـت صدقـتني يا خـديجة، فـقد جاءه الناموس الأكبر الـذي كـان يأتي موسى. فـقـولي له: فليثـبت. وأنّه لنبـيّ هذه

---

(١) قال ابن الأثير: أي أصابني مس من الجن.

(٢) أي كشفت عن نفسها.

الأُمّة. ولوددت أن أدرك أيّامه فأؤمن بـهوأنصره. فعادت خديجة الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخبرته بما قال، فعند ذلك اطمأنّ باله، وذهبت روعته، وأيقن أنّه نبيّ[١].

* * *

قلت: لاشكّ أنّ قصة ارتباع النبيّ (صلى الله عليه وآله) بتلك الصورة الفظيعة، اسطورة خرافة حاكتها عقول ساذجة، جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام. ومن ثم فهي إزراء بشأنهم الرفيع، وحطّ من منزلتهم الشامخة، إن لم تكن ضعضعة بأقوى دعامة رسالة الله!

أوّلاً: النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أكرم على الله من أن يروّعه في ساعة حرجة هي نقطة حاسمة في حياة رسوله الكريم، هي نقطة تحوّل عظيم، من إنسان كامل كان مسؤول نفسه، الى إنسان رسول هومسؤول أُمّة بأجمعها، كان قبل أن يصل الى موقفه هذا العصيب، يسير قدماً الى قمة الاكتمال الإنساني الأعلى، في سفرة خطرة كان مبدؤها الخلق ومنتهاها الحقّ تعالى. فكان يسير من الخلق الى الحقّ. والآن وقد وصل القمّة، فعاد من الحقّ، حاملاً للحّق، الى الخلق[٢].

فساعة البعثة هي الفترة الحاسمة، وهي الحلقة الواصلة بين السفرتين الذاهبة والراجعة، وهي موقف حرج، حاشا الله أن يترك حبيبه يكابد الأمرّين حينما بلغ قمة اللقاء والآن يريد أن يختاره رسولاً الى الناس، فيتركه يتلوّى في هواجس مخطرة، ويروّعه بتلك الصورة الفظيعة التي تكاد تذهب بنفسه الكريمة أو تستحوذ على عقله روعة المنظر الرهيب!!

---

(١) راجع سيرة ابن هشام: ج١ ص٢٥٢- ٢٥٥. وصحيح البخاري: ج١ ص٣- ٤. وصحيح مسلم: ج١ ص٩٧- ٩٩. وتاريخ الطبري: ج٢ ص٢٩٨- ٣٠٣. وتفسير الطبري ج ٣٠ ص ١٦١. وحياة محمد (محمد حسين هيكل): ص٩٥- ٩٦.

(٢) على ماجاء في تعبير الفيلسوف الإلهي، الحكيم صدرالدين الشيرازي تقدّم كلامه في ص٥٧.

أليس محمد (صلى الله عليـه وآلـه) أكرم على الله من إبراهيم الخليل ومـوسى الكليم وغيرهما من أنبياء عظام، لم يتركهم في ساعة العسرة، ليلتجأوا إلى إنسان غيره، حاشاه من ربّ رؤوف رحيم!!

ثانياً: إنّا لنربـأ بعلماء- هم أهل تحقيـق وتمحيص- أن يفضلّوا عـقليّة امرأة لاشأن لها وأسرار النبوّات، على عـقـلية إنسان كامل كـان قـد بلغ القمّة التي استأهلته لحمـل رسـالة الله. ثم تقـوم هي بتـجربة حاسـمة يجهلها رسول ربّ العالمين. ليطمئـن إلى قولتهـا. أو قـولة رجل كان شأنه أن كـان قـارئا للكتب، وليس لذلـك العـهد كتـب فيها حـقائق ومـعارف غير محرّفة قطـعيّـاً. ولم نعرف ماالذي وجـده رسـول الله (صلى الله عـليـه وآله وسلم) في قـولتهما فـكـان مـنشأ اطمئنانه، لم يجده في الحقّ النازل عليه من عندالله العزيز الحكيم؟!

ألم تـكن الرؤيـا الصادقة التي سبـقت البعثة، ولم يكـن تسليم الملك النازل عليـه حينها: السلام عـليك يـا رسول الله. وتسليم الشجـر والحجر كـلّما مرّ بهما في طريقه راجعـاً الى بيت خديجة. ولم يـكن عرفانه الـذاتي الذي كان يتعمّقه مدّة اختلائـه بحراء. كلّ ذلك لم يستوجب استيقانـه بالأمر، لـيستيقـن من طمأنة امـرأة أو رجل متنصّـر!! إن هـذا إلاّ إزراء فظيع بمقـام رسـالة الله، إن لم يكن مساً شنيعاً بكرامة رسول الله (صلى الله عليه وآله) المنيعة.

ثالثـاً: اختـلاف سرد القصّـة، بما لايـلتئم مع بـعضها البعض، لـدليل على كذبهـا رأساً. ففي رواية: انطلقـت خديجة لوحدها الى ورقة، فـأخبرته بماجرى. وفي اُخـرى: انطـلقت بي الى ورقـة وقـالـت: اسمع مـن ابـن أخـيك، فسألني فأخبرته، فـقال: هذا النامـوس الذي انزل على موسى. وفي ثالثة: لقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بـالبيت فقـال: يابن أخي، أخبـرني بما رأيت وسمعت. فأخبره رسول الله (صلى الله عليـه وآله وسلـم). فقال له ورقة: والذي نفسـي بيده إنّك لنبيّ هذه الأمّة.

ولئن أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصراً يعلمه. وفي رابعة: عن ابن عباس عن

ورقة بن نوفل. قال: قلت: يا محمد أخبرني عن هذا الذي يأتيك، يعني جبرائيل (عليه السلام) فقال: يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر[١]. وهذا ليس في روايات خديجة مع ورقة. على ماجاءت في الصحاح المتقدّمة. وفي خامسة: أنّ ابابكر دخل على خديجة، فقالت: انطلق بمحمد الى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه...[٢].

ثمّ لوصحّت القصّة، فلماذا لم يؤمن به ورقة، حين ذاك وقد علم أنّه نبي مبعوث؟!

فقد صح انّه مات كافراً لم يؤمن به. وقضيّة رؤيا النبي (صلى الله عليه وآله): كان ورقة في ثياب بيض. أيضاً مكذوبة وسندها مقطوع. وإلّا لسجّل اسمه فيمن آمن به. قال ابن عساكر: لا أعرف أحداً قال أنّه أسلم[٣] هذا وقد عاش ورقة الى زمن بعد البعثة، فقد روي انه مرّ ببلال وهويعذب[٤] قال ابن حجر: وهذا يدلّ على انّه عاش حتى ظهرت دعوته (صلى الله عليه وآله) ودعا بلالاً فأسلم. إذن فَلِمَ بقي على كفره ولم يسلم كما أسلم الآخرون؟ ولم لم ينصره كما نصره آخرون؟ وقد خالف عهده كما جاء في الأُسطورة.

الوحي لايحتمل التباساً:

هذا هوالموضوع الثاني ـفيما أشرنا سابقاًـ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لايخطأ فيما يوحى إليه، ولا يلتبس عليه الأمر قط. النبيّ كان عندمايوحى إليه، يكشف عن عينه الغطاء، فيرى الواقعيّة فيما يتصل بجانب روحه الملكوتي، منقطعاً عن صوارف المادّة، إنّه (صلى الله عليه وآله) حينذاك يلمس تجلّيات وإشراقات نوريّة تغشاه من عالم الملكوت، لينصرف بكليّته الى لقاء روح الله

---

(١) اسدالغابة: ج ٥ ص ٨٨ والرواية ضعيفة بروح بن مسافر. ولم يدرك ابن عباس ورقة.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ٢٤. (٣) الإصابة: ج ٣ ص ٦٣٣. (٤) نفس المصدر.

وتلقّي كلماته، فيرى حقيقة الحقّ النازل عليه بشعور واع وبصيرة نافذة، كمن يرى الشمس في وضح النهار، لايحتمل خطأً في إبصاره ولا التباساً فيما يعيه.

وهكذا الوحي إذ لم يكن فكرة نابعة من داخل الضمير، ليحتمل الخطأ في ترتيب مقدّمات استنتاجها. أو إبصاراً من بعيد ليتحمّل التباساً في الانطباق[١]. بل هي مشاهدة حقيقة حاضرة بعين نافذة. فاحتمال الخطأ فيه مستحيل.

* * *

تلك طريقة علميّة فلسفيّة[٢] تهدينا الى الاعتراف بعدم احتمال الوحي الخطأ أبداً. ومن ثم فإنّ شريعة الله النازلة على أيدي رسله الأُمناء، مصونة عن احتمال الخطأ رأساً.

وهناك طريقة أُخرىٰ عقليّة تحتّم لزوم عصمة الأنبياء، فيما يبلّغون من شرائع الله، يفصّلها علماء الكلام. وتتلخّص في أنّ النبيّ المبلّغ عن الله، يجب ـ في ضوء قاعدة اللطف ـ أن ينعم بصحّة كاملة في أجهزة إحساسه، وسلامة تامّة

---

(١) الخطأ إنّما يحتمل في مجالين: إمّا في مجال التفكير أو في مجال الإبصار الخارجي ـ مثلاً ـ وذلك لأنّ للاستنتاج الفكري شرائط وأحكاماً، إذا ما أهملها المتفكّر فسوف يقع في خطأ التفكير، وكذلك إبصار العين الخارجيّة إذا كان من بعيد، فربّما يقع الخطأ فيه من ناحية تطبيق ما عند النفس من مرتكزات ومعلومات على خصوصيّات يراها موجودة في العين الخارجيّة، فالخطأ إنّما هو في هذا التطبيق النفسي، لا في العين المشاهدة. لأنّ الإبصار عبارة عن انطباع صورة الخارج ـ وهي واقعيّة لا تتغيّر ـ في الشبيكة العصبيّة خلف بؤرة العين.

وهذه ظاهرة طبيعيّة تتحقّق ذاتياً إذا ما تحققت شرائطها. نعم كانت النفس هي التي تحكم على ماشاهدته العين بأنّه كذا وكذا، والخطأ إنّما هو في هذا الحكم، لا في ذاك الإبصار الطبيعي.

إذن فبما أنّ الوحي خارج عن الأمرين، لا تفكير ولا إبصار من بعيد ـ مثلاً ـ وإنّما هو لمس حقيقة حاضرة فلا موقع للخطأ فيه أصلاً.

(٢) راجع: ما كتبه الأُستاذ العلّامة الطباطبائي بهذا الصدد في رسالة الوحي «وحي يا شعور مرموز» ص ١٠٤.

في قوى مشاعره، وفي مقدرته العقليّة، فيكون مستقيماً في آرائه ونظريّاته، معتدلاً في خلقه وسيرته، مستوياً في خلقته وصورته. وبكلمة جامعة: يجب أن يختار الله لرسالته إنساناً كاملاً في خَلْقه وخُلُقه. كي لايتنفّر الناس من معاشرته، ويطمئنّوا الى مايبلّغه عن الله. وإلّا كان نقضاً لغرض التشريع.

فالنبيّ (صلى الله عليه وآله) معصوم من الخطأ والنسيان، ولا سيّما فيما يخصّ تبليغ أحكام الشريعة. وهذا إجماع من المسلمين. ومن غيرهم من عقلاء أذعنوا برسالة الأنبياء. ولولاه لكان الالتزام بشرائع الدين سفهاً يأباه العقل[١].

* * *

هذا مضافاً الى ما عهدالله لنبيّه بالرعاية والحفظ: «سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ»[٢]. كان (صلى الله عليه وآله وسلم) في بدء نزول القرآن، يخشى أن يفوته شيء فكان يساوق جبرئيل فيما يلقي عليه كلمة بكلمة فنهي عن ذلك: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ فَاذا قراناهُ فَاتَّبِعْ قُرآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيانَهُ»[٣] «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرآنِ مِنْ قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً»[٤] قال ابن عباس: فكان رسول الله (صلى الله عليه آله) بعد ذلك إذا أتاه جبرئيل استمع له، فإذا انطلق قرأ كما أقرأه[٥]، وأخيراً فإنَّ قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[٦] يقطع أيّ احتمال الدسّ والتزوير في نصوص القرآن الكريم.

* * *

وأمّا احتمال تلبيس إبليس ليتدخّل فيما يُوحى الى النبيّ (صلى الله عليه

---

(١) راجع: مباحث العصمة من شرح تجريد الاعتقاد: المسألة الثالثة من المقصد الرابع من مباحث النبوّة العامّة ص١٩٥.

(٢) الاعلى: ٦.

(٣) القيامة: ١٦ـ ١٩.

(٤) طه: ١١٤.

(٥) الطبقات: ج١ ص١٣٢.

(٦) الحجر: ٩.

وآله) ويجعل من تسويلاته الشيطانيّة في صورة وحي ويلبسه على النبيّ (صلى الله عليه وآله) ليزعمه وحياً من الله. فهو أمر مستحيل، لأنّ الشيطان لايستطيع الاستحواذ على عقليّة رسل الله وعباده المكرمين: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ»[١]. ومتناف مع قوله تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ...»[٢]. وقوله تعالى: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»[٣]. وقد قال الشيطان: «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي»[٤] ومتناف مع قاعدة اللطف الآنفة، ومتناقض مع حكمته تعالى في بعث الأنبياء (عليهم السلام) في شرح سبق تفصيله.

نعم ذهب أصحاب الحديث من العامّة الى إمكان استحواذ الشيطان على عقليّة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما جاءت روايتهم لقصّة الغرانيق، الأمر الذي نراه مستحيلا إطلاقاً، ومن ثم فهي أسطورة وضعها من يريد الامتهان بمقام الرسالة، ليعبّر بها على عقول البسطاء، فكانت غنيمة بأيدي أعداء الإسلام. وإليك نصّ الأُسطورة ونقدها تباعاً:

أسطورة الغرانيق:

روى ابن جرير الطبري بإسناد زعمها صحيحة، عن محمدبن كعب، ومحمد بن قيس، وسعيدبن جبير، وابن عباس، وغيرهم: أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان في حشد من مشركي قريش، بفناء الكعبة، أو في ناد من أنديتهم. وكانت تساوره نفسه لو يأتيه شيء من القرآن يقارب بينه وبين قومه الألدّاء. إذ كان يتألّم من مباعدتهم، وكان يرجو الائتلاف معهم مهما

---

(١) الاسراء: ٦٥.

(٢) الحاقة: ٤٤ـ ٤٥.

(٣) النجم: ٣ـ ٥.

(٤) إبراهيم: ٢٢.

كلّف الأمر. فلمّا نزلت عليه سورة النجم، فجعل يتلوها حتى إذا بلغ: «أفرأيتم اللّات والعزّى. ومناة الثالثة الأُخرىٰ»[1] ألقى عليه الشيطان: «تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهنّ لترتجى»[2] فحسبها وحياً، فقرأها على ملأ من قريش، ثم مضى وقرأ بقيّة السورة. حتى إذا أكملها سجد وسجد المسلمون، وسجد المشركون أيضاً، تقديراً بما وافقهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في تعظيم آلهتهم ورجاء شفاعتهم. وطار هذا النبأ حتى بلغ مهاجري الحبشة، فجعلوا يرجعون الى بلدهم مكة. فرحين بهذا التوافق المفاجئ. كما فرح النبيّ (صلى الله عليه وآله) أيضاً بتحقيق أُمنيته القديمة على ائتلاف قومه.

ويقال: إنَّ شيطاناً أبيض هو الذي تمثّل للنبيّ في صورة جبرئيل وألقى عليه تينك الكلمتين.

ويقال: كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) يصلّي عند المقام إذ نعس نعسة فجرت على لسانه هاتان الكلمتان من غير شعور بهما.

ويقال: النبيّ (صلى الله عليه وآله) هو الذي تكلّم بهما من تلقاء نفسه حرصاً على ائتلاف قلوب المشركين. ثم ندم من فعله هذا الذي كان افتراء على الله!

ويقال: إنَّ الشيطان أجبره على النطق بهذا الكلام... الخ.

ثم لمّا أمسى الليل أتاه جبرائيل، فقال له: اعرض عليّ السورة. فجعل النبيّ (صلى الله عليه وآله) يقرأها عليه حتى إذا بلغ الكلمتين قال جبرائيل: مه، من أين جئت بهاتين الكلمتين فتندّم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: لقد افتريت على الله، وقلت على الله مالم يقل؟! فحزن حزنا شديداً، وخاف من الله خوفاً كبيراً.

---

(١) النجم: ١٩-٢٠.

(٢) الغرانيق: جمع الغرنوق. وهو الشاب الناعم الأبيض. وفي الأصل: اسم لطير الماء (مالك الحزين) وهو تشبيه آلهة المشركين بطيور بيض متحلّقة في أجواء السماء، كناية عن قربهم من الله.

ويقال: إنَّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال لجبرائيل: انَّه أتاني آتٍ على صورتك فألقاها على لساني فقال جبرائيل: معاذالله أن أكون أقرأتك هذا.. فاشتدّ ذلك على رسول الله. فنزلت: «وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَ تَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُلَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً»[١].

فاشتدّ حزن رسول الله (صلى الله عليه وآله) على هذه البادرة المباغتة، ولم يزل مغموماً مهموماً، حتى نزلت عليه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[٢] وكانت تسلية لقلبه الحزين، فعند ذلك سرى عنه الهمّ وطابت نفسه[٣].

* * *

نقد الحديث سنداً:

تلك أُسطورة الغرانيق، مفتراة على النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله) وقد أولع المستشرقون والطاعنون في الدين الإسلامي الحنيف، بهذه الأُسطورة المصطنعة وأذاعوها وأثاروا حولها عجاجة من القول البذيء[٤].

في حين أنّها اكذوبة مفتعلة، صنعتها قرائح القصّاصين، ونسبوها الى بعض التابعين، ومن الصحابة الى ابن عباس، ودلائل الكذب والافتراء بادية على

---

(١) الاسراء: ٧٣ـ ٧٥.

(٢) الحج: ٥٢ وسنتكلم عن الآيتين في نهاية المقال.

(٣) تفسير الطبري: ج١٧ ص١٣١ـ ١٣٤. والدرالمنثور: ج٤ ص١٩٤ وص٣٦٦ ـ٣٦٨. وفتح الباري: ج٨ ص٣٣٣.

(٤) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان: ص٣٤.

محيّاها القذر.

أولا: لم يتصل تسلسل سندالحديث الى صحابي إطلاقاً. وإنّما أسند الى جماعة من التابعين ومن لم يدرك حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليه فالحديث مرسل غير موصول السند الى من شاهد القضية ـ فرضاً ـ.

وأمّا النسبة الى ابن عباس فلا تقل عن غيرها، بعد أن كانت ولادة ابن عباس في السنة الثالثة قبل الهجرة، فلم يشهد القصة بتاتاً، وإنّما نقلت إليه على الفرض.

فالرواية من جميع وجوهها غير موصولة الإسناد الى شهود القصة لوصحّت الواقعة.

وقواعد فنّ التمحيص في اسناد الروايات تأبى جواز الاحتجاج بمثل هذا الحديث المرسل.

هذا وقد شد ابن حجر في قوله: فيها ثلاث مراسيل رجالها ثقات على شرط الصحّة. ثم أخذ يتهجّم على من زعمها مختلقة، قائلا: إذا كثرت الطرق وتباينت مخارجها، دلّ ذلك على أنّ لها أصلاً، قال: وتلك المراسيل يحتجّ بها ولو عند من لايحتجّ بالمراسيل، لاعتضاد بعضها ببعض[١].

أقول: وهل الكذبة إذا راجت تنقلب في ماهيّتها وتصبح صادقة؟!

ثانياً: شهادة جلّ ائمّة الحديث بكذب هذا الخبر، وأنّ الطرق إليه ضعاف واهية، فهو فيما يشتمل عليه من السند أيضا ساقط في نظر الفنّ.

قال ابن حجر نفسه: وجميع الطرق الى هذه القصة ـ سوى طريق ابن جبير ـ إمّا ضعيف (يكون الراوي غير موثوق به أو مرمياً بالوضع والكذب) أو منقطع (أي كانت حلقة الوصل بين الراوي الأوّل والراوي الأخير مفقودة)[٢] وسنذكر أنّ بلاء طريق ابن جبير هو الإرسال والضعف أيضاً .

---

(١) فتح الباري: ج٨ ص٣٣٣. (٢) نفس المصدر.

وقال أحمد بن الحسين البيهقي- أكبر ائمّة الشافعيّة، مشهوراً بدقّة النقد والتمحيص-: «هذا الحديث من جهة النقل غير ثابت ورواته مطعون فيهم»(١).

وقال أبوبكر ابن العربي: «كلّ مايرويه الطبري في ذلك باطل لاأصل له»(٢) وصنّف محمدبن إسحاق بن خزيمة رسالة، فنّد فيها هذا الحديث المفتعل، ونسبه الى وضع الزنادقة(٣).

وقال القاضي عياض: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحّة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنّما أولع به وبمثله المفسّرون والمؤرّخون المولعون بكلّ غريب، المتلقّفون من الصحف كلّ صحيح وسقيم. قال: وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلي المسلمون ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلّق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته»(٤).

وأمّا طريق ابن جبير فذكر أبوبكر البزّاز: أن هذا الحديث لم يسنده عن شعبة إلّا امية بن خالد وغيره، يرسله عن سعيدبن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ثم يذكر شكّه في صحّة الإسناد الى ابن عباس أيضاً فيما اسند الى ابن جبير(٥) وأمّا طريق الكلبي الى ابن عباس عن طريق أبي صالح فوهون بالاتفاق، قال جلال الدين السيوطي: هي أوهى الطرق(٦).

ثالثاً: اتفاق كلمة المحقّقين من علماء الإسلام قديماً وحديثاً، على انّه حديث مفترى وحكموا عليه بالكذب الفاضح، غير آبهين بجانب السند، متصل أم منقطع، صحيح أم سقيم، لأنّه قبل كلّ شيء متناقض مع صريح القرآن الذي «لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»(٧)

---

(١) و(٣) تفسير الرازي: ج ٢٣ ص ٥٠.
(٢) فتح الباري: ج ٨ ص ٣٣٣.
(٤) الشفا: ص ١١٧.
(٥) نفس المصدر: ص ١١٨.
(٦) الإتقان: ج ٢ ص ١٨٩.
(٧) فصلت: ٤٢.

وهادم لأقوى اسس الشريعة وأقوم دعامته الرصينة.

قال الشريف المرتضى: فأمّا الأحاديث المرويّة في هذا الباب فلا يلتفت إليها، من حيث أنّها تضمّنت ما قد نزّهت العقول الرسل (عليهم السلام) عنه. هذا لولم تكن في أنفسها مطعونة ضعيفة عند أصحاب الحديث. وكيف يجيز ذلك على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من يسمع قول الله تعالى: «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ». وقوله: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ» وقوله: «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ»... ثمّ اخذ في توضيح الاستدلال[١].

وقال الإمام الفخر: هذه رواية عامّة المفسّرين الظاهريّين. وأمّا أهل التحقيق فيرونها باطلة موضوعة، واحتجّوا عليها بوجوه من العقل والنقل[٢].

وقال السيد الطباطبائي: الأدلّة القطعيّة على عصمة النبيّ (صلى الله عليه وآله) تكذّب متن الحديث، وإن فرضت صحّة اسناده. فن الواجب تنزيه جانب قدسيّة النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن أمثال هذه الرذائل التي تمسّ كرامة الأنبياء[٣].

وتكلّم القاضي عياض في تفنيد هذا الحديث بوجوه عديدة اقتبسنا منها فصولا في هذا العرض. وأخيراً أخذ الدكتور حسين هيكل في تفنيد القصة باسلوب حديث، لخّصناه في نهاية المقال.

نقد الحديث مدلولاً:

هذا الحديث، فضلا عن سنده الموهون، فإنّ مضمونه باطل على كلّ تقدير:

أوّلا: مناقضته الصريحة مع كثير من نصوص القرآن الكريم في شتّى الجهات.

---

(١) تنزية الأنبياء: ص١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) التفسير الكبير: ٢٣ ص ٥٠.

(٣) تفسر الميزان: ج ١٤ ص ٤٣٥.

ثانياً: منافاته الظاهرة مع مقام عصمة الأنبياء، الثابتة بدليل العقل والنقل المتواتر والإجماع.

ثالثاً: عدم إمكان إلتئامه مع سائر آيات السورة نفسها، لحناً وأسلوباً، بحيث لايمكن التباس هذا الجانب على من يعرف أساليب الكلام الفصيح، وبالأحرى أن لايلتبس الأمر على أفصح من نطق بالضاد، وعلى أولئك الحضور، وهم صناديد قريش وأفلاذ العرب.

وتوضيحاً لهذه الجوانب الثلاث الخطيرة نستعرض مايلي:

١ـ مناقضته مع القرآن:

إنّا لنربأ بمسلم نابه ـ فضلا عن ناقد خبير كابن حجرـ أن يتسلّم صدق هذا الحديث المفتعل، نظراً لما زعمه من صحّة إسناده المراسيل، ثم لايتدبّر في متنه الفاسد، الظاهر التنافي مع كثير من نصوص الكتاب العزيز، وإليك طرفاً من ذلك:

أـ تبدأ السورة بقوله تعالى: «والنَّجْمِ إذَا هوىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوىٰ. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوىٰ. إن هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ»(١).

وهي شهادة صريحة من الله، بأنّ محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لايضلّ ولايغوى ولاينطق إلّا عن وحي من الله، يعلّمه الروح الأمين.

فلو صحّ ماذكروه في رأس الآية العشرين، لكان تكذيباً فاضحاً لهذه الشهادة، وتغليباً لجانب الشيطان على جانب الرحمان، وهو القائل تعالى: «إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعِيفاً»(٢). والقائل: «كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»(٣).

فكيف ـ ياترى ـ يتغلّب إبليس على ضمان يضمنه الله تعالى، فيبطله

---

(١) النجم: ١ـ ٥. (٢) النساء: ٧٦. (٣) المجادلة: ٢١.

صريحاً، قبل أن يفرغ من كلامه عزّشأنه؟! وهل يتغلّب ضعيف في كيده على قوي في إرادته؟! وهل هذا إلّا تهافت باهت، وكلام فارغ، لايستطيع عاقل تصديقه!

ب- وأيضاً فإنّه تعالى يقول: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ»: كناية عن أنّ أحداً لايستطيع التقوّل على الله، تلبيساً للحقيقة إلّا ويهلكه الله من فوره. الأمر الذي تقتضيه حكمته تعالى، جرياً مع قاعدة اللطف، وقد سبقت الإشارة إليها.

أفهل ترى -بعد هذا التأكيد- يستطيع إبليس، وهو صاحب الكيد الضعيف أن يتقوّل على الله، ويلبس الأمرعلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما يحسبه وحياً آتياً به جبرائيل الأمين؟! إذن فأين الضمان الذي ضمنه الله تعالى الغالب على أمره، وتعهّده على نفسه في الآية المذكورة؟!

ج- وقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» فقد ضمن تعالى سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين، وحفظه عن دسائس المعاندين، أفهل يعقل -بعد ذلك- أن يترك إبليس وشأنه في سبيل التلاعب بالذكر الحكيم، فور نزوله على رسوله الكريم؟! وهل هذا إلّا تهافت في الرأي، وإبطال لضمان الله؟! ومعه لا تبقى ثقة بما وعد اللهُ المؤمنين من النصر والغلبة، تعالى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً!!

د- وقال تعالى: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِين آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» وقال: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً». فكيف نجوّز-بعد هذا الضمان الصريح المؤكّد- أن يتسلّط إبليس على اخلص عبادالله المكرمين، فيلبس عليه ناموس الكبرياء، وفي أمسّ شؤون رسالته المضمونة؟!

على أنّ القرآن يصرّح: أن لا سلطة لإبليس على أحد إطلاقاً، سوى وسوسته الخدّاعة ودعوته الى شرور، أمّا التدخل عمليّاً في شؤون الخلق أو الخالق، فهذا

لاسبيل لإبليس إليه إطلاقاً، وقد حكى الله سبحانه عن لسان إبليس: «ومَا كانَ لِيَ عَلَيْكُم مِنْ سُلْطانٍ إلَّا أن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي».

٢ ـ منافاته لمقام العصمة:

قال القاضي عياض: «وقد قامت الحجّة وأجمعت الامّة على عصمته (صلى الله عليه وآله) ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، أمّا تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا، من مدح آلهة غيرالله، وهو كفر. أو أن يتسوّر عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن، حتى يجعل فيه ماليس منه، ويعتقد النبي (صلى الله عليه وآله) أنّ من القرآن ماليس منه، حتى ينبهه جبرائيل (عليه السلام) وذلك كلّه ممتنع في حقّه (صلى الله عليه وآله).

أو يقول النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر. أو سهواً، وهو معصوم من هذا كلّه.

وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع عصمته (صلى الله عليه وآله) من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لاعمداً ولاسهواً.

أو أن يتشبّه عليه ما يلقيه الملك ممّا يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقوّل على الله مالم ينزل عليه، وقدقال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ... الآية». وقال تعالى: «إذن لأَذَقْناك ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ... الآية»[1].

وأيضاً فلولا العصمة الملحوظة في أداء رسالة الله، لزالت الثقة بالدين، ولأخذت الشكوك مواضعها من أحكام وتكاليف وشرائع يبلّغها النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن الله تعالى!!

وامتداداً لجانب عصمته (صلى الله عليه وآله) وأن لاسبيل لإبليس الى

---

(١) الشفا: ج٢ ص١١٨ ـ ١١٩.

شأن من شؤونه المعتصمة بعصمة الله تعالى، قال: «من رآني فقد رآني فإنّ الشيطان لا يتمثّل بي»[١]. وقد فهم العلماء من هذا الحديث قاعدة كليّة: لا يستطيع إبليس التمثّل بأيّ وليّ من أولياء الله العباد المخلصين، وبالأحرى: عدم استطاعته التمثّل بجبرائيل، ملك الوحي المقرّب الأمين!!

إذن فأنّى لإبليس التلاعب بوحي السماء، أو أن ينتحل صورة رسول من رسل الله الأكرمين! كلاّ، «لاَيَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ»[٢].

٣- تهافته مع آي السورة:

قال القاضي عياض- أيضاً-: «ووجه ثان، وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً، وذلك أنّ هذا الكلام لو كان- كما روي- لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذمّ، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممّن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمّل، فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه»[٣].

أفهل يتصوّر بشأن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وهو العارف بمواقع الكلام، الناقد لأفصح أقوال العرب الفصحاء، أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط، لا يتناسب وسائر جمل وآيات كانت تنزل عليه حينذاك ؟! أم كيف ينسجم ماذكروه مع قوله تعالى: «إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ»[٤] أم كيف يقتنع المشركون- وهم أهل نقد وفصاحة- بتلك المجاملة المفضوحة: يقترن مدح مشكوك، بذلك القدح الصارم،

---

(١) صحيح مسلم: ج٧ ص٥٧.

(٢) الصافات: ٨.

(٣) الشفا: ج٢ ص١١٩.

(٤) النجم: ٢٣.

ليأخذوه تقارباً مبدئيّاً بين إشراكهم والدعوة التي قام بها محمد (صلى الله عليه وآله) والتي قامت على محق الشرك وإخلاص الدين الحنيف. ولاسيّما مع تعقيبها بقوله أيضاً: «وكَم مِن مَلَكٍ في السَّماواتِ لاَ تُغْني شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً»[1] أفهل يلتئم هذا الكلام التوحيديّ الخالص مع تلك الاكذوبة: «وإن شفاعتهنّ لترتجى»؟!

* * *

وأخيراً فلو صحّت الحكاية لشاعت وذاعت، ولأخذها المشركون مستمسكاً في وجه المسلمين طول الدعوة، ولم يصدّقوا النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعواه النسخ مهما كلّف الأمر. هذا في حين أنّ التاريخ لم يضبط من تلك الأُقصوصة المفتعلة سوى حكايتها عن اناس تأخروا عن ظرفها بزمان بعيد ولم يسجّل التاريخ من يقول: حضرتها! الأمرالذي يجعلنا قاطعين بكذبها. ولعلّها من الإسرائيليّات المفضوحة التي نسجتها أيدي النكاة بالإسلام، في عهدسطة المظالم على أرجاء البلاد الإسلاميّة، في ظلّ حكومة بنيّ اميّة أعداء الدين والقرآن، وهذا هو الأرجح في نظرنا. وفي فصول هذا الكتاب الآتية يتّضح موقف هذه الفئة الباغية على الإسلام أكثر.

* * *

قال الأُستاذ هيكل: «حديث الغرانيق حديث ظاهر التهافت، ينقضه قليل من التمحيص. وهو بعد حديث ينقض ما لكلّ نبي من العصمة في تبليغ رسالات ربّه. فمن العجب أن يأخذ به بعض كتّاب السيرة وبعض المفسّرين المسلمين. ولذلك لم يتردّد ابن إسحاق حين سئل عنه في أن قال: إنّه من وضع الزنادقة. لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فاستندوا الى قوله تعالى: «وَإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ». والى قوله: «إلّا إذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطانُ» ويضيف (سير وليم موير) أنّ مرجع المسلمين الذين هاجروا الى

---

(١) النجم: ٢٦.

الحبشة بعد ثلاثة أشهر من إقامتهم هناك لدليل قاطع على صحّة هذه القصة.

وهذه الحجج التي يسوقها القائل بصحّة حديث الغرانيق، حجج واهية لا تقوم أمام التمحيص: أمّا رجوع المسلمين فكان سببه اضطراب سياسيّ، عمّ أرجاء الحبشة على أثر ثورة جديدة قامت فيها.

أمّا الاحتجاج بالآيات فاحتجاج مقلوب، لأنّ الآية الأُولى لا تشي بوقوع الأمر: «وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ».

فالآية تقول: إنَّ الله ثبّته فلم يفعل. وأمّا آية التمنّي فلا صلة لها بحديث الغرانيق، وقد تقدّم شأنها.

ودليل آخر أقوى وأقطع: سياق السورة وعدم احتماله لمسألة الغرانيق، فإنّها ذمّ صريح، ولهجة تقريع لا ينسجم وإدراج هكذا جملة، الأمر الذي لا يكاد يخفى على العرب آنذاك.

وأيضاً فإنّ وصف آلهة قريش بالغرانيق لم يأت في نظمهم ولا في خطبهم ولا شيء من معنى الغرنوق يلائم معنى الآلهة التي وصفها العرب ـ كما قاله الشيخ محمد عبده ـ.

وبقيت حجّة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرانيق هذه، من حياة محمد نفسه، «فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرَّب عليه الكذب قط، حتى سمّي الأمين. وكان صدقه أمراً مسلّماً به من الناس جميعاً، فكيف يصدق إنسان أنّه يقول على ربّه مالم يقل، ويخشى الناس والله أحقّ أن يخشاه! هذا أمر مستحيل، يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القويّة الممتازة التي تعرف الصلابة في الحقّ ولا تداجي فيه لأي اعتبار»[1].

* * *

والآيتان ـ من سورة الاسراء وسورة الحج ـ لا تمسّان قصة الغرانيق في شيء،

---

(١) حياة محمد (محمد حسين هيكل): ص ١٢٤ ـ ١٢٩.

وإنّما تعنيان شيئاً آخر ذكره المفسّرون. وسيأتي تفصيل الكلام فيهما في خاتمة الجزء الثالث من هذا الكتاب عند التعرض لمسألة العصمة عند الكلام عن عصمة خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله) واليك الآن اجمال الكلام فيهما:

أمّا الآية من سورة الاسراء: «ولَوْلا أنْ ثبّتناك لَقَدْ كِدتّ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً...» فهي - كما أشار إليه هيكل- صريحة في أنّه (صلى الله عليه وآله) لم يفعل... بدليل «لولا» الامتناعيّة.. فهي إن دلّت فإنّما تدلّ على أنّ مقام عصمته (صلى الله عليه وآله) التي هي عناية من الله خاصّة بأوليائه المنتجبين هي التي تحول دائماً دون ارتكاب أيّة رذيلة مهما كانت صغيرة أو كبيرة..

وكم حاول أهل الزيغ والفساد أن يميلوا بمنهج الإسلام المستقيم، سواء بدسائسهم حال حياة الرسول (صلى الله عليه وآله) أم بعد وفاته.. ولكن أنّى لهم التناوش من مكان بعيد.. إنّا نَحْنُ نَزّلْنا الذّكْرَ وَإنا لَهُ لَحافِظُونَ.

فالآية تضمين بسلامة هذه الشريعة دون تحريف المبطلين.. وكافُ الخطاب إنّما وردت من باب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة».. كما ورد في التفسير.. وليكون ذلك اعتباراً لأولياء المسلمين طول عهد التاريخ أبداً..

وكذا الآية من سورة الحج: «وَما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلا نَبيٍ إلّا إذَا تَمَنّى ألْقىٰ الشَّيْطانُ في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيْطانُ ثُمّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ»... لامساس لها بقصّة الغرانيق.. بعد أن كانت تشير الى ظاهرة طبيعيّة كانت تخالج نفوس كبار المصلحين أبداً.. وهي: تحكيم مباني دعوتهم الإصلاحية، وتدعيم أُسسها وقوائمها، دون تضعضع أو ضياع أوفساد، وأن تطبّق شريعة الله عامّة الخلائق وكافّة الأُمم، وأن تزدهر معالمها وتزهو أنوارها في ارجاء العالم المعمور.. هذه هي أُمنية كلّ رسول أونبيّ، بل وكلّ قائم بالإصلاح خالصاً مخلصاً له الدين[١]... غير أنّ دسائس أهل الزيغ والفساد..

---

(١) وقد عبّرعنه في لسان أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) بالمحدث،أي الملهم بأُصول الخير ومناشئ

←

قـد تحـول دون تحقق هـذه الأُمـنـية.. لكنّه حـوؤل لاقـرار لـه.. لأنّه من كيد الشـيطـان.. وإنّ كـيـد الشـيطـان كـان ضـعـيفـاً، وقـد كـتـب الله لأغـلـبنّ أنا ورسلي.. إنّـا لـننصر رسلـنا والـذيـن آمنوا في الحـيـاة الدنيـا.. إنّ الله قويّ عزيز.. بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.. أمّا الزبد فيذهب جفاء، وأمّا مايـنفع الناس فيمكث في الأرض.. فهذه الآية أيضاً ضمان لبقاء هذا الـدين وسـلامته عـن تطاول أيـدي المحرّفين. انّـا نحن نزّلـنا الـذكر وإنّـا له لحافظون.

البركات، بإشراق ملكوتيّ مفاض عليه من عند ربّ العالمين. راجع تفسير الصافي: ج١ ص ١٣٠.

نزول القرآن

* بدء نزول الوحي.
* بدء نزول القرآن.
* فترة ثلاث سنوات.
* آراء وتأويلات.
* أوّل مانزل من القرآن.
* آخر مانزل من القرآن.
* التعريف بالمكيّ والمدني
* ترتيب النزول.
* سورمختلف فيها.
* آيات مستثنيات.

نزول القرآن

هناك مسألة ذات أهمية تمسّ جانب نزول الوحي قرآناً، وارتباطه مع بدء الرسالة، حيث اقترنت البعثة ـ وكانت في شهر رجب ـ بنزول شيء من القرآن (خمس آيات من أوّل سورة العلق) في حين تصريح القرآن بنزوله في ليلة القدر من شهر رمضان! فما وجه التوفيق؟ وهكذا تعيين المدة التي نزل القرآن خلالها تدريجاً، والسور التي نزلت قبل الهجرة لتكون مكيّة ـ اصطلاحاً ـ والتي نزلت بعدها لتكون مدنيّة. وهل هناك استثناء لآيات على خلاف السور التي ثبتت فيها؟ والأرجح أن لا استثناء، وأنّ السورة إذا كانت مكيّة فجميع آيها مكيّة، وهكذا السور المدنيّات. إذ لا دليل على الاستثناء على ما سنبيّن.. وإليك تفصيل هذه الجوانب:

بدء نزول الوحي «البعثة»:

قال الشيخ الجليل الثقة علي بن ابراهيم القميّ: إنَّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) لما أتى له سبع وثلاثون سنة، كان يرى في منامه كأنّ آتياً يأتيه فيقول: يا رسول الله! ومضت عليه برهة من الزمان وهو على ذلك يكتمه، وإذا هو في بعض الأيام يرعى غنماً لأبي طالب في شعب الجبال، إذ رأى شخصاً يقول له: يا رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرئيل، أرسلني الله إليك ليتّخذك رسولاً، فجعل يعلّمه الوضوء والصلاة. وذلك عندما تمّ له أربعون

سنة. فدخل عليّ (عليه السلام) وهو يصلّي. قال: يا أباالقاسم ما هذا؟ قال: هـذه الصلاة التي أمرني الله بهـا. فجعـل يصلّي معـه. وكانت خـديجة ثالثتهما. فكـان عليّ (عليـه السلام) يصلّي الى جناح رسول الله الأيمـن، وخديجة خلفه، فأمر أبوطالب ابنه جعفراً أن يصلّي الى جنـاح رسول الله الايسر. وكان زيدبن حارثة عتيق رسول الله[1] قـد أسلم عند مانبيء رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فكان يصلّي معهم أيضاً. وبهذا الجمع انعقدت نطفة الإسلام[2].

وفي تفسير الإمـام: كان رسـول الله (صلى الله عليـه وآله) يـغدو كلّ يوم الى حراء، وينظـر الى آثـار رحمة الله، مـتعمّقاً في مـلكـوت السماوات والأرض، ويـعبدالله حقّ عـبادتـه، حتى استكمل سنّ الأربعين، ووجدالله قلبـه الكريم أفضل القلوب وأجلّهـا وأطوعها وأخشعها. فـأذن لأبواب السماء ففتحت، وأذن للملائكة فنزلوا، ومحمد (صلى الله عليه وآله) ينظر الى ذلك، فنزلت عليه الرحمة من لدن ساق العرش، ونظر الى الـروح الأمين جبرائيل مطوّقاً بالنور، هبط إليه وأخذ بضـبعه وهزّه، فقـال: يا محـمد! اقرأ. قال: وماأقـرأ؟ قال: يا محمّد!«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذى عَلَّمَ بـالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مالَمْ يَعْلَمْ».

ثمّ أوحى إليه مـا اوحى. وصعد جبرائيل الى ربّه، ونـزل محـمد (صلى الله عليه وآله) مـن الجبل وقـد غشيـه من عظمـة الله وجلال ابّـهته مـاركبـه الحمّى النافضة[3] وقد اشـتدّ عليه مـاكان يخافه من تـكذيب قريش ونسبته الى الجنون

---

(١) قيل: اشـتـراه رسـول الله (صلى الله عليه وآلـه) لخـديجة، فلمّـا تـزوّجها وهبـتـه له، فأعتـقـه رسول الله (صلى الله عـليه وآله) وقيل: اسـتوهبته خديجة مـن ابن أخيها حكيم بن حزام بن خـويلد، عـندماقدم مكة بـرقيق فيهم زيـد وصيف أي غـلام لم يراهق. فقـال لها: يا عـمّة! اختاري أيّ هـؤلاء الغلمان شئت: فاختارت زيداً، ثمّ وهبته لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فأعتقه رسول الله وتبنّاه.

(٢) بحارالأنوار: ج١٨ ص١٨٤ ح١٤ وص١٩٤ ح٣٠.

(٣) وهي الشديدة.

وقد كان أعقل خلق الله وأكرم بريّته. وكان أبغض الأشياء إليه الشيطان وأفعال المجانين، فأراد الله أن يشجّع قلبه ويشرح صدره، فجعل كلّما يمرّ بحجر وشجر ناداه: السلام عليك يا رسول الله [١].

وفي شرح النهج: أنّ بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) سأله عن قول الله -عزّوجلّ-: «إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً» [٢] فقال: يوكّل الله تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدّون إليه تبليغهم الرسالة، ووكّل بمحمد (صلى الله عليه وآله) ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده الى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: السلام عليك يا محمد يا رسول الله، وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن أنّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمّل فلا يرى شيئاً [٣].

وراجع: الخطبة القاصعة من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذا الشأن، وقد نقلنا فيما سبق شطراً منها. وهي الخطبة رقم: ٢٣٨ في شرح النهج لابن أبي الحديد.

وفي تاريخ الطبري: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل ان

---

(١) تفسير الإمام: ص١٥٧ وهو منسوب الى الإمام الحادي عشر: الحسن بن علي العسكري (عليهما السلام) وقد طعن بعض المحقّقين في نسبته الى الإمام (عليه السلام) لما فيه من مناكير. لكن لو كان المقصود أنّه من تأليف الإمام بقلمه وإنشائه الخاصّ، فهذا شيء لا يمكن قبوله بتاتاً. وأمّا إذا كانت النسبة بملاحظة أنّ الراوي كان يحضر مجلس الإمام (عليه السلام) ويسأله عن أشياء ممّا يتعلّق بتفسير آي القرآن، ثم عندما يرجع الى داره يسجّله حسب ما حفظه ووعاه، وربّما يزيد عليه أشياء أو ينقص، وفق معلوماته الخاصّة ايضاً. فهذا شيء لا سبيل الى إنكاره. ونحن نقول بذلك، ومن ثم نعتمد على كثير ممّا جاء في هذا التفسير، ممّا يوافق سائر الآثار الصحيحة: وراجع- أيضاً- بحار الأنوار: ج١٨ ص٢٠٥- ٢٠٦ ح٣٦.

(٢) الجن: ٢٧.

(٣) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ج١٣ ص٢٠٧.

يظهر له جبرئيل (عليه السلام) برسالة الله إليه، يرى ويعاين آثاراً وأسباباً من آثار من يريدالله إكرامه واختصاصه بفضله، فكان من ذلك مامضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشقّا بطنه[١] واستخرجا مافيه من الغلّ والدنس، وهو عند امّه من الرضاعة حليمة. ومن ذلك أنّه كان إذامرّ في طريق لايمرّ بشجر ولاحجر إلّا سلّم عليه. وهكذا كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لايرى بيتاً، ويفضي الى الشعاب وبطون الأودية. فلايمرّ بحجر ولاشجر إلّا قال: السلام عليك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً[٢].

قال اليعقوبي: كان جبرائيل يظهر له ويكلّمه أو ربّما ناداه من السماء ومن الشجر ومن الجبل. ثم قال له: إنَّ ربَّك يأمرك أن تجتنب الرجس من الأوثان، فكان أوّل أمره. فكان رسول الله يأتي خديجة ابنة خويلد ويقول لها ما سمع وتكلّم به، فتقول له: استر يا ابن عم! فوالله إنّي لأرجو أن يصنع الله بك خيراً[٣].

* * *

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم بعث قداستكمل الأربعين، لعشرين مضين من ملك كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان[٤]. قال اليعقوبي: كان مبعثه (صلى الله عليه وآله) في شهر ربيع الأوّل. وقيل: في رمضان. ومن شهور العجم: في شباط. قال: وأتاه جبرئيل ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين[٥]. قال ابن سعد: نزل الملك على رسول الله (صلى الله عليه

---

(١) لم يرد بهذا التعبير حديث من طريق أهل البيت (عليهم السلام) ولعل هذه التعابير كانت كناية عن امور معنويّة بإبعاد الصفات الخسيسة عن طباعه (صلى الله عليه وآله).

(٢) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٩٤ـ ٢٩٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧ طبعة النجف الثانية.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٣١.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧ - ١٨.

وآله) بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان[١].

قال أبوجعفر الطبري: وهذا ـ أي نزول الوحي عليه بالرسالة يوم الاثنين ـ ممّا لاخلاف فيه بين أهل العلم وإنّما اختلفوافي اي الاثانين كان ذلك؟ فقال بعضهم: نزل القرآن على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لثماني عشرة خلت من رمضان. وقال آخرون: لاربع وعشرين خلت منه. وقال آخرون. لسبع عشرة خلت من شهر رمضان: واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ»[٢] وذلك ملتقى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمشركين ببدر، وكان صبيحة سبع عشرة من رمضان[٣].

لكن لادلالة في الآية على أنّ مبعثه كان مصادفاً لذلك اليوم.

أولاً: لأنّ المقصود: ما أُنزل عليه ذلك اليوم من دلائل الحقّ وآيات النصر، لا القرآن كلّه ولا مبدأ نزوله.

وثانياً: سوف نذكر: أنّ مبدأ نزول القرآن ـ بعنوان كونه كتاباً سماوياً ـ كان متأخّراً عن يوم مبعثه بالرسالة، فقد بعث (صلى الله عليه وآله) رسولاً الى الناس في ٢٧ رجب، وانزل عليه القرآن في شهر رمضان ليلة القدر، وربّما كان بعد فترة ثلاث سنين كما يأتي.

وثالثاً: معنى يوم الفرقان: اليوم الذي فرق فيه بين الحقّ والباطل، وغلب الحقّ على الباطل فكان زهوقاً، وكان يوماً حاسماً في حياة المسلمين، وقد أيس الشيطان فيه أن يعبد أو يطاع الى الأبد[٤].

قال المسعودي: أوّل ما نزل عليه (صلى الله عليه وآله) من القرآن: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ». وأتاه جبرائيل في ليلة السبت ثم في ليلة الأحد وخاطبة بالرسالة

---

(١) الطبقات: ج ١ ص ١٢٩.

(٢) الانفال: ٤١.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٩٤.

(٤) راجع تفسير شبر: ص ١٩٥.

يوم الاثنين، وذلك بحراء، وهو أوّل موضع نزل فيه القرآن، وخاطبه بأوّل السورة الى قوله: «عَلَّمَ الإنسانَ مَالَمْ يَعْلَمْ» ونزل تمامها بعد ذلك.

وكان ذلك بعد بنيان الكعبة بخمس سنين، على رأس عشرين سنة من ملك كسرى أبرويز، وعلى رأس مائتي سنة من يوم التحالف بالربذة[١].

وكانت سنة ستمائة وتسع من تاريخ ميلاد المسيح (عليه السلام)[٢].

* * *

والصحيح عندنا في تعيين يوم مبعثه (صلى الله عليه وآله وسلم): أنّه اليوم السابع والعشرون من شهر رجب الأصب، على ماجاء في روايات أهل البيت (عليهم السلام) ويستحبّ صيامه والقيام بآداب وعبادات تخصّه، تلتزم بها الشيعة الإماميّة، كلّ عام تقديساً لهذا اليوم المبارك ، الذي أُنزلت الرحمة فيه على الناس جميعاً، وافتتحت أبواب البركة العامّة على أهل الأرض، إذ بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رحمة للعالمين، فياله من يوم مبارك !

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «في اليوم السابع والعشرين من رجب نزلت النبوّة على رسول الله (صلى الله عليه وآله)[٣] وقال: «لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب فإنّه اليوم الذي نزلت فيه النبوّة على محمد (صلى الله عليه وآله)»[٤].

وقال الإمام الرضا (عليه السلام): «بعث الله ـ عزّوجلّ ـ محمداً (صلى الله عليه وآله) رحمة للعالمين، في سبع وعشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستّين شهراً[٥]».

---

(١) مروج الذهب: ج ٢ ص ٢٨٢.

(٢) تاريخ التمدّن الإسلامي (لجرجي زيدان): ج ١ ص ٤٣.

(٣) امالي ابن الشيخ: ص ٢٨، وبحارالأنوار: ج ١٨ ص ١٨٩ ح ٢١.

(٤) و(٥) الكافي: ج ٤ ص ١٤٩ ح ١ وح ٢.

والروايات بهذا الشأن من طرق أهل البيت (عليهم السلام) كثيرة[١].

وهكذا وردت روايات من طرق أهل السنة، بتعيين نفس اليوم:

أورد الحافظ الدمياطي في سيرته عن أبي هريرة، قال: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً، وهواليوم الذي نزل فيه جبرئيل على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بالرسالة وأوّل يوم هبط فيه جبرئيل»[٢].

وروى البيهقي في شعب الإيمان، عن سلمان الفارسي، قال: «في رجب يوم وليلة، من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة،وهولثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله)»[٣].

وروى صاحب المناقب عن ابن عباس، وأنس بن مالك: أنّهما قالا: «أوحى الله الى محمد (صلى الله عليه وآله) يوم الاثنين، السابع والعشرين من رجب، وله من العمر اربعون سنة»[٤].

قال العلّامة المجلسي ـقدّس سرّهـ اختلفوا في اليوم الذي بُعث فيه النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله) على خمسة أقوال:

الأوّل: سابع عشر شهر رمضان.

الثاني: ثامن عشر شهر رمضان.

الثالث: أربع وعشرون شهر رمضان.

الرابع: ثاني عشر ربيع الأوّل.

الخامس: سابع وعشرون شهر رجب.

---

(١) راجع وسائل الشيعة: باب ١٥ من ابواب الصوم المندوب ج٧ ص٣٢٩ ح ١.

(٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص٢٣٨.

(٣) منتخب كنزالعمال بهامش المسند: ج٣ ص ٣٦٢.

(٤) المناقب: ج ١ ص ١٥٠. وبحارالأنوار: ج١٨ ص٢٠٤ ح ٣٤.

قال: وعلى الأخير اتفاق الإماميّة[١].

أقول: وهناك قول سادس: ثامن ربيع الأوّل. وقول سابع: ثالث ربيع الأوّل. ذكرهما ابن برهان الحلبي في سيرته. ثم ذكر القول بأنّه الثاني عشر من ربيع الأوّل، يوم مولده الشريف، ليوافق القول بأنّه بعث على رأس تمام الأربعين[٢].

وسنذكر: أنّ أكثريّة القائلين ببعثته (صلى الله عليه وآله) في شهر رمضان، لعلّه قد اشتبه عليهم مبدأ حادث النبوّة بمبدأ حادث نزول القرآن كتاباً فيه تبيان كلّ شيء وهذا الاشتباه يبدو من استدلالهم على تعيين يوم البعثة بما دلّ على أنّ القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان. وسنتحقّق: أن لاصلة بين الحادثين، فقد بعث (صلى الله عليه وآله) في رجب: ٢٧ . ولكن القرآن بسمته كتاباً مفصّلا، بدأ نزوله على النبيّ (صلى الله عليه وآله) في شهر رمضان: ليلة القدر. بعد ثلاث سنين من نبوّته (صلى الله عليه وآله) فكانت مدّة نبوّته (صلى الله عليه وآله) ثلاثاً وعشرين سنة. ولكن فترة نزول القرآن مفرّقاً استغرقت عشرين عاماً، بدأت بدخول السنة الرابعة من البعثة، وختمت في عاشر الهجرة بوفاته (صلى الله عليه وآله).

بدء نزول القرآن:

لاشك أنّ القرآن نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، لقوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»[٣]. وقوله: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ»[٤]. وقوله: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة القدر»[٥].

وليلة القدر ـ عندنا ـ مرددة بين ليلتين في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك: إحدى وعشرين أم ثالثة وعشرين؟ والأرجح أنّها الثانية، لحديث الجهني[٦].

---

(١) بحارالأنوار: ج ١٨ ص ١٩٠.
(٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٣٨.
(٣) البقرة: ١٨٥.
(٤) الدخان: ٣.
(٥) القدر: ١.
(٦) راجع وسائل الشيعة: باب ٣٢ من ابواب احكام شهر رمضان ج ٧ ص ٢٦٢ ح ١٦.

وقال الصدوق ـ رحمه الله ـ: اتفق مشايخنا على أنّها ليلة ثلاث وعشرين[١].

والكلام في تعين ليلة القدر ليس من مبحثنا الآن، وإنّما يهمّنا التعرّض لجوانب من هذا التحديد، أي نزول القرآن في ليلة واحدة ـ هي ليلة القدر ـ من شهر رمضان.

أوّلاً: منافاته ـ ظاهراً ـ مع ما أسلفناه من اتفاق الإماميّة وعدد من أحاديث غيرهم، على أنّ البعثة كانت في رجب، ولاشكّ أنّ البعثة كانت مقرونة بنزول آي من القرآن: خمس آيات من أوّل سورة العلق. فكيف يتمّ ذلك مع القول بنزول القرآن ـ كلّه أو بدء نزوله ـ في شهر رمضان في ليلة القدر؟

ثانياً: ماذا يكون المقصود من نزول القرآن في ليلة واحدة هي ليلة القدر؟ هل نزل القرآن كلّه جملة واحدة تلك الليلة؟ مع العلم أنّ القرآن نزل نجوماً لفترة عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، حسب المناسبات والظروف المختلفة، ودعيت باسم «أسباب النزول»، فكيف ذلك ؟

ثالثاً: ماهي أوّل آية أو سورة نزلت من القرآن، فإن كانت هي سورة العلق أو آي منها، فلم سُمّيت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى: أنّها كتبت في بدء المصحف! لأنّ هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله) أو لا أقل في عهد متأخّر من حياته ـ فرضاً ـ في حين أنّها كانت تسمّى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها: «لاصلاة إلّا بفاتحة الكتاب»[٢] حديث مأثور عن لسان النبي (صلى الله عليه وآله)!

وللاجابة على هذه الأسئلة الثلاثة ـ بصورة إجمالية ـ نقول: إنّ بدء البعثة يختلف عن بدء نزول القرآن ككتاب سماويّ. لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) نبّىء ولم يؤمَر بالتبليغ العام إلّا بعد ثلاث سنوات، كان خلالها يدعو في اختفاء حتى نزلت الآية: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»[٣]. ومن هذا

---

(١) الخصال: ج ٢ ص ١٠٢.

(٢) صحيح مسلم: ج ٢ ص ٩ ومنتخب كنز العمال بهامش المسند: ج ٣ ص ١٨٠.

(٣) الحجر: ٩٤.

الحين جعل القرآن ينزل تباعاً، بسمة كونه كتاباً أُنزل من السماء وكان يسجّل على العسب واللخاف، يكتبه من كان يعرف الكتابة من المؤمنين، وهم عدد قليل، خلال عشرين عاماً.

وقد كان بدء نزول القرآن ـ بعد تلك الفترة ـ في ليلة القدر من شهر رمضان. وبهذا الاعتبار صحّ التعبير بأنّ القرآن نزل في ليلة القدر، وإن كان نزوله تباعاً استغرق عشرين عاماً. إذ كلّ حدث خطير تكون له مدّة وامتداد، فإنّ تاريخه يسجّل حسب مبدأ شروعه، كما سنفصّل الكلام عنه.

أمّا أوّل آية نزلت فهي الآيات الخمس من اوّل سورة العلق، ونزلت بقيّتها في فترة متأخّره. غير أنّ أوّل سورة كاملة نزلت من القرآن هي سورة الحمد، ومن ثم سميت بفاتحة الكتاب.

هذا إجمال الكلام حول هذه المواضيع الثلاثة، وأمّا التفصيل فهو كمايلي:

فترة ثلاث سنوات:

ولنفرض أنّ البعثة كانت في رجب، حسب رواية أهل البيت ولفيف من غيرهم، لكن القرآن ـ بسمة كونه كتاباً سماوياً و دستوراً إلهياً خالداً ـ لم ينزل عليه إلّا بعد فترة ثلاث سنين. كان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) خلالها يكتم أمره من ملأ الناس، ويدعو الى الله سرّاً، ومن ثم لم يكن المشركون يتعرّضون أذاه، سوى طعنات لسنيّة، حيث لا يرون من شأنه ما يخشى على دينهم.

وكان يصلّي اذ ذاك مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) أربعة: علي وجعفر وزيد وخديجة. وكلّما مرّبهم ملأ من قريش سخروا منهم.

قال علي بن إبراهيم القميّ: فلمّا أتى لذلك ثلاث سنين، أنزل الله عليه: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشرِكِينَ. إنّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهزئين» قال: وكان ذلك بعد أن نبئ بثلاث سنين [١].

(١) تفسير القميّ: ص ٣٥٣، وبحار الأنوار: ج ١٨ ص ٥٣ ح ٧ وص ١٧٩ ح ١٠.

وقال اليعقوبي: وأقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة ثلاث سنين يكتم أمره[١].

وقال محمدبن اسحاق: وبعد ثلاث سنين من مبعثه نزل «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ»، فامر أن يجهر بالدعوة ويعمّ الإنذار[٢].

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «مكث رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمكة بعدما جاءه الوحي عن الله تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر أمره، حتى أمره الله أن يصدع بما امربه، فأظهر حينئذٍ الدعوة»[٣].

وهذه الروايات، إذا لاحظناها مع روايات قائلة: إنَّ فترة نزول القرآن على النبيّ (صلى الله عليه وآله) استغرقت عشرين عاماً، تعطينا: أنّ مبدأ نزول القرآن كان متأخراً عن البعثة بثلاث سنوات، إذ لاشك أنّ القرآن كان ينزل عليه (صلى الله عليه وآله) حتى عام وفاته (صلى الله عليه وآله) وبذلك يلتئم القول بأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان، ليلة القدر كما نصّ عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «ثم نزل القرآن في طول عشرين عاماً». كما جاء في رواية الكليني[٤] والعياشي[٥] وأشار إليه الصدوق[٦] والمجلسي[٧]. والنصّ على تحديد فترة نزول القرآن بعشرين عاماً كثير[٨].

والى هذا المعنى تشير الرواية عن سعيدبن المسيب، قال: أُنزل على النبيّ (صلى الله عليه وآله) وهو ابن ثلاث وأربعين[٩] أي أُنزل عليه القرآن عند ذلك. إذ لاشكّ أنّ النبوّة نزلت عليه (صلى الله عليه وآله) عند اكتمال

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٨٠. والمناقب: ج ١ ص ٤٠ وبحارالأنوار: ج ١٨ ص ١٩٣ ١٩٤ ح ٢٩.

(٣) الغيبة (الشيخ الطوسي): ص ٢١٧، وبحارالأنوار: ج ١٨ ص ١٧٧ ح ٤.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٦٢٨ - ٦٢٩ خ ٦.

(٥) تفسير العياشي: ج ١ ص ٨٠ ح ١٨٤.

(٦) الاعتقادات: ص ١٠١.

(٧) بحارالأنوار: ج ١٨ ص ٢٥٠ ح ٣ وص ٢٥٣.

(٨) راجع الإتقان: ج ١ ص ٤٠. وتفسير شبر: ص ٣٥٠.

(٩) مستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٦١٠.

الاربعين،وهذا إجماع الامّة، وعليه اتفاق كلمتهم، فكيف يخفى على مثل سعيد؟!

وروى الواحدي بإسناده الى الشعبي، قال فرّق الله تنزيله فكان بين أوّله وآخره عشرون أو نحو من عشرين سنة[١].

وأوضح من ذلك مارواه الإمام أحمد بسند متصل الى عامر الشعبي: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزلت عليه النبوّة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوّته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمةوالشيء،ولم ينزل القرآن. فلمّا مضت ثلاث سنين، قرن بنبوّته جبرئيل، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات (صلى الله عليه وآله) وهو ابن ثلاث وستين سنة. قال ابن كثير: وهو إسناد صحيح الى الشعبي[٢].

وهذه الرواية وإن كانت فيها أشياء لانعرفها، ولعلّها من اجتهاد الشعبي الخاصّ، لكن الذي نريده من هذه الرواية هو جانب تحديد نزول القرآن في مدة عشرين عاماً، وأن نزوله تأخّر عن البعثة بثلاث سنين،وهذا شيء متفق عليه.

آراء وتأويلات:

وأمّا تأويل نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، مع العلم أنّ القرآن نزل منجّماً طول عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، في فترات ومناسبات خاصّة، تدعى بأسباب النزول، فللعلماء في ذلك آراء وتأويلات:

١ ـ إنّ بدء نزوله كان في ليلة القدر من شهر رمضان.

وهذا اختيار محمدبن إسحاق[٣] والشعبي[٤]. قال الإمام الرازي: وذلك

---

(١) أسباب النزول: ص٣.

(٢) البداية والنهاية: ج٣ ص٤، والإتقان: ج١ ص٤٥، والطبقات: ج١ ص١٢٧،وتاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٨.

(٣) مجمع البيان: ج٢ ص٢٧٦.

(٤) الإتقان: ج١ ص٤٠.

لأنّ مبادئ الملل والدول هي التي تؤرّخ بها. لكونها أشرف الأوقات. ولأنّها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة[١]. وهكذا فسّر الزمخشري الآية بذلك، قال: «ابتدئ فيه إنزاله»[٢].

وهوالذي نرتأيه، نظراً لأنّ كلّ حادث خطير، إذا كانت له مدّة وامتداد زمنيّ، فإنّ بدء شروعه هوالذي يسجّل تاريخياً كما إذا سُئل عن تاريخ دولة أو مؤسّسة أو تشكيل حزبيّ، أو إذا سئل عن تاريخ دراسة طالب علم أو تلبّسه الخاصّ وأمثال ذلك، فإنّ الجواب هو تعيين مبدأ الشروع أو التأسيس لاغير.

وأيضاً: فإنّ قوله تعالى: «أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» والآيات الأُخر، حكاية عن أمر سابق لايشمل نفس هذا الكلام الحاكي وإلّا لكان اللفظ بصيغة المضارع أو الوصف. فنفس هذا الكلام دليل على أنّ من القرآن مانزل متأخراً عن ليلة القدر، اللهمّ إلّا بضرب من التأويل غير المستند، على ماسيأتي.

كما أنّ اختلاف مناسبات الآيات، حسب الظروف والدواعي، أكبر دليل على اختلاف مواقع نزولها، إذ يربط ذلك كلّ آية بحادثة في قيد وقتها، وهذا في كلّ آية نزلت بشأن حدث أو واقعة وقعت في وقتها الخاصّ، وجاءت آية تعالجها في نفس الوقت. كلّ ذلك دليل على أنّ القرآن لم ينزل جملة واحدة. وإلّا لما كان موقع لقولة المشركين: «لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً» قال تعالى ـ ردّاً على هذا الاعتراض ـ «كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»[٣]. أي كان نزول القرآن تباعاً وفي فترات مناسبة أدعم لاطمئنان قلبك، حيث الشعور بعناية الله المتواصلة في كلّ آونة ومناسبة[٤].

وذهب الى هذا الرأي ـ أيضاً ـ ابن شهر آشوب في المناقب، قال: شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن أي ابتدأ نزوله. وقال في متشابهات القرآن:

---

(١) التفسير الكبير: ج ٥ ص ٨٥.
(٢) الكشاف: ج ١ ص ٢٢٧.
(٣) الفرقان: ٣٢.
(٤) راجع الإتقان: ج ١ ص ٤١.

والصحيح أنّ «القرآن» في هذا الموضع لايفيد العموم، وإنّما يفيد الجنس: فأيّ شيءٍ نزل فيه فقد طابق الظاهر[١].

ويبدو من الشيخ المفيد ـ قدّس سرّه ـ من آخر كلامه ردّاً على أبي جعفر الصدوق ـ عليه الرحمة ـ فيما يأتي: اختيار هذا القول أيضاً، قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر، أنّه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه الى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله). فأمّا أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر، فهو بعيد عمّا يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الأخبار، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء[٢]

* * *

٢ـ كان ينزل على النبيّ (صلى الله عليه وآله) في كلّ ليلة قدر من كلّ عام، ماكان يحتاج إليه الناس في تلك السنة من القرآن، ثم ينزله جبرائيل حسب مواقع الحاجة شيئاً فشيئاً بما يأمره الله تعالى. فيكون المقصود من شهر رمضان: هو النوع. لا رمضان خاصّ ـ وهو احتمال الإمام الرازي أيضاً[٣] ـ.

وهذا اختيار ابن جريح[٤] والسدّي، وأسنده الأخير الى ابن عباس أيضاً[٥]. ونقله القرطبي عن مقاتل بن حيّان. ووافقه الحليمي والماوردي وغيرهما[٦].

غير أنّ هذا الاختيار، يخالفه ظاهر قوله تعالى: «أُنزِلَ فِيهِ» أو «أَنزَلْنَاهُ» حكاية عن حدث سابق، فلو صحّ هذا القول لكان المناسب أن يقول: ننزله، صفة للحال!

وأيضاً يردّه ما استبعدناه على الرأي الخامس الآتي: ماهي الفائدة المتوخّاة من نزول قرآن قبل الحاجة إليه، ولاسيّما في صيغة جملة الماضي أو الحال، المستدعية

(١) المناقب: ج ١ ص ١٥٠. ومتشابهات القرآن: ج ١ ص ٦٣.
(٢) شرح عقائد الصدوق: ص ٥٨.
(٣) التفسير الكبير: ج ٥ ص ٨٥.
(٤) الدرالمنثور: ج ١ ص ١٨٩.
(٥) مجمع البيان: ج ٢ ص ٢٧٦.
(٦) الإتقان: ج ١ ص ٤٠.

كونها نزلت لمناسبة وقتيّة، لاموقع لنزولها قبل ذلك، حسب التعبير اللفظي!

* * *

٣ـ شهر رمضان الذي نزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه، كما يقال: نزل في فلان، أو في مناسبة كذا قرآن. والمراد من القرآن آية أو آيات منه[١].

قال الضحّاك: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، أي الذي أُنزل صومه في القرآن[٢]. وقال سفيان بن عيينة: معناه: انزل في فضله القرآن. واختاره الحسين ابن الفضل وابن الانباري[٣].

لكن هذا الوجه يخصّ آية البقرة، ولايجري في آيتي الدخان والقدر، كما لايخفى. فضلا عن أنّه تأويل في اللفظ لامبرّر له ولامستند.

* * *

٤ـ إنّ معظمه نزل في أشهر رمضان، ومن ثم صحّ نسبة الجميع إليه.

وهذا احتمال ثان احتملها سيّد قطب، قال: الشهر الذي أُنزل فيه القرآن إمّا بمعنى أنّ بدء نزوله كان في رمضان، أو أنّ معظمه نزل في أشهر رمضان[٤].

لكن لادليل على أنّ معظم آيات القرآن نزلت في أشهر رمضان وفي ليلة القدر بالخصوص. ولعلّ الواقعية تأبى هذا الاحتمال رأساً.

* * *

٥ـ القرآن نزل جملة واحدة في ليلة واحدة، هي ليلة القدر، الى بيت العزّة أو البيت المعمور، ثم نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في فترات ومناسبات، طول عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً.

ذهب الى هذا القول جماعة من أرباب الحديث، نظراً لظاهر أحاديث

---

(١) مجمع البيان: ج ١ ص٢٧٦. والكشاف: ج ١ ص٢٢٧.

(٢) الدرالمنثور: ج ١ ص ١٩٠.

(٣) التفسير الكبير: ج ٥ ص ٨٠.

(٤) في ظلال القرآن: ج٢ ص ٧٩.

رويت في ذلك.

قال الشيخ الصدوق ـعليه الرحمةـ: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، جملة واحدة الى البيت المعمور، في السماء الرابعة، ثم نزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة. وأنّ الله أعطى نبيّه العلم جملة واحدة، ثم قال له: «وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضَىٰ إلَيْكَ وَحْيُهُ»[١].

قال العلّامة المجلسي ـتعقيباً على هذا الكلامـ: قد دلّت الآيات على نزول القرآن في ليلة القدر. والظاهر نزوله جميعاً فيها. ودلّت الآثار والأخبار على نزول القرآن في عشرين[٢] أو ثلاث وعشرين سنة[٣]. وورد في بعض الروايات: أنّ القرآن نزل في أوّل ليلة من شهر رمضان[٤]. ودلّ بعضها على أنّ ابتداء نزوله في المبعث[٥]. فيجمع بينها بأنّ في ليلة القدر نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ الى السماء الرابعة (البيت المعمور) لينزل من السماء الرابعة الى الأرض تدريجاً.

ونزل في أوّل ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النبيّ (صلى الله عليه وآله) ليعلمه هو، ولايتلوه على الناس، ثم ابتدأ نزوله آية آية وسورة سورة في المبعث أو غيره ليتلوه على الناس ...[٦].

وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس: قال: انزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة الى السماء الدنيا، ووضع في بيت العزّة، ثم انزل نجوماً على النبيّ (صلى الله عليه وآله) في عشرين سنة.

---

(١) الاعتقادات: ص ١٠١.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٦٢٨ - ٦٢٩ ح ٦.

(٣) هي مدّة نبوّته (صلى الله عليه وآله) بناء على ابتداء نزول القرآن بيوم مبعثه واختتامه بوفاته (صلى الله عليه وآله).

(٤) الكافي: ج ٤ ص ٦٦ ح ١.

(٥) وهي روايات دلّت على أنّ أوّل سورة نزلت هي سورة العلق، نزلت في بدء البعثة في اليوم ٢٧ من رجب، راجع بحارالأنوار: ج ٩٢ ص ٣٩ ح ١ وج ١٨ ص ٢٠٦ ح ٣٦.

(٦) بحارالأنوار: ج ١٨ ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ح ٣.

قال جلال الدين: وهذا هوأصحّ الأقوال وأشهرها. وروى في ذلك روايات كثيرة، حكم على أكثرها بالصحّة، رواها عن الحاكم والطبراني والبيهقي والنسائي وغيرهم[١].

وروى الطبري بسنده عن واثلة بن الأسقع عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): قال: «أُنزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان. وأُنزلت التوراة لست مضين من رمضان. وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت. وأُنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان»[٢].

وفيه عن السدّي عن ابن عباس، قال: شهر رمضان، والليلة المباركة ليلة القدر، فإنّ ليلة القدرهي الليلة المباركة،وهي في رمضان، نزل القرآن جملة واحدة من الزبر الى البيت المعمور، وهي مواقع النجوم في السماء الدنيا، حيث وقع القرآن، ثم نزل على محمد (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك في الأمر والنهي وفي الحروب رسلاً رسلاً[٣].

وكان عطيّة بن الأسود قد وقع في نفسه الشكّ من هذه الآية، وقد نزل القرآن في جميع شهور السنة، فسأل ابن عباس عن ذلك، فأجابه بما تقدّم[٤].

وهكذا روى جلال الدين بسنده الى جابربن عبدالله الانصاري- رضوان الله عليه- قال: أنزل الله صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان، وأنزل التوراة على موسى لست خلون من رمضان، وأنزل الزبور على داود لا ثنتي عشرة خلت من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد (صلى الله عليه وآله) لأربع وعشرين خلت من رمضان[٥].

ومن طرقنا روى العياشي عن إبراهيم، أنّه سأل الإمام الصادق (عليه

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ٣٩- ٤٠.
(٢) تفسير الطبري: ج ٢ ص ٨٤.
(٣) تفسير الطبري: ج ٢ ص ٨٥.
(٤) الدرالمنثور: ج ١ ص ١٨٩.
(٥) نفس المصدر.

السلام) عن قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» كيف أُنزل فيه القرآن، وإنّما أُنزل القرآن في طول عشرين سنة، من أوّله الى آخره؟! فقال الإمام (عليه السلام): «نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان الى البيت المعمور، ثم أُنزل من البيت المعمور في طول عشرين سنة. ثم قال: قال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان. وأُنزلت الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان وأُنزل الزبور لثماني عشرة من رمضان. وأُنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان»[1].

وجاء الحديث في الكافي، إلّا أنّ في آخره: «وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان» والرواية هي عن الحفص بن غياث[2].

وفي التهذيب جاء قسم من الحديث برواية أبي بصير، وفي آخره: و«أُنزل الفرقان في ليلة القدر»[3].

* * *

هذه جملة من روايات مأثورة، تفسّر نزول القرآن جملة واحدة في ليلة واحدة، إمّا الى البيت المعمور في السماء الرابعة، كما في روايات الخاصّة. أو الى بيت العزّة في السماء الدنيا، كما في بعض روايات العامّة، ثم منها نزلت آياته مفرّقة على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حسب الظروف والمناسبات رسلاً رسلاً...

وقد أخذ الظاهريّون من أصحاب الحديث بظاهر هذه الروايات، مستريحين بأنفسهم الى مدلولها الظاهري تعبّداً محضاً.

---

(١) تفسير العياشي: ج ١ ص ٨٠ ح ١٨٤.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٦٢٨ - ٦٢٩ ح ٦.

(٣) تهذيب الاحكام: ج ٤ ص ١٩٣-١٩٤ ح ٧.

أمّا المحقّقون من العلماء فلم يرقهم الأخذ بما لايمكن تعقّله، ولا مقتضى للتعبّد بما لايرجع الى اصول العباديات، ومن ثم أخذوا ينقدون هذه الأحاديث نقداً علمياً. متسائلين: ماهي الفائدة الملحوظة من وراء نزول القرآن جملة واحدة في إحدى السماوات العلى، ثم ينزل تدريجياً على رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟!

* * *

وإجابة على هذا السؤال، قال الفخر الرازي: ويحتمل أن يكون ذلك تسهيلا على جبرئيل أو لمصلحة النبي (صلى الله عليه وآله) في توقّع الوحي من أقرب الجهات[1].

وهذا الجواب غاية في الوهن والسقوط، مضافاً إلى أنّه تخرّص بالغيب، ونستغرب صدور مثل هذا الكلام الفارغ من مثل هذا الرجل المضطلع بالتحقيق!!

وقال المولى الفيض الكاشاني: وكأنّه اريد بذلك: نزول معناه على قلب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما قال تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ.عَلَىٰ قَلْبِكَ». ثم نزل طول عشرين سنة نجوماً من باطن قلبه الى ظاهر لسانه، كلّما أتاه جبرائيل (عليه السلام) بالوحي وقرأه عليه بألفاظه[2].

فقد أوّل ـ رحمه الله ـ البيت المعمور الى قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). وربّما أراد الصدوق (رحمه الله) أيضاً هذا المعنى من قوله: وأعطى نبيّه العلم جملة واحدة.

وهكذا وقع اختيار الشيخ أبي عبدالله الزنجاني في تأويل هذه الرواية، قال: ويمكن أن نقول بانّ روح القرآن وهي أغراضه الكليّة التي يرمي إليها، تجلّت لقلبه الشريف في تلك الليلة «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ» ثم

---

(١) تفسير الرازي: ج٥ ص٨٥. (٢) تفسير الصافي: ج١ ص٤٢.

ظهرت بلسانه الأظهر مفرقة في طول سنين «وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأه عَلَى النّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنزيلاً» (١).

وقد أخذ العلامة الطباطبائي ـ قدس سره ـ هذا التأويل وزاد عليه تحقيقاً، قال: إنّ الكتاب ذا حقيقة أُخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلا ولا تجزئة، لرجوعها الى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا فصول. وإنّما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طرأ عليه بعد ذلك الاحكام، قال تعالى: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (٢). وقال تعالى: «إنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ» (٣) وقال: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكتابٍ فَصَّلْناهُ عَلَى عِلْمٍ» (٤) ... إذن فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر: إنزال حقيقة الكتاب المتوحّدة الى قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله) دفعة، كما أُنزل القرآن المفصّل في فواصل وظروف، على قلبه (صلى الله عليه وآله) أيضاً تدريجاً في مدّة الدعوة النبويّة... (٥).

أقول: هذا كلام لطيف، لكنه لا يعدو تأويلاً غير مستندٍ الى دليل، والمسألة قبل كلّ شيء نقلية وليست بالعقلية النظريّة، ومن ثم نتساءل هؤلاء الأعلام: بم أوّلتم البيت المعمور الذي هو في السماء الرابعة ـ حسب روايات الخاصّة ـ أو بيت العزّة ـ حسب روايات العامة ـ الى قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟! ولم هذا التعبير جاء في هذا اللفظ؟! وسوف نناقش السيد العلّامة في اختيار وجود آخر للقرآن بسيط، وراء هذا الوجود المفصّل، سيأتي الكلام عليه في فصل المتشابهات إن شاء الله (٦).

---

(١) الأسراء: ١٠٦ تاريخ القرآن: ص ١٠.
(٢) هود: ١.
(٣) الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.
(٤) الاعراف: ٥٢.
(٥) تفسير الميزان: ج ٢ ص ١٥ ـ ١٦.
(٦) عند الكلام عن حقيقة التأويل في الجزء الثالث من الكتاب.

تحقيق مفيد:

قال المحقّق العلّامة الشيخ أبو عبدالله المفيد: الذي ذهب إليه أبوجعفر[١] ـ رحمه الله ـ في هذا الباب، أصله حديث واحد ـ أي ليس من المتواتر المقطوع به ـ لايوجب علماً ولا عملاً. ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالا فحالا يدلّ على خلاف ماتضمّنه هذا الحديث. وذلك أنّ القرآن قد تضمّن حكم ما حدث وذكر ماجرى على وجهه، وذلك لايكون على الحقيقة إلّا لوقت حدوثه عند السبب...

مثلاً قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّتي تُجَادِلُكَ فِي زَوجِهَا وَتَشْتَكِي إلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُمَا»[٢]، نزلت هذه الآية بشأن خولة بنت خويلد جاءت تشتكي زوجها أوس بن الصامت الذي كان قد ظاهرها، وكان ذلك طلاقاً في الجاهلية[٣].

وقوله تعالى: «وَإذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْلَهْواً انفَضُّوا إلَيْهاَ وَتَرَكُوكَ قائِماً»[٤].

وقوله: «رِجالٌ صَدقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ من يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً»[٥].

وكثير في القرآن لفظة «قالوا» و«قال» و«جاؤوا» و«جاء» ـ بلفظ الماضي ـ كما أنّ فيه ناسخاً ومنسوخاً... كلّ ذلك لايتناسب ونزوله جملة واحدة في وقت لم يحدث شيء من ذلك.

قال ـ رحمه الله ـ: ولو تتبعنا قصص القرآن، لجاء ممّا ذكرناه كثيراً لايتّسع به المقال. وما أشبه ماجاء به هذا الحديث بمذهب المشبهة الذين زعموا أنّ الله

---

(١) نقلنا كلامه سابقاً. وكلام المفيد هنا ردّ عليه، وعلى كلّ من ذهب مذهبه من اختيار ظاهر تلكم الأحاديث.

(٢) المجادلة: ١.

(٣) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٤٦.

(٤) الجمعة: ١١.

(٥) الاحزاب: ٢٣.

سبحانه لم يزل متكلّماً بالقرآن ـ أي القول بقدم القرآن ـ ومخبراً عمّا سيكون بلفظ كان، وقد ردّ عليهم أهل التوحيد بنحو ماذكرناه.

قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر: أنّه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثمّ تلاه ما نزل منه الى وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فأمّا أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد عمّا يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الأخبار، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء...[١].

وقال المرتضى علم الهدى ـ رحمه الله ـ : «والذي ذهب إليه أبوجعفر ابن بابويه ـ رحمه الله ـ من القطع على أنّه أُنزل جملة واحدة..» إن كان معتمداً في ذلك على الأخبار المرويّة التي رواها، فتلك أخبار آحاد لا توجب علماً ولا تقتضي قطعاً. وبإزائها أخبار كثيرة أشهر منها وأكثر، تقتضي أنّه أُنزل متفرقاً، وأنّ بعضه نزل بمكة وبعضه بالمدينة، ولهذا نسب بعض القرآن الى أنّه مكيّ وبعضه مدنيّ. وانّه (صلى الله عليه وآله) كان يتوقّف عند حدوث حوادث، كالظهار وغيره، على نزول ما ينزل إليه من القرآن، ويقول (صلى الله عليه وآله): ما أُنزل اليّ في هذا شيء ولوكان القرآن أُنزل جملة واحدة لماجرى ذلك، ولكان حكم الظهار وغيره ممّا يتوقّف فيه معلوماً له. ومثل هذه الأمور الظاهرة المنتشرة لايرجع عنها بأخبار الآحاد خاصة.

فأما القرآن نفسه فدالّ على ذلك، وهو قوله تعالى، «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحدةً»[٢] ولوكان أُنزل جملة واحدة لقيل في جوابهم قد أُنزل على ما اقترحتم، ولايكون الجواب: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً». وفسّر المفسّرون كلّهم ذلك بأن قالوا: المعنى إنّا أنزلناه كذلك أي متفرّقاً يتمهّل على إسماعه ويتدرّج الى تلقيه والترتيل أيضاً إنّما هو ورود الشيء

---

(١) شرح عقائد الصدوق (تصحيح الاعتقاد): ص٥٨.

(٢) الفرقان: ٣٢.

في أثرالشيء، وصرْف ذلك الى العلـم به غير صحيح، لأنّ الظاهـر خلافه. ولم يـقل القـوم: لولا علـمـنا بنـزوله جملـة واحـدة، بل قالـوا: لولا أُنزل إلـيـك جملة واحـدة. وجوابهم إذا كـان أُنـزل كذلـك أن يـقال: قدكـان الـذي طلـبـتموه، ولايحتجّ لإنزاله متفرّقاً بماورد بنزوله في تمام الآية.

فأمّا قولـه: «شَهـرُ رَمَضـانَ الّذى أُنزلَ فِيه الْقُـرْآنُ»[1] فـإنّما يدلّ على أنّ جنس القرآن (معظمـه أو بـدء شروعه) نزل في هذا الشهر، ولا يـدلّ على نزول الجميع فـيـه.

فأمّـا قولـه: «وَلاَ تَعْجَل بـالـقرآن مِن قَبْلِ أن يُقضَى إليْكَ وَحْيُهُ»[2] فلا ندري من أي وجه دلّ على انّهُ أُنزل جملة واحدة. وقد كان أنّه ـرحمه الله ـيبيّن وجـه دلالته على ذلك. وهـذه الآية بأن تدلّ على أنه مـا أُنزل جملة واحدة أولى، لأنّه تعـالى قال «قَبْـل أن يُـقْضى إليْكَ وَحْيُـهُ» وهذا يـقتضي أن في القرآن منتظراً ماقضى الوحي به وقوع منه.

وقد كنّا سؤلنا إمـلاء تأويل هذه الآية قديماً، فـأملينا فيها مسألـة مستوفاةً، وذكرنا عن أهل التفسير فيها وجهين، وضممنا إليهما وجهاً ثالثاً تفردنا به.

فأحـد الـوجهين: إنّه كـان (عـليه السـلام) إذا نزل علـيـه الملك بشيء من الـقـرآن قـرأه مع الملك المؤدي لـه إلـيه قـبل ان يستـتـمّ الأداء. حـرصاً مـنه (عليه السـلام) على حـفظه وضبطه. فـامـر (عليه السلام) بـالتثبّت حتى يـنتهي غاية الأداء، لتعلّق الكلام بعضه ببعض.

والوجه الثاني: إنّـه (صلى الله عليه وآله) نهـي أن يبلّغ شيـئاً من القرآن قبل أن يوحى إليه بمعناه وتأويله وتفسيره.

والـوجه الثـالـث ـ الذي انـفـردنابه ـ إنّـه (صلى الله عليـه وآلـه) نهى عن أن يستدعي من الـقرآن مالم يوح إليـه به لأنّ مافيه مصلحة منه لابد من انزاله وإن

---

(١) البقرة: ١٨٥. (٢) طه: ١١٤.

لم يستدع، لأنّه تعالى لايدّخر المصالح عنهم. ومالا مصلحة فيه لايُنزله على كلّ حال، فلا معنى للاستدعاء.

فلا تعلق للآية بالموضع الذي وقع فيه..»[١].

أوّل ما نزل:

اختلف الباحثون في شؤون القرآن، في أنّ أيّ آياته أوسوره نزلت قبل؟ والأقوال في ذلك ثلاثة:

١ـ سورة العلق. لأنّ نبوّته (صلى الله عليه وآله) بدأت بنزول ثلاث أو خمس آيات من أوّل سورة العلق. وذلك حينما فجأه الحقّ وهو في غار حراء، فقال له الملك: اقرأ فقال: ما أنا بقارئ، فغطّه غطّاً ثم قال له: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ[٢]. الَّذي عَلَّم بِالْقَلَمِ.عَلَّمَ الإنسان مَالَمْ يَعْلَمْ»[٣].

وفي تفسير الإمام: هبط إليه جبرائيل وأخذ بضبعه وهزّه، فقال: يامحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اقرأ: قال: وما أقرأ؟ قال: يامحمد «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ.خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلمِ. عَلَّمَ الإنسانَ مَالَمْ يَعْلَمْ»[٤].

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام): «أوّل ما نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بِسْمِ الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ. اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ. وآخر ما

(١) جواب المسائل الطرابلسيّات الثالثة. ضمن المجموعة الأُولىٰ من رسائل الشريف المرتضى: ص٤٠٣ـ ٤٠٥.

(٢) صحيح البخاري: ج ١ ص ٣.

(٣) صحيح مسلم: ج ١ ص ٩٧.

(٤) تفسير الامام: ص ١٥٧. وبحارالأنوار: ج ١٨ ص ٢٠٦ ح ٣٦. وتفسير البرهان: ج ٢ ص ٤٧٨.

نزل عليه إذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ»[١].

٢ـ سورة المدثّر. لما روي عن ابن سلمة، قال سألت جابر بن عبدالله الانصاري أي القرآن أُنزل قبل؟ قال: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قلت: أو اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ؟ قال: احدّثكم ما حدّثنا به رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّي جاورت بحراء، فلمّا قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ـ ولعلّه سمع هاتفاً ـ ثم نظرت الى السماء فإذا هو ـ يعني جبرائيل ـ فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثّروني، فأنزل الله «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ»[٢].

هذا.. ولعلّ جابراً اجتهد من نفسه أنّها أوّل سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) دلالة على ذلك، والأرجح أنّ ماذكره جابر، كان بعد فترة انقطاع الوحي، فظنّه جابر بدء الوحي[٣]. وإليك حديث فترة انقطاع الوحي برواية جابر أيضاً:

قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحدّث عن فترة الوحي، قال: فبينا أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسيّ بين السماء والأرض، فجئثت منه فرقاً ـ أي فزعت ـ فرجعت، فقلت: زمّلوني زمّلوني فدثّروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: «يا أيُّها الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ» ـ وهي الاوثان ـ قال (صلى الله عليه وآله): ثم تتابع الوحي. وفي لفظ البخاري: فحمى الوحي وتتابع[٤].

---

(١) الكافي: ج ٢ ص٦٢٨ ـ ٦٢٩ ح٦. وعيون أخبار الرضا: ج ٢ ص٦ ح ١٢. وبحارالأنوار: ج ٩٢ ص٣٩ ح ١. وتفسير البرهان: ج ١ ص ٢٩.

(٢) صحيح مسلم: ج ١ ص٩٩.

(٣) راجع البرهان: ج ١ ص٢٠٦.

(٤) صحيح مسلم: ج ١ ص٩٨. وصحيح البخاري: ج ١ ص٤.

٣ـ سورة الفاتحة. قال الزمخشري: أكثر المفسّرين على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل[١]. وروى العلاّمة الطبرسي عن الأُستاذ أحمد الزاهد في كتابه «الإيضاح» بإسناده عن سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنّه قال: «سألت النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأوّل ما نزل عليه بمكّة: فاتحة الكتاب، ثم اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم...»[٢].

وروى الواحدي في أسباب النزول بسنده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا خلي وحده سمع نداء فيفزع له، وللمرّة الأخيرة ناداه الملك: يا محمد! قال: لبيّك، قال: قل: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُللهِ رَبِّ الْعَالمينَ حتى بلغ: وَلاَ الضَّالِّينَ»[٣].

قلت: لاشكّ أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يصلّي منذ بعثته، وكان يصلّي معه علي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة[٤] ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[٥] فقد ورد في الأثر: أوّل ما بدأ به جبرائيل: أن علّمه الوضوء والصلاة[٦] فلابدّ أنّ سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة. قال جلال الدين السيوطي: لم يحفظ أنّه كان في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب[٧].

* * *

وبعد.. فلا نرى تنافياً جوهرياً بين الأقوال الثلاثة، نظراً لأنّ الآيات

---

(١) الكشاف: ج ٤ ص ٧٧٥. وناقشه ابن حجر مناقشة سطحيّة لا مجال لها بعد توضيحنا الآتي في وجه الجمع بين الأقوال الثلاثة. وراجع فتح الباري: ج ٨ ص ٥٤٨.

(٢) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٠٥.

(٣) أسباب النزول: ص ١١.

(٤) تفسير علي بن ابراهيم القمّيّ: ص ٣٥٣.

(٥) مستدرك الحاكم: ج ١ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩. وصحيح مسلم: ج ٢ ص ٩.

(٦) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١. وبحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٨٤ ح ١٤ وص ١٩٤، ح ٣٠.

(٧) الاتقان ج ١ ص ١٢.

الثلاث أو الخمس من أوّل سورة العلق إنّما نزلت تبشيراً بنبوّته (صلى الله عليه وآله) وهذا إجماع أهل الملّة، ثم بعد فترة جاءته آيات- أيضاً- من أوّل سورة المدثّر، كماجاء في حديث جابر ثانياً. أما سورة الفاتحة فهي أُولى سورة نزلت بصورة كاملة، وبسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماوياً للمسلمين، فهي أوّل قرآن نزل عليه (صلى الله عليه وآله) بهذا العنوان الخاصّ، وأمّا آيات غيرها سبقتها نزولا، فهي إنما نزلت لغايات أُخرى، وإن سجّلت بعدئذ قرآناً ضمن آياته وسوره.

ومن هنا صحّ التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة أي اوّل سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصّة. وهذا الاهتمام البالغ بشأنها في بدء الرسالة، واختصاص فرضها في الصلوات جميعاً، جعلها-في الفضيلة-عدلاً للقرآن العظيم: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»[١]. فقد امتنّ الله على رسوله بهذا النزول الخاصّ تجاه سائر القرآن.

نعم لواعتبرنا السور باعتبار مفتتحها فسوزة الحمد تقع الخامسة، كما جاء في رواية جابربن زيد[٢] الآتية.

آخر مانزل:

جاء في رواياتنا: أنّ آخر مانزل هي سورة النصر، روي أنّها لـمّا نزلت وقرأها (صلى الله عليه وآله) على أصحابه، فرحوا واستبشروا، سوى العباس بن عبدالمطلب، فإنّه بكى، قال (صلى الله عليه وآله): مايبكيك ياعم! قال: أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: إنه لكما تقول،فعاش (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدها سنتين[٣].

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «وآخرسورة نزلت إذَا جَاءَ نَصْرُاللهِ

(١) الحجر: ٨٧. (٢) الإتقان: ج ١ ص ٢٥. (٣) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٥٤.

وَالْفَتْحُ»[١].

وأخرج مسلم عن ابن عباس، قال: آخر سورة نزلت، إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والْفَتْحُ[٢].

و روي: آخر سورة نزلت براءة. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه (صلى الله عليه وآله) من غزوة تبوك، نزلت آيات من أوّلها، فبعث بها النبيّ مع علي (عليه السلام) ليقرأها على ملأ من المشركين[٣].

وروي: آخر آية نزلت «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ». نزل بها جبرئيل، وقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة. وعاش الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل سبعة أيام[٤].

قال ابن واضح اليعقوبي: وقد قيل: إن آخر ما نزل عليه (صلى الله عليه وآله) «الْيومَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً»[٥] قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة. وكان نزولها يوم النصّ على أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب **(صلوات الله عليه) بغدير خم**[٦].

أقول: لاشكّ أنّ سورة النصر نزلت قبل براءة، لأنّها كانت بشارة بالفتح، أو بمكة عام الفتح[٧] وبراءة نزلت بعد الفتح بسنة. فطريق الجمع بين هذه الروايات: أنّ آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): أما أنّ نفسي نعيت إليّ[٨]. وآخر سورة نزلت باعتبار مفتتحها هي سورة براءة. وأمّا آية «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ» فإن صحّ أنّها نزلت

---

(١) تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٩.
(٢) الإتقان: ج ١ ص ٢٧.
(٣) تفسير الصافي: ج ١ ص ٦٨٠.
(٤) تفسير شبر: ص ٨٣.
(٥) المائدة: ٣.
(٦) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٥.
(٧) أسباب النزول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ١٤٥.
(٨) مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٩٤.

بمنى يوم النحر في حجة الوداع ـ كما جاء في رواية الماوردي[١] فآخر آية نزلت هي آية الإكمال ـ كما ذكرها اليعقوبي. لأنّها نزلت في مرجعه (صلى الله عليه وآله وسلم) من حجة الوداع ثامن عشر ذي الحج. وإلّا فلوصحّ أنّ النبيّ عاش بعد آية «وَاتَّقُوا...» أحداً وعشرين يوماً أو سبعة أو تسعة أيام، فهذه هي آخر آية نزلت عليه (صلى الله عليه وآله وسلم).

والأرجح عندنا: هو ما ذهب إليه اليعقوبي، نظراً لأنّها آية الإعلام بكمال الدين، فكانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليه (صلى الله عليه وآله) بالبلاغ والأداء. فلعلّ تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلاقاً.

وهناك أقوال وآراء أُخر لاقيمة لها، إنّها غير مستندة الى نصّ معصوم.

قال القاضي أبوبكر ـ في الإنتصار ـ: وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع الى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظنّ وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ماطعن به الطاعنون من عدم الضبط. ويحتمل أنّ كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وغيره سمع منه بعد ذلك. ويحتمل ـ أيضاً ـ أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم مانزل معها، وتلاوتها عليهم بعد رسم مانزل آخراً وتلاوته، فيظنّ سامع ذلك أنّه آخر ما نزل في الترتيب[٢].

المكيّ والمدنيّ:

لمعرفة المكيّ من المدنيّ، سواء أكانت سورة أم آية، فائدة كبيرة تمسّ جوانب أسباب النزول، وتمدّ المفسّر والفقيه في تعيين اتجاه الآية، وفي مجال معرفة الناسخ من المنسوخ، والخاصّ من العامّ، والقيد من الإطلاق،

---

(١) البرهان: ج١ ص١٨٧.

(٢) البرهان: ج١ ص٢١٠.

وما أشبه. ومن ثم حاول العلماء جهدهم في تعيين المكيّات من المدنيّات، ووقع إجماعهم على قسم كبير، واختلفوا في البقيّة. كما استثنوا آيات مدنيّة في سور مكيّة أو بالعكس، ولذلك تفصيل طريف يأتي.

والملاك في تعيين المكّي والمدنيّ مختلف حسب اختلاف الآراء والأنظار في ذلك، وفيما يلي ثلاث نظريّات جاءت مشهورة:

الأولى: اعتبار ذلك بهجرة النبي (صلى الله عليه وآله) ووصوله الى المدينة المنوّرة. فما نزل قبل الهجرة أو في اثناء الطريق قبل وصوله الى المدينة، فهو مكيّ، وما نزل بعد ذلك فهو مدنيّ.

والملاك على هذا الاعتبار ملاك زمني، فما نزل قبل وقت الهجرة، ولو في غير مكّة فهو مكّي. وما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة حتى ولو نزل في مكّة عام الفتح أو في حجة الوداع، فهو مدنيّ باعتبار نزوله بعد الهجرة. وعلى هذا الاصطلاح فجميع الآيات النازلة في الحروب وفي أسفاره (صلى الله عليه وآله) بما أنّها نزلت بعد الهجرة، كلّها مدنيّات.

قال يحيى بن سلام: ما نزل بمكّة أو في طريق المدينة قبل أن يبلغها (صلى الله عليه وآله) فهو مكّي. وما نزل بعد ما قدم (صلى الله عليه وآله) المدينة أو في بعض أسفاره وحروبه فهو مدنيّ. قال جلال الدين: وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أنّ ما نزل في سفر الهجرة مكيّ اصطلاحاً[١].

وذلك كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إلىٰ مَعَادٍ»[٢] قيل: نزلت بالجحفة والنبيّ (صلى الله عليه وآله) في طريق هجرته الى المدينة[٣].

الثانية: ما نزل بمكّة وحواليها ـ ولو بعد الهجرة ـ فهو مكيّ، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ. وما نزل خارج البلدين، بعيداً عنهما فهو لا مكيّ ولا مدنيّ،

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ٩.　　(٢) القصص: ٨٥.　　(٣) البرهان: ج ١ ص ١٩٧.

كقوله تعالى: «كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلٰه إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ»[١]. قيل: نزلت بالحديبية حينما صالح النبيّ (صلى الله عليه وآله) مشركي قريش فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): اكتب: بسم الله الرحمان الرحيم... فقال سهيل بن عمرو وسائر المشركين مانعرف الرحمان إلّا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذّاب، فنزلت الآية[٢] وهكذا آية الأنفال[٣] نزلت في بدر عندما اختصم المسلمون في تقسيم الغنائم[٤] لامكيّة ولا مدنيّة، على هذا الاصطلاح.

الثالثة: ماكان خطاباً لأهل مكة فهو مكيّ، وماكان خطاباً لأهل المدينة فهو مدنيّ، وهذا الاصطلاح مأخوذ من كلام ابن مسعود: «كلّ شيء نزل فيه يا أيها الناس فهو بمكة. وكل شيء نزل فيه يا أيها الذين آمنوا فهو بالمدينة»[٥]. قال الزركشي: لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر، والغالب على أهل المدينة الإيمان[٦].

* * *

وهذا الاختلاف في تحديد المكيّ والمدنيّ أوجب اختلافاً في كثير من آيات وسور: أنّها مكيّة أم مدنيّة[٧]. غير أنّ المعتمد من هذه المصطلحات هو الأوّل، وهو المشهور الذي جرى عليه أكثريّة أهل العلم[٨] وكان تحديدنا الآتي في نظم السور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

---

(١) الرعد: ٣٠.

(٢) مجمع البيان: ج٦ ص٢٩٣.

(٣) الانفال: ١.

(٤) راجع السيرة لابن هشام: ج٢ ص٣٢٢.

(٥) مستدرك الحاكم: ج٣ ص١٨.

(٦) البرهان: ج١ ص١٨٧.

(٧) كما في آية الأمانات من سورة النساء: ٥٨ زعمها النحاس مكيّة لرواية ابن جريج، راجع مجمع البيان: ج٣ ص٦٣.

(٨) راجع البرهان: ج١ ص١٨٧. والاتقان ج١ ص٩.

نعم، الطرق الى معرفة مواقع النزول: أنّها كانت بمكة أو بالمدينة أو بغيرهما، قليل جداً، لأنّ الأوائل لم يعيروا هذه الناحية المهمّة اهتماماً معتدّاً به، سوى ماذكروه في عرض الكلام استطراداً، وهي استفادة ضئيلة للغاية، ومن ثم يجب لمعرفة ذلك ملاحظة شواهد وقرائن من لفظ الآية أو استفادة من لهجة الكلام، خطاباً مع نوعيّة موقف الموجّه اليهم: أكان في حرب أم في سلم، وعد أم وعيد، إرشاد أو تكليف ...؟ فيا إذا أوجب ذلك علماً أو حلّا قطعيّاً لمشكلة في لفظ الآية، كما في قوله: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَو اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا»[١]، فإنّ مشكلة دلالتها على مطلق الترخيص دون الإلزام والإيجاب، تنحلّ بما أثَر في سبب نزولها[٢]. الأمر الذي يوجب الثقة بصحة الأثر، مع غضّ النظر عن ملاحظة السند، ومن ثم فهي مدنيّة.

قال الجعبري: لمعرفة المكيّ والمدنيّ طريقان: سماعيّ وقياسيّ. فالسماعيّ ماوصل إلينا نزوله بأحدهما. والقياسيّ، قال علقمة عن ابن مسعود: كلّ سورة فيها «يا أيها الناس» فقط، أو «كلا» أو أوّلها حروف تهجّ سوى الزهراوين (البقرة وآل عمران) والرعد ـ في وجه ـ أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى (البقرة) أو فيها قصص الأنبياء والأُمم الخالية، فهي مكيّة. وكلّ سورة فيها حدّ أو فريضة، فهي مدنيّة. وفي رواية: وكلّ سورة فيها: «يا أيّها الذين آمنوا» فهي مدنيّة.

قال الزركشي: وهذا القول ـ الأخير ـ إن أُخذ على اطلاقه ففيه نظر، فإنّ سورة البقرة مدنيّة وفيها: «يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم»[٣]، وفيها: «يَا أَيُّها النّاسُ كُلُوا مِمّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيّباً»[٤]. وسورة النساء مدنية وفيها:

---

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) كان المسلمون يتحرّجون السعي بين الصفا والمروة، زعما أنّها عادة جاهليّة تكريماً بمقام أساف ونائلة، فنزلت الآية دفعاً لهذا الوهم. راجع مجمع البيان: ج ١ ص ٢٤٠.

(٣) البقرة: ٢١. (٤) البقرة: ١٦٨.

«يا أيُّها النّاسُ اتّقوا رَبّكُم»[١]. وفيها:«إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ»[٢]. فإن أراد المفسّرون أنّ الغالب ذلك فهو صحيح، ولذا قال مكي بن حموش: هذا إنّما هو في الأكثر وليس بعامّ. وفي كثير من سور مكيّة «يَا أيُّها الذين آمنوا»[٣].

وقال القاضي أبوبكر: كانت العادة تقضي بحفظ الصحابة ذلك، غير أنّه لم يكن من النبيّ (صلى الله عليه وآله) في ذلك قول، ولا ورد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا وإنّما لم يفعله لأنّه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأُمّة، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم، لمّا لم يعتبروا ذلك من فرائض الدين، لم تتوفّر الدواعي على إخبارهم به، ومواصلة ذلك على أسماعهم. وإذا كان الأمر على ذلك ساغ أن يختلف من جاء بعدهم في بعض القرآن: هل هو مكيّ أو مدنيّ؟ وأن يعملوا في القول بذلك ضرباً من الرأي والاجتهاد...[٤].

ترتيب النزول:

اعتمدنا في هذا العرض على عدة روايات متفق عليها. وثق بها العلماء أكثريا، وعمدتها رواية ابن عباس بطرق وأسانيد اعترف بها أئمّة الفنّ[٥].

قال الإمام بدرالدين الزركشي: وعلى هذا الترتيب استقرت الرواية من الثقات[٦]. وقد أخذناها الأصل الأول في هذا العرض، واكملنا ما سقط منها

---

(١) النساء: ١. (٢) النساء: ١٣٣.

(٣) لم نجد في سورة مكيّة «يا ايها الذين آمنوا» نعم فيها كثير ذكر «الذين آمنوا» بلاخطاب. كما في سورة ص والزمر وغافر وفصلت وغيرها.

نعم ذكر الزركشي مثالاً لذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا» سورة الحج: ٧٧. فزعمها مكيّة. لكن الصحيح أنّها مدنيّة وسيأتي ذلك.

(٤) راجع البرهان: ج١ ص١٩٠- ١٩٢.

(٥) راجع مجمع البيان: ج١٠ ص٤٠٥-٤٠٦. والإتقان: ج١ ص١٠- ١١ و٢٥.

(٦) البرهان: ج١ ص١٩٣- ١٩٤.

على رواية جابربن زيد وغيره، وكذا نصوص تاريخيّة معتمدة[١]، نعم كان بينها بعض الاختلاف إمّا للاختلاف في تحديد المكيّ والمدنيّ، أوفي عدد المكيّات من المدنيّات، ومن ثم جاء اختلافهم في نيف وثلاثين سورة: أنّها مكيّات أم مدنيّات.

والنظر في هذا العرض كان الى مفتتح السور، فالسورة إذا نزلت من أوّلها بضع آيات، ثم نزلت أُخرى، وبعدها اكتملت الأُولى، كانت الأُولى متقدّمة على الثانية في ترتيب النزول حسب هذا المصطلح.

وإليك قائمة السور المكيّة، وعددها: ست وثمانون سورة. متقدّمة على السور المدنيّة، وعددها: ثمان وعشرون سورة. مع غضّ النظر عن سور مختلف فيها، وسنتكلّم عن ذلك في فصل قادم.

---

(١) راجع الفهرست: ص٢٨، وتاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٨.

السور المكيّة

(٨٦)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
١	العلق	٩٦	١٤	العاديات	١٠٠
٢	القلم	٦٨	١٥	الكوثر	١٠٨
٣	المزمّل	٧٣	١٦	التكاثر	١٠٢
٤	المدّثر	٧٤	١٧	الماعون	١٠٧
٥	الفاتحة[١]	١	١٨	الكافرون	١٠٩
٦	المسد	١١١	١٩	الفيل	١٠٥
٧	التكوير	٨١	٢٠	الفلق	١١٣
٨	الأعلى	٨٧	٢١	الناس	١١٤
٩	الليل	٩٢	٢٢	التوحيد	١١٢
١٠	الفجر	٨٩	٢٣	النجم	٥٣
١١	الضحى	٩٣	٢٤	عبس	٨٠
١٢	الشرح	٩٤	٢٥	القدر	٩٧
١٣	العصر	١٠٣	٢٦	الشمس	٩١

(١) سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس، فأثبتناها على رواية جابربن زيد: الإتقان: ج١ ص٢٥ وعلى نصّ تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٢٦.

٢٧	البروج	٨٥
٢٨	التين	٩٥
٢٩	قريش	١٠٦
٣٠	القارعة	١٠١
٣١	القيامة	٧٥
٣٢	الهمزة	١٠٤
٣٣	المرسلات	٧٧
٣٤	ق	٥٠
٣٥	البلد	٩٠
٣٦	الطارق	٨٦
٣٧	القمر	٥٤
٣٨	ص	٣٨
٣٩	الأعراف	٧
٤٠	الجن	٧٢
٤١	يس	٣٦
٤٢	الفرقان	٢٥
٤٣	فاطر	٣٥
٤٤	مريم	١٩
٤٥	طه	٢٠
٤٦	الواقعة	٥٦
٤٧	الشعراء	٢٦
٤٨	النمل	٢٧
٤٩	القصص	٢٨
٥٠	الإسراء	١٧
٥١	يونس	١٠
٥٢	هود	١١
٥٣	يوسف	١٢
٥٤	الحجر	١٥
٥٥	الأنعام	٦
٥٦	الصافّات	٣٧
٥٧	لقمان	٣١
٥٨	سبأ	٣٤
٥٩	الزمر	٣٩
٦٠	غافر	٤٠
٦١	فصّلت	٤١
٦٢	الشورى	٤٢
٦٣	الزخرف	٤٣
٦٤	الدخان	٤٤
٦٥	الجاثية	٤٥
٦٦	الأحقاف	٤٦
٦٧	الذاريات	٥١
٦٨	الغاشية	٨٨
٦٩	الكهف	١٨
٧٠	النحل	١٦
٧١	نوح	٧١
٧٢	إبراهيم	١٤

٧٣	الأنبياء	٢١	٨٠	النبأ	٧٨
٧٤	المؤمنون	٢٣	٨١	النازعات	٧٩
٧٥	السجدة	٣٢	٨٢	الانفطار	٨٢
٧٦	الطور	٥٢	٨٣	الانشقاق	٨٤
٧٧	الملك	٦٧	٨٤	الروم	٣٠
٧٨	الحاقّة	٦٩	٨٥	العنكبوت	٢٩
٧٩	المعارج	٧٠	٨٦	المطففين	٨٣

السور المدنيّة

(٢٨)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٨٧	البقرة	٢	٩٩	الطلاق	٦٥
٨٨	الأنفال	٨	١٠٠	البيّنة	٩٨
٨٩	آل عمران	٣	١٠١	الحشر	٥٩
٩٠	الأحزاب	٣٣	١٠٢	النصر	١١٠
٩١	الممتحنة	٦٠	١٠٣	النور	٢٤
٩٢	النساء	٤	١٠٤	الحج	٢٢
٩٣	الزلزال	٩٩	١٠٥	المنافقون	٦٣
٩٤	الحديد	٥٧	١٠٦	المجادلة	٥٨
٩٥	محمد	٤٧	١٠٧	الحجرات	٤٩
٩٦	الرعد	١٣	١٠٨	إلتحريم	٦٦
٩٧	الرحمان	٥٥	١٠٩	الجمعة	٦٢
٩٨	الإنسان	٧٦	١١٠	التغابن	٦٤

١١١	الصف[1]	٦١	١١٣	المائدة[2]	٥
١١٢	الفتح	٤٨	١١٤	براءة	٩

* * *

وإليك قائمة أُخرى مرتّبة على حروف التهجّي، والرقم يشير الى ترتيب السورة في المصحف:

الف

٣ـ آل عمران	مدنيّة	نزلت بعد الأنفال
١٤ـ إبراهيم	مكيّة	نزلت بعد نوح
٣٣ـ الأحزاب	مدنيّة	نزلت بعد آل عمران
٤٦ـ الأحقاف	مكيّة	نزلت بعد الجاثية
١٧ـ الإسراء	مكيّة	نزلت بعد القصص
٧ـ الأعراف	مكيّة	نزلت بعد ص
٨٧ـ الأعلى	مكيّة	نزلت بعد التكوير
٢١ـ الأنبياء	مكيّة	نزلت بعد إبراهيم
٧٦ـ الإنسان	مدنيّة	نزلت بعد الرحمان
٨٤ـ الانشقاق	مكيّة	نزلت بعد الانفطار
٦ـ الأنعام	مكيّة	نزلت بعد الحجر
٨ـ الأنفال	مدنيّة	نزلت بعد البقرة
٨٢ـ الانفطار	مكيّة	نزلت بعد النازعات

ب

٩ـ براءة	مدنيّة	نزلت بعد المائدة

(١) جعل الزركشي في البرهان سورة الصف بعد التحريم وقبل الجمعة.

(٢) قدّم الزركشي في البرهان البراءة على المائدة، وجعل هذه الأخيرة آخر السور.

٨٥ـ البروج	مكيّة	نزلت بعد الشمس
٢ـ البقرة	مدنيّة	نزلت بعد المطففين
٩٠ـ البلد	مكيّة	نزلت بعد ق
٩٨ـ البيّنة	مدنيّة	نزلت بعد الطلاق

ت

٦٦ـ التحريم	مدنيّة	نزلت بعد الحجرات
٦٤ـ التغابن	مدنيّة	نزلت بعد الجمعة
١٠٢ـ التكاثر	مكيّة	نزلت بعد الكوثر
٨١ـ التكوير	مكيّة	نزلت بعد المسد
١١٢ـ التوحيد	مكيّة	نزلت بعد الناس
٩٥ـ التين	مكيّة	نزلت بعد البروج

ج

٤٥ـ الجاثية	مكيّة	نزلت بعد الدخان
٦٢ـ الجمعة	مدنيّة	نزلت بعد التحريم
٧٢ـ الجن	مكيّة	نزلت بعد الأعراف

ح

٦٩ـ الحاقّة	مكيّة	نزلت بعد الملك
٢٢ـ الحجّ	مدنيّة	نزلت بعد النور
١٥ـ الحجر	مكيّة	نزلت بعد يوسف
٤٩ـ الحجرات	مدنيّة	نزلت بعد المجادلة
٥٧ـ الحديد	مدنيّة	نزلت بعد الزلزال

٥٩ـ الحشر	مدنيّة	نزلت بعد البيّنة

د

٤٤ـ الدخان	مكيّة	نزلت بعد الزخرف

ذ

٥١ـ الذاريات	مكيّة	نزلت بعد الأحقاف

ر

٥٥ـ الرحمان	مدنيّة	نزلت بعد الرعد
١٣ـ الرعد	مدنيّة	نزلت بعد محمد
٣٠ـ الروم	مكيّة	نزلت بعد الانشقاق

ز

٤٣ـ الزخرف	مكيّة	نزلت بعد الشورى
٩٩ـ الزلزال	مدنيّة	نزلت بعد النساء
٣٩ـ الزمر	مكيّة	نزلت بعد سبأ

س

٣٤ـ سبأ	مكيّة	نزلت بعد لقمان
٣٢ـ السجدة	مكيّة	نزلت بعد المؤمنون

ش

٩٤ـ الشرح	مكيّة	نزلت بعد الضحى
٢٦ـ الشعراء	مكيّة	نزلت بعد الواقعة
٩١ـ الشمس	مكيّة	نزلت بعد القدرْ

٤٢ـ الشورى	مكيّة	نزلت بعد فصّلت

ص

٣٨ـ ص	مكيّة	نزلت بعد القمر
٣٧ـ الصافّات	مكيّة	نزلت بعد الأنعام
٦١ـ الصفّ	مدنيّة	نزلت بعدالتغابن

ض

٩٣ـ الضحى	مكيّة	نزلت بعد الفجر

ط

٨٦ـ الطارق	مكيّة	نزلت بعد البلد
٢٠ـ طه	مكيّة	نزلت بعد مريم
٦٥ـ الطلاق	مدنيّة	نزلت بعد الإنسان
٥٢ـ الطور	مكيّة	نزلت بعد السجدة

ع

١٠٠ـ العاديات	مكيّة	نزلت بعد العصر
٨٠ـ عبس	مكيّة	نزلت بعد النجم
١٠٣ـ العصر	مكيّة	نزلت بعد الشرح
٩٦ـ العلق	مكيّة	هي أوّل ما نزلت
٢٩ـ العنكبوت	مكيّة	نزلت بعد الروم

* * *

غ

٨٨ـ الغاشية	مكيّة	نزلت بعد الذاريات
٤٠ـ غافر	مكيّة	نزلت بعد الزمر

ف

١ـ الفاتحة	مكيّة	نزلت بعد المدّثر
٣٥ـ فاطر	مكيّة	نزلت بعد الفرقان
٤٨ـ الفتح	مدنيّة	نزلت بعد الصف
٨٩ـ الفجر	مكيّة	نزلت بعد الليل
٢٥ـ الفرقان	مكيّة	نزلت بعد يس
٤١ـ فصّلت	مكيّة	نزلت بعد غافر
١١٣ـ الفلق	مكيّة	نزلت بعد الفيل
١٠٥ـ الفيل	مكيّة	نزلت بعد الكافرون

ق

٥٠ـ ق	مكيّة	نزلت بعد المرسلات
١٠١ـ القارعة	مكيّة	نزلت بعد قريش
٩٧ـ القدر	مكيّة	نزلت بعد عبس
١٠٦ـ قريش	مكيّة	نزلت بعد التين
٢٨ـ القصص	مكيّة	نزلت بعد النمل
٦٨ـ القلم	مكيّة	نزلت بعد العلق
٥٤ـ القمر	مكيّة	نزلت بعد الطارق
٧٥ـ القيامة	مكيّة	نزلت بعد القارعة

ك

١٠٩- الكافرون	مكيّة	نزلت بعد الماعون
١٨- الكهف	مكيّة	نزلت بعد الغاشية
١٠٨- الكوثر	مكيّة	نزلت بعد العاديات

ل

٣١- لقمان	مكيّة	نزلت بعد الصافات
٩٢- الليل	مكيّة	نزلت بعد الأعلى

م

٥- المائدة	مدنيّة	نزلت بعد الفتح
١٠٧- الماعون	مكيّة	نزلت بعد التكاثر
٥٨- المجادلة	مدنيّة	نزلت بعد المنافقون
٤٧- محمد	مدنيّة	نزلت بعد الحديد
٧٤- المدّثر	مكيّة	نزلت بعد المزمّل
٧٧- المرسلات	مكيّة	نزلت بعد الهمزة
١٩- مريم	مكيّة	نزلت بعد فاطر
٧٣- المزمل	مكيّة	نزلت بعد القلم
١١١- المسد	مكيّة	نزلت بعد الفاتحة
٨٣- المطففين	مكيّة	نزلت بعد العنكبوت
٧٠- المعارج	مكيّة	نزلت بعد الحاقّة
٦٧- الملك	مكيّة	نزلت بعد الطور
٦٠- الممتحنة	مدنيّة	نزلت بعد الأحزاب

٦٣ـ المنافقون	مدنيّة	نزلت بعد الحج
٢٣ـ المؤمنون	مكيّة	نزلت بعد الأنبياء

ن

١١٤ـ الناس	مكيّة	نزلت بعد الفلق
٧٩ـ النازعات	مكيّة	نزلت بعد النبأ
٧٨ـ النبأ	مكيّة	نزلت بعد المعارج
٥٣ـ النجم	مكيّة	نزلت بعد التوحيد
١٦ـ النحل	مكيّة	نزلت بعد الكهف
٤ـ النساء	مدنيّة	نزلت بعد الممتحنة
١١٠ـ النصر	مدنيّة	نزلت بعد الحشر
٢٧ـ النمل	مكيّة	نزلت بعد الشعراء
٧١ـ نوح	مكيّة	نزلت بعد النمل
٢٤ـ النور	مدنيّة	نزلت بعد النصر

و

٥٦ـ الواقعة	مكيّة	نزلت بعد طه

هـ

١٠٤ـ الهمزة	مكيّة	نزلت بعد القيامة
١١ـ هود	مكيّة	نزلت بعد يونس

ى

٣٦ـ يس	مكيّة	نزلت بعد الجن

١٢ـ يوسف	مكيّة	نزلت بعد هود
١٠ـ يونس	مكيّة	نزلت بعد الإسراء

سور مختلف فيها

نتيجة على ماسبق كانت السور المكيّة ستاً وثمانين سورة، أولهنّ سورة العلق وآخرهنّ سورة المطفّفين. والسور المدنيّة ثماني وعشرين سورة،أوّلهنّ سورة البقرة، وآخرهنّ سورة براءة.

لكن هذا التحديد لم يكن متفقاً عليه عند الجميع، فهناك في أكثر من ثلاثين سورة خالف بعضهم ماأثبتناه في القائمتين. وفيما يلي عرض موجز عن هذا الاختلاف، مع إلمامة قصيرة الى وجه اختيارنا في الموضوع، ونؤجّل التفصيل الى تفسيرنا الوسيط:

١ ـ سورة الفاتحة

قال مجاهد: إنّها مدنيّة[١].

قال الحسين بن الفضل: هذه هفوة من مجاهد، لأنّ العلماء على خلاف قوله[٢] ولقول عليّ (عليه السلام): نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش[٣].

ولقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَاني وَالْقُرآنَ الْعَظيمَ»[٤]،وسورة الحجر مكيّة باتّفاق، وهذا إخبار عن ماض سبق.

---

(١) مجمع البيان: ج١ ص١٧.

(٢) الإتقان: ج١ ص١٢.

(٣) الإتقان: ج١ ص١٢.

(٤) الحجر: ٨٧.

ولأنّها أوّل سورة كاملة نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) علّمه ايّاها جبرئيل[١] ومن ثم سميّت بفاتحة الكتاب[٢] فكان (صلى الله عليه وآله) يصلّي بها في أولى جماعة انعقدت بهم نطفة الإسلام، ولا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب[٣] قال جلال الدين: ولم يحفظ صلاة بغير فاتحة الكتاب[٤].

٢ـ سورة النساء

زعم النحّاس أنّها مكيّة، نظراً الى قوله تعالى: «إنّ الله يَأْمُرُكُم أن تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا»[٥] فقد قال ابن جريح: إنّها نزلت بمكة عام الفتح بشأن مفتاح البيت الحرام، أراد النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن يدفعه الى العباس بن عبدالمطلب فأمره الله أن يدفعه الى عثمان بن طلحة، حيث كان (صلى الله عليه وآله) قد أخذه منه[٦].

لكن المفسّرين اتفقوا على أنّها مدنيّة، نظراً لضعف إسناد هذا الحديث. على أنّ نزول آية أو سورة بمكة عام الفتح لايجعلها مكيّة، على الاصطلاح المشهور: ما نزل بعد الهجرة فهو مدنيّ ولوكان نزوله بمكة.

وأخيراً فإنّ السورة بكاملها لا تتّسم بسمة آية واحدة فيها: كان نزولها على غير نزول السورة.

٣ـ سورة يونس

في رواية شاذة عن ابن عباس: أنّها مدنية[٧]. ولم تثبت هذه الرواية،

---

(١) السيرة النبويّة: ج١ ص١٦١.
(٢) تقدّم ذلك في الصفحة: ١٢٥.
(٣) صحيح مسلم: ج٢ ص٩. والمستدرك للحاكم: ج١ ص٢٣٨ و٢٣٩.
(٤) الإتقان: ج١ ص١٢.
(٥) النساء: ٥٨.
(٦) مجمع البيان: ج٣ ص٦٣.
(٧) الإتقان: ج١ ص١٢.

فضلا عن مخالفتها للنصّ المتقدّم عن ابن عباس نفسه في ترتيب نزول السور، وكان متفقاً عليه تقريباً.

٤ـ سورة الرعد

قال محمدبن السائب الكلبي ومقاتل وعطاء إنّها مكية(١). وكذا في رواية رواها مجاهدعن ابن عباس(٢).

ورجّح سيّد قطب هذا القول، قال: ومكيّة هذه السورة شديدة الوضوح، سواء في طبيعة موضوعها أو طريقة أدائها أو في جوّها العام الذي لايخطئ تنسّمه من يعيش في ظلال هذا القرآن(٣).

لكن روايات الترتيب اتفقت على أنّها مدنيّة نزلت بعد سورة القتال، كماجاء في رواية عكرمة والحسين بن أبي الحسن. ورواية خصيف عن مجاهد عن ابن عباس نفسه(٤). وكذا قال الحسن وقتادة(٥).

وأمّا سياق السورة فإنّه توجيه عام للبشريّة الى آيات التوحيد، الأمر الذي تشترك فيها السورالمكيّةوالمدنيّة، ككثيرمن آيات سورة البقرة وغيرهامن سورمدنيّات.

والعمدة: اتفاق روايات الترتيب. ويتّضح ذلك أكثرعند الكلام عن سورة الرحمان.

٥ـ سورة الحج

قال أبو محمد مكي بن أبي طالب: إنّها مكيّة(٦). وروى ذلك عن مجاهد

---

(١) الدرالمنثور: ج ٤ ص ٤٢،ومجمع البيان: ج ٦ ص ٢٧٣.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ٩.

(٣) في ظلال القرآن. ج ١٣ ص ٦٣ الهامش.

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٠.

(٥) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٧٣. والدرالمنثور: ج ٤ ص ٤٢.

(٦) الكشف عن القراءات السبع: ج ٢ ص ١١٦.

بسند فيه ضعف[١] قال: سألت ابن عباس عن نزول السور، حتى انتهى الى سورة الحج، فقال: أُنزلت بمكة سوى الآيات الثلاث (١٩و ٢٠ و٢١) نزلن بالمدينة[٢] ولماروواه الطبري من حديث الغرانيق[٣] وأيضاً فإنّ لهجتها الشديدة تناسب نزولها بمكة!

قلت: كلّ ذلك لايقاوم اتفاق كلمة روايات الترتيب ونصوص المؤرّخين. ورواية مجاهد- مع ضعف سندها- معارضة بروايات الترتيب المتفق عليها[٤]. أمّا حديث الغرانيق فحديث خرافة لا أصل لها[٥]. وأمّا اللهجة فهي غالبيّة وليست دائميّة، ومن ثم لا تصلح مستنداً للحكم عليها.

٦- سورة الفرقان

زعم الضحّاك أنّها مدنية، نظراً لآيات في آخرها قيل فيها: انّها مدنية[٦]. وهذا لوحده لايصلح دليلاً على مدنيّتها بعد اتفاق روايات الترتيب.

٧- سورة يس

قيل: إنّها مدنيّة[٧]. ولم يعرف هذا القائل ولادليله الذي استند إليه. والإجماع منعقد على أنّها مكيّة.

---

(١) بسبب أبي عبيدة معمربن المثنى، كان يرى رأي الخوارج بذيئاً متهتّكاً، قليل العناية بالقرآن، وإذا قرأه قرأه نظراً. راجع الفهرست: ص٥٩. وميزان الاعتدال: ج ٤ ص١٥٥. وتهذيب التهذيب: ج١٠ ص٢٤٧.

(٢) الإتقان: ج١ ص٩.

(٣) تفسير الطبري: ج١٧ ص١٣١- ١٣٢.

(٤) راجع الاتقان: ج ١ ص ١١ و٢٥. والفهرست: ص٢٨.والدرالمنثور: ج ٤ ص٣٤٢.

(٥) تقدم ذلك في الصفحة: ٨٦.

(٦) الإتقان: ج١ ص١٣.

(٧) نفس المصدر.

٨ـ سورة ص

أيضاً قيل: مدنيّة[١] وهو شاذّ مخالف للإجماع.

٩ـ سورة محمد (صلى الله عليه وآله)

فيها قول ضعيف: أنّها مكيّة[٢] وهو غريب بعد انّ كانت سورة القتال!

١٠ـ سورة الحجرات

قيل: إنّها مكية. وهي مدنيّة بالاجماع قولا واحداً[٣].

١١ـ سورة الرحمان

جاء في نصّ الفهرست واليعقوبي: أنّها مكيّة. وذهب المشهور أيضاً الى ذلك.

قال جلال الدين: وهوالصواب، لماروواه الترمذي والحاكم عن جابر قال: لما قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) سورة الرحمان على أصحابه حتى فرغ. قال: مالي أراكم سكوتا؟ للجنّ كانوا أحسن منكم ردّاً! ماقرأت من مرّة «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» إلّا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربّنا نكذّب، فلك الحمد. قال جلال الدين: وقصة الجنّ كانت بمكة[٤].

قال: وأصرح من ذلك ماروواه أحمد في مسنده عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يصلّي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان»[٥] قال: وهذا

---

(١)و(٢)و(٣)و(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٣.

(٥) مسند أحمد ج ٦ ص ٣٤٩.

دليل على أنّها نزلت قبل سورة الحجر.

وقال سيّد قطب: نسق السورة تتضح فيه سمات القرآن المكي[١].

أقول: لاشكّ أنّ رنّتها الأخّاذة تشبه رنّة غالبيّة السور المكيّة، بل من أوقعها على مسامع النفس. لكن ليس هذا وحده دليلاً على مكيّتها بعد أن لم يكن ميزة اختصاصيّة، وكانت توجد في سور مدنيّة أيضاً، كما في سورة الزلزلة، وسورة البيّنة، وسورة الإنسان، وغيرهنّ. وكثير من سور مكيّة جاءت في لهجة هادئة كسورة يوسف ويونس وهود والأنعام والأعراف وغيرهنّ كثير.

وأمّا حديث الجنّ فلا دليل على أنّه كان بمكة، إذ لاملازمة بين هذا الحديث وحديث نزول سورة الجن بمكة. فلعلّها قصة أُخرى كانت بالمدينة.

وأمّا حديث أسماء ـ إن صحّ ـ فهو يدلّ على نزولها في باكورة البعثة، ولا قائل بذلك لأنّها قالت: قبل أن يصدع بالأمر.

هذا فضلا عن ضعف إسناد هذا الحديث ـ كما جاء في المسند ـ بسبب وجود ابن لهيعة قاضي مصر، في طريقه، وهو مطعون فيه، فقد ضعّفه ابن معين وقال: لايحتجّ بحديثه. وكان يحيى بن سعيد لايراه شيئاً[٢].

وأخيرا فإنّ هكذا تعليلات ضعيفة لا تقاوم روايات الترتيب المتفق عليها[٣].

١٢ـ سورة الحديد

قال قوم: إنّها مكيّة[٤] استناداً الى حديث إسلام عمر بن الخطاب، دخل

---

(١) في ظلال القرآن: ج٢٧ ص٦٦٨.

(٢) راجع ميزان الاعتدال: ج ٢ ص٤٧٥. وتهذيب التهذيب:ج ٥ ص٣٧٤.

(٣) راجع مجمع البيان: ج١٠ ص٤٠٥. والإتقان: ج ١ ص ١١ و٢٥.

(٤) قال ابن حزم: هي مدنيّة إلا في قول الكلبي: انّها مكيّة رسالة الناسخ والمنسوخ بهامش الجلالين: ج ٢ ص١٩٧.

على أُخته فوجد عندها صحيفة فيها سورة الحديد، فقرأها حتى بلغ: «إن كُنتُم مُؤْمِنينَ»[١] فحبّب إليه الإسلام فأتى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسلم على يديه[٢].

وهذا الحديث معارض بحديث ابن إسحاق: كانت في الصحيفة سورة طه، فقرأها حتى انتهى الى قوله تعالى: «لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعىٰ»[٣]. وقيل إنَّ الصحيفة كان فيها مع سورة طه: «إذَا الشَّمْسُ كوِّرَتْ». وإنَّ عمر انتهى في قراءتها الى قوله: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ». فلان قلبه ورغب في الاسلام[٤].

ومعارض أيضاً بحديث شريح بن عبيد، قال: قال عمر: خرجت اتعرّض رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل أن أسلم فوجدته سبقني الى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقّة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فلمّا أتمّها وقع الإسلام في قلبي كلّ موقع[٥].

هذا وذاك الحديث مرسل، أرسله من لايوثق به. قال ابن حجر: والحديث بسند فيه إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة[٦]. وأشار بذلك الى غمز في السند، لأنّ ابن أبي فروة هذا مطعون فيه متروك الحديث[٧].

وتمسّك بعضهم بحديث ابن مسعود: قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بقوله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله... الى قوله: فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وكثيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ»[٨] إلّا أربع سنين، فجعل المؤمنون

---

(١) الحديد: ٨.

(٢) اسدالغابة: ج ٤ ص٥٤.

(٣) طه: ١٥.

(٤) سيرة ابن هشام، وهامشه: ج ١ ص ٣٧٠.

(٥) اسدالغابة: ج ٤ ص٥٤، والاصابة: ج ٢ ص٥١٩.

(٦) الاصابة: ج ٢ ص٥١٩.

(٧) راجع تهذيب التهذيب: ج ١ ص ٢٤٠. والمغني للذهبي: ج ١ ص ٧١. وميزان الاعتدال: ج ١ ص١٩٣.

(٨) الحديد: ١٦.

يعاتب بعضهم بعضاً[١].

قلت: وهذا الحديث أيضاً معارض بأحاديث تنصّ على أنّها نزلت بعد الهجرة بسنة، بشأن المنافقين[٢] أو بعد ما أترف المؤمنون فكادت تقسي قلوبهم[٣].

١٣ـ سورة الصف

قال ابن حزم: مكيّة[٤] لكن الجمهور وروايات الترتيب على خلاف قوله، فالصحيح أنّها مدنيّة، ونسب ابن الغرس ذلك الى الجمهور[٥].

١٤ـ سورة الجمعة

مدنيّة بالإجماع، والمخالف غير معروف. قال جلال الدين: ثبت في نصوص صحيحة أنّها مدنية كلّها[٦].

١٥ـ سورة التغابن

قيل: مكيّة الى قوله تعالى: «فَلْيَتوكّلِ الْمُؤْمِنُونَ»[٧] نسب ذلك الى ابن عباس[٨] غير أنّ روايات الترتيب مطبقة على أنّها مدنيّة كلّها.

---

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٣٧. والاتقان: ج ١ ص ١٣.

(٢) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٣٧.

(٣) أسباب النزول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٩٤.

(٤) رسالة الناسخ والمنسوخ بهامش الجلالين: ج ٢ ص ١٩٩.

(٥) الإتقان: ج ١ ص ١٣.

(٦) الإتقان: ج ١ ص ١٣.

(٧) التغابن: ١٣.

(٨) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٢٩٦.

١٦ـ سورة الملك

فيها قول غريب: أنّها مدنيّة[١] والصحيح أنّها مكيّة قولا واحداً.

١٧ـ سورة الإنسان

قال عبدالله بن الزبير: نزلت بمكة[٢] وتبعه على ذلك جماعة ممّن يروقهم إنكار أي فضيلة لأهل البيت (عليهم السلام) وهي النقطة المركزيّة التي تدور عليها رحى هذا التبجّح الغريب[٣]! وعداء ابن الزبير لأهل البيت مشهور!

وهكذا أصرّ سيّد قطب على أنّها مكيّة، مستشهداً بالسياق وقال: واحتمال أنّ هذه السورة مدنيّة ـ في نظرنا ـ هو احتمال ضعيف جداً، يمكن عدم اعتباره[٤].

قال الحافظ الحسكاني: اعترض بعض النواصب بأنّ هذه السورة مكيّة باتفاق المفسّرين، وهذه القصة ـ إن كانت ـ فهي مدنيّة، فكيف كانت سبب نزول السورة؟!

فقال ـ ردّاً على هذا القائل ـ: كيف يسوغ له دعوى الإجماع، مع قول الأكثر: أنّها مدنيّة!... ثم ذكر نصوص الأئمة على ترتيب السور مصرّحة بأنّها نزلت في المدينة بعد سورة الرحمان وقبل سورة الطلاق، وفق ماقدّمنا[٥].

وهكذا حقّق العلاّمة الطبرسي في تفسيره وغيره من محقّقي المفسّرين.

والعمدة: إطباق روايات الترتيب، لا تشذّ منها في ذلك ولا رواية واحدة[٦] وعليه فقضيّة السياق واهية، بعد أن لم تكن كليّة دائميّة.

---

(١) الإتقان: ج١ ص١٣. وتفسير شبر: ص٥٤٢.

(٢) الدرالمنثور: ج٦ ص٢٩٧.

(٣) راجع شواهد التنزيل: ص٢٩٩.

(٤) في ظلال القرآن: ج٢٩ ص٢١٥.

(٥) شواهد التنزيل: ص٣١٠ و٣١٥.

(٦) راجع مجمع البيان: ج١٠ ص٤٠٥.

قال السيّد شبّر: القول بأنّها مكيّة يكذّبه النقل الصحيح[١].

هذا ونؤجّل التفصيل في ذلك الى تفسيرنا الوسيط.

١٨ـ سورة المطففين

قال اليعقوبي: أوّل سورة نزلت بالمدينة[٢] وقيل: نزلت عليه (صلى الله عليه وآله) وهو مهاجر في طريقه الى المدينة[٣]. قال جلال الدين: أخرج النسائي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس، قال: لمّا قدم النبيّ (صلى الله عليه وآله) المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله هذه السورة، فأحسنوا الكيل[٤].

قلت: هذا يناقض روايات الترتيب المتّفقة على أنّها آخر السور المكيّة. كما أنّ لهجة السورة العنيفة لا تتناسب وبدء قدوم نبيّ الرحمة الى المدينة في اوّل عهده بأهلها المستسلمين له، ولاسيّما مع هذا التكرار في لفظة «كلا» التي تشي بعناد المخاطب وإنكاره الخبيث ممّا لايلتئم مع جوّ الإيمان السليم الذي أبداه أهل المدينة آنذاك !! وقد سبق كلام الجعبري: كلّ سورة فيها «كلّا» فهي مكيّة[٥].

١٩ـ سورة الأعلى

قيل: إنّها مدنيّة، استناداً الى قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ»[٦] إشارة الى صلاة العيد وزكاة الفطرة[٧].

قلت: الآية عامّة. والرواية ـ إن صحت ـ جاءت لتطبّق هذا العموم على

---

(١) تفسير شبر: ص ٥٤٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٥.

(٣) رسالة الناسخ والمنسوخ بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٢٠٢.

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٣.

(٥) تقدّم ذلك في الصفحة: ١٣١.

(٦) الاعلى: ١٤ـ١٥.

(٧) الإتقان: ج ١ ص ١٤.

مصداق من مصاديقه ،لا أنّه هو المقصود الذاتي لاغير. ثم لوسلّمنا أنّ هاتين الآيتين نزلتا بالمدينة، فلا يدلّ ذلك على أنّ جميع السورة بكاملها مدنيّة.

فالصحيح أنّ السورة مكيّة حتى ولوكانت بعض آيها مدنيّة. هذا فضلاً عن شهادة اللهجة بمكيّتها!

٢٠ـ سورة الفجر

مكيّة بالاتفاق. والقائل بالخلاف غير معروف[١].

٢١ـ سورة البلد

مكيّة بالإجماع، لأنّ البلد هي مكة المكرّمة بالاتفاق، فكيف يقول القائل: إنّها مدنيّة؟![٢].

٢٢ـ سورة الليل

قيل: انّها مدنيّة، نظراً لما روي في سبب نزولها: كانت نخلة متدلّية في دار رجل فقير، وكان صبيانه يتناولون تمرها، أمّا صاحب النخلة ـ وهو رجل ثريّ ـ فكان يجفوهم. فساومه النبيّ (صلى الله عليه وآله) على نخلة في الجنة فأبى، حتى ساومه أنصاريّ على أربعين نخلة، فاشتراها منه ووهبها للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فوهبها النبيّ (صلى الله عليه وآله) الى الرجل الفقير. قيل: فنزلت: «وَأَمَّا مَن بَخِلَ واسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ»[٣] غير أنّ السند مقطوع غير موصول. على أنّ الآية لا تنطبق تماماً على فحوى القصّة.

فالصحيح: أنّ الآية عامّة في كلّ بخيل بحقّ الله سبحانه فلا يخشى عقابه،

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ١٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الدرالمنثور: ج ٦ ص ٣٥٧. ومجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٠١.

كما جاء في رواياتنا، وفي كثير من روايات غيرنا[١].

٢٣ـ سورة القدر

قال ابن حزم وأبومحمد: إنّها مدنيّة[٢] لما رواه الحاكم عن الحسن بن عليّ (عليهما السلام) قال: رأى النبيّ (صلى الله عليه وآله) بني أميّة ينزون على منبره نزوالقردة. فساءه ذلك فنزلت تسلية لخاطره الكريم[٣].

قال جلال الدين: قال المزي: وهو حديث منكر[٤]! لكنّه تعصّب مفضوح، لأنّ الحاكم رواها بسند صحيح، قال: هذا إسناد صحيح. وقرّره على ذلك، الحافظ الذهبي في التلخيص. وأضاف إليه طريقاً آخر ووثقه أيضاً، ثم قال: وماأدري آفته من أين؟![٥].

قلت: جاءت آفته من قبل نزعة أمويّة اشربت في قلوب تحكّمت فيها نزعات قوميّة جاهلية، ومن ثم يصعب عليها الرضوخ للحق مهما بلغ حدّ التواتر واليقين![٦].

وبعد فإنّ دلالة هذا الحديث على مدنيّة السورة، جاءت من قبل لفظ «المنبر» إذ لم يكن للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بمكة منبر!

لكن هذا وحده لا يصلح دليلاً على ذلك، إذ يجوز ـ قريباً ـ أنّه (صلى الله عليه وآله) أُري ذلك بمكة قبل هجرته لتكون بشارة له باعتلاء ذكره، والمامة

(١) راجع مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٠٢ وتفسير الطبري: ج ٣٠ ص ١٤٠. وتفسير الصافي: ج ٢ ص ٨٢٥.

(٢) الكشف عن القراءات السبع: ج ١ ص ٣٨٥. ورسالة الناسخ والمنسوخ بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٢٠٣.

(٣) مستدرك الحاكم: ج ٣ ص ١٧١.

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٤.

(٥) تلخيص المستدرك بالهامش: ج ٣ ص ١٧٠.

(٦) راجع تفسير الطبري: ج ١٥ ص ٧٧ وج ٣٠ ص ١٦٧. والدرالمنثور: ج ٤ ص ١٩١ وج ٦ ص ٣٧١. ومروج الذهب: ج ٣ ص ٢٥٠.

الى الاغتصاب الذي يرتكبه شرار أُمّته. فلا تتنافى هذه الرواية مع روايات الترتيب أصلاً.

وتأييداً لذلك نقول: الآية: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ»[1]، تشير الى نفس الرؤيا المذكورة، والآية من سورة الإسراء المكيّة بالاتفاق، ولم يستثن أحد هذه الآية، وإن استثنوا غيرها، كما سيأتي.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر: أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنّهم القردة، وأنزل الله في ذلك: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الّتي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ. قال: والشجرة الملعونة، يعني الحكم وولده».

وأخرج أيضاً عن يعلى بن مرة، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أريت بني أميّة على منابر الأرض، وسيتملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتمّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنزلت الآية».

وأخرج ابن مردويه عن عائشة: أنّها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول لأبيك وجدك: «إنكم الشجرة الملعونة في القرآن».

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن سعيد بن المسيّب، قال: رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بني أُميّة على المنابر فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إنّما هي دنيا أعطوها. فقرّت عينه، وهي قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الّتي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاس» يعني: بلاء للناس[2].

قال النيسابوري: واعترض بعضهم بأنّ ايام بني أُميّة كانت مذمومة فكيف تذكر في مقام تفخيم أمر ليلة القدر؟ فأجاب: إنّه تفضيل لسعادة

---

(١) الاسراء: ٦٠.

(٢) الدرالمنثور: ج ٤ ص ١٩١.

معنويّـة، وجلال حقـيقيّ دائم، على سعادة ظاهريّـة، وجلال صوريّ زائل[١]. وفي حديث ابن المسيّب الآنف إشارة الى هذا الجواب.

٢٤ـ سورة البيّنة

قال مكيّ بن أبي طالب: مكيّة[٢].

لـكن اتفاق روايات التـرتيب ونصوصه على أنّها مـدنيّة، ويؤيّدها ماورد: أنّها لمّا نزلت على النبيّ (صلى الله عليه وآله) دعا أُبي بن كعب فقرأها عليه[٣] وأُبي، أنصاريّ، أسلم على يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالمدينة.

٢٥ـ سورة الزلزلة

قال ضحّـاك وعطاء: مكيّـة. وهكذا قـال مكيّ بن أبي طـالب، ووافقهم سيّد قطب، نظراً للهجتها المثيرة[٤].

لكن اتفقت كلـمة الروايات على أنّها مدنـيّة[٥] وأيضاً فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيـد الخدري، قال: لمّا نزلت «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ» قلت: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إنّي لراءٍ عملي؟ قال: نعم. قلت: تلك الكبـار الكبـار؟ قال: نعم، قـلت: الصغار الصغـار؟ قال: نعم، قلـت: واثكل أُمـي!...[٦] وأبوسعيد انصاريّ، لم يبلغ إلّا بعد وقعة أُحد[٧].

---

(١) تفسير النيسابوري بهامش الطبري: ج ٣٠ ص ١٣٦.

(٢) الكشف عن القراءات السبع: ج ٢ ص ٣٨٥.

(٣) الدرالمنثور: ج ٦ ص ٣٧٨.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٢٤. والكشف عن القراءات السبع: ج ٢ ص ٣٨٦. وفي ظلال القرآن: ج ٣٠ ص ٦٣٩.

(٥) الفهرست: ص ٢٨. ومجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٠٥. والإتقان: ج ١ ص ١١. والدرالمنثور: ج ٦ ص ٣٧٩.

(٦) لدرالمنثور: ج ٦ ص ٣٨١.

(٧) الإتقان: ج ١ ص ١٤. ومستدرك الحاكم: ج ٣ ص ٥٦٣.

٢٦ـ سورة العاديات

عن قتادة: أنّها مدنيّة[١]، لرواية منسوبة الى ابن عباس، قال: نزلت في خيل بعثها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في سريّة فأبطأت، فشقّ ذلك عليه، فأخبره الله بماكان من أمرهم[٢].

لكن الرواية فيها تمحّل وتهافت ظاهر، وفي نفس الوقت معارضة بمارواه ابن جريروابن أبي حاتم وابن الأنباري والحاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه، عن ابن عباس أيضاً: أنّ علياً (عليه السلام) نهره عن تفسير العاديات بالخيل تغير في سبيل الله. وأوضح له: أنّها الإفاضة من عرفات الى المزدلفة ... قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت الى قول عليّ (عليه السلام)[٣].

٢٧ـ سورة التكاثر

اختار جلال الدين أنّها مدنيّة، وتمسّك لاختياره بالأمور التالية:

١ـ حديث ابن بريدة: أنّها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا.

٢ـ وقال قتادة: إنّها نزلت في اليهود.

٣ـ وعن أُبي بن كعب ـ وهو أنصاريّ ـ: كنّا نزعم أنّ «لوكان لابن آدم واديان من ذهب لتمنّى ثالثاً ...» آية قرآنيّة، حتى نزلت «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ...».

٤ـ وعن عليّ (عليه السلام): كنّا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت. قال جلال الدين: وعذاب القبرلم يذكر إلّا بالمدينة، كما في الصحيح في قصة اليهوديّة[٤].

قلت: جميع ما تمسّك به باطل:

أوّلاً: هذه السورة لا تمسّ مسألة التفاخر، وإنّما تعرّضت لناحية التكاثر!

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٢٧.
(٢) الدرالمنثور: ج ٦ ص ٣٨٣.
(٣) الدرالمنثور: ج ٦ ص ٣٨٣، وتفسير الطبري: ج ٣٠ ص ١٧٧
(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٤.

وثانياً: كيف يبقى أُبي بن كعب في شكّ من آية قرآنية، ولايسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو كاتبه الأوّل، الى أن يذهب شكّه بنزول سورة لاشأن لها ونفي قرآنيّة غيرها!

وثالثاً: كيف نجيز لأنفسنا تصديق رواية تنسب الشّك الى مثل أميرالمؤمنين عليّ (عليه السلام) في مسألة من مسائل الآخرة، وهو (عليه السلام) باب علم النبيّ (صلى الله عليه وآله)!

وأمّا اختصاص نزولها باليهود، فتضايق في فحوى السورة العام، إذ هي تعالج مسألة عامّة تمسّ حياة البشريّة الظاعنة في مطاليب سافلة!

والصحيح- كما جاء في روايات الترتيب المتّفقة-: أنّها من أوّليات السور المكيّة، وقد نصّ على ذلك جلال الدين نفسه في الدرالمنثور، ورواه عن ابن عباس[1].

هذا مضافاً الى مانلمسه من لهجة السورة العنيفة، التي تناسب أجواء مكة المسيطر عليها النزعة المادّية بشدّة، ويزيد العنف استعمال لفظة «كلا» الخاصة بأهل مكة كما مرّ.

٢٨- سورة الماعون

قال الضحّاك: إنّها مدنيّة[2].

لكن روايات الترتيب ونصوصه المتّفق عليه ترفض هذا القول، مضافاً الى أنّ لهجة السورة تقريع عنيف بأولئك المكذّبين بالدين، فهي بأوّليّات السور المكيّة أشبه، فقد كانت السابعة عشرة في الترتيب، نزلت بعد سورة التكاثر[3].

---

(١) الدرالمنثور: ج٦ ص٣٨٦.

(٢) مجمع البيان: ج١٠ ص٥٤٦.

(٣) الفهرست ص٢٨. ومجمع البيان: ج١٠ ص٤٠٥. والإتقان: ج١ ص١١.

٢٩ـ سورة الكوثر

عن عكرمة والضحّاك: أنّها مدنيّة[١]. ورجّحه جلال الدين، وكذا النووي في شرح مسلم، لما رواه مسلم عن أنس، قال: بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة، فرفع رأسه وقال: أُنزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأها.

لكنّا تكلّمنا عن هذا الحديث[٢] وزيّفنا دلالته على نزول قرآن عليه (صلى الله عليه وآله) تلك الحالة، وذكرنا تأويل الرافعي للحديث الى أنّها قد خطرت له في تلك الحالة فقرأها عليهم، لاأنّها نزلت عليه حينذاك. كما ويؤيّد ذلك: أنّ مسلم نفسه روى هذا الحديث بسند آخر ليس فيه «أُنزلت عليّ». قال: أغفى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إغفاءة، ثم رفع رأسه فقرأها[٣].

وأخيراً فقد أطبق المفسّرون على أنّها مكيّة، نزلت تسلية لخاطر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما شنأه ذلك الأبتر اللعين[٤]. هذا مضافاً اتفاق روايات الترتيب: أنّها نزلت بمكة إذن لايصلح حديث مضطرب أن يقاوم ذلك الإجماع وهذا الاتفاق!

٣٠ـ سورة التوحيد

رجّح جلال الدين كونها مدنيّة، لأحاديث رواها بشأن نزولها. قال: نزلت في طائفة من يهود المدينة سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يصف لهم

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٤٨.

(٢) تقدم ذلك في الصفحة: ٥٧.

(٣) الدرالمنثور: ج ٦ ص ٤٠١.

(٤) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ١٤٢. والدرالمنثور: ج ٦ ص ٤٠٤. ومجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٤٩.

ربّه، فنزل جبرئيل بسورة التوحيد[١].

لكن تجاه هذه الروايات روايات أُخرى تذكر هذا السؤال للمشركين، قالوا: انسب لنا ربّك يا محمّد (صلى الله عليه وآله) فنزلت[٢] مضافاً الى اتفاق روايات الترتيب.

ومن ثمّ قال بعض الباحثين: إنّها نزلت مرّتين!

قلت: لا يبعد ذلك، ولكن معنى نزول السورة مرّتين: أنّ الثانية كانت تذكيراً للنبيّ (صلى الله عليه وآله) بمناسبتها الحاضرة، فمن المحتمل ـ على هذا الفرض ـ: أنّ اليهود سألوا النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) سؤالاً، كان المشركون قد سبقوهم الى مثله، فتردّد النبيّ (صلى الله عليه وآله) في أن يقرأ عليهم السورة التي كانت إجابة على سؤال المشركين من ذي قبل، وذلك نظراً للفرق بين مستوى اليهود ومستوى المشركين، فعند ذلك نزل جبرئيل بكفاية نفس الإجابة الأُولى، بعد أن لم تكن السور القرآنية خاصّة بقوم دون قوم، وبمستوى دون مستوى إذ الناس على مختلف مستوياتهم يستفيدون من جميع آي القرآن، وإن كانت نوعيّة الاستفادة تختلف حسب مراتب الثقافات.

وعلى ذلك فالسورة مكيّة وإن تكرّر نزولها بالمدينة أيضاً.

٣١ـ ٣٢ـ المعوذتان

عدّهما اليعقوبي من أواخر المدنيّات[٣]. وقال جلال الدين: المختار أنّهما مدنيّتان، لأنّهما نزلتا في قصة سحر لبيد بن الأعصم[٤].

والقصّة ـ كما جاءت في الصحيحين[٥] ـ حدّثت بها عائشة، قالت: «سحر

---

(١) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص١٤٧. والإتقان: ج١ ص١٤.

(٢) الدرالمنثور: ج٦ ص٤١٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٣٥.

(٤) الإتقان: ج١ ص١٤.

(٥) صحيح البخاري: ج٤ ص١٤٨ وج٧ ص١٧٦. وصحيح مسلم: ج٧ ص١٤.

رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل من يهود بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم. قالت: حتى كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخيّل إليه إنّه يفعل الشيء ومايفعله ـ وفي لفظ آخر: سحر حتى كان يرى أنّه يأتي النساء ولا يأتيهنّ. قال سفيان وهذا أشدّ مايكون من السحر ـ [١] قالت: حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة، دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم دعا ثم دعا. ثم قال: يا عائشة، أشعرت[٢] أنّ الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان[٣] فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي: ماوجع الرجل؟ قال: مطبوب[٤].قال: من طبّه؟ قال:لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال:في مشط ومُشاطة، وجُفّ طلعة نخل ذكر[٥]. قال: فاين هو؟ قال: في بئر ذي اروان. قالت:فأتاها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في اناس من أصحابه، ثم رجع وقال: يا عائشة، والله لكأن ماءها نقاعة الحنّاء[٦] ولكأن نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فقلت: هلا استخرجته؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): لا، أمّا أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرّاً. ثم أمر بالبئر فدفنت».

وفي لفظ: «قال: وأين؟ قال: في جفّ طلعة ذكر تحت راعوفة[٧] في بئر ذروان. قالت: فأتى النبيّ (صلى الله عليه وآله) البئر حتى استخرجه. فقال:

---

(١) صحيح البخاري: ج٧ ص١٧٧.

(٢) أي أعلمت ـ بصيغة استفهام خطاباً إليها ـ.

(٣) في رواية: جبرائيل وميكائيل، فسأل الأوّل الثاني. فتح الباري: ج١٠ ص١٩٤.

(٤) أي مسحور.

(٥) المشاطة: ما ينتزع من الشعر عند المشط ـ بالفتح ـ وهو تسريح الشعر، وبالضم: آلته. والجفّ: غشاء الطلع.

(٦) أي لون مائها لون نقيع الحناء.

(٧) الراعوفة: صخرة أو حجر صلد، توضع عند فم البئر،لا يستطاع قلعها، يقف عليها المستقي أو توضع في اسفلها ليجلس عليها الذي ينظّف البئر.

هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحنّاء. وكأن نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فقلت: أفلا، أي تنشرت؟ فقال: أمّا الله فقد شفاني، وأكره أن اثير على أحد من الناس شرّاً»[١].

هذه القصّة كما هي مذكورة في الصحيحين ليس فيها شاهد بنزول السورتين. وقد تنبّه السيوطي لذلك، ومن ثم استدرك الأمر بماورد من طرق أخر لم تصحّ إسنادها. فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن عائشة، قالت: «كان لرسول الله (صلى الله عليه وآله) غلام يهوديّ يخدمه، يقال له: لبيد بن أعصم. فلم تزل به اليهود حتى سحر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان يذوب ولايدري ماوجعه ـ وفي لفظ: فكان يدور ولايدري ماوجعه[٢] ـ فبينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذات ليلة نائم إذ أتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الأوّل للثاني: ماوجعه؟ قال: مطبوب. قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم. قال: بم طبّه؟ قال: بمُشط ومُشاطة وجُفّ طلعة ذكر بذي أروان، وهي تحت راعوفة البئر. فلمّا أصبح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غدا ومعه أصحابه الى البئر فنزل رجل فاستخرج الجفّ، فإذا فيها: مُشط رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن مُشاطة رأسه، وإذا تمثال من شمع، تمثال رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وإذا فيها إبر مغروزة، وإذا وتر فيه احدىٰ عشرة عقدة. فأتاه جبرئيل بالمعوّذتين، فقال: يا محمد، قل: أعوذ برب الفلق، وحلّ عقدة. من شرّ ما خلق، وحلّ عقدة. حتى فرغ منها، وحلّ العقد كلّها، وجعل لاينزع إبرة إلّا يجد لها ألماً، ثم يجد بعد ذلك راحة، فقيل: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) لو قتلت اليهودي! فقال: قد عافاني الله، وماوراءه من عذاب الله أشدّ».

وفي رواية: «سحر النبيّ (صلى الله عليه وآله) يهوديّ، فاشتكى فأتاه

---

(١) صحيح البخاري: ج ٧ ص ١٧٨.

(٢) فتح الباري: ج ١٠ ص ١٩٣.

جبرئيل بالمعوّذتين، وقال: إنّ رجلاً من اليهود سحرك ، والسحر في بئرفلان. فأرسل علياً (عليه السلام) فجاء به، فأمره أن يحلّ العقد ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ حتى قام النبيّ (صلى الله عليه وآله) كأنّما نشط من عقال»[١].

وقيل: إنّ بنات لبيد كنّ ساحرات فهنّ سحرن وأبوهنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعقدن له إحدى عشرة عقدة. فأنزل الله المعوّذتين، إحدى عشرة آية بعددالعقد وشفى الله رسوله (صلى الله عليه وآله)[٢].

* * *

وبعد... فهذه القصة ـ لوتسلّمناها ـ فلا شاهد في رواية الصحيحين على أنّ المعوّذتين نزلتا بشأنها. أمّا سائر الطرق فلا تصحّ مستنداً للثقة بها، فضلا عن أخذها مستمسكاً للحكم في شأن من شؤون القرآن، الذي لاينبغي لمسلم أن يتكلّم فيه بغيرعلم ولا عن مستند وثيق.

قال جلال الدين: أمّا أصل القصة فله شاهد في الصحيحين، دون نزول السورتين. ثم قال: ولكن له شاهد من غيرهما.. وأراد بذلك ما أخرجه البيهقي عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وفيه ذكر القصة ونزول السورتين[٣].

لكن ذكر جلال الدين نفسه ـ في الإتقان ـ أنّ أوهى الطرق الى ابن عباس، هو طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس[٤].

ثم ذكر شاهداً آخر فيما أخرجه أبونعيم في كتاب الدلائل من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك[٥].

هذا.. وابن حبان قال: إنّ أهل الحديث يتقون من حديث الربيع بن أنس

---

(١) الدرالمنثور: ج٦ ص٤١٧.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: ج٤ ص٢٢٥.

(٣) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص١٤٨.

(٤) الإتقان: ج٢ ص١٨٩.

(٥) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص١٤٨.

إذا كـان من رواية أبي جعفر الـرازي عـنه، لأنّ في أحاديثه عنـه اضطراباً كثيراً[١].

إذن أفلا تعجب من رجل هـو مضطلع بفنّ الحديث والتفسير، كيف يورّط بنفسه في تنـاقض الاختيـار؟! ويضطرب في التمـاس الحجّة من غير وجـهها الوجيه؟! ومن ثم يتكلّم في شأن جـانب من كتاب الله العزيز من غير استـناد وثيق؟!

* * *

أمّا نحن ـ الإماميـة ـ فإنّ أُصول معتـقداتنا تنفي إمكان التأثير على قلب نبيّ كـريم، هو مهبط وحي الله وعيـبة علمه الأمين! وبالأحرى فـإنّ لبيداً أعجز من أن يستطيع التصرّف في عقـليّة مثل رسول الله (صلى الله علـيه وآله) أفضل خلق الله وأكرم انبيائه!!

يقـول تـعالى: «إنَّ عِبَـادِي لَـيْسَ لَـكَ عَلَـيْهِمْ سُلْطَـانٌ وكَفَـىٰ بِـرِبِّكَ وكِيـلاً»[٢] فأجـدر بلبـيد عـدم قدرته على الاستحـواذ على قلـب أكرم عباد الله، وقلبه (صلى الله عليه وآله) بيت الإلـه تعالى، لايدع لخبيث الاقتراب منه أبداً!

على أنّا لو جوّزنا إمـكان التأثير على شعـور النبيّ الكـريم بحيث يكاد يخيّل إليه انّه يفعل ولايفعل، فإنّ الثقة بما يقوله وحياً تزول، فلعله مفعول سحر ساحر خبيث، خيّل إليه أنّه وحي؟!

قـال العلّامة الطبرسـي: هذا لايجوز، لأنّ من وصفه بأنّـه مسحور فكأنّه قد خبل عقلـه، وقد أبى الله سبحانـه ذلك في قوله: «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً. انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلّوا»[٣].

ولكن يمكن أن يكون اليـهوديّ أو بناته ـ على ماروي ـ اجتهدوا في ذلك فلم يقدروا عليـه، واطلع الله نبيّـه (صلى الله عليه وآله) على مـافعلوه من التمويه حتى

---

(١) تهذيب التهذيب: ج٣ ص٢٣٩. (٢) الاسراء: ٦٥. (٣) الفرقان: ٨ـ ٩.

استخرج، وكان ذلك دلالة على صدقه. وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم؟! ولو قدروا على ذلك لقتلوه، وقتلوا كثيراً من المؤمنين، مع شدّة عداوتهم لهم[١].

وقال العلّامة المجلسي: المشهور بين الإماميّة عدم تأثير السحر في الأنبياء والائمّة (صلوات الله عليهم) ومن ثم أوّلوا بعض الأخبار الواردة في ذلك، وطرحوا بعضها أي مالايقبل التأويل[٢].

وقال القطب الراوندي: روي أنّ امرأة يهوديّة عملت له (صلى الله عليه وآله) سحراً، فظنّت أنّه ينفذ فيه (صلى الله عليه وآله) كيدها والسحر باطل محال! إلّا أنّ الله دلّه عليه، فبعث من استخرجه. وكان على الصفة التي ذكروها، وعلى عدد العقد التي عقد فيها و وصف مالوعاينه معاين لغفل عن بعض ذلك[٣].

وجاء في طب الأئمة: أنّ جبرئيل أتى النبيّ (صلى الله عليه وآله) وقال له: إنّ فلاناً اليهودي سحرك، ووصف له السحر وموضعه. فبعث النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) عليّاً (عليه السلام) حتى أتى القليب فبحث عنه فلم يجده، ثم اجتهد في طلبه حتّى وجده فأتى به الى النبيّ (صلى الله عليه وآله) وإذا هو حقّة فيها قطعة كرب نخل في جوفه وتر عليها إحدى عشرة عقدة، وكان جبرئيل (عليه السلام) قد أنزل المعوّذتين. فأمر النبيّ (صلى الله عليه وآله) عليّاً (عليه السلام) أن يقرأهما على الوتر، فجعل كلّما قرأ آية انحلّت عقدة حتى فرغ منها، فكشف الله عن نبيّه ما سحر به وعافاه[٤].

وهذه الرواية - وإن لم يصحّ إسنادها - ليس فيها التأثير على عقليّة الرسول (صلى الله عليه وآله) نعم في رواية أُخرى جاء التأثير على جسمه الشريف،

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٦٨.
(٢) بحارالأنوار: ج ١٨ ص ٧٠.
(٣) بحارالأنوار: ج ١٨ ص ٥٧ ح ١١.
(٤) طب الأئمة: ص ١١٨.

فكان يحسّ بوجع شديد، وهذا معنى «كشف الله عن نبيّه وعافاه» في رواية طبّ الائمّة. أي عافاه من الوجع الذي كان يحسّ به. وهذا أمر ممكن، غير أنّ الأصح عندنا هو ماذكره القطب الراوندي: أنّ السحر لم ينفذ فيه (صلى الله عليه وآله) فقد أرادوا به كيداً لكنّهم أصبحوا هم الخاسرين.

آيات مستثنيات:

تعرّض الأوائل لاستثناء آيات من سور تخالفها في النزول، فربّ سورة مكيّة فيها آيات مدنيّة أو بالعكس، واستقصى ذلك جلال الدين السيوطي في «الإتقان» مستوعباً، غير أنّه اعتمد في الأكثر على روايات ونقول ضعيفة، ثم جاء المتأخرون ليأخذوا بذلك تقليداً من غير تحقيق[1] في حين أنّ غالبيّة القائلين بهذه الاستثناءات قالوا بها عن حدس أو اجتهاد في الرأي، من غير أن يستندوا الى نصّ صحيح مأثور. قال ابن الحصّار: إنّ من الناس من اعتمد في الاستثناء

(١) جاءت في المصحف الأميري المطبوع بالقاهرة بإذن مشيخة الأزهر وبإشراف لجنة مراقبة البحوث الإسلاميّة، استثناءات بأرقام كبيرة، لكنّه تقليد محض لاأصل لأكثريّتها الساحقة. وهكذا سجّلها من غير تحقيق الشيخ أبوعبدالله الزنجاني في تاريخ قرآنه.

أضف الى ذلك تناقضات جاءت في هكذا اختيارات تقليديّة:

مثلاً: جاء في المصحف الأميري أنّ سورة الم تنزيل ـ السجدة ـ نزلت بعد سورة المؤمن، وأنّ سورة حم تنزيل ـ فصلت ـ نزلت بعد سورة غافر! في حين أنّ المؤمن وغافر اسمان لسورة واحدة!

وأثبت أبوعبدالله في تاريخ قرآنه قائمتين بشأن ترتيب نزول السور فذكر في القائمة الأُولى: أنّ سورة الأنعام نزلت بعد الحجر. وفي الثانية: أنّها نزلت بعد الكهف! كما ذكر في الأُولى أنّ الأعراف نزلت بعد ص وفي الثانية: نزلت بعد الأنفال! وذكر أنّ السور المكيّة: ٨٥. والسور المدنيّة: ٢٨. ولم يلتفت أنّها تنقص مجموع سور القرآن بواحدة! وأظنّه في ذلك قلّد الإمام بدرالدين الزركشي!!

كما جاء في مصحف مطبوع في ايران على عهد القاجاريّة قائمتان، الأُولى تسجّل عام نزول كلّ سورة، والثانية تسجّل ترتيب النزول. فجاء في الأُولى: نزلت الصافات في العام الخامس من البعثة، ونزلت الأنعام في العام الثالث عشر. ثم جاء في القائمة الثانية: أنّ الصافات نزلت بعد الأنعام!! وأمثال هذا التناقض كثير.

على الاجتهاد دون النقل[١].

ونحن إذ نستطرق هذا الباب، نضرب عن كلّ ماقالوه بهذا الشأن صفحاً ، إذا لم يكن مستنداً الى دليل مقبول. إذ لاشكّ أنّ الآيات كانت تسجّل تباعاً في كلّ سورة بعد نزول بسملتها، واحدة تلو أُخرى ترتيباً طبيعياً حسب النزول. أمّا أن تبقى آية مكيّة غير مسجلة في سورة، حتى تنزل سورة بالمدينة ثم تسجّل فيها، فهذا أمر غريب خارج عن طريقة التّبت المعروف، كما أنّ آية مدنيّة تسجّل في سورة مكيّة بحاجة الى نصّ صريح خاص وليس بالأمر الذي يتدخّل فيه الحدس أوالاجتهاد النظري!

قال ابن حجر: وأمّا نزول شيء من سورة بمكة، ثم يتأخّر نزول أصل السورة الى المدينة، فلم أره إلّا نادراً، فقد اتفقوا على أنّ الأنفال مدنيّة، لكن قيل: إنّ قوله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...»[٢] نزلت بمكة، ثم نزلت سورة الأنفال بالمدينة. وهذا غريب جداً[٣]. وسوف نذكر بطلان هذه المزعومة!

وإليك نماذج من النوعين مردفة بما نشير إليه من تحقيق الرأي إجماليّاً:

استثناءات من سورمكيّة:

١ـ سورة الفاتحة: مكيّة

حكى أبوالليث السمرقندي قولاً بأن نصفها نزلت بالمدينة.

قال جلال الدين: لا دليل لهذا القول[٤]. كما سبق: أنّها من أوائل مانزلت بمكة كاملة، وكان المسلمون يقرأون بها في الصلاة.

* * *

(١) الإتقان: ج ١ ص ١٤.

(٢) الانفال: ٣٠.

(٣) فتح الباري: ج ٩ ص ٣٨.

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٢ و١٤.

٢ـ سورة الأنعام: مكيّة

«نزلت بمكة جملة واحدة، وشيّعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد وقد طبقوا مابين السماء والأرض، وكانت ليلة جمعة، وكانت لنزولهم هيبة وعظمة، فجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم، وخرّ ساجداً. ثم دعا الكتّاب فكتبوها من ليلتهم».

هذا الحديث مستفيض رواه الفريقان بطرق يعضد بعضها بعضاً[١]. قال جلال الدين: فهذه شواهد يقوّي بعضها بعضاً[٢]. ومن ثم لاوقع لقول أبي عمرو بن الصلاح: أنّ الخبر المذكور جاء من حديث أُبي بن كعب، وفي إسناده ضعف، ولم نر له إسناداً صحيحاً، وقد روي ما يخالفه[٣].

قلت: استفاضة الطرق الى عدّة من الأصحاب غير أُبي بن كعب أيضاً كافية للاستناد إليها.

هذا... وأمّا رواية المخالف فضعيفة وغير ثابتة.

قال ابن الحصّار: استثنى منها تسع آيات، ولايصحّ به نقل[٤]. وسنتكلّم فيما زعموا صحّتها من روايات الاستثناء[٥].

وجاء في المصحف الأميري وفي بعض كتب المقلّدة استثناء تسع آيات من غير تحقيق، نبحث عن كلّ واحدة واحدة فيما يلي:

الأُولى: قوله تعالى «الَّذينَ آتَيْناهُم الكِتابَ يعرفونهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ»[٦].

---

(١) تفسير العياشي: ج ١ ص ٣٥٣ ح ١. ومجمع البيان: ج ٤ ص ٢٧١. والدر المنثور: ج ٣ ص ٢.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ٣٧.

(٣) البرهان: ج ١ ص ١٩٩.

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٥.

(٥) عند استثناء الآيات رقم: ٧ و٨ و٩.

(٦) الانعام: ٢٠.

الثانية: قوله تعالى: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلاّ أن قَالُوا وَاللهِ رَبّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ»[١].

ولاشاهد للاستثناء في هاتين الآيتين إطلاقاً. ولعلّ السبب مجيءذكر أهل الكتاب فيهما، على غموض في الثانية. ولا دليل في ذلك، بعد أن جاء ذكر أهل الكتاب في كثير من سور مكيّة. كقوله تعالى: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلّا بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ»[٢]، ولم يستثنها أحد. وكذلك قوله تعالى: «وكَذٰلِكَ أَنزَلْنَا إلَيْكَ الكتاب فَالَّذينَ آتَيْنَاهُم الْكِتابَ يؤمنون بِهِ»[٣]. وامثال ذلك كثير.

* * *

الثالثة: قوله تعالى: «وَما قَدرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ إذقالواما أنزَلَ اللهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنّاس تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَالَمْ تَعْلَمُوا انتُمْ وَلَا آباؤكم قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»[٤].

قرأ ابن كثير وأبوعمرو: «يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً»[٥] قيل: نزلت في جماعة من اليهود، قالوا: يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم. قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً.

وقيل: نزلت في مالك بن الصيف، وكان حبراً من أحبار يهود قريظة، وكان سميناً، فقال له النبيّ (صلى الله عليه وآله): أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، اما تجد في التوراة: «إنّ الله يبغض الحبر السمين»؟. فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء وقيل: الذي خاصم النبيّ (صلى الله عليه وآله) في هذا المقال هو فنحاص بن عازوراء اليهودي.

---

(١) الانعام: ٢٣.
(٢) و(٣) العنكبوت: ٤٦ و٤٧.
(٤) الانعام: ٩١.
(٥) الكشف عن القراءات السبع: ج١ ص ٤٤٠.

وقيل: نزلت في مشركي قريش، حيث أنكروا النبوّات رأساً[١].

قال أبوجعفر الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب، **هوالقول الأخير،** إذلم يجر لليهود ذكر قبل ذلك. وليس إنكار نزول الوحي على بشر ممّا تدين به اليهود، بل المعروف من دينهم الإقرار بصحف إبراهيم وموسى وزبور داود. ولم يكن الخبر بأنّها نزلت في اليهود خبراً صحيحاً متصل السند، ولا أجمع المفسّرون على ذلك. وكان سياق السورة من أوّلها الى هنا جارياً في المشركين، فناسب أن تكون هذه الآية أيضاً موصولة بما قبلها لامفصولة منه. فلم يجز لنا أن ندّعي فصلها إلّا بحجّة قاطعة من خبر أو عقل. ولعلّ الذي أوقع هذا القائل في الوهم المذكور ماوجده في قوله تعالى: «تجعلونه ...» على وجه الخطاب. ولكن الأصوب من القراءة أنّها بياء الغيبة[٢].

قلت: ونحن إذ نصادق أباجعفر في هذا التحقيق، نضيف اليه: أنّ القصة التي ذكروها بشأن مالك بن الصيف في محاورته تلك مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) تتنافى تماماً مع ُخلق رسول الله الكريم، النبيّ لايجرح من عاطفة إنسان إطلاقاً، كما وننزّه كتاب الله العزيز عن التعرّض لهكذا أمور تافهة لاقيمة لها، أو تنزل بشأنها آية!!

إذن فقوله: «وعلمتم ...» خطاب موجّه الى المشركين، بعد تلك الحكاية- بصورة الغيبة كما رجّحها أبوجعفر- عن أهل الكتاب.

وأمّا القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الجميع، فلا تستدعي اختصاص الخطاب بأهل الكتاب، بل الى البشرية باعتبار فعل بعضهم ممّن نزل عليهم الكتاب. ولاسيّما ومساس العرب المشركين مع اليهود ومخالطتهم معهم في الجزيرة، ومن ثمّ جاء الكلام عن بني إسرائيل في سور مكيّة كثيراً، كما في

(١) تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٧٧. ومجمع البيان: ج ٤ ص ٣٣٣.

(٢) جامع البيان: ج ٧ ص ١٧٨. وهكذا وافقه سيد قطب في ظلال القرآن: ج ٧ ص ٣٠٢- ٣٠٣.

سورة الأعراف[١].

ويشهد بذلك قوله تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمونَ»[٢] خطاباً مع أهل مكة، وسورة الأنبياء المكية ايضاً[٣]. وقد كان للعرب صلة وثيقة وثقة بأهل الكتاب، ويعرفونهم أهل علم وثقافة، وكثيراً مايسألونهم عن تاريخ الأُمم والأنبياء ويعتمدون كلامهم، فجاز أن يخاطبوا بخطاب اليهود المجاورين لهم المخالطين معهم الموثوق بهم عندهم!

* * *

الرابعة: قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرىٰ عَلى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إلىَّ وَلَمْ يُوحَ إلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ الله»[٤].

قالوا: نزل قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْترىٰ ...» في عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخي عثمان من الرضاعة. وكان أسلم وكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولمّا نزلت: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ»[٥] دعاه النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فأملاها عليه. فلمّا انتهى الى قوله: «ثمَّ أَنشأْنَاهُ خلقاً آخَرَ» عجب عبدالله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): هكذا أُنزلت عليّ، فشك عبدالله حينئذ، وقال: لئن كان محمد (صلى الله عليه وآله) صادقاً لقد أُوحي إليّ كما أُوحي إليه. ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال. فارتدّ عن الإسلام، ولحق أهل مكة، فجعلوا يقولون له: كيف كنت تكتب لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: كنت أكتب كيف شئت. وذلك أنّه كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يملي عليه «عليماً حكيماً» فيكتب «غفوراً رحيماً» يزيد وينقص ويبدّل في كتاب الله، ولايشعر به النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) الآية: ١٠٢ و١٦٠.
(٢) النحل: ٤٣.
(٣) الآية: ٧.
(٤) الانعام: ٩٣.
(٥) المؤمنون: ١٢.

ومن ثم شك في رسالته، وكفر ولحق بقريش. فأهدر النبيّ (صلى الله عليه وآله) دمه! لكن عثمان أجاره يوم الفتح، وألحّ على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى عفى عنه[١].

وقالوا:-أيضاً- إنّ قوله: «أوْ قالَ أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليهِ شيْءٌ» نزل في مسيلمة والأسود العنسي، كانا قد تنبئا في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله)[٢].

لكن الحديث مكذوب من أصله. لأنّ سورة «المؤمنون» مكيّة، ولم يستثن أحد تلك الآية. فكيف يكتبها ابن أبي سرح بالمدينة ثم يرتدّ الى مكة؟! ثم أنّى لبشر أن يتقوّل على الله كذباً وينتحله وحياً، وقد ضمن الله لكتابه الكريم بالحفظ. ثم لايشعر الرسول بدسّ كاذب مفتر على الله فيما أنزله الله عليه!! وهل تبقى- بعد هذا الاحتمال- ثقة بنصوص الكتاب العزيز، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟!

نعم هناك ثلاث آيات من ثلاث سور، قيل في كلّ واحدة منها: انّها نزلت بشأن ابن أبي سرح. هذه إحداها!

والثانية قوله: تعالى: «وَلكِن مَنْ شَرَحَ بالْكُفْرِ صَدْراً»[٣].

والثالثة: «إنَّ الَّذينَ آمنوا ثُمَّ كَفَروا ثمَّ آمَنُوا ثُم كَفَروا ثمَّ ازدادُوا كُفْراً»[٤].

وهذه الأخيرة أنسب وأولى بالقبول، كما روي ذلك عن الإمامين: محمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام)[٥].

---

(١) راجع مجمع البيان: ج٤ ص٣٣٥. والدرالمنثور:ج٣ ص٣٠. وتفسير الطبري: ج٧ ص١٨١. وتفسير الإمام الرازي: ج١٣ ص٨٤. وفي ظلال القرآن: ج٧ ص٣٠٦. والبرهان: ج١ ص٢٠٠.

(٢) نفس المصادر.

(٣) النحل: ١٠٦. تفسير الطبري: ج٧ ص١٨١.

(٤) النساء: ١٣٧.

(٥) تفسير العياشي: ج١ ص٢٨١ ح٢٨٨.. وامّا الذي جاء في التفسير المنسوب الى علي بن إبراهيم ←

إذن فالصحيح في الآية الأُولى هو ماقاله أبوجعفر الطبري: هي عامّة، تصف موقف الإنسان عموماً تجاه رسالات الأنبياء (عليهم السلام): فمن منكر معاند لايصدّق بأي رسالة جاءت من قبل الله. وآخر مسترسل ضعيف يؤمن بكلّ دعوى رساليّة، حتى ولو كانت نزغة شيطانيّة، من غير تدبّر ولا تفكير صحيح. ومن ثم وبّخت الآية هذا النمط من الاسترسال الهابط، وتلك الجرأة الظالمة تجاه ربّ العزّة، فيفترى عليه تعالى ظلماً وعدواناً. ولامساس للآية بقضية ابن أبي سرح بالخصوص.

على أنّ قوله تعالى: «سأُنزلُ مِثلَ ما أنزلَ الله» لاينطبق مع موقف ابن أبي سرح تجاه رسول الله (صلى الله عليه وآله). نعم كان ينطبق عليه لوكانت الآية هكذا: «سأُنزل مثل ما أنزل محمد»...!

وقد ناقض سيد قطب هنا بشأن الآية، ففي موضع رجّح كون السورة مكيّة كلّها، وفي موضع آخر اعتمد على روايات الاستثناء![1].

* * *

الخامسة: قوله تعالى: «أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُم الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ»[2].

وليس في الآية مايدعو الى الظنّ بأنّها مدنيّة إلّا ذكر أهل الكتاب فيها. وقد سبق أنّ هذا وحده ليس دليلاً، فقد ورد مثلها في آيات مكيّة كثيراً. ويرجع السبب الى ثقة العرب المشركين بمن جاور بلادهم من أهل الكتاب، فيرونهم أهل علم ودراية، ومن ثم قال تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ

القمي: ج ١ ص ٢١٠ من نزول آية الأنعام (٩٣) بشأن ابن أبي سرح، ففيه من المناكير مايرفض صدوره من المعصوم (عليه السلام) إذ فيه أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يُقرّه على تبديله النّص ويقول له: هو واحد..!!

(١) في ظلال القرآن: ج ٧ ص ١٠٦ و ٣٠٦.

(٢) الانعام: ١١٤.

لاَ تَعْلَمُونَ.بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ»[١] يعني أهل الكتاب ولاسيّما اليهود. وهذه الآية مكيّة بالإجماع، ما خلا مانسب الى جابربن زيد، وقد ردّ عليه السيوطي من وجهين فراجع[٢].

* * *

السادسة: قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ.. الى قوله: كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ»[٣].

ولعلّ القائل بمدنيّتها فسّر الحقّ الواجب بالزكاة، والزكاة لم تقرّر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلّا في المدينة.

ولكن هذا المعنى ليس متعيّنا في الآية، لأنّها فسّرت بمطلق الصدقة من غير تحديد، وهي بهذا الإطلاق كانت واجبة في مكة، وجاءت الإشارة إليها في قوله: «وَفِي أموالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم» الآية رقم: ١٩ من سورة الذاريات المكيّة باجماع. وجاء ذكر الإنفاق والصدقة في كثير من آيات مكيّة.

وجاءت روايات مأثورة، بأنّ الحقّ في هذه الآية يعني الإنفاق وإعطاء اليتامى والمساكين -عن سعيدبن جبير وغيره- ثم نسخت بآية الزكاة فيما بعد[٤] وروي ذلك عن الإمام أبي عبدالله الصادق، عن آبائه (عليهم السلام)[٥].

* * *

السابعة: قوله تعالى: «قُلْ تَعَالوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...»[٦].

الثامنة: قوله تعالى: «وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلّا بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...»[٧].

التاسعة: قوله تعالى: «وَأَنَّ هَذا صراطِي مُستقيماًفَاتَّبِعُوهُ...»[٨].

قال السيوطي: وقد صحّ النقل عن ابن عباس باستثناء هذه الآيات

---

(١) النحل: ٤٣-٤٤. وفي سورة الأنبياء: ٧بدون الذيل.

(٢) الإتقان: ج١ ص١٥.

(٣) الانعام: ١٤١.

(٤) راجع الدرالمنثور: ج٣ص٤٩.وتفسيرالطبري: ج٨ص٤٤.

(٥) مجمع البيان: ج٤ ص٣٧٥.

(٦) الانعام: ١٥١.

(٧) الانعام: ١٥٢.

(٨) الانعام: ١٥٣.

الثلاث[١] والرواية هي: ما أخرجه أبوجعفر النحّاس في كتابه «الناسخ والمنسوخ» عن طريق أبي عبيدة معمّربن المثنى، عن يونس، عن أبي عمرو، عن مجاهد عن ابن عباس...[٢].

وأبو عبيدة هذا كان رجلا به شذوذ، كان يرى رأي الخوارج، وكان بذيء اللسان متهتّكاً قليل العناية بالقرآن، وإذا قرأه قرأه نظراً[٣]، ومن ثم لايعتمد على نقله فيما يخصّ الكتاب والسنّة، اللهمّ إلّا في رواية الشعر والأدب. ولاندري بم صحّح جلال الدين سند هذا النقل؟!

هذا وقد روى أبونعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: لمّا أمرالله نبيّه أن يعرض نفسه على القبائل، خرج الى منى وأنا معه وأبوبكر، وكان رجلاً نسّابة، فوقف على مضاربهم بمنى وسلّم عليهم فردّوا عليه السلام، فتكلم معه القوم، حتى سألوه: الى ماتدعو يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) «قل تعالوا اتل ماحرم ربكم ـ الى قوله: لعلكم تتقون» تمام الآيات الثلاث. فأعجبهم كلام الله، وقالوا: فوالله ماهذا من كلام أهل الأرض، ولو كان لعرفناه...[٤] فالآيات كانت نازلة حينذاك بمكة[٥]. على أنّ لحن الآيات وأُسلوب التعبير فيها ـ أيضاً ـ يشهد بمكيّتها.

وتلخّص: أنّ سورة الانعام كلّها مكيّة، ليست منها آية مدنية إطلاقاً. ولم يثبت شيء مما قيل باستثنائه أصلاً، لانقلاً ولاعقلاً، على ماأسلفنا.

٣ـ سورة الأعراف: مكيّة

أخرج ابن ضريس والنحّاس وابن مردويه من عدّة طرق عن ابن عباس:

---

(١) الإتقان: ج ١ ص١٥.

(٢) الإتقان: ج ١ ص٩.

(٣) الفهرست: ص٥٩.وتهذيب التهذيب: ج ١٠ ص٢٤٧. وميزان الاعتدال: ج ٤ ص ١٥٥. وتقدّم ذلك في الصفحة: ١٤٨.

(٤) الدرالمنثور: ج ٣ ص ٥٤.

(٥) تفسير الطبري: ج ٨ ص ٦٠.

أنّها نزلت بمكة[١].

قال قتادة: سوى آية واحدة: «وَ سْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ»[٢]. قال: نزلت بالمدينة[٣].

وقال غيره: الى نهاية الآية رقم: ١٧١[٤]. وهي قوله :«وَإذنتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ...».

قلت: ودليل قتادة هو الأمر بسؤال اليهود، وهو يناسب- كما زعم- أيّام كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة. وهذا ليس دليلاً، إذ لا مستند لعود الضمير الى اليهود، فلعلّه يعود الى المشركين أنفسهم، لمكان معرفتهم بقصّة أصحاب السبت، والقرية -وهي أيلة- كانت على ساحل البحر الأحمر، ممايلي الشام. وهي آخر الحجاز وأوّل الشام، مدينة يهوديّة صغيرة كانت عامرة[٥]، وكانت قريش تمرّ عليها في رحلتها الصيفيّة التجاريّة، وكانت تتصّل بهم أخبارها، ومن ثمّ كانوا على معرفة من أهلها اليهود الذين عتوا عن أمر ربّهم.

وأمّا قول غيره فلا مستند له إطلاقاً، ولا سند معروف فالصحيح أنّ هذه الآيات متناسقة مع غيرها من قصص أمم الأنبياء نزلت على قريش ليعتبر أُولوا البصائر منهم، إذن يكون الترجيح مع القول بأنّ جميعها مكيّة، لا استثناء فيها.

٤ـ سورة يونس: مكيّة

استثنى بعضهم منها أربع آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَن لا يُؤْمِنُ بِهِ ورَبُّكَ أَعْلَمُ بالْمُفْسِدين»[٦].

---

(١) الدرالمنثور: ج٣ ص٦٧.
(٢) الاعراف: ١٦٣.
(٣) الكشف عن القراءات السبع: ج١ ص٤٦٠.
(٤) الإتقان: ج١ ص١٥.
(٥) معجم البلدان: ج١ ص٢٩٢.
(٦) يونس: ٤٠.

زعم بعضهم أنّها نزلت في اليهود[١]. لكن السياق يأباه.

الثانية: قوله تعالى: «فإن كُنتَ فِي شَكٍ مِمَّا أنزَلْنَا إلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذينَ يَقْرأُونَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ...»[٢].

الثالثة: قوله تعالى: «وَلَا تكُونَنَّ مِنَ الَّذينَ كَذَّبُوا...»[٣].

الرابعة: قوله تعالى: «إنَّ الَّذينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ...»[٤].

زعموها ـ أيضاً ـ نزلت في اليهود. ولا دليل لهم في ذلك، والسياق واحد متّصل. ولعلّ ذكر أهل الكتاب هوالذي أوقعهم في هذا الزعم! مع العلم بأنّ هذه الآيات ليست بأصرح من قوله: «فَاسْأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ»[٥] الآية المكيّة بالإجماع.

وقيل: **من الآية: رقم ٤٠ الى نهاية السورة كلّها** نزلت بالمدينة[٦] ولا شاهد لهذا القول إطلاقاً. ولحن الآيات ولهجتها أيضاً تأباه.

والخلاصة: القائل بالاستثناء في هذه السورة، لايملك دليلاً موثوقاً به ولاسنداً يعتمد عليه. كما أنّ سياقها ينادي بمكيّتها بوضوح. ومن ثم نرجّح كونها مكيّة أجمع.

* * *

٥ ـ سورة هود: مكيّة

استثني منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَىٰ إلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ»[٧].

لكن السياق يشهد ـ صراحة ـ بأنّها مكيّة. وقد روي في سبب نزولها

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ١٥.
(٢) يونس: ٩٤.
(٣) يونس: ٩٥.
(٤) يونس: ٩٦.
(٥) النحل: ٤٣.
(٦) الإتقان: ج ١ ص ١٥.
(٧) هود: ١٢.

ما يجعلها أيضاً مكيّة قطعيّاً[١].

الثانية: قوله تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسىٰ إمَاماً وَرَحْمَةً اوْلئكَ يُؤْمِنونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزاب فَالنّارُ مَوْعِدُهُ»[٢]. استشهد من قال بمدنيتها بقوله: «كتاب موسى». وبقوله: «من الأحزاب».

لكن لاشاهد فيهما، بعد أن جرى ذكر موسى في كثير من آيات مكيّة.

والاحزاب إشارة الى قبائل عربيّة متحزّبة ضدّ الرسول، وقد كانت تحزّبت منذ أن شعر المشركون بخطر نفوذ الإسلام في الجزيرة وسرعة انتشار الدعوة[٣]. ولاشاهد على إرادة وقعة الأحزاب.

الثالثة: قوله تعالى: «وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَي النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ»[٤].

روى أبوجعفر الطبري بإسناده عن أبي ميسرة. قال: جاءتني إمراة تبتاع منّي تمراً، فقلت لها: إنّ في البيت تمراً أجود، فأدخلتها البيت وأهويت إليها أقبّلها وآتي منها مايأتي الرجل من امرأته سوى الجماع، حتى مسست بيدي دبرها. ثم خرجت فذكرت ذلك لأبي بكر وعمر، فقالا: استر ذلك على نفسك ولاتخبرن أحداً. ثم ذكرت ذلك للنبيّ (صلى الله عليه وآله) فقال: هل جهّزت غازياً؟ قلت: لا. فقال: هل خلفت غازياً في أهله؟ قلت: لا. فقال: استغفر ربّك وصلّ أربع ركعات. ثم تلا: «وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» ثم قال: إنّها للناس عامّة، وفي رواية: نزل بها جبرئيل لساعته[٥].

وهذه الرواية بهذا السياق باطلة عندنا البتة. لأنّها تجرئة على المعاصي،

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص١٤٦.
(٢) هود: ١٧.
(٣) تفسير التبيان: ج٥ ص٤٦١.
(٤) هود: ١١٤.
(٥) تفسير الطبري: ج ١٢ ص٨٢- ٨٣.

فليفعل أيّ إنسان مايريد ثم يعمد الى صلاة يصليها لتكون كفّارة عن كلّ ذنب يقترفه. هذا فضلا عن التهافت في نفس الرواية وعدم انسجامها مع الآية، وهو دليل آخر على وهنها. وأخيراً ففي أكثر الروايات: ثم تلاعليه الآية، وليس فيها أنّها نزلت حينذاك . كما روى غير هذه الأُقصوصة أيضاً.

والصحيح عندنا: أن سورة هود مكيّة بأجمعها، نظراً لوحدة سياقها المنتظم على اسلوب تقريعي بديع يتناسب والدعوة في مكة.

* * *

٦ـ سورة يوسف: مكيّة

في المصحف الأميري: استثناء ثلاث آيات من أوّلها (١ـ٣) وقوله: «لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ»[١]. قال جلال الدين:وهو واه جداً، لايلتفت إليه[٢] قلت: ونحن نربأ بمثل العلّامة أبي عبدالله الزنجاني أن يتابع ثبت المصحف المصري من غير تحقيق،فيسجّله في كتابه القيم [٣]. وفضح الأمر أوضح من أن يستره وهم.

٧ـ سورة ابراهيم: مكيّة

قال الزركشي: سوى آيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين وهما قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ»[٤].

والأصل في ذلك: ماروي عن سعد، عن عمربن الخطاب قال: الذين بدّلوا نعمة الله كفراً، هما: الأفجران من قريش: بنوالمغيرة وبنو أُميّة. أمّا بنو

---

(١) يوسف: ٧.

(٢) الإتقان: ج١ ص١٥.

(٣) تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني: ص٢٨.

(٤) ابراهيم: ٢٨ـ ٢٩. البرهان:ج١ ص٢٠٠.

المغيرة فكفيتموهم يوم بدر. أو قال: استأصلهم الله يوم بدر. وأمّا بنو اميّة. فتّعوا الى حين[١] وهكذا روي عن الإمام الصادق، وزاد، بلى هي قريش قاطبة[٢].

لكن لا دلالة في ذلك على أنّهما نزلتا يوم بدر أو بعده. وإنّما كانت وقعة بدر مصداقاً من مصاديق البوارالذي أنذروا به. أمّا المصداق الأوفى فهي جهنم يصلونها وبئس القرار. فهذا الاستثناء كان نتيجة عدم التدبّر في تأويل الآية بزعم أنّه السبب الداعي للنزول!

٨ـ سورة الحجر: مكيّة

قال جلال الدين: وينبغي استثناء قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمنَا الـمُسْتَقْدِمينَ مِنكمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِين»[٣]. لما أخرجه الترمذي: أنّها نزلت في صفوف الصلاة[٤].

وقال الحسن: إلاّ قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَاني..»[٥] وقوله تعالى: «كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ»[٦].

قلت: سياق الآية يأبى حملها على صلاة الجماعة. بشاهد قوله تعالى قبل هذه الآية: «وانّا لَنحنُ نُحيي ونُميتُ ونحنُ الوارِثونَ»، وكذا الآية بعدها: «وانَّ رَبّك هُو يَحشُرهُم إنّه حَكيمٌ عَليمٌ»، وإنّما المعنى: ولقد علمنا بالأموات الماضين وبالأحياء الباقين[٧] أمّا رواية الترمذي فهي مقطوعة وفي اسنادها ضعف، مضافاً الى عدم انسجامها مع الآية.

---

(١) تفسير الطبري: ج ١٣ ص ١٤٦.

(٢) تفسير العياشي:ج ٢ ص ٢٢٩ ح ٢٢. وتفسير الصافي: ج ١ ص ٨٨٨.

(٣) الحجر: ٢٤.

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٥.

(٥) الحجر: ٨٧.

(٦) الحجر: ٩٠ـ٩١. مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٢٦.

(٧) راجع تفسير الطبري: ج ١٤ ص ١٦ و ١٨.

وامّا استثناء الآية رقم: ٨٧ فمستند الى قول مجاهد: إنَّ سورة الفاتحة نزلت بالمدينة. وتقدّم انّها هفوة منه، والإجماع على خلاف قوله[١].

وأمّا آية المقتسمين، فزعموها نزلت في اليهود والنصارى ممّن آمنوا ببعض القرآن وكفروا بالبعض[٢] لكنّه زعم باطل، لأنّ اليهود لم يؤمنوا بالقرآن إطلاقاً، ولم يكونوا هم المنزل عليهم. نعم كان إيمانهم بالكتب النازلة عليهم كذلك يؤمنون بالبعض ويكفرون بالبعض.

والصحيح أنّ الآية المذكورة نزلت في المشركين الذين جعلوا من القرآن بعضه سحراً وبعضه أساطير الأوّلين وبعضه مفترى وغير ذلك، وكانوا يتفرّقون على أبواب مكّة يصدّون الناس عن القرآن ويقولون على الله الكذب[٣]. وقد روى العياشي عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام): أنّها نزلت في قريش[٤].

٩ـ سورة النحل: مكيّة

قال قتادة: إلّا قوله: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...»[٥]. وقيل: الى آخر السورة نزلن بالمدينة[٦].

وعن عطاء بن يسار: استثناء قوله: «وإن عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ...» الى آخر السورة ـ وهن ثلاث آيات ـ نزلن في حادثة أُحد، بعد مقتل حمزة (عليه السلام)[٧].

---

(١) راجع الإتقان: ج ١ ص ١٢.

(٢) تفسير الطبري: ج ١٤ ص ٤٢.

(٣) راجع الميزان: ج ١٢ ص ٢٠٥.

(٤) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٥١ ـ ٢٥٢، ح ٤٣ و ٤٤.

(٥) النحل: ٤١.

(٦) الإتقان: ج ١ ص ١٥. وفي مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٤٧ نسبه الى الحسن وقتادة.

(٧) الدر المنثور: ج ٤ ص ١٣٥.

وفي رواية عن ابن عباس قوله: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِاللهِ ثَمَناً قَلِيلاً... الى قوله: بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[١] نزلتا بالمدينة[٢].

قلت: أمّا الآية رقم ٤١ و٤٢ فلا دلالة فيها على أنّ المراد هي الهجرة الثانية الى المدينة، بل الظاهر منها أنّها: الهجرة الأُولى الى الحبشة، كما روي ذلك عن قتادة أيضاً[٣] وأمّا القول بنزول مابعد آية الأربعين الى آخر السورة بالمدينة فلا مستند له وسياق الآيات أيضاً ينافيه.

وأمّا الآية رقم ٩٥ و٩٦ فقيل: نزلت بشأن امرئ القيس الكندي، كان قد غصب أرضاً من عبدان الأشرع الحضرموتي. فشكاه الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأنكر امرؤ القيس، فاستحلفه فاستعظم أن يحلف كاذباً، فنزلت الآية[٤]. وهذه القصة وقعت بالمدينة!

لكن القصة لم تثبت، ولهجة الآية عامّة، وسياقها يشهد بانسجامها الوثيق مع آيات قبلها، تهدف تقريعاً عنيفاً باولئك المشركين المعاندين. وملاحظة عابرة بالآية تجعلنا نطمئن بأنّها مرتبطة تمام الارتباط مع الآية رقم: ٩١ «وَأَوْفُوا بِعَهْدِاللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ» توكيداً منها، وتثبيتاً بموقف المؤمنين آنذاك، فلا يشتروا بماعاهدواالله عليه ثمناً بخساً: عرض هذه الحياة الدنيا، تجاه ماأُعدلهم من عظيم الأجر والثواب وحسن الخاتمة[٥].

* * *

وأمّا آية «وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» فقد اختلف المفسّرون فيها على ثلاثة أقوال:

الأوّل: أنّها نزلت يوم أُحد، عندماوقف النبيّ (صلى الله عليه وآله) على حمزة وقد مُثّل به، فماكان أوجع لقلبه الكريم، فقال: أمَا والله لامثّلنّ بسبعين،

---

(١) النحل: ٩٥-٩٦.

(٢) مجمع البيان: ج٦ ص٣٤٧.

(٣) الدرالمنثور: ج٤ ص١١٨.

(٤) مجمع البيان: ج٦ ص٣٨٤.

(٥) راجع الدرالمنثور: ج٤ ص١٢٩.

أوقال: بثلاثين منهم مكانك!

وهكذا لمّا سمع المسلمون ذلك، قالوا: لئن أمكنناالله منهم لنمثّلنّ بالأحياء منهم فضلاً عن الأموات، وقال بعضهم: لنمثّلنّ بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب! فنزل جبرئيل بالآية، فكفّر النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن يمينه وأمسك عن الذي أراد.!

الثاني: أنّها نزلت يوم الفتح، فهمّ المسلمون أن يقعوا في المشركين، ويقتلوهم شرّ قتلة، تشفّياً بما كانوا فعلوا بهم يوم أُحد: كان قد أُصيب من الانصار يومذاك أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة بن عبدالمطلب، وقد مثّل بهم المشركون! فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربينّ عليهم، فلمّا كان يوم فتح مكة، وأمكن الله المسلمين من المشركين، نزلت الآية للأخذ من حدّة المسلمين، وأن لايتجاوزوا حدودما أنزل الله!

الثالث: أنّها عامّة في كلّ ظلم، يحاول المظلوم الانتقام من الظالم، بعد ما يمكّنه الله منه.

وهذه الآية جاءت مزيجة بين الانتقام العادل والصفح الجميل، الأمرالذي يتناسب مع حالة المسلمين يوم كانوا بمكة. ومن ثم قالوا: إنّها منسوخة بآية القتال. وهي نظيرة قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا اِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» وقوله: «فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»[1] نزلت أوائل عهد المسلمين بالمدينة.

وهذا الرأي الأخير هو الصحيح، نظراً الى سياق الآية نفسها، ومناسبتها الوثيقة مع آيات قبلها وبعدها:

قال تعالى: «أُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...».

---

(١) البقرة: ١٩٠ و١٩١.

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ...».

«وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ»[1].

وهذه الآية جاءت تصبّر النبيّ (صلى الله عليه وآله) على أذى المشركين وتسلّيه عن حزنه عليهم لاحزنه منهم، وهو دليل على أنّ الآية نزلت يوم كان المشركون صموداً تجاه دعاء النبيّ (صلى الله عليه وآله) ومتعرّضين أذاه. وكانت نفوس مؤمنة تأبى تحمّل الضيم، وتحاول الانتقام منهم مهما كلّف الأمر[2].

١٠ـ سورة الإسراء: مكيّة

قالوا: فيها سبع عشرة آية نزلن بالمدينة، وهن: ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ٦٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٨، ١٠٧.

وهذه مبالغة في القول، لاسند لأكثرها، وإليك بعض التفصيل:

الآية الأُولى: قوله تعالى: «وآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً»[3].

قيل: نزلت بالمدينة بعدما فتح الله خيبر على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأعطى فاطمة فدكاً[4].

وأخرج أبوجعفر الطبري عن السدّي عن أبي الديلم، قال: قال عليّ بن الحسين (عليهما السلام) لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم! قال: أفاقرأت في بني إسرائيل: «وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ»؟ قال: وإنكم للقرابة التي أمرالله جل ثناؤه أن يؤتى حقه؟ قال (عليه السلام): نعم[5].

---

(١) النحل: ١٢٥ و١٢٦ و١٢٧.

(٢) راجع مجمع البيان: ج٦ ص٣٩٣. والدرالمنثور: ج٤ ص١٣٥.

(٣) الاسراء: ٢٦.

(٤) الدرالمنثور: ج٤ ص١٧٧. ومجمع البيان: ج٦ ص٤١١.

(٥) تفسير الطبري: ج١٥ ص٥٣.

وأخرج الحافظ الحسكاني حديث نزول الآية بشأن إعطاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاطمة (عليها السلام) فدكاً، بأسانيد وطرق عديدة[١].

قلت: ولكن ظاهر الآية كونها شريعة عامّة، وظيفة لكلّ مسلم، وجاءت مجملة بوجوب الإنفاق على ذوي القربى والمساكين، كما هو طابع التشريعات المكيّة، ثم فصّلت حدودها بعد الهجرة بالمدينة.

والآية بعمومها شاملة للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو أيضاً مأمور بمواصلة الأرحام والإنفاق عليهم وعلى الفقراء، كأحد المسلمين.

إذن فالآية ـ لعلّها ـ نزلت للمرة الثانية بعد فتح خيبر، وبعدما أفاء الله على رسوله والمؤمنين، نزل بها جبرئيل يذكّره بها وجوب مواصلة قرباه، فدعى فاطمة(عليها السلام) وأعطاها فدكاً، ولا دليل على أنّ الآية نزلت ـ في أوّل نزولها ـ حينذاك.

أو لعلّ الآية التي نزلت بخيبر، بشأن مواصلة القربى، كانت غيرها: فقد ورد في حديث «منهال بن عمرو» بالشام ـ أيضاً ـ عن علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) في قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ علىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ فَلِلّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذي الْقُرْبىٰ وَاليَتامىٰ وَالمَساكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ»[٢]. وأهل القرى: هم بنو قريظة وبنو النضير. والقرى، هي: فدك وخيبر وعرينة وينبع، أصبحت غنائم في يد المسلمين. وقد نزلت الآية بشأنها حينذاك[٣].

فلو صحّ أنّ جبرئيل (عليه السلام) جاء بالآية الأُولى أيضاً، فهو تذكير للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بحكم سابق، وتأكيد لحكم حاضر. هذا إذا لم يكن الراوي قد اشتبهت عليه إحدى الآيتين بالأُخرى!

* * *

(١) شواهد التنزيل: ج ١ ص ٣٣٨ ـ ٣٤١.

(٢) الحشر المدنية: ٧.

(٣) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١. وجاء في الدرالمنثور: ج ٦ ص ١٨٩ إشارة.

الآية الثانية: قوله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً»[١].

الآية الثالثة: قوله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»[٢].

والقائل باستثناء هاتين الآيتين لم يعلل استثناءه بشيء[٣].

ولعلّه نظر الى ظاهر تشريع حرمة الزنا وقتل النفس، حيث كان تشريع الأحكام بالمدينة!

لكن فاته أن تحديدات الحدود وتفاصيل الأحكام جاءت بالمدينة، أمّا أُسس الشريعة وكليّات الأحكام في صورها الإجمالية فقد جاءت في سور مكيّة وبمكة كثيراً. وهاتان الآيتان جاءتا بمكة على نفس النمط.

قال السدّي: آية: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا» نزلت يوم لم تكن حدود. فجاءت بعد ذلك في سورة النور ـ وهي مدنيّة ـ[٤]. وقال الضحّاك في آية القتل: كان هذا بمكة، والنبيّ (صلى الله عليه وآله) بها. وهو أوّل شيء نزل من القرآن في شأن القتل، كان المشركون يغتالون أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله) يومذاك، فهمّ أصحابه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يفعلوا بهم مثل ذلك، فقال جلّ ثناؤه: من قتلكم فلا يحملنّكم عمله على أن تقتلوا أباه أو أخاه أو أحداً من المشركين، كما كانت العادة الجاهليّة جارية على قتل الأخ بأخيه أو آخرين من أفراد قبيلته، فلا يقتلنّ أحدكم إلّا القاتل نفسه[٥].

* * *

الآية الرابعة: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ»[٦].

---

(١) الاسراء: ٣٢.
(٢) الاسراء: ٣٣.
(٣) تاريخ القرآن لابي عبدالله الزنجاني: ص٢٨.
(٤) الدرالمنثور: ج ٤ ص ١٧٩.
(٥) الدرالمنثور: ج ٤ ص ١٨١.
(٦) الاسراء: ٥٧.

والآية، بقرينة الآية قبلها تتناسب مع نزولها بمكة، ولم نعرف وجه هذا الاستثناء الذي جاء في المصحف الأميري وغيره!

الخامسة: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الّتِي أرَيْنَاكَ إلاّ فِتْنَةً لِلنّاس وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ في الْقُرْآنِ»[١].

جاء هذا الاستثناء في كلام جلال الدين، نظراً لأنّ الآية نزلت في رؤيا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أهمّته، رأى بني أميّة ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك، ولم يرضاحكاً حتى مات (صلى الله عليه وآله)[٢].

هذا... والنبيّ (صلى الله عليه وآله) لم يكن له منبر بمكة!

وقد تقدّم كلامنا في ذلك، وأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أُري اعتلاء دعوته المباركة، وأُري أيضاً تطاول أيدي الغاصبين لمنصبه الإلهي فساءه ذلك[٣].

* * *

السادسة والسابعة والثامنة: قوله تعالى: «وَإن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وإذاً لا تّخَذُوكَ خَليلاً. وَلَوْلا أن ثَبّتناك لَقَدْ كدت تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً»[٤].

لاشك أنّ الآيات مكيّات، نزلن بشأن مشركي قريش عرضوا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مسالمته مع آلهتهم، فنهرهم نهراً، ونزلت الآيات تثبيتاً بموقف النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ذاك المشرّف، وتيئيساً للمشركين نهائياً، لئلا يطمعوا في رسول الله، وهو داعية الى التوحيد الخالص ونبذ الإشراك كليّاً، أن يجامل فيما يناقض دعوته الى الله وحده لاشريك له![٥].

---

(١) الاسراء: ٦٠.

(٢) الدرالمنثور: ج ٤ ص ١٩١.

(٣) تقدم ذلك في الصفحة: ١٥٧.

(٤) الاسراء: ٧٣-٧٤-٧٥.

(٥) راجع مجمع البيان: ج٦ ص ٤٣١. والدرالمنثور: ج٤ ص١٩٤.

ولم نعرف وجهاً صحيحاً لاستثناء هذه الآيات الثلاث، كما جاء في كلام جلال الدين[١] وفي المصحف الأميري وغيرهما!.

* * *

التاسعة والعاشرة: قوله تعالى: «وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلاً. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً»[٢].

وجه الاستثناء: ما قيل في سبب نزولهما: أنّ اليهود أتوا النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وقالوا له: إن كنت نبياً فأت الشام أرض الأنبياء، فصدّقهم على ذلك. وغزا غزوة تبوك، لايريد إلّا اللحاق بالشام، فلمّا بلغ تبوك أنزل الله عليه هاتين الآيتين، فأمره بالرجوع الى المدينة، ففيها محياه ومماته ومبعثه يوم القيامة[٣].

لكنه معارض بماورد: أنّهما نزلتا بشأن مشركي مكة، همّوا بإخراج الرسول من مكة بنفس الأسلوب، قالوا له (صلى الله عليه وآله): كانت الأنبياء (عليهم السلام) يسكنون الشام فما لك وسكنى هذه البلدة! أو همّوا بإخراجه عنفاً، لأنّ الاستفزاز هو الإزعاج بعنف، وظاهر الآية يرجّح المعنى الثاني، كما أنّ المشركين لمّا فعلوا ذلك بعدئذ طبّقت عليهم سنّة الله في الخلق، بدأت بقتلى بدر، وانتهت بفتح مكة وإخراج المشركين منها نهائياً[٤].

* * *

الحادية عشرة الى الرابعة عشرة: قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً. وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ

---

(١) الإتقان: ج١ ص١٥.
(٢) الاسراء: ج٧٦ - ٧٧.
(٣) مجمع البيان: ج٦ ص٤٣٢. والدرالمنثور: ج٤ ص١٩٥.
(٤) راجع: نفس المصادر.

صِدْقٍ وَأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً. وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً»[١].

زعم المستثني: أنّها من تتمّة الآيتين السابقتين نزولا بالمدينة[٢]. وهو زعم باطل، بعد أن لم يثبت الأصل فكيف بالفرع!

وقد أخرج أبونعيم والبيهقي عن ابن عباس: أنّ قوله: «وقل رب ادخلني مدخل صدق...» نزل بمكة قبيل هجرته (صلى الله عليه وآله وسلم)[٣].

على أنّ الآيات في سياقها المتّصل، سبقاً ولحوقاً، بنفسها تشهد بنزولها بمكة، ولا تنسجم مع القول بنزولها في المدينة بشيء.

* * *

الخامسة عشرة: قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَليلاً»[٤].

أخرج جماعة من أهل الحديث: أنّ هذا السؤال كان من يهود المدينة، بعد الهجرة[٥].

لكنه معارض بماورد أنّ هذا السؤال وقع من مشركي قريش، سألوه عن الروح الذي جاء ذكره في القرآن[٦] أو أنّ اليهود أوعزوا الى المشركين توجيه هكذا سؤال الى محمد (صلى الله عليه وآله). قالوا: فإن أجابكم فليس بنبيّ وإن لم يجبكم فهو نبيّ[٧].

هذا مضافاً الى أنّ ذيل الآية تشهد بأنّها خطاب مع المشركين، وعن

---

(١) الاسراء: ٧٨ و٧٩ و٨٠ و ٨١.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ١٥.

(٣) الدرالمنثور: ج ٤ ص ١٩٨. و تفسير الطبري: ج ١٥ ص ١٠٠.

(٤) الاسراء: ٨٥..

(٥) الدرالمنثور: ج ٤ ص ١٩٩. وتفسير الطبري: ج ١٥ ص ١٠٥.

(٦) و(٧) راجع مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٣٧ والدرلمنثور: ج ٤ ص ١٩٩.

عطاء بن يسار: أنّ قوله تعالى: «وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً» نزلت بمكة[١].

* * *

السادسة عشرة: قوله تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلىٰ أَن يَأْتوا بِمْثِلِ هذا القرآنِ لاَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْكانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»[٢].

أخرج الطبري: أنّ الآية نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة، بسبب قوم من اليهود جادلوه في تناسق القرآن، فانكروا تناسقه وزعموا أنّ التوراة أنسق منه[٣].

لكن رنّة الآية الأخّاذة تشي بنزولها بشأن مشركي قريش تحدّياً معهم حينما سألوه مخاريق غريبة الى جنب مطاليب تافهة، تجاه نزول القرآن.

وهذه الآية نزلت تمهيداً للتشنيع المتّجه إليهم في آيات بعدها: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّىٰ تَفْجُرَلَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً»[٤] الى تمام الاربع آيات، والتي تستتبعها الى الآية السابعة والتسعين. فراجع نفس الآيات.

* * *

الآية الأخيرة وهي السابعة عشرة: قوله تعالى: «قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلا تُؤْمِنُوا إِنَّ الّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجّداً»[٥].

قال جلال الدين: نزلت بالمدينة، لما أخرجناه في أسباب النزول[٦].

لكنه لم يخرج شيئاً بهذا الشأن، لا في لباب النقول ولا في الدرالمنثور!!

---

(١) و(٣) تفسير الطبري: ج١٥ ص١٠٦.

(٢) الاسراء: ٨٨.

(٤) الاسراء: ٩٠.

(٥) الاسراء: ١٠٧.

(٦) الإتقان ج١ ص١٥. وفي الدرالمنثور: ج٤ ص٢٠٥: أخرج ابن جرير عن مجاهد: أنّ الذين أوتوا العلم من قبله هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد.. لكنّ ذلك لايستدعي نزول الآية بالمدينة، كما لايخفى.

والآية بسياقها تشهد بأنّها مكيّة، نزلت توبيخاً لصمود المشركين تجاه نزول القرآن وإباءهم عن الإيمان به، وتلميحاً بأنّ هذا العناد هو أثرالجهل الأعمى والتوحش الفادح الذي تمكّن من نفوسهم القاسيّة، أمّا أهل المدنية والثقافة فإنّهم إذا لمسوا من حقيقة القرآن الواضحة يؤمنون به فوراً بلا ارتياب، كناية بأن هؤلاء المشركين بعيدون عن الحضارة والعلم، ومن ثم هذا التأنّف والشموخ الجاهل!

* * *

١١ـ سورة الكهف: مكيّة

استثنى بعضهم منها اثنتين وثلاثين آية، زعمها نزلت بالمدينة. وهذا إسراف في القول، لأنّ هذا يعني: أنّ ثلث السورة، ولاسيّما ثماني آيات من أوّلها مدنيّة، فكان جديراً ثبتها في المدنيّات!

قال جلال الدين: استثنى من أوّلها الى قوله: «جُرُزاً» الآيات رقم: ١ـ ٨ نزلت بالمدينة[١].

ولا دليل لهذا الاستثناء إطلاقاً، مضافاً الى استلزامه أن تكون السورة مدنيّة لامكيّة! لأنّ الاعتبار في المكيّة والمدنيّة إنما هو بمفتتح السورة وشيء من آيات من اوّلها. هذا والإجماع منعقد على أنّ سورة الكهف مكيّة لااختلاف فيها[٢].

ولعلّ المستثني نظر الى قوله تعالى: «وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً»[٣].

ولكن ذلك لايستدعي نزولها بالمدينة لمناسبة وجود اليهود فيها، بل هي عامّة تشمل النصارى والمشركين أيضاً، على أنّ نزول آية بشأن قصّة يهوديّة لا تستوجب مقارنة نزولها يوم كانوا ينابذون الإسلام، والآيات بهذا النمط كثيرة

---

(١) نفس المصدر.

(٢) راجع الدرالمنثور: ج ٤ ص٢٠٨.

(٣) الكهف: ٤.

في سور مكيّة، وذلك لوجود الصلة القريبة بين اليهود والمشركين قبل مهاجرة النبيّ (صلى الله عليه وآله) الى المدينة، كما تقدّمت الإشارة الى ذلك.

* * *

وقال أيضاً باستثناء قوله تعالى: «واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِي ... الى قوله: فرُطاً»[1].

زعموها نزلت في عيينة بن حصن، عرض على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو آنذاك بالمدينة، أن يتباعد مجلس فقراء المؤمنين، إن كان يريد إسلام عظماء البلد[2].

لكن الصحيح أنها نزلت في أُميّة بن خلف، عرض عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك وهو بمكة فدعى النبي (صلى الله عليه وآله) الى طرد الفقراء وتقريب صناديد قريش[3] ولهجة الآية وسياقها أيضاً تشي بذلك.

* * *

وفي المصحف الأميري وتاريخ القرآن للزنجاني: استثناء قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَينِ... الى قوله: لاَيَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً»[4] تسع عشرة آية.

زعمواأنّ الذينَ وجّهوا هذا السؤال الى النبيّ (صلى الله عليه وآله) كانوا هم اليهود أنفسهم، ومن ثم كان نزول الآيات ـ بصدد الإجابة ـ في المدينة[5].

والصحيح أنّ المشركين هم الذين سألوا هذا السؤال، لكن بتعليم من اليهود، كان المشركون بعثوا من يسأل اليهود عن أوصاف رسول الله، فأجابوهم

---

(١) الكهف ٢٨. الإتقان: ج ١ ص ١٥، وتأريخ القرآن لابي عبدالله الزنجاني: ص ٢٩.

(٢) الدرالمنثور: ج ٤ ص ٢٢٠.

(٣) أسباب النزول بهامش الجلالين: ج ١ ص ٢٣٠. والدرالمنثور: ج ٤ ص ٢٢٠.

(٤) الكهف: ٨٣- ١٠١.

(٥) الدرالمنثور: ج ٤ ص ٣٤٠.

بأسئلة يوجّهونها الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإن أجاب فهو نبيّ حقاً.

روى أبوجعفر الطبري: أنّ قريشاً بعثت النضربن الحرث وعقبة بن أبي معيط الى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل ـ التوراة ـ وعندهم علم ماليس عندنا، من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، ماكان من أمرهم، فإنّه قد كان لهم حديث عجيب سلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ماكان نبؤه؟. سلوه عن الروح ماهو؟ فإن أخبركم بذلك فإنّه نبيّ فاتّبعوه... الخ. والحديث طويل وفي نفس الوقت طريف[١].

* * *

وفي الإتقان جاء استثناء قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِردَوسِ نُزُلاً» الى آخر السورة[٢] اربع آيات[٣].

هذا... ولم يبيّن سند هذا الاستثناء الغريب! ولعلّه سهو أو جزاف من الكلام، إذ لا شيء في الآيات يصلح دليلاً على مدنيّتها، ولا ورد في تفسيرها مايتناسب ونزولها بالمدينة!!

نعم روى في الدرالمنثور عن مجاهد قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحبّ أن يرى مكانه، فانزل الله، «فمن كانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...»[٤]. لكن لحن

(١) جامع البيان: ٢١٥ ص١٢٧ وج١٦ ص٧. والدرالمنثور: ج٤ ص٢١٠. ولباب النقول بهامش الجلالين: ج١ ص٢٢٨.

(٢) الكهف: ١٠٧ ـ ١١٠.

(٣) الإتقان: ج١ ص١٥.

(٤) الدرالمنثور: ج٤ ص٢٥٥.

الآية وفحواها لا تلتئم وذلك .. وروى الطبرسي عن ابن عباس: لما نزل قوله «وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَلِيلاً» قالت اليهود، أُوتينا التوراة وفيها علم كثير. فأنزل الله «قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْر...» ولذلك قال الحسن: أراد بالكلمات العلم[1] لكن هذا لايدلّ على كونها نزلت بالمدينة كمامرّغيرمرة!

١٢ـ سورة مريم: مكيّة

قال جلال الدين: استثني منها آيتان[2].

١ـ آية السجدة: «أُوْلئِكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ مِنْ ذُرِيَّةِ آدَمَ- الى قوله-: خَرُّوا سُجَّدا وَبُكِيّاً»[3].

ويكذبه: أنّ هذه الآية نزلت تعقيباً على الآيات التي سبقتها من أوّل السورة الى هنا، ذكرت أحوال الأنبياء وأُمم سالفة بتفصيل، ثم جاء مدحهم جميعاً بصورة إجماليّة في هذه الآية، كأنّها تلخيص لتلكم السمات والأوصاف، وكانت نتيجة عليها، فأمّا أن نقول بأن جميعها من أوّل السورة الى هذه الآية مدنيّة أو كلّها مكيّة، ولا موقع لهذا الاستثناء الغريب، والذي لم يبيّن المستثنى سنده في ذلك ؟!

٢ـ قوله تعالى: «وَإن مِنْكُمْ إلَّا وَارِدُهَا كانَ علىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً»[4].

وهذه كسابقتها مرتبطة تمام الارتباط بآيات اكتنفتها سبقاً ولحوقاً، بمالا يدع مجالا لاستثنائها وحدها.

١٣ـ سورة طه: مكيّة

استثني منها آيتان: الأُولى قوله تعالى: «فاصْبِرْ عَلىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

---

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٤٩٩.

(٢) الإتقان: ج١ ص١٥.

(٣) مريم: ٥٨.

(٤) مريم: ٧١.

رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»[١].

لكن الآية تفريع على آيات سبقتها، مضافاً الى لهجتها الخاصّة بآيات مكيّة. وورد في تفسيرها مايؤكّد نزولها بمكة[٢].

الثانية قوله تعالى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ...»[٣].

قال جلال الدين: لما أخرجه البزّار عن أبي رافع، كان بعثه النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ليستسلف من يهودي طعاماً، فأبى إلّا برهن، فحزن رسول الله (صلى الله عليه وآله) على ذلك، فنزلت الآية[٤].

لكن القصة ـ على فرض صحّتها ـ لا تصلح داعية لنزول هذه الآية بشأنها، ولا مناسبة بينها وبين فحوى الآية رأساً.

١٤ـ سورة الأنبياء: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»[٥] ولم يذكروا سند الاستثناء.

لكن السياق مكيّ بلا كلام. وجاءت نظيرتها في سورة الرعد: ٤١ أيضاً، ولهجتها مكيّة، لولا اتفاق روايات الترتيب على مدنيّتها على ماسبق.

١٥ـ سورة المؤمنون: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ـ الى قوله ـ مُبْلِسُونَ» ثلاث عشرة آية[٦].

---

(١) طه: ١٣٠.

(٢) تفسير الطبري: ج١٦ ص١٦٨.

(٣) طه: ١٣١.

(٤) الإتقان: ج١ ص١٦. وراجع تفسير الطبري: ج١٦ ص١٦٩.

(٥) الأنبياء: ٤٤. الإتقان: ج١ ص١٦.

(٦) المؤمنون: ٦٤ـ ٧٧. الإتقان: ج١ ص١٦.

ولا شاهد لهذا الاستثناء بتاتا. ولعلّ المستثني نظرالى روايات فسرت العذاب بما أُصيب المشركون يوم بدر أو يوم الفتح. لكنه غفل عن أنّها تفسير لوعد سابق، لاحكاية عن أمر كان. راجع أبا جعفر الطبري وغيره[١].

١٦ـ سورة الفرقان: مكيّة

استثني منها ثلاث آيات: ٦٨ و٦٩ و٧٠.

لكن الآيات منسجمة مع قريناتها سبقا ولحوقاً تمام الانسجام، بما يستحيل استثناؤها لوحدها. وفي تفسير الطبري وغيره مايؤكّد نزولها بمكة فراجع[٢].

١٧ـ سورة الشعراء: مكيّة

استثني منها خمس آيات:

١ـ قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي اسرائيل»[٣].

حكى ابن غرس: أنّها مدنيّة[٤] ولعلّه لماورد في تفسيرها من أنّ المراد من علماء بني إسرائيل ـ هنا ـ هم: أسد وأُسيد وابن يامين وثعلبة وعبدالله بن سلام[٥].

لكن وجه الآية بلاشكّ مع مشركي قريش، وتوبيخ لاذع بهم. أمّا التفسير الوارد فلايعني نزول الآية بعد إيمان هؤلاء اليهود، وإنّما هو بيان مصداق من مصاديق الآية تحقّقت فيما بعد.

وقد تقدّم[٦] مراجعة المشركين الى اليهود فيما يخصّ معرفة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فكانوا يعرّفونهم خصائص وسمات كانت موجودة فيه (صلى الله عليه وآله) والآية إنّما تعني ذلك، وإنّ هذا شيء كان يعرفه أهل الكتاب. كما اعترفوا هم قبل هجرته (صلى الله عليه وآله) وإنّما نكروه بعد ذلك طمعاً في حطام الدنيا

(١) تفسير الطبري: ج١٨ ص٢٨.
(٢) تفسير الطبري: ج١٩ ص٢٦.
(٣) الشعراء: ١٩٧.
(٤) الإتقان: ج١ ص١٦.
(٥) تفسير الطبري: ج١٩ ص٦٩. والدرالمنثور: ج٥ ص٩٥.
(٦) تقدم ذلك في الصفحة: ١٩٥.

ولم تعن الآية إيمانهم وإنما عنت معرفتهم. وبذلك لايصلح التفسير الوارد لتعيين نزول الآية بالمدينة.

٢ـ قوله تعالى: «والشُّعراءُ يَتَّبِعُهُم الْغاوُونَ»[١] الى آخر السورة أربع آيات.

حكي استثناء ذلك عن ابن عباس[٢] وسند الاستثناء ماروي أنّها نزلت في رجلين تهاجيا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين[٣].

لكنه معارض بما هو أقوى سنداً وأكثر عدداً: أنّها نزلت في مشركي قريش، كان شعراؤهم يهجون رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويقرأها سفلتهم على ملأ من الناس امتهانا بموقف رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنزلت الآية تقريعاً بشأنهم وتنديداً بسلوكهم الشنيء وقدجاء الطبرسي باسماء هؤلاء المشركين في تفصيل عريض[٤]. وهكذا رجّحه أبوجعفر الطبري[٥].

١٨ـ سورة القصص: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكتاب مِنْ قَبْلِهِ هم بِهِ يُؤْمِنُونَ ـ الى قوله ـ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ لانبتغِي الْجَاهِلِينَ»[٦] أربع آيات.

قيل: نزلت في جماعة من أهل الكتاب كانوا قد أسلموا، منهم: عبدالله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي[٧].

وقيل: نزلت في أصحاب النجاشي قدموا المدينة وشهدوا وقعة أُحد[٨].

لكن لو صحّ تفسير الآية بالمذكورين فإنّما عنت الاخبار عمّا سيكون لاعمّا

---

(١) الشعراء: ٢٢٤.

(٢) الإتقان: ج١ ص٩ و١٦.

(٣) الدرالمنثور: ج٥ ص٩٩.وتفسير الطبري: ج١٩ ص٧٨.

(٤) مجمع البيان: ج٧ ص٢٠٨.

(٥) جامع البيان: ج١٩ ص٧٨.

(٦) القصص: ٥٢ـ ٥٥.

(٧) مجمع البيان: ج٧ ص٢٥٨.

(٨) الإتقان: ج١ ص١٦.

كان !فضلا عن معارضة هـذا التفسير بتفسيرهـا بجماعة من أهل الكتاب كانوا مسلمين بالنـبيّ (صلى الله عليه وآلـه وسلم) قبل مبعثه، وهم أربعون رجلاً على ماجاء في تفسير الطبرسي وتفسير الطبري وغيرهما فراجع[١].

ويؤكـد مـاذكرنا قـولـه تعالى: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...»[٢].

هذه الآية مكيّة وردت بشأن مجادلة أهل الكتاب.

وقوله تعالى ـ أيضاً ـ: «وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ...»[٣]. وهي مكية أيضاً بالاتفاق.

وهذه نظيرة الآية المبحوث عنها تماماً، إخبار عمّا سيكون.

* * *

واستثني منها ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ...»[٤].

قيل: نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو مهاجر الى المدينة، عند وصوله الى الجحفة[٥] فالآية على الاصطلاح الثاني[٦] لامكيّة ولامدنيّة.

لكن الاختيار المشهور هو المصطلح الأوّل. وعليه فالآية مكيّة. وقد سبق ذلك.

١٩ ـ سورة العنكبوت: مكيّة

استثني من أوّلها الى الآية الحادية عشرة، قالوا: نزلن بالمدينة[٧] قالوا: نزلت الآيات في أُناس من المسلمين تخلّفوا عن الهجرة، ثم كتب إليهم أصحاب

---

(١) مجمع البيان: ج٧ ص٣٥٨. وجامع البيان: ج ٢٠ ص٥٧. والدرالمنثور: ج ٥ ص١٣٣.
(٢) العنكبوت: ٤٦.
(٣) العنكبوت: ٤٧.
(٤) القصص: ٨٥.
(٥) مجمع البيان: ج٧ ص٢٦٨.
(٦) تقدم ذلك في الصفحة: ١٢٩.
(٧) الإتقان: ج١ ص١٦.

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك، فعمدوا الى المهاجرة فردتهم قريش ووقع بينهم قتال وعنف[١].

لكن الآية عامّة، نزلت في مؤمني مكة وقعوا تحت شدّة، وكانت ابتلاء لهم ليعلم الصادق من الكاذب. وهكذا فسّرها أبوجعفر الطبري[٢] وجاءت به الروايه عن الإمام أبي عبدالله الصادق (عليه السلام)[٣].

هذا فضلا عن أنّ مفتتح السورة لوصحّ نزولها بالمدينة لأصبحت السورة مدنيّة، وفق المصطلح المتقدم[٤] هذا ولم يخالف أحد في مكيّتها.

* * *

واستثني منها ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «وكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»[٥].

استثناها جلال الدين، لماروواه ابن أبي حاتم ـ بسند ضعيف ـ عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، ثم قال (صلى الله عليه وآله) هذه صبح رابعةمنذ لم أذق طعاماً ولم أجده... قال ابن عمر: فوالله مابرحنا ولا رمنا حتى نزلت: «وكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ...»[٦].

والرواية مطعون في سندها، فضلا عن اضطراب متنها وعدم معقوليّة فحواها!

هذا... وقد روي عن مقاتل والكلبي: أنّها نزلت في جماعة من المؤمنين المستضعفين، ضاق بهم المقام بمكة قبل هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله) ووقعوا في عسر وشدّة، فأمروا بالهجرة الى المدينة، قالوا: كيف نخرج الى بلد

---

(١) أسباب النزول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٣٢.
(٢) جامع البيان: ج ٢٠ ص ٨٣.
(٣) مجمع البيان: ج ٧ ص ٢٧٢.
(٤) تقدم ذلك في الصفحة: ١٣٢.
(٥) العنكبوت: ٦٠.
(٦) الإتقان: ج ١ ص ١٦. والدرالمنثور: ج ٥ ص ١٤٤.

ليس لنا به دار ولاعقار ولا معيشة! فنزلت الآية: «يَا عِبادِيَ الّذينَ آمَنُوا إنَّ أرْضِي وَاسِعَةٌ فَإيَّايَ فَاعْبُدُونِ- الى قوله-: وكَأيِّن مِن دَابَّةٍ ...» الخ[١].

والرواية الثانية أوفق بنصّ الكتاب وأولى بالاعتبار، ومن ثمّ فهي الصحيحة المقبولة!

٢٠- سورة الروم: مكيّة

جاء في المصحف الأميري وتاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني والمجمع: استثناء قوله تعالى: «فَسُبْحانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ»[٢].

ولاسند لهذا الاستثناء، فضلا عن ارتباطها الوثيق مع آيات سبقتها وآيات لحقتها!

٢١- سورة لقمان: مكيّة

روي عن ابن عباس: استثناء قوله تعالى: «وَلَوْ أنَّ مَا فِي الأرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ- الى قوله-: بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»[٣] ثلاث آيات.

وذلك لانّه (رضي الله عنه) روى في سبب نزولها: أنّ أحبار يهود قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بالمدينة: إنّا قد أُوتينا التوراة وفيها علم كثير، فقال (صلى الله عليه وآله): إنّها في جنب علم الله قليل، فنزلت الآيات[٤].

ولكن التعليل إن كان يتناسب مع الآية رقم: ٢٧ فرضاً، فإنّه لايتناسب مع الآيتين بعدها، ولا يصلح داعية لنزولها البتة.

---

(١) العنكبوت: ٥٦- ٦٠.مجمع البيان: ج٨ ص٢٩٠.

(٢) الروم: ١٧.تاريخ القرآن لابي عبدالله الزنجاني: ص٣٠.ومجمع البيان: ج٨ ص٢٩٣.

(٣) لقمان: ٢٧- ٢٩.

(٤) الدرالمنثور: ج٥ ص١٦٧. والإتقان: ج١ ص١٦.

والصحيح أنّ الآيات الثلاث، هي كسوابقها ولواحقها منسجمة بعضها مع بعض وهي جميعاً عرض لعظمة ربّ العالمين، لايدانيه أحد، ولا يماثله شيء!.... فلاسبب يفصلها عن قريناتها، ومن ثم لاوجه لاستثنائها أصلا.

ولو صحّت الرواية المذكورة عن ابن عباس، فلابدّ أنّه (صلى الله عليه وآله) قرأها عليهم حينما عرضوا عليه ذلك التحدّي الغريب! لاأنّها نزلت حينذاك.

٢٢ـ سورة السجدة: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»[١].

قال جلال الدين: لما أخرجه البزّار وابن مردويه عن بلال، قال: كنّا جلوساً وناس من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) يصلّون بعد المغرب الى العشاء فنزلت[٢].

قلت: الآية عامّة. وانسجامها مع قريناتها من آيات بادية الوضوح. فضلا عن عدم التئامها مع فحوى الرواية في شيء.

* * *

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء قوله تعالى: «فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ»[٣].

ولعل ذلك نظراً لأنّها تتميم للآية السابقة. والأصحّ أنّها كسابقتها عامّة.

* * *

وروي عن ابن عباس: استثناء قوله تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ـ الى قوله ـ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[٤].

---

(١) السجدة: ١٦.
(٢) الإتقان: ج ١ ص ١٦. والدرالمنثور: ج ٥ ص ١٧٥.
(٣) السجدة: ١٧.
(٤) السجدة: ١٨ـ١٩.

وذلك لما روي بطرق وأسانيد كثيرة ومعتبرة: أنّها نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام) والوليد بن عقبة بن أبي معيط، في مشاجرة جرت بينهما يوم بدر، قال له الوليد: اسكت فإنّك صبيّ وأنا أبسط منك لسانا وأحدّ منك سنانا وأردّ منك للكتيبة! فقال له علي (عليه السلام) على رسلك فإنّك فاسق، وليس كما تقول.

أخرجها أبوالفرج الإصبهاني في كتاب الاغاني، والواحدي في أسباب النزول وابن مردويه. والخطيب البغدادي. وابن عساكر من طرق عن ابن عباس. وأخرجها ابن اسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار. وأخرجها ابن أبي حاتم عن السدّي وعبدالرحمان بن أبي ليلى. فالمؤمن الذي عنته الآية الكريمة هو علي بن أبي طالب والفاسق هو الوليد[١].

وأخرجها الحافظ الحسكاني باثنى عشر طريقاً، ربّما بلغت بذلك حدّ التواتر[٢].

قلت: سياق الآية عام، وهي مرتبطة مع بقيّة الآيات، سابقة ولاحقة. يبدو ذلك لأدنى مراجعة الى السورة.

نعم يجوز نزول آية مرّة ثانية لمناسبة تستدعي ذلك، الأمر الذي حدث في كثير من آيات سوف ننبّه عليها. ويحتمل أنّ المحاورة المذكورة بلغت النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقرأ الآية الكريمة، تطبيقاً مع المورد، فقد فسق الوليد هذا في آيات أُخرى، ونزلت: «إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بنبأ فَتَبيَّنُوا»[٣] بشأنه الخاصّ، أخرجه جلال الدين بأسانيد رجالها ثقات[٤].

---

(١) راجع الدرالمنثور: ج٥ ص١٧٨. وتفسير الطبري: ج٢١ ص٦٨. وتفسير النيسابوري بهامش الطبري: ج٢١ ص٧٢. ومجمع البيان: ج٨ ص٣٣٢.

(٢) شواهد التنزيل: ج١ ص٤٤٥-٤٥٣.

(٣) الحجرات: ٦.

(٤) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص٨٠-٨٢. وأخرجه أيضاً أصحاب مجاميع معتبرة فراجع.

٢٣ـ سورة سبأ: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «وَيَرى الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إلىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»[١].

هذه الآية إشارة الى أنّ أهل العلم الواقعيين يؤمنون بهذا الكتاب إيمانا صادقا عن علم ويقين، ولاشكّ أنّ الأمر كذلك، فالنابهون العقلاء وأرباب الفضيلة والكمال، لايتردّدون في الإيمان بهذا الكتاب العزيز الذي لاريب فيه، فورمعرفتهم به. وهذا شأن كلّ حقّ صريح. وهكذا رجّح هذا المعنى العلّامة الطبرسي، قال: وهذا أولى، لعمومه... ثم قال: لأنّهم يتدبّرونه ويتفكّرون فيه، فيعلمون بالنظر والاستدلال أنّه ليس من قبل البشر[٢].

لكن أباجعفر الطبري فسّر الآية ـابتداءـ بمسلمي أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام ونظرائه[٣]. ومن ثم زعم بعضهم أنّ الآية مدنية نزلت بعد إسلام هؤلاء[٤].

هذا... وأبو جعفر لم يستند في تفسيره ذلك الى نقل مأثور[٥] وإنما نقل عن قتادة: أنهم أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) السابقين الأوّلين ممّن وجدوا الإسلام حقيقة ناصعة فاحتضنوها عن معرفة ويقين. فنقله يختلف عن رأيه هو!

* * *

واستثني منها ـأيضاًـ قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ـ الى قولهـ: وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ»[٦] سبع آيات.

---

(١) سبأ: ٦.
(٢) مجمع البيان: ج٨ ص٣٧٨ـ ٣٧٩.
(٣) جامع البيان: ج٢٢ ص٤٤.
(٤) الإتقان: ج١ ص١٦.
(٥) وفي مجمع البيان: ج٨ ص٣٧٨: أنّه قول الضحّاك.
(٦) سبأ: ١٥ـ ٢١.

يروى عن فروة بن مسيك: أنّه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) أوسمع رجلا يسأله (صلى الله عليه وآله) عن سبأ: جبل أم أرض، رجل أم أمراة؟ فنزلت الآيات، وكان هذا السؤال بعد مرجعه من غزو قبائل سبأ، أرجعه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنّه لم يؤمر بذلك[١].

قال ابن الحصار: وهذا يدلّ على أنّ نزول الآيات كان بالمدينة، لأنّ مهاجرة فروة كانت بعد إسلام ثقيف سنة تسع من الهجرة[٢].

لكنه قال بعد ذلك: ويحتمل أن يكون قوله: «وأُنزل في سبأ ماأُنزل» حكاية عمّا تقدّم نزوله قبل الهجرة بمكة، لانزوله حينذاك.

قلت: لوصدقت القصة لابدّ من حمل قوله في ذلك على الحكاية، اذيبعد جداً نزول آية أو آيات لمجرد سؤال رجل كان جوابه (صلى الله عليه وآله وسلم) كافياً لارضاء حسّ استطلاعه- كماجاء في الرواية- ولم يستدع تفصيلا تعرّضت له الآيات.

على أنّ ملاحظة عبرى بشأن قصة سبأ كماوردت في القرآن تكفي للدلالة على أنّ الهدف منها عامّ كسائر القصص الواردة في القرآن تروم توجيه البشريّة الى معالم السير الصحيح، تنبيها لها على مواضع الخطأ في حياتها الغابرة لتأخذ منها درساً تسير عليه في حياتها الحاضرة.

والصحيح في قصة فروة بن مسيك: أنّه سأل النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن قصة سبأ بعد أن قرأها في القرآن، فسأله (صلى الله عليه وآله) عن سبأ أرجل هو أم امراة، أم هو اسم أرض أم جبل؟ فشرح له النبيّ (صلى الله عليه وآله) أنّه رجل من العرب كان له من الأولاد كذا وكذا[٣]. وهذا يدلّ على تأخّر السؤال عن نزول الآيات.

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٣٨٦. وجامع البيان: ج٢٢ ص٥٣. والدرالمنثور: ج٥ ص٢٣١.

(٢) الاتقان: ج١ ص١٦.

(٣) مجمع البيان: ج٨ ص٣٨٦.

وأخيراً فإنّ الرواية بهذا الشأن عن فروة مضطربة ومتناقضة بعضها مع بعض، بما يجعل الاستناد إليها في الحكم بنزول الآيات بشأنها مستحيلا.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال: حدّثني فلان ـ؟ـ أنّ فروة بن مسيك الغطفاني ـ؟ـ قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا نبيّ الله إنّ سبأ قوم كان لهم في الجاهلية غزو. وإنّي أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ـ؟ـ أفأقاتلهم؟ فقال: ما أُمرت فيهم بشيء بعد، فأُنزلت هذه الآية: «لَقَدْ كَانَ لِسبَأ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ...»[١].

انظر الى هذه الرواية المتفكّكة سنداً ومتناً وأُسلوباً، وعدم أيّ مناسبة بين مضمونها ونزول هكذا آيات!! الأمر الذي يجعلنا نطمئن بأنّها لم تكن من حياكة إنسان نابه يلتفت الى مايقوله من كلام!

وهكذا سائر الروايات الواردة بهذا الشأن، فراجع[٢].

فان كانت هكذا مناسبات تستدعي نزول قرآن، فأجدر بنا أن نقول: إنّه كان ينزل بلامناسبه!!

٢٤ـ سورة فاطر (الملائكة): مكيّة

قال الحسن: إلّا آيتين:

الأُولى: قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ...»[٣].

الثانية قوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...»[٤].

ولعلّ الأُولى لذكر الصلاة فيها...

---

(١) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٥٥.

(٢) تفسير الطبري. والدرالمنثور، وغيرهما.

(٣) فاطر: ٢٩.

(٤) فاطر: ٣٢.

والثانية من أجل تعقيبها بقوله: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ». فقد روى عكرمة عن ابن عباس: أنّ الظالم هو المنافق...[١].

غير أنّ الصلاة فرضت بمكّة... وكان تطبيق الظالم على المنافق لايستدعي نزول الآية بالمدينة حيث وفورالمنافقين، لأنّه تطبيق و بيان مصداق من ابن عباس، إن صحّ الحديث. واللّفظ عامّ لا يتقيّد بموارد تطبيقه.

٢٥ـ سورة يس: مكيّة

استثنيت منها آيتان:

الأولىٰ: قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَاقَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ»[٢].

أخرج الحاكم والترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنوسلمة في ناحية من المدينة، فشكوا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه، فنزلت الآية، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) : إنّ آثاركم تكتب، فلم ينتقلوا[٣].

لكن القصّة لا تصلح سبباً لنزول جميع فقرات الآية، لعدم المناسبة! ولعلّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) استشهد بفقرة منها بعدما شكوا إليه بعد منازلهم، حيث أفضل الأعمال أحمزها.

الثانية: قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَوْيَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»[٤] قال ابن عباس: نزلت بالمدينة بشأن المنافقين[٥].

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٣٩٩ و٤٠٩.
(٢) يس: ١٢.
(٣) مجمع البيان: ج٨ ص٤١٨. والإتقان: ج١ ص١٦. وتفسير الطبري: ج٢٢ ص١٠٠.
(٤) يس: ٤٧.
(٥) الإتقان: ج١ ص١٦. ومجمع البيان: ج٨ ص٤١٣.

لكنّها صريحة في خطابها مع الذين كفروا، وقدنصّ أبوجعفر نزولها بشأن المشركين[١] وهكذا يشهد بذلك سياق الآية ذاتها.

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء الآية رقم: ٤٥.

ولعلّه سهو جاء في اشتباه الرقم. وعلى الفرض فسياقها نفس سياق الآية رقم: ٤٧ والكلام فيها هو الكلام في تلك.

٢٦ـ سورة الزمر: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[٢].

نقل السخاوي في «جمال القراء» عن بعضهم: أنّها نزلت بالمدينة[٣].

لكن الآية بنفسها تشي بأنّها مكيّة، نزلت تحرّض المؤمنين المستضعفين على المهاجرة. وهكذا روي عن ابن عباس[٤].

* * *

واستثني ـأيضاًـ قوله تعالى: «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...»[٥].

حكى ابن الجزري عن بعضهم ـأيضاًـ أنّها نزلت بالمدينة[٦].

لكن لهجة الآية الرنّانة الأخّاذة بمجامع القلوب، بذاتها شاهدة على أنّها مكيّة، كما أنّ السياق أيضاً يشهد بذلك، ولا وجه لهذا الاستثناء بتاتاً.

* * *

وهكذا استثني منها قوله تعالى: «قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ

(١) جامع البيان: ج٢٣ ص٩.
(٢) الزمر: ١٠.
(٣) الإتقان: ج١ ص١٦.
(٤) مجمع البيان: ج٨ ص٤٩٢.
(٥) الزمر: ٢٣.
(٦) الإتقان: ج١ ص١٦.

ـالى قولهـ: وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ»[1] ثلاث آيات.

قيل: نزلن في وحشي قاتل حمزة! روي ذلك عن ابن عباس بسند ضعيف[2].

نعم أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس، قال: أُنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة[3] وهكذا فسّرها أبوجعفر بعدّة طرق[4].

قلت: لايستحق وحشي ـ وهو وحش في صورة إنس ـ أن تنزل عليه بالخصوص آية هي ذات صدى عاطفي رقيق، وذات إشارات خفيّة لايلمسها إلّا ذووا أفهام ناضجة وقرائح متوقّدة!

قال العلّامة الطبرسي: ولايصحّ نزولها بشأن «وحشي» لأنّ الآية نزلت بمكة، ووحشي أسلم بعدها بسنين كثيرة، ولكن يحتمل أن يكون قرئت عليه الآية فكانت سبب إسلامه[5].

٢٧ـ سورة المؤمن (غافر) : مكيّة:

استثنيت منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «وَسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإبكَارِ»[6].

قال الحسن: لأنّها تعني بذلك صلاة المغرب وصلاة الفجر، وقد ثبت أنّ فرض الصلاة نزل بالمدينة[7].

قلت: وهذا غريب! لأنّ الصلاة أوّل ما فرضت بمكة، وكان المسلمون يصلّون بها جماعة وفرادى. وتقدّم: أنّ الصلاة هي أوّل شيءجاء به جبرائيل وعلّم رسول الله (صلى الله عليه وآله) الوضوء والصلاة في بدء بعثته

---

(١) الزمر: ٥٣ـ ٥٥.
(٢) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص٦٣.
(٣) نفس المصدر.
(٤) جامع البيان: ج٢٤ ص١٠.
(٥) مجمع البيان: ج٨ ص٥٠٣.
(٦) المؤمن: ٥٥.
(٧) مجمع البيان: ج٨ ص٥١٢.

(صلى الله عليه وآله وسلم)[١].

وأيضاً فإنّ صدر الآية: «فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَاللهِ حَقٌّ واسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ» دليل على مكيّتها، فضلاً عن السياق المتناسب!

الثانية والثالثة: قوله تعالى: «إنَّ الذينَ يُجَادِلُونَ فِي آياتِ الله بِغَيْرِ سُلْطان أتَاهُمْ ـ الى قوله ـ ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ»[٢]. قال جلال الدين: أخرج ابن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح ـ! ـ عن أبي العالية، قال: إنّ اليهودأتوا النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقالوا: الدجّال منّا يخرج في آخرالزمان... وجعلوا يعظّمون من شأنه، فأنزل الله هاتين الآيتين، وفيهما: «لَخَلْقُ السَّماوَاتِ وَالأرْضِ أكْبَرُ»[٣].

قلت: نعوذ بالله من سفاسف الكلام، كيف تنزل آية قرآنية في ردّ مزعومة تافهة تبجح بها يهودي، لتجعل المقايسة بين دَجَل دجّال وخلق السماوات والأرض؟!

ولقد أحسن أبوجعفر الطبري[٤] فلم يذكر شيئاً من تلكم الأحاديث الفارغة التي ملأ بها جلال الدين السيوطي تفسيره، ونحن ننزّه القرآن الكريم منها بتاتا!

ثمّ إنّ الآية قارنت بين خلق السماوات وخلق الناس، وجعلت الأُولى أكبر، وهذا دليل على جحود وقع بشأن خلق الإنسان ... الأمرالذي يتنافى مع تلك المزعومة السخيفة...

ومن العجيب أنّ مثل الطبرسي[٥] انخرط مع أمثال السيوطي في هذا

---

(١) تقدم ذلك في الصفحة: ١٢٥.

(٢) المؤمن: ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) الدرالمنثور: ج ٥ ص ٣٥٣. وأسباب النزول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٦٥.

(٤) جامع البيان: ج ٢٤ ص ٥٠.

(٥) مجمع البيان: ج ٨ ص ٥٢٨.

الفراغ التافه!

۲۸ـ سورة الشورى: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرىٰ عَلىٰ اللهِ كَذِباً ـ الى قوله ـ: وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ»[1] ثلاث آيات.

قيل: نزلن في الأنصار. رواه الطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف[2].

وقوله: «ولو بسط الله الرِّزْقَ لِعِبادِهِ ـ الى قوله ـ خبيرٌ بصير[3]».

قيل: نزلت في أصحاب الصفّة، أخرجه الحاكم وصححه[4].

قلت: من المستبعد جداً نزول الآيات الأُول في الأنصار، إذ كيف يعقل نسبة هذا الكلام إليهم: «افترىٰ ـ يعني محمد ـ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً»؟!

ثم الرواية تذكر أنّ الأنصار أساؤوا الظنّ برسول الله (صلى الله عليه وآله) فحسبوه يقاتل دون أهل بيته خاصّة، فنزلت الآية..؟!

أمّا الآية الأخيرة فهي عامّة، ولو صحّت الرواية عن علي (عليه السلام) فإنّما تعني شمولها لهم بعمومها، لا أنّها نزلت بشأنهم الخاص، إذ ذلك ـ على هذا الفرض ـ قدح لاذع بأهل الصفّة، وحاشا القرآن أن يجرح من عاطفة جماعة من المؤمنين لمكان فقرهم!!

* * *

واستثني ـ أيضاً ـ قوله تعالى: «وَالَّذينَ إِذَا أَصابَهُم الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ـ الى قوله ـ: فَاُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ سَبِيلٍ»[5].

حكى أبو غرس عن بعضهم: أنّهنّ نزلن بالمدينة[6].

---

(١) الشورى: ٢٤-٢٦.
(٢) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص٦٨.
(٣) الشورى: ٢٧.
(٤) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص٦٨.
(٥) الشورى: ٣٩-٤١.
(٦) الإتقان: ج١ ص١٦. وزاد في مجمع البيان: ج٩ ص٢٠ الآية رقم ٢٣ و٣٨ عن الحسن وقتادة، لكنه لم يذكر سند الاستثناء، وهما كسائر آيات السورة ذواتا لهجة مكيّة والسياق نفس السياق.

غير أنّ السياق مكيّ لاغير، وآيات تقدمتها وآيات تأخّرتها مرتبطة بهاتمام الارتباط، ممّا يجعل التفكيك مستحيلا، وكلّهن نزلن بشأن المؤمنين في مكة أيام كانوا مستضعفين، هذا لايشكّ فيه من راجع الآيات.

٢٩ـ سورة الزخرف: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ»[١].

قال مقاتل: نزلت ببيت المقدس ليلة المعراج[٢] وقيل: نزلت بالمدينة[٣]. لكن الآية مرتبطة بقريناتها المكتنفة بها ارتباطاً وثيقا. ونزلت بـ«إيّاك أعني واسمعي يا جارة» فهي مكيّة بلاشكّ، نزلت بشأن المشركين. أمّا نزولها في السماء[٤] أو ببيت المقدس فلا تجعلها مدنيّة، وإنّما هي مكيّة باعتبار نزولها قبل الهجرة، وفق الاصطلاح المتقدّم[٥].

وجاء في المصحف الأميري ومقلدته: استثناء آية رقم: ٥٤. ولعلّه اشتباه في الرقم.

٣٠ـ سورة الجاثية: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «قُل لِلَّذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذينَ لايَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ»[٦].

قال قتادة: نزلت بالمدينة[٧].

---

(١) الزخرف: ٤٥.

(٢) مجمع البيان: ج ٩ ص ٣٨. والدرالمنثور: ج ٦ ص ١٩.

(٣) و(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٦.

(٥) تقدم ذلك في الصفحة: ١٢٩.

(٦) الجاثية: ١٤.

(٧) مجمع البيان: ج ٩ ص ٧٠. والإتقان: ج ١ ص ١٦.

والصحيح: أنّها من آيات الصفح التي نزلت بمكة ايام كان المؤمنون مستضعفين، ومن ثم نسخت فيما بعد، عندما قويت شوكة الإسلام بالمدينة[١].

٣١ـ سورة الاحقاف: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن كانَ مِنْ عِنْدِاللهِ وكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِى إسْرائيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ»[٢].

أخرج الطبراني أنّها نزلت بالمدينة في قصة إسلام عبدالله بن سلام[٣].

قلت: ما أغرب ولع المفسّرين بكلّ آية جاء فيها إلماح بإيمان أهل الكتاب فسرعان ماأوّلوها بعبدالله بن سلام وأضرابه؟!

والصحيح: أنّها تشنيع بقريش تقاعست عن الإيمان بدين جاء على يد رجل منهم وعلى لغتهم، ثم يؤمن به غيرهم من بني إسرائيل وغيرهم. وإنّما خصّ بنو إسرائيل بالذكر ـ هنا ـ لمزيد عناية العرب آنذاك بهم وثقتهم بعلمهم وثقافتهم.

هذا... وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال: أُنزلت هذه الآية بمكة بشأن المشركين، وهكذا أخرج أبوجعفر الطبري بعدة أسناد[٤].

* * *

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «وَوَصَّيْنا الإنسَانَ بِوالديْهِ إحْسَاناً ـ الى قوله ـ: وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ»[٥] خمس آيات. قيل: نزلت الآيات في أبي بكر حيث برّ بوالديه

(١) راجع تفسير الطبري: ج ٢٥ ص ٨٧.
(٢) الاحقاف: ١٠.
(٣) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٧٢. و تفسير الطبري: ج ٢٦ ص ٨. والإتقان: ج ١ ص ١٦.
(٤) جامع البيان: ج ٢٦ ص ٧. والدرالمنثور: ج ٦ ص ٣٩.
(٥) الاحقاف: ١٥ـ ١٩.

وفي ابنه عبدالرحمان عندما عقّ والديه، وهما يحاولان إسلامه[١].

لكن الآيات في كلا الموضعين عامّة، بدليل صيغة الجمع تعقيباً على كلّ من الفقرتين، فالآيات تصوير تفصيلي عن الذي يبرّ بوالديه والذي يعقّهما بصورة عامّة[٢].

وعلى تقدير نزولها بشأن أبي بكر وابنه عبدالرحمان فلا موجب لعدّها مدنيّة بعد أن كانت تلك القصة بشأنهما ـ على فرض الصحّة ـ بمكة.

* * *

وكذلك لا وجه لاستثناء قوله: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ»[٣].

بعد أن كانت لهجتها مكيّة، وسياق لحنها موجّه الى مشركي قريش، نزلت أيام كان المسلمون على ضعف ومن ثم نسخت بعدئذ بآية القتال.

٣٢ـ سورة ق: مكيّة

أخرج الحاكم وغيره: أنّ قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ»[٤] نزلت بالمدينة، ردّاً على مزعومة يهوديّة، قالوا: إنّ الله استراح يوم السبت بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام من يوم الأحد الى يوم الجمعة[٥]. وزاد في المجمع عن الحسن الى قوله «وَقَبْلَ الْغُرُوب»[٦].

قلت: أمّا نزولها ردّاً على تلك المزعومة الباطلة فنعم، وأمّا أنّها نزلت بالمدينة فلا! وذلك لأنّ العرب ـ كما سبق مراراً ـ كانوا على اتصال دائم بأهل الكتاب،

---

(١) الدرالمنثور: ج٦ ص٤١. وتفسير الطبري: ج٢٦ ص١٣.

(٢) مجمع البيان: ج٩ ص٨٧.

(٣) الاحقاف: ٣٥. الإتقان: ج١ ص١٦.

(٤) ق: ٣٨.

(٥) الدرالمنثور: ج٦ ص١١٠. والإتقان: ج١ ص١٦.

(٦) ق: ٣٩.

وربّما كانوا يأخذون منهم تعاليم أو معارف ممّا يخصّ خلق السماوات والأرض، فكانت مشهورة بين العرب المشركين، فهذا الردّ ـ لو صحّ أنه ردّ ـ لايدلّ على أنّه نزل بالمدينة! فلعلّ الرواية القائلة بأنّها نزلت في اليهود، إنّما تعني ماذكرنا، أي نزلت في تعاليم كانوا بثّوها بين العرب.

والشاهد على أنّ الآية مكيّة: ماجاء تفريعاً عليها: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ...» التي هي من آيات الصفح المكيّة، والتي نسخت فيما بعد.

٣٣ـ سورة النجم: مكيّة

استثني منها قوله: «... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ»[١].

أخرج الواحدي عن ثابت بن الحرث الأنصاري، قال: كانت اليهود تقول ـ اذا هلك لهم صبيّ صغيرـ: صدّيق. فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: كذبوا، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أُمّه إلا انّه شقيّ أو سعيد، فأنزل الله عند ذلك: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ...»[٢].

قلت لو صحّت الرواية فلا دلالة فيها على نزول الآية بالمدينة، فلعلّ قولة اليهود ـ وهم يبثّون تعاليمهم الفاسدة بين العرب ـ بلغت الرسول (صلى الله عليه وآله) وهو بمكة، فنزلت الآية بها!

لكن الرواية المذكورة لامساس لها بفحوى الآية رأساً، لأنّ قوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ...» تعليل لقوله: «واسِعُ الْمَغْفِرَةِ».

يعني: إنّ هذا الإنسان مفطور على اقتراف مطاليب أرضيّة سافلة وفقاً لفطرته البشريّة المتركّبة من نزعات ورغبات، والله أعلم بذلك، ومن ثم عهد

---

(١) النجم: ٣٢.

(٢) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ٨٩. والدرالمنثور: ج ٦ ص ١٢٨.

على نفسه الغفران، رحمة بهذا الإنسان ورأفة بموقفه الخاصّ تجاه رغباته ونزغاته.

* * *

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ...» الى تمام الآيات التسع[١].

قيل: نزلت في رجل اتى النبي (صلى الله عليه وآله) عند خروجه الى غزاة، يطلب مركباً وسلاحاً فلم يجد، فلقي صديقاً له فقال: أعطني شيئاً. فقال: أعطيك بكري هذا على أن تتحمّل بذنوبي، فقال: نعم. فنزلت الآيات[٢].

لكن الآيات لا تنطبق على فحوى القصة في شيء وإنّما نزلت في صنديد من صناديد قريش في تفصيل ذكره أبوجعفر الطبري ،فراجع[٣].

٣٤ـ سورة القمر: مكيّة

استثني منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»[٤] زعموها نزلت يوم بدر[٥].

والصحيح: أنّها وعد بظفر المسلمين فيما يأتي، فتحقّق يوم بدر[٦].

الثانية والثالثة: قوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ. فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مليك مُقْتَدِرٍ»[٧].

ولم يذكر المستثني سبباً لاستثنائهما! كما لاوجه له بعد ملاحظة وحدة السياق، وذلك الانسجام الوثيق.

---

(١) النجم: ٣٣ـ ٤١.

(٢) الدرالمنثور ج٦ ص١٢٨.

(٣) جامع البيان: ج٢٧ ص٤١ـ ٤٢.

(٤) القمر: ٤٥.

(٥) لباب النقول بهامش الجلالين: ج٢ ص٩٠.

(٦) مجمع البيان: ج٩ ص١٩٤.وراجع الإتقان: ج١ ص١٧ و٣٦. وتفسير الطبري: ج٢٧ ص٦٥.

(٧) القمر: ٥٤ـ ٥٥.

وجاء في المصحف الأميري: استثناء الآيات رقم: ٤٤ و٤٥ و٤٦. ولعله اشتباه في الرقم اثبتوه من غير تحقيق.

٣٥ـ سورة الواقعة: مكيّة

استثني منها قوله تعالى: «ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلينَ.وَثُلَّةٌ مِنَ الأَخِرينَ»[١] ولعلّه لمارواه ابن مسعود من رؤيا رآها رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقصّها على أصحابه ثم قرأ عليهم الآيتين[٢] وهذه القصة كانت بالمدينة.

لكن قراءته (صلى الله عليه وآله) لا تدلّ على نزولها حينذاك.

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «فَلاَ أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ. وإنَّهُ لَقَسمٌ لَوتَعْلَمونَ عَظِيمٌ. انَّهُ لَقُرْآنٌ كَريمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُون. لاَيَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ. تَنزيلٌ مِن رَبِّ الْعَالِمينَ. أَفَبِهَذا الْحَديث أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»[٣].

لما رواه مسلم والحاكم وغيرهما: أنّ اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أُصيبوا بجدب أو نفدت مياههم في سفر من الأسفار، أو في غزوة تبوك، فشكوا إليه فقام (صلى الله عليه وآله) وصلّى ركعتين ثم دعاالله، فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم، فجعل بعض المنافقين يسرّ الى بعضهم: إنّما مطرنا بنوء كذا، فنزلت الآيات[٤].

غير أنّ الآيات تأبى الانطباق على هذه القصة، وأنّها ردّ على ناكري القرآن وحياً من الله العزيز الحميد، ولا مساس لها بقضيّة الأنواء، لافي ظاهر الآيات ولا في فحواها. كما أنّ انسجام الآيات سبقا ولحوقا ذلك الانسجام البديع يجعل من قبول الرواية المذكورة مستحيلا.

---

(١) الواقعة: ٣٩ـ ٤٠. الإتقان: ج١ ص١٧.
(٢) مجمع البيان: ج٩ ص٢١٩.
(٣) الواقعة: ٧٥ـ ٨٢.
(٤) اسباب النزول بهامش الجلالين: ج٢ ص٩٢ـ ٩٣

٣٦ـ سورة الملك: مكيّة

روي عن ابن عباس: أنزلت تبارك الملك في أهل مكة إلّا ثلاث آيات[١].

قلت: ليس معنى هذا الكلام: أنّها نزلت بمكة غير ثلاث آيات نزلن بغيرها! وذلك لأنّه قال: في أهل مكّة، ولم يقل: في مكة أو بمكة!

بل المعنى: أنّ هذه السورة نزلت تقريعاً وتشنيعاً بأهل مكة أي المشركين، فكلّ آياتها تهديد وتوعيد بشأنهم، غير ثلاث آيات تخصّ المؤمنين: أُولاها قوله تعالى: «إِنَّ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...». والثانية قوله: «هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ...» والثالثة قوله: «قُلْ هُوَ الرَّحمانُ آمَنَّا بِهِ...»[٢].

فالصحيح ـ كما في حديث ابن خديج ـ: أنّها نزلت جملة واحدة بمكة[٣].

٣٧ـ سورة القلم: مكيّة

حكى السخاوي في جمال القرّاء: استثناء قوله: «إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ـ الى قوله ـ: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»[٤] سبعة عشرة آية. وقوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ـ الى قوله ـ: فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحينَ»[٥] ثلاث آيات. فهذه عشرون آية زعموها نزلت بالمدينة وزاد في المجمع الآية رقم: ٥١ والآية رقم: ٥٢[٦].

أخرج ابن أبي حاتم وابن جريح: أنّ أباجهل قال يوم بدر: خذوهم أخذاً، فاربطوهم في الحبال، ولا تقتلوا منهم أحداً، فنزلت: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ...» الخ[٧].

---

(١) الدرالمنثور: ج٦ ص٢٤٦.
(٢) الملك: ١٢ و١٥ و٢٩.
(٣) الدرالمنثور: ج٦ ص٢٤٦.
(٤) القلم: ١٧ـ ٣٣.
(٥) القلم: ٤٨ـ ٥٠.
(٦) الإتقان: ج١ ص١٧. ومجمع البيان: ج١٠ ص٣٣٠.
(٧) الدرالمنثور: ج٦ ص٢٥٣.

ولكن لامناسبة ظاهرة بين كلام أبي جهل هذا وفحوى الآيات المذكورة، ليكون الداعي لنزولها!

والصحيح: أنّها نزلت بشأن المشركين عموماً، انسجاماً مع بقية آيات السورة، وهكذا فسّرها العلّامة الطبرسي وأبوجعفر الطبري[(١)].

وأمّا قوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ...» الخ فهي من آيات الصفح المكيّة بلا ريب، وماندري ماوجه هذا الاستثناء الغريب؟!

٣٨ـ سورة المزّمل: مكيّة

استثني منها قوله: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ـ الى قوله ـ: وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً»[(٢)].

حكاه الاصبهاني[(٣)] لكن الآيتين تصبير للنبيّ (صلى الله عليه وآله) تجاه أذى المشركين، وتوعيد بهم، فهما من آيات الصفح المكيّة، ولاوجه لعدهما مدنيّتين.

* * *

وحكى ابن الغرس استثناء قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ـ الى قوله ـ: إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»[(٤)].

قال جلال الدين: ويردّه ماأخرجه الحاكم: أنّه نزل بعد نزول صدرالسورة بسنة، وذلك حين فرض قيام الليل في أوّل الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس[(٥)] وهكذا أخرج عبدبن حميد عن عكرمة، قال: لبث المسلمون بعد نزول: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ....» سنة فشقّ عليهم وتورّمت أقدامهم، حتى نسختها آخر السورة: «فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»[(٦)].

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٣٣٦. وجامع البيان: ج٢٩ ص١٩.
(٢) المزمل: ١٠ـ ١١.
(٣) الإتقان: ج١ ص١٧.
(٤) المزمل: ٢٠.
(٥) الإتقان: ج١ ص١٧.
(٦) الدرالمنثور: ج٦ ص ٢٨٠.

قلت تمسّك القائل بمدنيّة الآية، بأنّ الصلاة والزكاة لم تفرضا بمكة[١] وهو استدلال غريب، لأنّ الصلاة هي أُولى فريضة فرضت بمكة[٢] أمّا الزكاة فليست هي الزكاة المفروضة بحدود وأنصبة مقررة، وإنّما هي مطلق التصدّق الذي كان واجباً حينذاك، كما في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزكَاةِ فَاعِلُونَ»[٣] وقوله: «الَّذِينَ لاَيُؤْتُونَ الزكاةَ وَهُمْ بِالأخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ»[٤].

نعم جاءت تفاصيل حدودها وأحكامها بالمدينة، أمّا أصلها فكانت واجبة بمكة بلا شك.

وليته تمسّك بقوله: «وَآخرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ» والقتال لم يشرّع أصلا إلّا بالمدينة. لكنّه على تقدير أن يراد بالقتال: هو مايقع فعليّاً، لاماسيفرض وسيقع بعد ذلك! والاحتمال الثاني أوجه، نظراً الى أنّه تعالى- في هذه الآية- يذكر أسباب رفع ذلك التكليف الأوّل الشديد وتبديله الى تكليف آخر خفيف. ومن تلك الأسباب تشريع القتال بعدئذ، من غير أن يكون هنا دليل صريح على إرادة فعليّته حينذاك.

٣٩- سورة المرسلات: مكيّة

قالوا باستثناء: قوله: «وَإذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَيرْكَعُونَ»[٥].

قال مقاتل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالصلاة، فقالوا: لاننحني، فإنّ ذلك سبّة علينا[٦] وثقيف أسلمت بالمدينة.

لكن وجه الآية وسياقها مع المكذّبين، وهم مشركو العرب، ولامعنى لأن يكون هذا الموضع من السورة خلواً من هذه الآية الى أواخر سني الهجرة ثم تكتمل. إذ ذلك يخلّ بفصاحة السورة ويخلخل من نظمها المنسجم.

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٨٢.
(٢) راجع سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٥٩.
(٣) المؤمنون:
(٤) فصلت: ٧.
(٥) المرسلات: ٤٨.
(٦) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤١٩.

على أنّ الركوع هنا بمعنى: الخضوع لله والانقياد التامّ لأوامره ونواهيه، لا الركوع المصطلح جزء من الصلاة. وهذا هو اختيار أبي جعفر الطبري[١]. كما جاء بهذا المعنى قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ»[٢] راجع: تفسير شبر في هذا الموضع قال: أو أُريد به الخضوع والانقياد للحقّ. وقال-في سورة المرسلات- بصورة جزميّة: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا: سلّموا واخشعوا أو انقادوا[٣]. إذن فلامساس للآية بقضيّة إسلام ثقيف، بل هي عامّة حكاية عن صمود المشركين أمام الحقّ الصراح.

٤٠ ـ سورة المطفّفين: مكيّة

قالوا: نزل صدرها في المدينة أوّل قدوم رسول الله (صلى الله عليه وآله) إليها فقد كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله (عزّوجلّ) : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ- الى تمام الست آيات- فأحسنوا الكيل بعد ذلك[٤].

وقد تقدّم: أنّه من المستبعد جداً مواجهة الرسول (صلى الله عليه وآله) للأنصار بهكذا آيات ذوات لهجة عنيفة، في أوّل لقياه معهم في دارهم التي آووه إليها، وشمّروا ساق الجدّ لمؤازرته ونصرته، عاهدوه على أنفسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

والصحيح: أنّها بأجمعها مكيّة[٥].

وكانت هناك استثناءات من سور مكيّة تركناها خوف الإطالة، ولعدم الاستناد الى حجّة مقبولة. كالاستثناء من سورتي الليل والماعون ذكرهما السيوطي في الإتقان.

---

(١) راجع جامع البيان: ج٢٩ ص١٥٠. (٢) البقرة: ٤٣.

(٣) تفسير شبر: ص٤٦ و٥٤٥.

(٤) الإتقان: ج١ ص١٧. والدرالمنثور: ج٦ ص٣٢٤. ومجمع البيان: ج١٠ ص٤٥٢.

(٥) راجع الصفحة:١٥٤.

استثناءات من سور مدنية:

تقدم: استبعاد أن تبق آية غير مسجّلة في سورة مكيّة حتى تنزل سورة مدنيّة بعد فترة طويلة أم قصيرة، فتسجّل فيها. وهكذا استبعده ابن حجر في شرح البخاري وغيره[١].

ولكن مع ذلك فقد قالوا في كثير من آيات مسجّلة في سور مدنيّة: أنّهنّ مكيّات. ونحن نذكر هنّ تباعاً حسب ترتيب السور في المصحف الشريف، ونعقّبها بما نرتأيه من رأي.

١ـ سورة البقرة: مدنيّة

استثني منها ثلاث آيات:

الأُولى: قوله تعالى: «فَاعْفُوا واصْفَحُوا حتّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ»[٢].

زعموها نزلت بشأن المشركين أيام كان المسلمون بمكة ضعفاء.

لكن صدر الآية: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ...» شاهد نزولها بشأن أهل الكتاب، أوائل هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى المدينة، ولم تقو شوكة الإسلام بعد، ثم نسخت بقوله: «قَاتِلُوْا الَّذينَ لاَيُؤْمِنُونَ باللهِ ـ الى قوله ـ: مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ حتّىٰ يُعْطُوا الْجِزيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»[٣] راجع الطبرسي، بشأن نزول الآية ونسخها بآية براءة[٤].

الثانية: قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ...»[٥].

زعموها ـ أيضاً ـ نزلت بشأن صمود المشركين تجاه قبول الحقّ، نظيرة قوله: «إنَّكَ لا تَهدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ»[٦].

---

(١) تقدم ذلك في الصفحة: ١٦٩.
(٢) البقرة: ١٠٩.
(٣) التوبة: ٢٩.
(٤) مجمع البيان: ج ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥. والدرالمنثور: ج ١ ص ١٠٧.
(٥) البقرة: ٢٧٢.
(٦) القصص: ٥٦.

لكن الآية نزلت بشأن إنفاق المسلمين عن الكفّار، حيث امتنعوا من ذلك زعما أنها محرّمة عليهم وهم على غير دينهم، فنزلت[١].

الثالثة: قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ...»[٢].

قيل: هي آخر آية نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو بمنى في حجّة الوداع[٣]. وعلى الفرض فهي مدنيّه على ماسلف.

٢ـ سورة النساء: مدنيّة

قيل: إلّا قوله تعالى: «إِنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أن تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...»[٤].

وقوله: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكلالة...»[٥].

فإنّهما نزلتا بمكة...!

ذكر ذلك الطبرسي ولم يذكر حجّة ولا القائل بذلك[٦].

ولعلّ الوجه في الآية الأُولى ماقيل: إنّها نزلت بعد الفتح بمكة، خطاباً مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) بردّ مفتاح الكعبة الى عثمان بن طلحة حين قبض منه المفتاح يوم الفتح وأراد أن يدفعه الى العباس عن ابن جريح[٧].

لكن العبرة بمكيّة الآية نزولها قبل الهجرة كما سبق. على أنّ الآية لا تنطبق على القصّة المزعومة، لأنّ دفع المفتاح الى النبيّ (صلى الله عليه وآله) لم يكن برسم أمانة واستيداع! وإلّا فحاشى النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن يخون الأمانات حتى ينبّهه الله بنزول آية.! والطبرسي أيضاً رفض هذا التنزيل...

واما الآية الثانية فلم نعرف السبب ولا احتماله. وقد ذكر الطبرسي في

(١) مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٨٥. والدرالمنثور: ج ١ ص ٣٥٧.
(٢) البقرة: ٢٨١.
(٣) الدرالمنثور: ج ١ ص ٣٧٠.
(٤) النساء: ٥٨.
(٥) النساء: ١٧٦.
(٦) مجمع البيان: ج ٣ ص ١.
(٧) مجمع البيان: ج ٣ ص ٦٣.

سبب نزولها وجوهاً لا تصلح سنداً لهذا الاستثناء[١]. ولهجة الآية تنادي بمدنيّتها، لأنّها من آيات الأحكام.

غير أنّ هذا الاستثناء ينظر الى المصطلح الثاني المتقدّم. وأمّا على المصطلح الأوّل المشهور - مانزل بعد الهجرة فهو مدنيّ حتى ولوكان نزوله بمكة - فالآية مدنيّة[٢].

٣- سورة المائدة: مدنيّة

استثني منها قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخشون الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلاَمَ دِيناً»[٣].

قيل: نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو واقف بعرفات في حجّة الوداع[٤] وهكذا زعمه أبوعبدالله الزنجاني في تاريخ قرآنه[٥].

لكن أبا عبدالله الصادق (عليه السلام) قال: نزلت الآية بعد أن نصب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) علماً للأُمّة يوم غدير خم، منصرفه عن حجّة الوداع، فأنزل الله يومئذ: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ»[٦] وهكذا سجّلها ابن واضح اليعقوبي، قال: وكان نزولها يوم النّص على أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) بغدير خم. قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة[٧] وقد ذكرها الحافظ الحسكاني بعدّة طرق[٨].

ثم انّ نزول الآية بعرفات أو بغدير خم لايجعلها مستثناة من المدنيّات، وفق المصطلح المشهور المتقدّم.

---

(١) مجمع البيان: ج٣ ص١٤٩.

(٢) تقدم ذلك في الصفحة: ١٢٩.

(٣) المائدة: ٣.

(٤) الدرالمنثور: ج٢ ص٢٥٧.

(٥) تاريخ القرآن لابي عبدالله الزنجاني: ص٢٧.

(٦) تفسير التبيان: ج٣ ص٤٣٥.

(٧) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٣٥.

(٨) شواهد التنزيل: ج١ ص١٥٦- ١٦٠.

٤ـ سورة الانفال: مدنيّة

استثني منها قوله: «وَإِذ يَمْكُرُ بكَ الَّذينَ كَفرُوا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»[١].

قالوا: إنّها نزلت في قصة دارالندوة اجتمعت فيها قريش للتآمر على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفشلت مؤامرتهم بهجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومبيت علي (عليه السلام) على فراشه[٢].

لكن نزول الآية بشأن تلك القصة لايستدعي نزولها حينذاك ، ولاسيّما بعد ملاحظة أداة ظرف الماضي «إذ» في صدر الآية حكاية عن أمر سابق!

وفي المصحف الأميرى وتاريخ الزنجاني: استثناء الآيات: ٣١الى ٣٦. نظراً لأنّها نزلت بشأن مشركي قريش: لكنّها كالآية المذكورة حكاية لأمر سابق، ولا دليل على نزولها حينذاك . وقوله: «وَمَا كَانَ اللهُ لِيعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ معَذِّبَهُم وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»[٣] أيضاً حكاية عن ماض وإخبار عن حال، أي لم يعذّبهم الله فيما قبل، بسبب وجودك بين أظهرهم ولا يعذّبهم الآن ـ بعد خروجك ـ لوجود جماعة من المؤمنين لم يستطيعوا الخروج وهم على عزم الهجرة، فرفع الله العذاب عن مشركي مكة لحرمة استغفار هؤلاء المؤمنين الباقين بين أظهرهم[٤].

هذا... ونقل جلال الدين عن قتادة أنّه قال: نزلت الآية «وَاذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذينَ كَفروا...» بمكة. ثم قال: ويردّه ماصحّ عن ابن عباس أنّ هذه الآية بعينها نزلت بالمدينة[٥] وقد أخرجه في اسباب النزول عن ابن عباس: أنّ الآية نزلت بعد مقدمه (صلى الله عليه وآله) المدينة[٦].

---

(١) الانفال: ٣٠.

(٢) مجمع البيان: ج ٤ ص٥٣٧.

(٣) الانفال: ٣٣.

(٤) مجمع البيان: ج ٤ ص٥٣٩.

(٥) الإتقان: ج ١ ص١٥.

(٦) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ١٧٠.

واستثني أيضاً ـ قوله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[١]. وصحّح هذا الاستثناء ابن العربي وغيره[٢] وذلك لما أخرجه أبومحمد من طريق طارق عن عمربن الخطاب، قال: أسلمت رابع أربعين فنزلت «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». وهكذا روي عن ابن عباس[٣].

لكن يعارضه ماروي عن الكلبي، قال: نزلت هذه الآية بالبيداء في غزوة بدر[٤] وقال الواقدي: نزلت بالمدينة في بني قريظة وبني النضير[٥].

هذا... وسياق الآية يشهدبمدنيّتها، نزلت في إبان تشريع القتال، سواء أمع المشركين أم مع أهل الكتاب. فالآية يسبقها قوله تعالى: «الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ...» «فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم..». «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ». «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...» «وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا...». «وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ...»[٦].

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ ...».

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...»[٧].

انظر الى هذا السياق المنسجم بعضه مع بعض انسجاماً يجعلنا على ثقة من وحدة مترابطة نزلت جملة واحدة.

وأيضاً: لامعنى لكفاية أربعين رجلاً أسلموا بمكة وهم على ضعف ماداموا فيها. الأمر الذي يؤكّد من نزول الآية بالمدينة حيث جعلت تزداد شوكة المؤمنين وتقوى جانبهم مع الأيّام والساعات، فكانت فيهم الكفاية والكفاءة.

---

(١) الانفال: ٦٤.
(٢) الإتقان: ج ١ ص١٥.
(٣) الدرالمنثور: ج ٣ ص ٢٠٠.
(٤) مجمع البيان: ج ٤ ص٥٥٧.
(٥) تفسير التبيان: ج ٥ ص ١٥٢.
(٦) الإنفال: ٥٦ و٥٧ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٦٢.
(٧) الإنفال: ٦٤و٦٥.

وهكذا فسّرها أبوجعفر الطبري، قال: يقول لهم جلّ ثناؤه: ناهضوا عدوّكم فإنّ الله كافيكم أمرهم ولايهوّلنّكم كثرة عددهم وقلّة عددكم فإنّ الله مؤيّدكم بنصره. وذكر لهذا المعنى روايات، ولم يتعرّض لشيءٍ من روايات نزولها بشأن إسلام عمربن الخطاب[1].

٥ـ سورة براءة: مدنيّة

استثني منها أربع آيات:

الأُولى والثانية: قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلنَّبِي وَالذينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا لِلمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبىٰ... الى قوله: إنَّ إبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ»[2].

قالوا: نزلت بشأن أبي طالب عند ما حضرته الوفاة، دخل عليه النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبي اميّة. فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): أي عم، قل: لا إله إلّا الله، أحاجّ لك بها عندالله. فقال القرشيان: يا أباطالب، أترغب عن ملّة عبدالمطلب؟! فكانا كلّما عرض عليه النبيّ (صلى الله عليه وآله) كلمة الشهادة أعادا كلامهما. فكان آخر كلام أبي طالب: أنّه على ملّة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله) عند ذلك: لأستغفرنّ لك مالم انهَ عنك. فنزلت الآية... كما ونزلت «إنَّك لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ الله يَهْدِى مَنْ يَشاءُ»[3].

وقالوا ـ أيضاً ـ: إنّها نزلت بشأن والدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد أن يستغفر لأبيه، وهكذا استجاز ربّه في زيارة قبر امّه فأجازه، فبداله أن يستغفر لها فنزلت الآية تنهاه. ! فما رُئي رسول الله (صلى الله عليه وآله)

---

(١) جامع البيان: ج١٠ ص٢٦.

(٢) براءة: ١١٣ـ ١١٤.

(٣) القصص: ٥٦-الدرالمنثور: ج٣ ص٢٨٢. وصحيح البخاري: ج٢ ص١١٩ وج٦ ص٨٧.

أكثر باكياً من يومه ذاك [١].

أقول: قاتل الله العصبيّة الجاهليّة: إنّها نزعةً أموية ممقوتة عمدت الى الحطّ من كرامة بني هاشم والى تشويه جانب أقرباء النبيّ (صلى الله عليه وآله) لتجعل من أبيه وامّه مشركين، ويموت أبوطالب كافراً، وهوالحامي الأوّل والمدافع الوحيد في وقته عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد قال تعالى: «وَالَّذينَ آوَوا وَنَصَروا اوْلئكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً» [٢] ولاشكّ أنّ أباطالب كان أوّل من آواه ونصره ووقف دونه بنفسه ونفيسه. والآية الكريمة شهادة عامّة تشمله قطعياً [٣].

ويكفي دليلاً على إيمانه الصادق، قوله في قصيدته التي يحمي بها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مهدّداً قريش أجمع، قال فيها:

لقد علموا أنّ ابننا لامكذّب لدينا ولايعني بقول الأباطل

فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصر عنه سورة المتطاول

حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا والكلاكل

فأيّده ربّ العباد بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطل [٤]

هذا... وأمّا نحن الإماميّة فإنّ اصول معتقداتنا تقضي بلزوم طهارة آباء النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) وامّهاتهم، لم يتلوّثوا بدنس شرك قط، فلم يزالوا ينحدرون من صلب شامخ الى رحم طاهر. كما جاء في الزيارة السابعة للإمام أبي عبدالله الحسين (عليه السلام): «أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها».

وفي حديث ابن عباس عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): لم يزل الله

---

(١) جامع البيان: ج ١١ ص ٣١.

(٢) الانفال: ٧٤.

(٣) راجع حق اليقين للسيدعبدالله شبرج ١ ص ١٠٠.

(٤) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٩٩.

ينقلني من الأصلاب الطيّبة الى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذّباً...[١].

والى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى: «وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»[٢] أي لم تزل تنتقل من صلب مؤمن موحّد الى صلب مؤمن موحّد. قال مجاهد: من نبيّ الى نبيّ حتى اخرجت نبيّاً[٣]. قال العلّامة الطبرسي: وقيل: معناه: وتقلّبك في اصلاب الموحّدين من نبيّ الى نبي حتى اخرجك نبيّاً عن ابن عباس في رواية عطا وعكرمة. وهو المروي عن أبي جعفر الإمام محمدبن علي الباقر، وأبي عبدالله الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) قالا: في أصلاب النبيّن نبيّ بعد نبيّ حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم (عليه السلام)[٤].

* * *

والصحيح في سبب نزول الآية: ماذكره أبوعلي الطبرسي: أنّ المسلمين جاؤوا الى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يطلبون إليه الاستغفار لموتاهم الذين مضوا على الكفر أو النفاق، قالوا: الا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا في الجاهلية، فنزلت الآية[٥].

وممّا يدلّنا على صحّة هذه الرواية وبطلان الرواية الأُولى: أنّ الآية الكريمة جاءت بلفظ «مَا كَانَ لِلنبيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...» فلوصحّت تلك الرواية لماكان هناك سبب معقول لإرداف غيره (صلى الله عليه وآله) من المؤمنين معه في هذا الإنكار الصارم.

وأخيراًفإنّ هذه الآية والآية رقم: ٨٠ والآية رقم: ٨٤ نزلن جميعاً على نمط واحد، والسبب شيء واحد: هو ماكان المؤمنون على رجاء أن يترحّم على آبائهم وامّهاتهم وأقربائهم الذين ماتوا على الكفر، ملتمسين من النبيّ (صلى الله عليه

---

(١) الدرالمنثور: ج٣ ص٢٩٤.
(٢) الشعراء: ٢١٩.
(٣) الدرالمنثور: ج٥ ص٩٨.
(٤) مجمع البيان: ج٧ ص٢٠٧.
(٥) مجمع البيان: ج٥ ص٧٦.

وآله) أن يساعدهم على هذه الأمْنية، فنزلت الآية لتقطع أملهم في ذلك إذا كانوا علموا من آبائهم البقاء على الشرك حتى الموت: «إنَّ اللهَ لاَيَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»[١]. ولتوضيح أكثر راجع تفسير الآيتين[٢].

* * *

الثالثة والرابعة: قوله تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ. فإن تَوَلَّوافَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إلهَ إلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»[٣]. وهما آخر سورة براءة.

قال ابن الغرس إنّهما مكيّتان.

قال جلال الدين: وهذا غريب، كيف وقدورد أنّهما آخر مانزل[٤].

قلت: لم يثبت نزول الآيتين بمكة، ولاذكر قائله دليلاً أو سنداً لذلك. فثبت الآية في سورة مدنيّة ـ ولاسيّما هي آخر السور المدنيّة ـ هوبذاته دليل على نزولها بالمدينة، حيث الأصل الأولى في الآيات هوالثبت الطبيعي تباعاً حسب النزول. مضافاً الى ماورد في سبب نزولها: جاءت جهينة تسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ـ أوّل قدومه المدينة ـ عهداً يأتمنون اليه، فنزلت الآيتان[٥]. كماروي أنّهما آخر الآيات القرآنية نزولاً بالمدينة[٦].

٦ ـ سورة الرعد: مدنيّة

أخرج أبوالشيخ عن قتادة، قال: سورة الرعد مدنيّة إلّا قوله تعالى: «وَلا

---

(١) النساء: ٤٨ و١١٦.

(٢) تفسير الطبري: ج١٠ ص١٣٧ و١٤١. ومجمع البيان: ج٥ ص٥٤ و٥٦. والدرالمنثور: ج٣ ص٦٤ و٦٦.

(٣) براءة: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤) الإتقان: ج١ ص١٥. والدرالمنثور: ج٣ ص٢٩٦.

(٥) الدرالمنثور: ج٣ ص٢٩٧.

(٦) نفس المصدر ومجمع البيان: ج٥ ص٨٦

يَزالُ الَّذينَ كَفروا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُالله...»[1].

وذكر الطبرسي استثناء قوله: «وَلَوْ أَنّ قُرآناً سُيِّرتْ بِهِ الجبالُ» ـ الى آخر الآية -والتي بعدها[2].

لكن الآية تشنيع بموقف المشركين المتأرجح وإرعاب لهم، كما هي تبشير بفتح للمسلمين قريب، فهي لأن تكون من تتمّة آيات سابقة نزلت في صلح الحديبيّة[3] أرجح. وعن عكرمة: أنّها نزلت بالمدينة في سرايا رسول الله (صلى الله عليه وآله) والقارعة هي السريّة كانت تدوّخهم. والوعد هوالفتح[4].

٧ـ سورة الحج: مدنيّة

استثني منها قوله: «هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا...»[5].

قال جلال الدين: الى تمام الآيات الثلاث فإنّهنّ نزلن بالمدينة[6].

قلت: وعلى ذلك فينبغي الانتهاء الى الآية رقم: ٢٢. بل الى الآية رقم: ٢٤ ستّ آيات، نظراًللانسجام الوثيق بينهنّ بمالايمكن التفكيك.

لكن لاسند لهذا الاستثناء، ومن ثم فالقول به غريب. مضافاً الى ماورد متواتراً أنّها نزلت بشأن ثلاثة من المؤمنين هم: حمزة بن عبدالمطلب، وعبيدةبن الحارث، وعلي بن أبي طالب، تبارزوا ثلاثةمن الكفّار، هم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة. قال علي (عليه السلام): أنا اوّل من يجثو في الخصومة

---

(١) الرعد: ٣١.
(٢) الإتقان: ج١ ص١٥. ومجمع البيان: ج٥ ص٢٧٣.
(٣) راجع مجمع البيان: ج٦ ص٢٩٢.
(٤) جامع البيان: ج١٣ ص١٠٥.
(٥) الحج: ١٩.
(٦) الإتقان: ج١ ص٩.

على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة[١]. فالآية نزلت متأخرة عن وقعة بدر، أو نزلت ببدر[٢].

* * *

واستثني ـ أيضاً ـ قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ... الى قوله: عَذابُ يَوْمٍ عقيمٍ»[٣] الآيات الاربع.

أخرج ابن المنذر عن قتادة: أنّهنّ مكيّات[٤]. قالوا: نزلن بمكة بشأن قصة الغرانيق[٥].

وقد زيّفنا حديث الغرانيق، وأنّه حديث مفتعل، وضعته الزنادقة للتشويه على سمعة القرآن ورسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)[٦].

والآية إشارة الى البدع التي تنتاب شرائع الأنبياء على أيدي المحرّفين، لكنّه تعالى يحفظ دينه على أيدي علماء ربانيّين في كلّ عصر، ينفون بدع المبطلين كما في الحديث الشريف[٧]. وتلك البدع هي فتنة للذين في قلوبهم مرض.

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: أنّ الآيات نزلن بين مكة والمدينة! ولم يعرف لهذا القيد سبب معقول أو منقول!

٨ـ سورة محمد (صلى الله عليه وآله): مدنيّة

استثني منها قوله: «وكأيّن منْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتي أَخْرَجَتْكَ

---

(١) صحيح البخاري: ج٦ ص١٢٣ و١٢٤. وصحيح مسلم: ج٨ ص٢٤٦.

(٢) الدرالمنثور: ج ٤ ص٣٤٨ـ ٣٤٩. وتفسير الطبري: ج١٧ ص٩٩.

(٣) الحج: ٥٢ـ ٥٥.

(٤) الدرالمنثور: ج ٤ ص ٣٤٢. وراجع البرهان: ج ١ ص ٢٠٢.

(٥) مجمع البيان: ج٧ ص ٩٠. وتفسيرالطبري: ج١٧ ص١٣١. والدرالمنثور: ج ٤ ص٣٦٦.

(٦) تقدّم ذلك في صفحة: ٨٤.

(٧) سفينة البحار: ج ١ ص٥٥.

أهْلَكْناهُمْ فَلَاناصِرَ لَهُمْ»[١].

قال السخاوي في جمال القرّاء: قيل إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لما توجّه مهاجراً الى المدينة وقف فنظرالى مكة وبكى، فنزلت تسلية لخاطره الشريف[٢].

لكن الآية في سياقها منسجمة مع آيات قبلها وبعدها انسجاماً وكيداً، بحيث لايدع مجالا للقول بالتفكيك، فامّا أنّ الجميع مكيّة أوالجميع مدنية.

وبما أنّ السورة تقريع عنيف بالمشركين وإثارة عامّة بالمؤمنين، تمهيداً لتشريع القتال، فهي مدنيّة نزلت بهذا اللحن اللاذع، وجعلت تعدّد مساوئ ارتكبتها قريش، وتهدّدها بقتل ذريع وفشل فظيع إزاء معاندتهم مع الحقّ. والآية المذكورة أيضاً على نفس النمط. لم تخرج على قريناتها.

٩ـ سورة الحجرات: مدنيّة

نسب الى ابن عباس: استثناء قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وأُنثىٰ...»[٣].

ولعلّه لمكان الخطاب مع «الناس»، على مازعمه بعضهم أنّه من دلائل مكيّة الخطاب! وقد اسبقنا أنّه لادليل في ذلك ... بدليل وقوعه في سورة البقرة «يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم»[٤].

١٠ـ سورة الرحمان: مدنيّة

استثني منها قوله: «يسألـه مَن فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ...»[٥] ولم يعرف سبب هذا الاستثناء الغريب!

---

(١) محمد: ١٣.

(٢) الإتقان: ج١ ص٢٠. والدرالمنثور: ج٦ ص٤٨.

(٣) الحجرات: ١٣.مجمع البيان: ج٩ ص١٢٨.

(٤) البقرة: ٢١.

(٥) الرحمان: ٢٩. الإتقان: ج١ ص١٧.

١١ـ سورة المجادلة: مدنيّة

استثني منها قوله: «مَا يكونُ مِن نَجوَىٰ ثَلاثَة إلَّا هُو رابعُهُمْ...»[١].

ولم يعرف السبب أيضاً.

١٢ـ سورة التحريم: مدنيّة

قال قتادة: هي الى رأس العشرة مدنيّة: والباقي مكيّ[٢].

ويردّه: أنّ الآيتين الأخيرتين هما من تتمّة المثل الذي ضربه الله، نصحاً لزوجات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد تطاولن عليه. فلو فصلناهما عن سائر آيات السورة لمابقي لهما موقع بديع.

١٣ـ سورة الإنسان: مدنيّة

استثني منها قوله: «فَاصْبرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...»[٣]. وقيل الى آخرالسورة.

قالوا: نزلت في أبي جهل[٤].

لكن الآية تفريع على آيات سبقت فلا يعقل انفكاكها عنها، على أنّ الأمر بالصبر تجاه تعسّفات المعاندين أو الجاهلين، هي خصيصة الأنبياء في جميع أدوار حياتهم التي ملؤها المكفاح والجهاد. ومن ثم قيل: الآية عامّة في كلّ عاص وفاسق وكافر[٥].

* * *

---

(١) المجادلة: ٧. الإتقان: ج ١ ص١٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الإنسان: ٢٤.

(٤) الدرالمنثور: ج٦ ص٣٠٢. ومجمع البيان: ج ١٠ ص٤٠٢ و٤١٣.

(٥) مجمع البيان: ج ١٠ ص٤١٣.

وهناك سور اخرى مدنيّة قالوا فيها باستثناءات غريبة تركناها، حيث طال بنا البحث وفيما ذكرنا كفاية لإثبات أنّ لا وقع لتلكم الاستثناءات إطلاقاً، سواء من سور مكيّة أم مدنيّة وكلّها مستندة الى حدس أو نقل ضعيف لامبرّر للاستناد إليها البتّة.

وبذلك نطوي سجل هذا البحث، والحمد لله أوّلاً وآخراً.



معرفة أسباب النزول

* قيمة هذه المعرفة وفائدتها.
* الاهتداء الى معرفة أسباب النزول.
* الفرق بين سبب النزول وشأن النزول.
* معنى قولهم: نزلت الآية في كذا.
* الفرق بين التنزيل والتأويل.
* هل يشترط في ناقل السبب حضوره المشهد؟
* العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد.
* نزل القرآن به «إياك أعني واسمعي ياجارة».
* القرآن يجري كما تجري الشمس والقمر.
* كيف الاهتداء الى معالم القرآن؟



معرفة أسباب النزول

وإذ كان القرآن ينزل نجوماً، وفي فترات متفاصلة بعضها عن بعض، ولمناسبات شتى كانت تستدعي نزول آية أو آيات تعالج شأنها، فقد اصطلحوا على تسمية تلكم المناسبات بأسباب النزول أو شأن النزول -على فرق بينهما- وهو علم شريف، وفي نفس الوقت خطير يمسّ التنزيل في صميم معناه، ويهدي المفسّر المسترشد والفقيه المستنبط الى حيث سواء السبيل.

واستيفاء هذا البحث يقتضي النظر في مسائل: قيمة هذه المعرفة وفائدته في مجال الفقاهة والتفسير!.. وكيف الاهتداء الى معرفة أسباب النزول؟.. وهل هناك فرق بين قولهم: سبب النزول، أو شأن النزول؟. والفرق بين التنزيل والتأويل، وكذا ظهر الآية وبطنها في مصطلح السلف!.. ومامعنى قولهم: نزلت الآية في كذا؟.. وهل يجب في الناقل الأوّل للسبب أن يكون حاضر المشهد؟.. وأنّ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص المورد!.. وأنّ القرآن نزل باياك أعني واسمعي ياجارة.. وانّه يجري كما تجري الشمس والقمر!.. وكيف الاهتداء الى معالم القرآن؟... وماهي الوسائل المستعملة في هذا السبيل؟... ونحو ذلك من أبحاث عامّة وشاملة..

قيمة هذه المعرفة:

لمعرفة شأن النزول دورها الخطير في فهم معاني القرآن الكريم وحلّ

معضلات التفسير في كلا مجالي الأُصول والفروع.. إنّها ترفع النقاب عن وجوه كثير من الآيات، نزلت لتعالج مشكلة في وقتها، لكنها في نفس الوقت ذات وجه عامّ تعالج مشاكل الأمّة عبرالحياة.. وربّما كان الوقوف على الحادثة الأُولى والمناسبة الأُولى التي استدعت نزولها، من خير الوسائل لكشف الإبهام عن وجه الآية، إذ فيها الإشارة لامحالة الى تلك الواقعة بالذات...

قال الواحدي: لايمكن معرفة تفسيرالآية دون الوقوف على قصّتها وبيان سبب نزولها.. وجعل السيوطي من فوائد معرفة أسباب النزول، الوقوف على المعنى وإزاحة الإشكال عن وجه الآية.. الأمرالذي لامحيد عنه بعد أن كانت الآية مرتبطة بالحادث المستدعي للنزول وناظرة إليه..

قال القشيري: بيان سبب النزول طريق قويّ في فهم معاني الكتاب العزيز...[1]. ولذلك شواهد في التنزيل:

قال تعالى: «إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِن شَعَائر الله فَمَنْ حَجَّ الْبيْتَ أوِ اعتمرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطوَّفَ بِهما ..»[2]

فقد أشكل على بعض المفسّرين هذا التعبير «لا جُنَاحَ عَلَيْهِ...» لأنّه لرفع الإثم وليس للإلزام، فالآية تكون دالة على جواز السعي بين الصفا و المروة لاالوجوب، مع انّه إجماعي.

لكن اذا ما عرفنا سبب نزولها، لم يبق مجال لهذا الإشكال.

وذلك أنّ مراسيم الحجّ والاعتمار كانت معهودة منذ العهد الجاهلي غير أنّ العرب كانوا قد لوّثوا من هذه المشاعر ببدع أبدعوها، من ذلك أنّهم كانوا قد وضعوا على الصفا صنماً على صورة رجل يقال له «أساف»، وعلى المروة صنماً آخر على صورة امرأة يقال لها «نائلة»، زعموا أنّهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين، فوضعا على الجبلين ليعتبربهما.. فلمّا طالت المدّة عبدتها العرب جهلاً

---

(١) البرهان: ج ١ ص ٢٢. والإتقان: ج ١ ص ٨٢.

(٢) البقرة: ١٥٨.

وسفهاً. فكانوا إذا طافوا بينهما مسحوهما تبرّكاً...

ثمّ لمّا جاء الإسلام وكسرت الأصنام، تحرّج المسلمون عن الطواف بينهما، زعماً انّه كان من بدع الجاهلية تقرباً الى الصنمين.. فنزلت الآية لترفع هذه الشبهة عن أذهان المسلمين [١].

قال الإمام الصادق (عليه السلام): كان المسلمون يرون أنّ الصفا والمروة ممّا ابتدع أهل الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية [٢].

وروي عنه أيضاً: أنّ ذلك كان في عمرة القضاء. وذلك أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان قد شرط عليهم أن يرفعوا أصنامهم، فتشاغل رجل من أصحابه حتى اعيدت الأصنام، فجاؤوا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسألوه عن ذلك، وقيل له أنّ فلاناً لم يطف تحرّجاً لما قد اُعيدت الأصنام.. فأنزل الله هذه الآية.. [٣].

* * *

وقال تعالى: «لَيْسَ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيمَا طَعِمُوا إذَا مَا اتَّقَوا وآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وآمَنوا ثمَّ اتّقَوا وأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنينَ» [٤].

قد يزعم زاعم أن لا بأس بتناول الخمرة إذا قوي إيمان الرجل وصلح عمله، فإنه لا يضرّه شرب المسكر قليلاً.. هكذا كان يزعم عمرو بن معدي كرب كما قيل [٥]. وقيل: هو قدامة بن مظعون [٦].

سوى أنّ الآية نزلت فيمن سلفت منه هذه الشنيعة المنكرة ثم تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، فقد عفى الله عما سلف.

* * *

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدي: ص٢٥.

(٢) مجمع البيان: ج١ ص٢٤٠.

(٣) تفسير العياشي: ج ١ ص ٧٠ ح ١٣٣.

(٤) المائدة: ٩٣.

(٥) الإتقان: ج١ ص٨٣.

(٦) التفسير والمفسرون ج١ ص ٦٠.

وقال تعالى: «وَلَيْسَ البرُّ بان تَاتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلٰكِنَّ الْبِرَّ من اتَّقىٰ وَاتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوابِهَا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»[١].

فقد خفي وجه ارتباطها مع صدر الآية «يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ للنّاسِ وَالْحَجِّ». كما خفي المقصود من هذا الاستنكار على صنيع يبدو غريباً!

أمّا إذا راجعنا سبب النزول: «أنّ الحُمس[٢] وهي القبائل الستّ العربيّة كانت إذا احرمت امتنعت من الدخول الى الخَباء أو البيوت إلّا من ظهورها، فينقبون في مؤخرتها نقباً يدخلون ويخرجون منه..»... وبذلك يرتفع الإبهام بكلا جانبيه.

* * *

وقال تعالى: «إنّما النسيءُ زيادةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الّذينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُواطِؤُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله فَيُحِلوا مَاحَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لهُمْ سوءُ أَعْمَالِهِمْ...»[٣].

كانت العرب تدين بحرمة الشهور الأربعة امتداداً لملة إبراهيم (عليه السلام). لكنّهم ربّما كان يشقّ عليهم المكث طول ثلاثة أشهر لايغزون، أو ربّما كانت الحرب على ساق فيهل أحد الأشهرالحرم، وكان يصعب عليهم ترك القتال.. ولذلك كانوا ينسئون ذلك الشهر الى وقت آخرليستمرّوا في النهب والغزو وسفك الدماء..

وهكذا كانوا ينسئون بمراسم الحج لتتوافق مع فصل الربيع كلّ عام، وكان قد وافق الحجّ قبل حجّةِ الوداع ذاالقعدة، فلمّا حجّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) في

(١) البقرة: ١٨٩.

(٢) الحُمس ـ بالضمّ فسكون ـ جمع أحمس وحمساء، بمعنى المتصلّب في دينه ومذهبه، اطلق على ستّ قبائل معروفة: قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجشم وبني عامربن صعصعة. مجمع البيان: ج ٢ ص ٢٨٤.

(٣) التوبة: ٣٧.

القابل، قال في خطبته: «ألاونّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثناعشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذوالقعدة وذوالحجّة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان...» أراد صلّى الله عليه وآله أنّ الأشهر الحرم رجعت الى مواضعها وعاد الحجّ الى ذي الحجة، وبطل النسيء...[1].

٢ ـ الطريق الى معرفة أسباب النزول

لمعرفة الصحيح من أسباب النزول طرق معهودة تعارف عليها أهل الاصطلاح، من تصحيح الإسناد أو استفاضة النقل أو تواتره، ممّا يقطع معه من صحّة الحادثة. لكن هناك وسيلة أُخرى لعلّها أدقّ وأوفق للاعتبار وأكثر اطّراداً مع ضوابط دراسة التاريخ: أن يكون المأثور من شأن النزول ممايرفع الإبهام عن وجه الآية تماماً ويحلّ مشكلة تفسيرها على الوجه الأتمّ.

على قيد أن لايكون مخالفاً لضرورة دين أو متنا فرأً مع بديهة العقل الرشيد. الأمر الذي يكفي بنفسه شاهد صدق على صحّة الحديث أيّاً كان الإسناد.

وممّا يجدر التنبّه له في هذا الباب، أنّ الطابع الغالب على أحاديث شأن النزول، هو الضعف والجهالة والإرسال، فضلاً عن الوضع والدّس والتزوير... هكذا جاء في وصف الائمة:

قال الإمام بدرالدين الزركشي: يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنّه كثير. قال الميموني: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: «ثلاث ليس لها أُصول ـ أو لا أصل لها ـ: المغازي، والملاحم، والتفسير». أي لاأصل لها معتمداً عليه. قال المحقّقون من أصحابه: يعني أنّ الغالب، انها ليس لها أسانيد صحاح متّصلة الإسناد... وإلّا فقد صحّ من ذلك كثير...[2].

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص ١٩.
(٢) البرهان: ج٢ ص ١٥٦.

قال جلال الدين السيوطي: الذي صحّ من ذلك قليل جداً، بل أصل المرفوع منه (أي المتّصل الإسناد) في غاية القلّة... وقد ذكر السيوطي في نهاية الكتاب مالا يبلغ على الثلاثمائة حديث مرفوع، مابين ضعيف وسقيم ومعضل.. والباقي مرسل لا حجيّة فيه إطلاقاً..[١].

الأمر الذي يعود لومه على السلف تساهلهم بأمر ضبط الحوادث، ومن ثمّ فإنّ رصيدنا اليوم بهذا الشأن ضئيل للغاية، ولايفي بحاجة التفسير في سوى القليل.

هذا الواحدي عمد الى جمع الشوارد من أسباب النزول، فلم يمكنه التحرّز عن الضعاف والمجاهيل ومالا حجيّة فيه. مثلاً نراه يروي كثيراً عن ابن عباس عن طريق الكلبي عن أبي صالح.. قال جلال الدين السيوطي: وأوهى طرق التفسير طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فان انضمّ الى ذلك رواية محمد بن مروان السدّي الصغير، فهي سلسلة الكذب.. وكثيراً مايخرج منها الثعلبي والواحدي..[٢].

وقال ـ عند قوله تعالى: «وَإِذَا لَقُوا الذينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا..»[٣] ـ: أخرج الواحدي والثعلبي من طريق السدّي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي وأصحابه... ثم قال: هذا الإسناد واه جداً، فإنّ السدّي الصغير كذاب وكذا الكلبي وأبوصالح ضعيف..[٤].

وعند قوله تعالى: «إنّ الله لايَسْتَحيي أن يَضْربَ مَثَلاً ما..»[٥] قال: أخرج الواحدي من طريق عبدالغني بن سعيد الثقفي... وهو واه جدّاً[٦].

وفي المطبوعة من نسخ أسباب النزول للواحدي تصحيف، ذكر الرواية عن

---

(١) الإتقان: ج ٤ ص ١٨٠ و٢١٤ـ٢٥٧.
(٢) الإتقان: ج ٤ ص ٢٠٩.
(٣) البقرة: ١٤.
(٤) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ٩.
(٥) البقرة: ٢٦.
(٦) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ١١ بالهامش.

عبدالعزيزبن سعيد[١] وليس له ذكر في كتب التراجم..

وقوله: «وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ...»[٢] نزلت رداً على اليهود في تعييرهم تحويل القبلة ـ كما تقدّم ـ قال السيوطي: ماورد من الروايات بهذا المعنى إسنادها قويّ والمعنى يساعده أيضاً فليعتمد..[٣]. قال: وفي الآية روايات أُخر ضعيفة.. منها ماارواه الواحدي وغيره عن أشعث السّمان[٤] قال: وأشعث يضعف في الحديث[٥] قال الذهبي: أشعث بن سعيد أبوالربيع السمان من الضعفاء، وقد تركه الدارقطني وغيره وضعّفه أحمد وابن معين[٦].

* * *

وهذا جلال الدين السيوطي الناقم على الواحدي اعتماده المراسيل والمجاهيل نراه قد تورّط المناكير وما خالف العقل والشرع في موارد من اختياراته في شأن النزول من كتابه «لباب النقول».

مثلاً يروي بشأن نزول قوله تعالى: «وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلّا باللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ»[٧].

من طريق البيهقي عن أبي هريرة: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) وقف على حمزة حين استشهد بأحد، وقد مُثّل به. فقال: لأُمَثّلنّ بسبعين منهم مكانك. فنزل جبرائيل بهذه الآيات[٨].

قال: وأخرج الترمذي عن أُبيّ ابن كعب، قال اصيب في أُحد من الأنصار

---

(١) اسباب النزول للواحدي: ص١٣.

(٢) البقرة: ١١٥.

(٣) لباب النقول بهامش الجلالين: ج١ ص٢٤.

(٤) اسباب النزول للواحدي: ص٢٠.

(٥) لباب النقول بهامش الجلالين: ج١ ص٢٥.

(٦) المغني للذهبي: ج١ ص٩١.

(٧) النحل: ١٢٦-١٢٨.

(٨) لباب النقول بهامش الجلالين: ج١ ص٢١٣.

أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، وقد مثّلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربينّ عليهم.. فلمّا كان يوم فتح مكّة أنزل الله هذه الآيات..

هذا مع العلم أنّ سورة النحل مكيّة، نزلت آياتها كلّها بمكة قبل الهجره. وقد ذكرنا ذلك فما سبق.

هذا.. وقد أحسّ السيوطي نفسه بالوهن المذكور،ومن ثمّ لجأ الى افتراض نزول الآيات ثلاث مرات: قبل الهجرة، وبعدها بأُحد، ثمّ يوم الفتح بمكة...[1].

* * *

ويزيد في الطين بلّة، وجود أمثال هذه الغرائب في المدوّنات الحديثية الكبرى أمثال البخاري ومسلم وغيرهما ممّا زعمه القوم أصح كتب الحديث، لكنّها رغم هذا الزعم مليئة بهكذا أساطير لا تلتئم مع قدسية الإسلام.

وقد أسبقنا الحديث عن اسطورة الغرانيق، وقصة ابن نوفل، ممّا صحّحه القوم، وهي تمسّ كرامة القران وقدسيّة مقام النبوّة... وإليك نموذجاً آخر:

قال السيوطي: وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة في مسنده والواحدي وغيرهم بسند فيه من لايعرّف، عن حفص بن ميسرة القرشي عن امّه عن امّها خولة وقد كانت خادم رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّ جرواً دخل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) فدخل تحت السرير فمات، فكث النبيّ (صلّى الله عليه وآله) أربعة أيام لاينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ماحدث في بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) جبرئيل ما يأتيني؟ فقلت في نفسي لوهيّأت البيت، فكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو. فجاء النبي (صلى الله عليه وآله) وترتعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرّعدة، فأنزل الله: «والضُّحَىٰ ـ الى قوله ـ

---

(١) الاتقان: ج ١ ص ٩٦.ولباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ٢١٤.

فَتَرْضَىٰ»[١].

قال ابن حجر ـ في شرح البخاري ـ قصّة إبطاء جبرئيل بسبب وجود جرو كلب تحت سريره (صلى الله عليه وآله) ولم يشعر به مشهورة. لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذ مردود...[٢].

قلت: هذه القصّة المزعومة مدنيّة، والسورة مكيّة بلاخلاف! غير أنّ الكذوب تخونه ذاكرته!!

* * *

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن المسيَّب، قال: لـمّا حضرت أباطالب الوفاةُ دخل عليه النبيُّ (صلى الله عليه وآله) وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبي اميّة، فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله): أي عمّ قل: لا إله إلّا الله، أحاجّ لك بها عندالله.. فقال: أبوجهل وعبدالله: يا أباطالب، أترغب عن ملّة عبدالمطلب ؟

فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله) لاستغفرنّ لكَ مالم أُنْهَ عنك .. فنزلت «مَا كانَ لِلنَّبي وَالذينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكينَ وَلَوْكَانُوا اُوْلي قُرْبى مِنْ بَعْدِ مَا تَبيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ»[٣].

ويفنّد هذه المزعومة، بل المكذوبة المفتعلة، أنّ أبا طالب رحمه الله مات قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان عضداً قويّاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أمّا آية براءة فإنّها نزلت في سنة التسع من الهجرة، أي بعد وفاة أبي طالب باثنتى عشرة سنة.. هذا فضلاً عن الدلائل الوفيرة على إسلام أبي طالب، ذكرناها في مجالها المناسب.. ولايقول بكفره إلّا ذوو الأحقاد على الإسلام والمسلمين أحقاد بدر وحنين.!

---

(١) الضحى: ١ ـ ٥. الإتقان: ج ١ ص ٩٢. ولباب النقول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) فتح الباري: ج ٨ ص ٥٤٥.

(٣) براءة: ١١٣. وصحيح البخاري: ج ٦ ص ٨٧. وج ص ١١٩.

وقد لجأ السيوطي الى افتراض نزول الآية مرّتين[١].

واسبقنا الكلام عن هذه الآية فيما قيل من استثناء آيات مكيّة من سورة براءة المدنيّة.

* * *

وأخرج البخاري عن عمربن الخطاب، قال: لماتوفي عبدالله بن أبي سلول، جاء ابنه الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصليّ عليه، فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليصلي عليه،قال عمر: فأخذت ثوبه وقلت: تصليّ عليه. وقد نهاك ربّك أن تصلي عليه ؟! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّما خيّرني الله فقال «اسْتَغْفِرْلَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْلَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفرَالله لَهُمْ..»[٢] وسأزيد على السبعين.. قال: إنّه منافق. قال: فصلّى عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأنزل الله: «وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ»[٣].

قال عمر: فعجبت بَعْدُ من جرأتي على رسول الله...[٤].

قلت: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ»[٥].

كيف يظنون بنبيّ الإسلام جهله ـ والعياذ بالله ـ بأحكام الإسلام، فيحاولوا اختلاق منقبة لابن الخطاب، وإن كانت قد تستدعي الحطّ من قداسة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمنقصة من كرامته. بل سوّلت لهم انفسهم امرأً، فصبر جميل، والله المستعان على مايصفون..

أوّلاً: النبيّ (صلى الله عليه وآله) معصوم، وكلّ أفعاله وأقواله وحتى تقريره، سنّة متّبعة، ليس لأحد ـ على الاطلاق ـ أن يعارضه فيأمره أوينهاه ممّا

---

(١) الإتقان: ج١ ص٩٥.
(٢) براءة: ٨٠.
(٣) براءة: ٨٤.
(٤) صحيح البخارى: ج٦ ص٨٥ ـ ٨٦.
(٥) سبأ: ٢٠.

يرتبط بأمر الشريعة .. إن هذا إلّا فضول وخروج عن الطاعة والاستسلام ومعاكسة صريحة مع قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ»[١].

ومن ثمّ حاول أئمّة النقد والتمحيص إنكار هذه الرواية. وقالوا: هذا وهم من الرواة.. وعلّلوا ذلك بأنّه يستلزم أن يكون عمر قد اجتهد مع وجود النصّ...[٢].

وحاول ابن حجر تصحيح الخبر والرّد على هؤلاء، لكنه أتى بما يزيد في الطين بلّة، وفي الطنبور نغمة.. انظر الى سفاسفه:

يقول: زعم غير هؤلاء أنّ عمر اطّلع على نهي خاصّ في ذلك. وقال القرطبي: لعلّ ذلك وقع في خاطر عمر، فيكون من قبيل الإلهام.. ويحتمل أن يكون فهم ذلك من نهي الإستغفار...

قال ابن حجر: وما قاله القرطبي أقرب..لأنّه لم يتقدم نهي عن الصلاة على المنافقين... بدليل أنّه قال في آخر الحديث: فأنزل الله «وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ منهم مَاتَ أَبَداً» ؟!

وثانياً: كيف علم عمر أنّ الصلاة على المنافق محرّمة في الشريعة، ولم تنزل بتحريمها آيةٌ بعدُ- كما نبّه عليه ابن حجر- أفهل يجوز أن يُلهم عمر بما لا يعرفه مبلّغ الشريعة.؟!

وقد حاول ابن حجر محاولة أُخرى في حل هذه المشكلة الثانية بمازاد وهناً في وهن وابتعاداً عن الحقيقة أكثر.

فقد أخرج عن ابن مردويه: أنّ عمر قال له (صلى الله عليه وآله): أتصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي عليه! فقال له النبيّ (صلى الله عليه وآله): أين؟ قال: قال: «اسْتَغْفِرْلَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْلَهُمْ...».

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) ذكره عنهم ابن حجر في فتح الباري: ج٨ ص٢٥٢- ٢٥٣.

قال ابن حجر: فكان عمر قد فهم من هذه الآية ماهو الأكثر الأغلب من لسان العرب، من أنّ «أو» ليست للتخيير، بل للتسوية، في عدم الوصف المذكور..

قال: وفهم عمر أيضاً من قوله تعالى: «سَبْعِينَ مَرَّةً» أنّها للمبالغة، وأنّ العدد المعيّن لامفهوم له، بل المراد نفي المغفرة لهم ولو كثر الاستغفار، فيحصل من ذلك النهي عن الاستغفار، فأطلقه..

وفهم أيضاً أنّ المقصود الأعظم من الصلاة على الميّت طلب المغفرة للميّت والشفاعة له، فلذلك استلزم عنده النهي عن الاستغفار ترك الصلاة.. قال: ولهذه الأمور استنكر على النبيّ (صلى الله عليه وآله) إرادة الصلاة على عبدالله بن أبيّ...

قال: هذا تقرير ما صدر عن عمر، مع ما عرف من شدّة صلابته في الدين...![1].

يا للعجب من عقليّة ابن حجر، كيف يتصوّر من عمر عملاقاً في فهم قضايا الدين والوقوف على مزايا اللغة، ممّا غفل عنه مثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي هو مبلّغ الشريعة وأفصح من نطق بالضاد؟!

أمثل من لايعرف الأبّ من القتّ[2] ويجهل الكثير من الآداب والسنن[3] يقوم بتأنيب ناموس الشريعة وصميم العربيّة الفصحاء؟! إنْ هذا إلّا وهم ناشئ عن عصبيّة عمياء اعاذنا الله منها!

* * *

---

(١) فتح الباري: ج٨ ص٢٥٢.

(٢) أخرج الطبري في التفسير: ج٣٠ ص٣٨ عن أنس قال: قرأ عمر سورة عبس، فلمّا أتى على هذه الآية «وَفَاكِهَةً وأبّاً» قال: عرفنا الفاكهة فما الأبّ؟.. ثم قال: انّ هذا لهو التكلّف!. وأورده ابن كثير في تفسيره: ج٤ ص٤٧٣ وصحّحه... ثمّ تعجّب من عدم فهم عمر معنى الأبّ، لأنّ الكلّ يعلم أنّه من نبات الأرض ممّا يقتات به البهائم لقوله تعالى بعد ذلك «متاعاً لكُمْ ولانعامكم» فالأبّ علف الدوابّ كالقتّ.

(٣) راجع نوادر الأثر في علم عمر: (الغدير: ج٦ ص٨٣).

وبعد.. فإذ قد عرفت قيمة ما أُسند من روايات أسباب النزول الواردة في أهم الكتب الحديثيّة، فكيف بالمقطوع والمرسل والمجهول.. الأمر الذي ينبؤك عن أصالة مالدينا من صحاح الروايات في هذا الباب... وقد صحّ كلام الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل معتمد: المغازي والملاحم والتفسير..

هذا السيوطي يخرّج لقوله تعالى: «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله»[1] خمسة أوجه: الأوّل: إنّه في تحويل القبلة وارتياب اليهود في ذلك. عن ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثاني: أن تصلي حيثما توجّهت به راحلتك. أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عمر.

الثالث: إنّه كان في سفر ليلة ظلماء فصلّى كلّ رجل على حياله لايدرون اين وجه القبلة. أخرجه الترمذي من حديث عامر بن ربيعة. وكذا الدارقطني من حديث جابر.

الرابع: لمّا نزلت «ادعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ»[2] قالوا: الى أين؟ فنزلت. أخرجه ابن جرير عن مجاهد.

الخامس: عن قتادة أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال: إنّ أخاً لكم قدمات فصلّوا عليه، فقالوا: إنّه كان لايصليّ الى القبلة.. فنزلت..

قال السيوطي ـ تعقيباً على ذلك ـ: فهذه خمسة أسباب مختلفة، وأضعفها الأخير لإعضاله. ثم ماقبله لإرساله. ثم الثالث لضعف رواته. والثاني صحيح لكنه قال: قد أنزلت في كذا، ولم يصرّح بالسبب. والأوّل صحيح الإسناد وصرّح فيه بذكر السبب فهو المعتمد..[3].

* * *

(١) البقرة: ١١٥.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) الإتقان: ج١ ص٩٣.

سبب النزول أو شأن النزول:

ما هو الفارق بين قولهم: «سبب النزول» أو «شأن النزول»؟

إن كانت هناك مشكلة حاضرة، سواء أكانت حادثة أبهم أمرها، أم مسأله خفي وجه صوابها، أم واقعة ضلّ سبيل مخرجها، فنزلت الآية لتعالج شأنها وتضع حلا لمشكلتها، فتلك هي أسباب النزول، أي السبب الداعي والعلة الموجبة لنزول قرآن بشأنها.

وهذا أخصّ من قولهم: «شأن النزول». لأنّ الشأن أعمّ مورداً من السبب ـ في مصطلحهم ـ بعد أن كان الشأن يعني: الأمر الذي نزل القرآن ـ آيةً أو سورة ـ لتعالج شأنه بياناً وشرحاً أو اعتباراً بمواضع اعتباره. كما في أكثريّة قصص الماضين والإخبار عن امم سالفين، أو عن مواقف أنبياء وقدّيسين، كانت مشوهة وكادت تمسّ من كرامتهم أو تحط من قدسيتهم، فنزل القرآن ليعالج هذا الجانب، ويبيّن الصحيح من حكاية حالهم والواقع من سيرتهم بما يرفع الإشكال والإبهام، وينزّه ساحة قدس أولياء الله الكرام.

وعليه فالفارق بين السبب والشأن ـ اصطلاحاً ـ أنّ الأول يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة. والثاني مشكلة أمر واقع، سواء أكانت حاضرة أم غابرة. وهذا اصطلاح ولا مشاحّة فيه..

* * *

وقولهم: نزلت في كذا.. أعمّ، قد يراد السبب العارض، وقد يراد شأن أمر واقع في الغابر.. وأحياناً يراد بيان حكم وتكليف شرعي دائم.. قال الزركشي: وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا.. فإنّه يريد بذلك أنّ هذه الآية تتضمّن هذا الحكم، لا أنّ هذا كان السبب في نزولها..[1].

---

(١) البرهان: ج ١ ص ٣١ـ ٣٢.

إلّا أنّ السيوطي خصّ أسباب النـزول بالنوع الأوّل، ورفض أن يكون بيان قصّة سالفة سبباً لنـزول سورة أو آية قرآنيّة، ومن ثم اعترض على الواحدي ـ في أسباب النزول ـ قوله: نزلت سورة الفيل في قصة أصحاب أبرهة الذي جاء لهدم الكعبة..[1].

قال: والذي يتحرّر في سبب النّزول أنّه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أنّ سببها قصة قدوم الحبشة، فإنّ ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك..[2].. مع أنّ الواحدي لم يصرّح بالسبب، بل ذكر أنّها نزلت في قصة أصحاب الفيل..

ولا وجه لما تضايق السيوطي على نفسه وعلى الآخرين، بعد أن كان المصطلح على دواعي النزول هي المناسبات المقتضية لنزول قرآن، سواء أكانت حادثة واقعة، أم اختلافاً في مسألة شرعيّة فرعيّة أو عقائديّة، أم قصّة غابرة كانت ذات عبرة أو موضع اختلاف، فأراد الله تعالى تحريرها وتهذيبها وتطهير ساحة قدس أوليائه الكرام..

التنزيل والتأويل:

سأل الفضَيلُ بن يسار الإمامَ أبا جعفر الباقر (عليه السلام) عن الحديث المعروف «ما في القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن»؟

فقال (عليه السلام): «ظهره تنزيله وبطنه تأويله.منه ما قد مضى ومنه مالم يكن، يجري كما تجري الشمس والقمر...»[3].

وقال (عليه السلام): «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا

---

(١) اسباب النزول للواحدي: ص ٢٥٩.

(٢) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ٥.

(٣) بصائر الدرجات: ص ١٩٦ ح ٧.

بمثل أعمالهم...»[١].

ذلك أنّ للآية وجهاً مرتبطاً بالحادثة الواقعة ـ التي استدعت نزولها ـ ووجهاً آخر عاماً تكون الآية بذلك دستوراً كليّاً يجري عليه المسلمون أبدياً، وكما أنّ الآية عالجت ـ بوجهها الخاصّ ـ مشكلة حاضرة، فإنّها ـ بوجهها العام ـ سوف تعالج مشاكل الامة على مرّ الأيام...

قال الإمام أبوجعفر (عليه السلام): «ولو أنّ الآية نزلت في قوم ثم مات اولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ولكن القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض. ولكلّ قوم يتلونها، هم منها من خير أو شرّ»[٢].

نعم، انّ الحكمة في نزول آية أو سورة، ليست بالتي تقتصر على معالجة مشاكل حاضرة، وليست دواءً وقتيّاً لداءٍ عارض وقتي.. إذن تنتفي فائدتها بتبدّل الأحوال والأوضاع.. بل القرآن، في جميع آيه وسوره، نزل علاجاً لمشاكل امّة بكاملها في طول الزمان وعرضه.. والى ذلك يشير قولهم (عليهم السلام): «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي ياجارة»[٣].

وهذا الوجه العامّ للآية، هو ناموسها الأكبر، الكامن وراء ذلك الوجه الخاصّ، وإنّما يلقي بأضوائه على الآفاق من وراء ذلك الستار الظاهري، وتنبعث أنواره من ذلك البطن الكامن وراء هذا الظهر...

وهذا من اختصاص القرآن في بيان مقاصده من الوجهين الخاص والعام، ومن ثم فانّ له تنزيلاً (الذين نزل فيهم) وتأويلاً (الذين عملوا بمثل أعمالهم). وذلك ظهره وهذا بطنه..

غير أنّ الوقوف على تأويل القرآن وفهم بطون الآيات، انّما هو من

---

(١) تفسير العياشي: ج ١ ص ١١ ح ٤.

(٢) تفسير العياشي: ج ١ ص ١٠ ح ٧.

(٣) تفسير العياشي: ج ١ ص ١٠ ح ٤

اختصاص الراسخين في العلم، ممّن ثبتوا على الطريقة فسقاهم ربهم ماءً غدقاً..[١].

ومن ثم قال الإمام أبوجعفر ـ بعد أن تلا الآية ـ: «نحن نعلمه» أي التأويل[٢] وفي رواية أُخرى: «تعرفه الائمّة»[٣].

* * *

قال تعالى: «وَللهِ المَشْرِقُ والْمَغْرِبُ فأينَما تُوَلوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَليمٌ»[٤].

هذه الآية نموذج من الآيات ذوات الوجهين، لها تنزيل ولها تأويل، ظهر وبطن، وإنّما يعلم سرّها الكامن العامّ أُولوا البصائر في الدين الائمّة المعصومون (عليهم السلام).

هذه الآية تبدو ـ في ظاهرها ـ متعارضة مع آيات توجب التوجّه في الصلاة شطر المسجدالحرام[٥]... ولكن مع ملاحظة سبب النزول، وإنّه دفع لشبهة اليهود ورفع لارتيابهم في تحويل القبلة، يتبيّن أن لامعارضة، ويرتفع الإبهام عن وجه الآية... ذلك أنّ الاستقبال في الصلاة والعبادات أمر اعتباري محض، ينوط باعتبار صاحب الشريعة في مصالح يراها مقتضية حسب الأحوال والأوضاع، وليس وجه الله محصوراً في زاوية القدس الشريف أو الكعبة المكرّمة..

وبذلك تنحلّ مشكلة الآية وترتفع إبهامها، وأن ليس ترخيصاً في الاتجاه بسائر الجهات..

هذا.. وقد فهم الأئمة (عليهم السلام) أمراً آخر أيضاً، استخرجوه من باطن الآية، حيث تأويلها المستمرّ.. وأنّها تعني جواز التطوّع بالنوافل الى حيث

---

(١) من الآية رقم ١٦ من سورة الجن.
(٢) بصائر الدرجات: ص١٩٦ ح٧.
(٣) بصائر الدرجات: ص١٩٦ ح٨.
(٤) البقرة: ١١٥.
(٥) البقرة: ١٤٤ و١٤٩ و١٥٠.

توجّهت به راحلتك ... أو اشتبهت القبلة، فتصلّي الى أي الجهات شئت.. هكذا وجدنا صراحة الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)[١].

قال سيّدنا الطباطبائي (قدس سره): إنّك إذا تصفّحت كلمات الأئمة (عليهم السلام) في عموم القرآن وخصوصه، ومطلقه ومقيّده، لوجدت كثيراً ما، استفادة حكم من عموم الآية، ثم استفادة حكم آخر مع ملاحَظة خصوصها. فقد يستفاد «الاستحباب» من الآية من وجه عمومها، و«الوجوب» من وجهها الخاصّ، وهكذا «الحرمة» و«الكراهة» من الوجهين للآية بذاتها ..

قال: وعلى هذا المقياس تجد اصولاً هي مفاتيح لكثير من مغالق الآيات، إنّما تجدها في كلماتهم (عليهم السلام) لاغيرهم.. قال: ومن هنا يمكنك أن تستخرج من لباب كلامهم في المعارف القرآنية قاعدتين أساسيّتين:

الأُولى: انّ كلّ عبارة من عبارات الآية الواحدة، فإنّها لوحدها تفيدمعنى وتلقي ضوءً على حكم من أحكام الشريعة.. ثم هي مع العبارة التالية لها، تفيد حكماً آخر، ومع الثالثة حكماً ثالثاً.. وهكذا دواليك ...

مثلاً قوله تعالى: «قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»[٢] فقوله: «قُلِ اللهُ» جملة تامّة الإفادة... وهي مع قوله: «ثُمَّ ذَرْهُمْ» أيضاً كلام آخر هو تام. ومع «فِى خَوْضِهِمْ».. وكذا مع «يَلْعَبُونَ» كلاً كلام ذو فائدة تامّة...

واعتبر نظير ذلك في كلّ آية شئت من آيات القرآن..

الثانية: انّ القصّتين أو المعنيين إذا اشتركا في جملة أو نحوها، فهما راجعان الى مرجع واحد..

قال: وهاذان سرّان، تحتها أسرار. والله الهادي..[٣].

* * *

---

(١) راجع وسائل الشيعة: باب ٨ و١٥ من أبواب القبلة ج٣ ص٢٢٥ - ٢٣٩ وتفسير العياشي: ج ١ ص٥٦ - ٥٧.

(٢) الانعام: ٩١.

(٣) تفسير الميزان: ج ١ ص٢٦٢.

وقوله تعالى: «وَأَنَّ المَسَاجِدَلِلّه فَلا تَدْعُوامَعَ الله أَحَداً»[١].

قيل: نزلت بشأن الجنّ استأذنوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يشهدوا مسجده.. وقد كان صعباً عليهم وهم منتشرون في فجاج الأرض.. فنزلت: انّ كلّ موضع من الأرض فهو مسجد لله يجوز التعبّد فيه.. سوى أنّه يجب الإخلاص في العبادة في أيّ مكان كانت..[٢] وهكذا روي عن سعيد بن جبير.

هذا إذا أخذت «المساجد» بمعنى «المعابد»: أمكنة العبادة..

وربّما فسّرت بمعنى المصدر، وأنّ العبادات بأسرها خاصّة بالله تعالى لايجوز السجود لغيره.. روي ذلك عن الحسن.

وقال جمع من المفسّرين كسعيد بن جبير والزجّاج والفراء: إنّها المواضع السبعة حالة السجود، وهي لله، إذ هو خالقها والذي أنعم بها على الإنسان. فلا ينبغي أن يسجد بها لأحد سوى الله تعالى[٣].

وبهذا المعنى الأخير أخذ الإمام أبوجعفر محمد بن علي الجواد (عليه السلام) حينما سأله المعتصم العباسي عن هذه الآية، فقال: هي الاعضاء السبعة التي يُسجد عليها...[٤].

وكان هذا الحادث في قصّة سارق جيء به الى مجلس المعتصم، فاختلف الفقهاء الحضور في موضع القطع من يده.. فكان من رأي الإمام (عليه السلام) أن يقطع من مفصل الاصابع.. ولمّا سأله المعتصم عن السبب، أجاب بأن راحة الكفّ، هي إحدى مواضع السجود السبعة، وأنّ المساجد لله،

---

(١) الجنّ: ١٨.

(٢) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ١٢١.

(٣) وهكذا فسّرها الأئمة من أهل البيت فيما ورد من التفسير المأثور ومجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٧٢ وتفسير البرهان: ج ٤ ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٧٢.

فلا تقطع[١].

وهكذا، وبهذا الأسلوب البديع استنبط (عليه السلام) من تعبير القرآن دليلاً على حكم شرعيّ كان حلاًّ قاطعاً لمشكلة الفقهاء حلاً أبديّاً..

وهذا من بطن القرآن وتأويله الساري مع كلّ زمان. تعرفه الأئمة، إمام كلّ عصر حسب حاجة ذلك العصر. قال الإمام الصادق (عليه السلام): «إنّ للقرآن تأويلاً، فمنه ما قدجاء ومنه مالم يجيء فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الائمّة عرفه إمام ذلك الزمان»[٢].

قال الإمام أبوجعفر الباقر (عليه السلام): «مايستطيع أحد أن يدّعي أنّ عنده جميع القرآن كلّه ظاهره و باطنه غير الأوصياء»[٣].

وقال الصادق (عليه السلام): «والله، إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله الى آخره كأنّه في كفّي. فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ماكان وخبر ماهو كائن. فيه تبيان كلّ شيء ـ كما قال تعالى ـ»[٤].

* * *

هل يجب حضور نا قل السبب؟

ذكر الواحدي أنّه لايحلّ القول في أسباب النزول، إلّا بالرواية والسماع ممّن شاهدوا التنزيل و وقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها..[٥].

وهذا الإشتراط إنّما هو من أجل الإستيثاق بأنّ ماينقله حكاية عن حسّ مشهود، لا أنّه من إجتهاد أوتخرّص بالغيب. ومن ثمّ من عرفناه صادقاً في

---

(١) وسائل الشيعة: باب ٤ من أبواب حدالسرقة ج١٨ ص ٤٩٠ ح ٥.

(٢) بصائر الدرجات: ص١٩٥ ح ٥.

(٣) الكافي: ج ١ ص٢٢٨ ح ٢.

(٤) الكافي: ج ١ ص٢٢٩ ح ٤. والآية من سورة النحل: ٨٩ «ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ».

(٥) اسباب النزول للواحدي: ص٤.

لهجته، ثقةً في إخباره، حذراً واعياً يتجنّب الحدس والتخمين، ولا يخبر إلّا عن علم، ولايروي إلّا عن يقين.. فإنّ مثله مصدّق ولو كان غائب المشهد.. ومن ثم نعتمد قول خيار الصحابة.. ولولم يصرّح بحضوره المشهد، وكذا إخبار التابعين لهم بإحسان، ومن بعدهم من أئمّة صادقين..

ولنفس السبب نعتمد أقوال أئمّتنا المعصومين بشأن تفسيرالقرآن، تنزيله وتأويله، لأنّهم أعرف الخلق بعلوم القرآن ظاهره وباطنه ،سوى أنّ المهمّ هو العلم بصحّة الإسناد إليهم أو تواتر النقل وقليل ماهو..

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد:

هذه قاعدة اصوليّة مطرّدة في جميع أحكام الشريعة المقدّسة، فما يصدر من منابع الوحي والرسالة بشأن بيان أحكام الله وتكاليفه للعباد، ليس يخصّ مورداً دون مورد، ولم يأت الشرع لمعالجة حوادث معاصرة، وإنّما هو شرع للجميع.. الأمرالذي دعا بالفقهاء الى إلغاء الخصوصيات الموردّية والأخذ بإطلاق الحكم، إن لفظيّاً أو مقاميّاً، حسب المصطلح.

هذا بالنسبة الى كافة أحكام الشريعة، سنّة وكتاباً، وإن كان في الكتاب آكد. وقد عرفت صريح الروايات بهذا العموم في آيات القرآن. فكلّ ما في القرآن من أحكام وتكاليف واردة في الآيات الكريمة، فإنّما ينظر إليها الفقهاء من الوجه العامّ، ولا يأبهون بخصوص المورد إطلاقاً.

نعم هناك بعض الخطاباتِ مع فئات معهودة، صدرت على نحو القضيّة الخارجيّة[1]، فإنّها لا تعم بلفظها، وإن كانت قد تعم بملاكها، إذا كان قد أحرز يقيناً.. وفي القرآن منه كثير..

---

(١) من مصطلح علم الميزان (المنطق) وهو عبارة عن معهوديّة الموضوع في القضيّة، كقولك: اكرم من في المسجد أو في المدرسة، تريد من هو في مسجد البلد أو مدرسته في الحال الحاضر. وليس في كلّ الأزمان وكلّ المساجد والمدارس على الإطلاق.

قال تعالى: «الَّذينَ اسْتَجابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقوا أَجْرٌ عَظيمٌ. الَّذينَ قَالَ لَهُم النّاس إنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إيماناً وَقَالُوا حَسبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ...»(١).

نزلت الآية بشأن المؤمنين بعد منصرفهم من وقعة «أُحُد» وقد أصابهم القرح الشديد.. وكان أبوسفيان حاول الكرّة وتندّم على انصرافه عن القتال.. وبلغ الخبر للمسلمين، وكان الّذي أشاع الخبر هونعيم بن مسعودالأشجعي، كما في الحديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام(٢). وقيل: الركب الذي دسّه أبوسفيان للإرجاف بالمؤمنين. وقيل: هم المنافقون بالمدينة.

لكن المؤمنين الصادقين صمدوا على الثبات والإيمان وعزموا على مجابهة العدوّ بكلّ مجهودهم، وانتدبهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) قصداً لإرهاب المشركين، وفي مقدّمة المنتدبين الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام).

والشاهد في قوله تعالى: «قَالَ لَهُم النَّاسُ» إشارة الى أُناس معهودين أو فرد معهود. والمقصود من «النّاس» الذين جمعوالهم، هم أصحاب أبي سفيان..

نعم مجموعة هذه الحادثة تفيدنا مسألة الثبات على الإيمان وأن لانهاب عدوّاً ولا تجمّع الناس ضدّ الحقّ مادام الله ناصرنا وكافلنا، نعم المولى ونعم النصير.

* * *

وقوله تعالى: «إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعلىٰ سَمْعِهِمْ وعلىٰ أَبْصارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ»(٣).

إنّما يعني الذين كفروا على عهده (صلى الله عليه وآله) وعاندوا وأصرّوا على اللجاج، بعد وضوح الحقّ وسطوع البرهان. وليس مطلق الكفّار على مرّ

---

(١) آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) مجمع البيان: ج ٢ ص ٥٤١.

(٣) البقرة: ٦ ـ ٧.

الزمان. وهذا تيئيس للنبيّ (صلى الله عليه وآله) فلا تذهب نفسه عليهم حسرات.

قال العلّامة الطباطبائي (قدس سره): ولا يبعد أن يكون المراد هم الكفّار من صناديد قريش وكبراء مكة الذين عاندوا ولجوا في أمرالدين ولم يألوا جهداً في ذلك. إذ لايمكن استطراد هذا التعبير في حقّ جميع الكفّار، وإلّا لانسدّ باب الهداية.. فالأشبه أن يكون المرادمن «الّذينَ كَفَروا» هاهنا وفي سائر الموارد من كلامه تعالى هم كفّارمكة في أوّل البعثة، إلّا أن تقوم قرينة على خلافه.. نظير ما سيأتي أنّ المراد من قوله: «الَّذينَ آمَنُوا» فيما اطلق في القرآن من غيرقرينة على إرادة الإطلاق، هم السابقون الأوّلون من المؤمنين. خصّوا بهذا الخطاب تشريفاً[١].

وهكذا قال (رحمه الله) في تفسير سورة «الكافرون»: هؤلاء قوم معهودون لاكلّ كافر. ويدلّ عليه أمره (صلى الله عليه وآله) أن يخاطبهم ببراءته من دينهم وامتناعهم من دينه[٢].

وبذلك تنحلّ مشكلة كثيرمن الآيات جاءت بهذا التعبير وأشباهه.

نعم هذا الحكم يسري فيمن شابه أولئك في العناد واللجاج مع الحقّ بعد الوضوح.

نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي ياجارة:

هكذا روى أبوالنضر محمدبن مسعود العياشي باسناده عن الإمام أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) فيما رواه عنه عبدالله بن بكير. قال: «نزل القرآن بإياك أعني واسمعي ياجارة»[٣]. وهذا مثل يضرب لمن يخاطب

---

(١) تفسير الميزان: ج١ ص٥٠.

(٢) تفسيرالميزان: ج٢٠ ص٥٢٦.

(٣) تفسير العياشي: ج١ ص١٠ ح٤.

شخصاً أو يتكلّم عن أمر، وهو يريد غيره، على سبيل الكناية أو التعريض.

وروى بإسناده عن ابن أبي عمير عمّن حدثّه عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: «ما عاتب الله نبيّه فهو يعني به من قد مضى في القرآن. مثل قوله: «وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شيئاً قليلاً»[١] عنى بذلك غيره (صلى الله عليه وآله)»[٢].

قوله: «من قد مضى في القرآن» أي مضى ذكره إشارة أو تلويحاً وربّما نصّاً... والأكثر أن يراد أُمّته (صلى الله عليه وآله) بالعتاب، ولاسيّما المؤمنون صدر الإسلام، كانوا على قلق واضطراب في مواضعهم مع الكفّار..

وبهذا المعنى ورد قولهم (عليهم السلام) فيما رواه محمدبن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: يا محمّد إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الامّة بخير فنحن هم. وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممّن مضى فهم عدوّنا..[٣].

لأنّ القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض. ولكلّ قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شرّ[٤].. قال (عليه السلام): ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم[٥].

كيف الاهتداء الى معالم القرآن؟

ما في القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن، وربّما بطون[٦]، هي حقائقها الراهنة، السارية الجارية مع مختلف الأحوال ومتقلّبات الأزمان، يعرفها الراسخون في العلم، الذين ثبتوا على الطريقة فسقاهم ربّهم شراباً غدقاً..

---

(١) الاسراء: ٧٤.

(٢) تفسير العياشي: ج١ ص١٠ ح٥.

(٣) تفسير العياشي: ج١ ص١٣ ح٣.

(٤) المصدر: ص١٠ ح٧.

(٥) المصدر: ص١١ ح٤.

(٦) راجع تفسير البرهان: ج١ ص٢٠.

وخير وسيلة لفتح مغالق القرآن هو اللجوء الى أبواب (رحمة الله) ومنابع فيضه القدسي، أهل بيت الوحي، الذين هم أدرى بما في البيت. فإنّ بيدهم مقاليد هذه المغالق ومفاتيح هذه الأبواب...

فإنّهم عدل القرآن وأحد الثقلين الذين أوصى بهما الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وفي كلماتهم الكثير من الإرشادات الى معالم القرآن وفهم حقائقه الناصعة، ممّا لا تجده في كلام غيرهم على الإطلاق..

من ذلك ماورد بشأن قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا نأتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»[1].

وقوله- في آية اخرى-: «أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصها مِنْ أَطْرافِهَا»[2].

وهذا تهديد ووعيد بالهلاك والدمار، ان لم يرضخوا لناموس الشريعة الغرّاء.. ولكن كيف هذا التهديد، وبم كان هذا الوعيد؟

وقد فسّرها جلّ المفسّرين بغلبة الإسلام والتضايق على بلاد الكفر والإلحاد، قال الثعالبي: إنّا نأتي أرض هؤلاء بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم، فما يؤمّنهم أن نمكنك منهم أيضاً[3] وهكذا رجّحه ابن كثير قال: وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكنَا مَا حَوْلَكُم مِنَ الْقرىٰ»[4]. وهذا اختيار ابن جرير[5].

وقد ذهب ابن كثير وغيره حتى سيد قطب الى أنّ السورة مكيّة، ولم يذكر أحدٌ استثناء هذه الآية منها. وسورة الأنبياء مكيّة بلا خلاف ولم يذكروا سنداً

(١) الرعد: ٤١.
(٢) الأنبياء: ٤٤.
(٣) تفسير الثعالبي: ج ٢ ص ٢٧٤.
(٤) الاحقاف: ٢٧
(٥) تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٥٢٠- ٥٢١.

لاستثناء الآية منها.. الأمرالذي لايلتئم مع هذا الاختيار في معنى الآية..

ثم الآية صريحة في نقصان أطراف الأرض، ولم يعهد اختصاص اسم الأرض بمكة المكرمة..

نعم، فتح هذا المغلاق في وجه الآية، وفسّرها تفسيراً جليّاً، ماجاء في كلام الإمام الصادق (عليه السلام) فيما رواه ابن بابويه الصدوق، قال: سئل الصادق (عليه السلام) عن هذه الآية، فقال: «فقد العلماء»(١).

وذلك: أنّ الأرض، يراد بها المعمورة منها في أكثر الأحيان، كما في قوله تعالى: «أَوْ يُنفوا مِنَ الأَرْضِ»(٢). وقد فهم منه الفقهاء ـ في حدّ المحاربين ـ نفيهم من عمارة الأرض، فلا يدخلوا بلداً ولا يحلّوا دياراً إلّا أُخرجوا..

وإذا كانت عمارة الأرض، هي حصيلة جهود العلماء والاختصاصيّين من أهل العلم، فعفوك أنّ خرابها بفقد العلماء وذهاب الخيار من الصلحاء، فعند ذلك تفسد البلاد وتهلك العباد.. والروايات بهذا المعنى كثيرة عن الأئمة..(٣).

وقد تنبّه لذلك بعض الأقدمين، فيما روي عن ابن عباس: تخرّب قرية ويكون العمران في ناحية. والنقصان نقصان أهلها وبركتها.. وقال الشعبي: تنقص الأنفس والثمرات. وفي رواية عن ابن عباس أيضاً: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها. قال مجاهد: هو موت العلماء(٤).

قال تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا واتّقوا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ..»(٥).

* * *

وقوله تعالى: « وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكة اسْجدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوٓا إلّا إبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ»(٦).

---

(١) تفسير البرهان: ج ٢ ص ٣٠٢ ح ٥.
(٢) المائدة: ٣٣.
(٣) تفسير البرهان: ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢.
(٤) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٠٠ وتفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٥٢٠.
(٥) الاعراف: ٩٦.
(٦) البقرة: ٣٤.

فقد أشكل على المفسّرين وجه هذا السجود والأمر به، ولا تجوز العبادة لغير الله.! ومن ثم اختلفوا هل أنّه كان بوضع الجباه على الأرض، وأنّهم جعلوا آدم قبلة يسجدون لله تعالى؟

نعم ورد الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه كان لآدم سجود طاعة، ولله سجود عبادة..[1] وهو كناية عن قيامهم بمصالح الإنسان عبرالحياة، فإنّ قوى الطبيعة بأسرها مسخّرة لهذا الإنسان خاضعة تحت إرادته... والسجود هوالخضوع التامّ. قال الشاعر: ترى الأكم فيها سجّداً للحوافر. أي التلال مذلّله لحوافر الخيول [2]

وهذا نظير قوله تعالى ـبشأن يوسف واخوته ـ: «وَخَرُّوا لَه سُجَّداً»[3] اي وقعوا على الارض خضوعاً له.. على وجه...

* * *

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَآى بُرْهَانَ رَبِّهِ»[4].

فلولا الامتناعيّة دلّت على أنّ الهمّ من يوسف لم يقع.. سوى أنّ الذي منعه وعصمه من همّ المعصية ماذاكان؟ فقيل: إنّه رآى صورة أبيه عاضّاً على إصبعه. وقيل غيرذلك.. ممّا يتنافى وعصمة مقام النبوّة.. والصحيح ماهدانا إليه الأئمة الراشدون: أنّه الإيمان الصادق الذي هو منشأ العصمة في أنبياء الله (عليهم السلام). بدليل تعقيبه بقوله: «كَذٰلِكِ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» إشارة الى مقام عصمة الأنبياء[5].

---

(١) عيون الاخبار: ج ١ ص٢٦٣ قطعة من ح ٢٢، وبحارالأنوار: ج ١١ ص ١٤٠ ح٦.

(٢) بحارالأنوار: ج ١١ ص ١٤٠.

(٣ و٤) يوسف: ٢٤ و١٠٠.

(٥) راجع تفسير الميزان: ج ١١ ص١٤١ و١٨١.



تاريخ القرآن



١ ـ تأليف القرآن

* نظم كلماته.
* تأليف آياته.
* ترتيب سوره.
* تمحيص الرأي المعارض.
* جمع علي بن أبي طالب (عليه السلام).
* وصف هذا الجمع.
* جمع زيدبن ثابت.
* منهج زيد في جمع القرآن.
* شكوك واعتراضات.
* مصاحف اخرى للصحابة.
* وصف مصحف ابن مسعود.
* وصف مصحف أُبي بن كعب.
* جدول يقارن بين مصاحف السلف.

١ـ تأليف القرآن

تأليف القرآن في شكله الحاضر، في نظم آياته وترتيب سوره، وكذلك في تشكيله وتنقيطه وتفصيله الى أجزاء ومقاطع، لم يكن وليد عامل واحد، ولم يكتمل في فترة الوحي الأُولى. فقد مرّت عليه أدوار وأطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، وانتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثم الى عهد الخليل ابن أحمد النحويّ الذي أكمل تشكيله بالوضع الموجود.

وهو بحث أشبه بمعالجة قضيّة تأريخية مذيّلة، عن أحوال وأوضاع مرّت على هذا الكتاب السماوي الخالد. غير أنّ مهمتنا الآن هي العناية بدراسة القرآن من زاوية جمعه وتأليفه مصحفاً بين دفّتين، والبحث عن الفترة التي حصل فيها هذا الجمع والتأليف، وعن العوامل التي لعبت هذا الدور الخطير. ومن ثم سنفصل الكلام عن القرآن في عهده الأوّل الذي لم يتجاوز نصف قرن، ثم نوجز الكلام في أحوال مرّت عليه في أدوار متأخّرة. والبحث الحاضر يكتمل في ثلاث مراحل أساسيّة:

أوّلاً: نظم كلمات القرآن بصورة جمل وتراكيب كلاميّة ضمن الآيات.

ثانياً: تأليف الآيات ضمن السور قصيرة أم طويلة.

ثالثاً: ترتيب السور بين دفّتين على صورة مصحف كامل.

ومجمل القول في ذلك: أنّ نظم الكلمات والجمل والتعابير، كلّها كانت بفعله تعالى، لم يحدث فيها أيّ تغيير أو تبديل، لا بزيادة ولا بنقص ولا بتغيير

موضعيّ أصلا..«لا يـأتيه الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ...»[١].

وكذا ترتيب الآيات ضمن السور،واكتمـالهاعلى أعداد متفاوتة من الآيات شي ء حصل على عهده (صلى الله عليه وآله) و بأمره الخاصّ ليس لرأي سواه مدخل فيه ولم تمسّه يد سوء أبداً.. «إنّا نحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ..»[٢].

نعم بقي ترتيب السور أمراً مؤجّلاً الى مابعد وفاته (صلى الله عليه وآله) حيث انقطاع الوحي وعدم ترقّب نزول سورة اُخرى أو آيات..وإليك التفصيل:

نظم كلماته:

لاشكّ أنّ العامل في نظم كلمات القرآن وصياغتها جملا وتراكيب كلاميّة بديعة، هوالوحي السماويّ المعجز، لم يتدخل فيه أي يد بشريّة إطلاقاً. كما ولم يحدث في هذا النظم الكلمي أي تغيير أو تحريف عبر العصور: «إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» إذ في ذلك يتجسّد سرّ ذلك الإعجاز الخالد، الذي لايزال يتحدّى به القرآن الكريم. ولمزيد التوضيح نعرض مايلي:

اوّلا: إسناد الكلام الى متكلّم خاصّ يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته وتنسيق اسلوبه التعبيري الخاصّ. أمّا إذا كان هومنتقيا كلمات مفردة وجاء آخر فنظّمها في اسلوب كلاميّ خاصّ، فإنّ هذا الكلام ينسب الى الثاني لاالأوّل. وهكذا القرآن المجيد هوكلام الله العزيز الحميد، فلابدّ أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تنظيم كلماته جملاً وتراكيب كلاميّة بديعة، أمّا نفس الكلمات من غير اعتبار التركيب والتأليف فكان العرب يتداولونها ليل نهار، إنّما الإعجاز في نظمها جاء من قبل وحي السماء.

---

(١) فصلت: ٤٢. (٢) الحجر: ٩.

ثانياً: كان القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع وفي أُسلوبه هذا التعبيري الرائع، من تناسب نغمي مُرنّ، وتناسق شعريّ عجيب، وقد تحدّى القرآن فصحاء العرب وارباب البيان ـ بصورة عامّة ـ لو يأتون بمثل هذا القرآن، ولايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً[١] فلوجوّزنا ـ محالا ـ إمكان تدخّل يد بشريّة في نظم القرآن، كان بمعنى إبطال ذاك التحدّي الصارخ. ومن ثم كان ماينسب الى ابن مسعود: جواز تبديل العهن بالصوف في الآية الكريمة[٢] أو قراءة أبي بكر: «وجاءت سكرة الحق بالموت»[٣] مكذوباً أو هو اعتبار شخصيّ لايتّسم بالقرآنية في شيء.

ثالثاً: اتفاق كلمة الامّة في جميع أدوار التاريخ على أنّ النظم الموجود والأُسلوب القائم في جمل وتراكيب الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي لاغيره. الأمر الذي التزم به جميع الطوائف الإسلامية، على مختلف نزعاتهم وآرائهم في سائر المواضيع. ومن ثم لم يتردّد أحد من علماء الأدب والبيان في آية قرآنيّة جاءت مخالفة لقواعد رسموها، في أخذ الآية حجّة قاطعة على تلك القاعدة وتأويلها الى مايلتئم وتركيب الآية. وذلك علماً منهم بأن النظم الموجود في الآية وحي لايتسرّب إليه خطأ البتة، وإنّما الخطأ في فهمهم هم وفيما استنبطوه من قواعد مرسومة.

مثال ذلك قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ»[٤] فزعموا أنّ الحال لا تتقدّم على صاحبها المجرور بحرف، والآية جاءت مخالفة لهذه القاعدة. ومن ثم وقع بينهم جدال عريض ودار بينهم كلام في صحّة تلك القاعدة وسقمها[٥] ولجأ ابن مالك أخيرا الى نبذ القاعدة بحجّة أنّها مخالفة للآية، قال:

---

(١) الاسراء: من الآية ٨٨.

(٢) القارعة: ٥. راجع ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن:ص١٩.

(٣) ق: ١٩. راجع تفسير الطبري: ج٢٦ ص١٠٠.

(٤) سبأ: ٢٨.

(٥) راجع خالد الازهري في شرح التوضيح. والكشاف للزمخشري.

وسبق حال ما بحرف جر قد　　　أبوا ولا أمنعه فقد ورد

تأليف الآيات:

وأمّا تأليف الآيات ضمن كلّ سورة، على الترتيب الموجود، فهذا قد تحقّق في الأكثر الساحق.. وفق ترتيب نزولها: كانت السورة تبتدأ ببسم الله الرحمن الرحيم فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة تلو أُخرى تدريجياً حسب النزول، حتى تنزل بسملة أُخرى، فيعرف أنّ السورة قد انتهت وابتدأت سورة أُخرى.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «كان يعرف انقضاء سورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداء لأُخرى»[1].

قال ابن عباس: «كان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يعرف فصل سورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم، فيعرف أنّ السورة قدختمت و ابتدأت سورة أُخرى»[2].

كان كتبة الوحي يعرفون بوجوب تسجيل الآيات ضمن السورة التي نزلت بسملتها، حسب ترتيب نزوله واحدة تلو أُخرى كما تنزل، من غير حاجة الى تصريح خاصّ بشأن كلّ آية آية.

هكذا ترتّبت آيات السور وفق ترتيب نزولها، على عهد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وهذا مانسميه «الترتيب الطبيعي» وهوالعامل الأوّل الأساس للترتيب الموجود بين الآيات في الأكثريّة الغالبة، سوى ماشذّ على خلاف هذا الترتيب.

والمعروف أنّ مصحف علي (عليه السلام) وضع على دقّة كاملة من هذا

---

(١) تفسير العياشي: ج ١ ص ١٩ ح ٥.

(٢) مستدرك الحاكم: ج ١ ص ٢٣١. وتاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٧.

الترتيب الطبيعي للنزول. الأمرالذي تخلّفت عنه مصاحف سائر الصحابة، على ماسنشير.

روى جابر عن الإمام أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال إذا قام قائم آل محمد (صلى الله عليه وآله) ضرب فساطيط لمن يعلّم الناس القرآن، على ما أنزل الله جلّ جلاله فأصعب مايكون على من حفظه اليوم، لأنّه يخالف التأليف[1] أي التاليف الحاضر في ترتيب سوره و بعض آيه، كما ننبّه..

* * *

وهناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها،وذلك بنصّ من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعيينه الخاصّ: كان يأمر ـ أحياناً ـ بثبت آية في موضع خاصّ من سورة سابقة كانت قدختمت من قبل. ولا شكّ أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يرى المناسبة القريبة بين هذه الآية النازلة والآيات التي سبق نزولها، فيأمر بثبتها معها بإذن الله تعالى.

وهذا جانب استثنائي للخروج عن ترتيب النزول، كان بحاجة الى تصريح خاصّ: روى أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ شخص ببصره، ثم صوّبه. ثم قال: أتاني جبرئيل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة «إنّ اللهَ يأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسانِ وَإيتاءِ ذي الْقُرْبىٰ...» فجعلت في سورة النحل بين آيات الاستشهاد وآيات العهد. وروى أنّ آخر آية نزلت قوله تعالى: «واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلىَ الله» فأشار جبرئيل أن توضع بين آيتي الربا والدين من سورة البقرة[2]. وعن ابن عباس والسدّي: أنّها آخر مانزلت من القرآن. قال جبرئيل: ضعها في رأس الثمانين والمائتين[3]،وعن ابن عباس أيضاً: قال: كان

---

(١) بحارالأنوار: ج ٥٢ ص ٣٣٩ ح ٨٥ عن ارشاد المفيد: ص ٣٦٥.

(٢) الاتقان: ج ١ ص ٦٢.

(٣) مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٩٤.

رسول الله (صلى الله عليه وآله) يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[١].

هذا ممّا لا خلاف فيه، كما صرّح بذلك أبو جعفر بن الزبير[٢].

* * *

وربّما كانت السورة تفتتح، وقبل أن تكتمل تفتتح سورة أُخرى وتكتمل هذه الأخيرة قبل أن تكتمل الأُولى. وذلك كان بأمر النبيّ (صلى الله عليه وآله) وبإشارته.. كما في سورة البقرة هي أُولى سورة ابتدأ نزولها بالمدينة بعد الهجرة.. لكنّها استمرّ نزولها سنوات حتى الى ما بعد سنة الست.. إذ فيها الكثير من آيات نزلن في هذه الفترات المتأخّرة، منها آية «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»[٣] ... انّها نزلت عندما تحرّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة لمكان أساف ونائلة عليهما، وكان المشركون وضعوهما على الجبلين يطوفون بهما ويلمسونهما.. فنزلت الآية دفعاً لتوهّم الحظر.. الأمر الذي يستدعي نزولها بعد صلح الحديبيّة في عمرة القضاء[٤] وهو عام الست من الهجرة.. أو لعلّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) أمر بوضع الآية في هذا الموضع من السورة.. والله العالم.

وهكذا نزلت آيات الحج في نفس العام وثبتت في هذه السورة بالذات!

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي بطريق حسن، والحاكم بطريق صحيح ـ راجع البرهان: ج ١ ص ٢٤١ وراجع تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٦.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ٦٠.

(٣) البقرة: ١٥٨.

(٤) روي ذلك عن الإمام الصادق (عليه السلام) راجع تفسير العيّاشي: ج ١ ص ٧٠ ح ١٣٣ وراجع أيضاً تفسير الطبري: ج ٢ ص ١٢٣.

كما نجد آيات ثبتت في مواضع من السور، لا تلتئم وتاريخ نزولها، فهل كان ذلك بأمر النبيّ (صلى الله عليه وآله) الخاصّ، أو لسبب آخر لانعرفه؟ الأمرالذي نجهله حتى الآن...

* من ذلك مانجده في سورة الممتحنة: تبتدئ هذه السورة بآيات (١ ـ ٩) نزلت في العام الثامن بعد الهجرة، بشأن حاطب بن أبي بلتعة، كان قد كاتب قريشاً يخبرهم بتأهّب النبيّ (صلى الله عليه وآله) لغزو مكة، وكان النبيّ يحاول الإخفاء.

وتتعقّب هذه الآيات آيتان نزلتا بشأن سبيعة الأسلميّة عام السّت من الهجرة، كانت قد أتت النبيّ (صلى الله عليه وآله) مسلمة مهاجرة، تاركة زوجها الكافر، فجاء في طلبها، فاستعصمت بالنبيّ (صلى الله عليه وآله). وصادف مجيؤه صلح الحديبيّة، كان النبيّ (صلى الله عليه وآله) عاهد قريشاً أن يردّ عليهم كلّ من يأتيه من مكة، فأخذ الزوج في محاجحة النبيّ (صلى الله عليه وآله) قائلا: اردد عليّ أمرأتي على ما شرطت لنا وهذه طينة الكتاب لم تجف، فتحرّج النبيّ (صلى الله عليه وآله) في أمرها، فنزلت الآيتان.

وبعد هاتين الآيتين آيات نزلت بشأن مبايعة النساء عام الفتح وهي سنة التسع من الهجرة!

وأمّا الآية الأخيرة من السورة فإنّها ترتبط مع آيات الصدر تماماً. ومن ثم قالوا: إنّ دراسة هذه السورة تعطينا خروجاً على النظم الطبيعي للآيات، من غير ماسبب معروف[١].

* ومن ذلك أيضاً مانجده في سورة البقرة فيما يخصّ آيات الإمتاع والاعتداد، كان التشريع الأوّل في المرأة المتوفى عنها زوجها أن تعتدّ حولا كاملا ولا تخرج من بيت زوجها وكان ميراثها هو الإنفاق عليها ذلك الحول

---

(١) بحارالأنوار: ج ٩٢ ص ٦٧.

فقط، والآية التي نزلت بهذا الشأن هي قوله تعالى: «وَالَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرونَ أَزواجاً وصيةً لِأَزْوَاجِهم مَتَاعاً إلى الْحَوْلِ غَيْر إخْراجٍ»[١]. ثم نسخ هذا التشريع بآية الاعتداد: اربعة أشهر وعشرا من نفس السورة[٢]. وبآية المواريث[٣].

قال الإمام الصادق (عليه السلام): نسختها ـ أي آية الامتاع ـ آية «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشراً» ونسختها آية المواريث[٤] هذا وطبيعة النسخ تستدعي تأخّر الناسخ عن المنسوخ، في حين تقدّمه عليه بستّ آيات!

* وكذلك قوله تعالى: «وَاتـقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ الى الله...». قيل: إنّها آخر آية نزلت على رسول (صلى الله عليه وآله) ولم يعش بعدها سوى بضعة أيام أو بضعة أسابيع. والآية مثبتة في سورة البقرة في حين أنّها أوّل سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة، ونزلت بعدها نيف وعشرون سورة، وروي أنّ جبرئيل (عليه السلام) هوالذي أشار على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يضعها موضعها من البقرة. وقد تقدّم ذلك.

* وآية الإكمال: «الْيَومَ يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِن دينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكم وأتمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضيتُ لكم الإسْلامَ دِيناً»[٥]. قال ابن عباس: لم ينزل بعدها فريضة. وكذا قال السدّي والجبائي والبلخي[٦] وروي عن الامامين الصادقين (عليهما السلام) أيضاً[٧].

قال ابن عساكر والخطيب: إنّها نزلت في غدير خم عند منصرفه (صلى الله عليه وآله) من حجّة الوداع بعدما نصب علياً (عليه السلام) بالولاية. فنزل بها

---

(١) البقرة: ٢٤٠.
(٢) البقرة: ٢٣٤.
(٣) النساء: ١٢.
(٤) تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٣٢ ح ١. ومستدرك الوسائل: ج ٣ ص ٢٠.
(٥) المائدة: ٣.
(٦) الدرالمنثور: ج ٢ ص ٢٥٧ـ ص ٢٥٩. ومجمع البيان: ج ٣ ص ١٥٩.
(٧) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٥٩.

جبرئيل (عليه السلام). وفي عبارة السدّي لم ينزل بعدها حلال ولاحرام[١].

هـذا وهي مثبتة في سورة المائدة برقم ٣. وآيات الاحكـام بعدها كثيرة: كآية تحليل الطيّبات والصيد بـرقم ٤ . وآية طعام أهـل الكتاب برقـم ٥ . وآية الوضوء برقم ٦ . وآية السارق بـرقم ٣٨. وآية الإيمان برقم ٨٩. وآية الخمر برقم ٩٠. وآية تحريم الصيد برقم ٩٥. وآيـة تحريم ما حلّله المشركـون برقم ١٠٣. وآية الإشهاد على الوصيّـة برقم ١٠٧. كلّ ذلك أحـكام تشريعيّـة سجلت بعـد آية الإكمال في حين أنّها نزلت قـبلها قطعاً. فلابدّ هناك من مناسبة لإقحام مثل هذه الآية بين آيات تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وإن كنّا نجهلها في ظاهر الأمر.

* * *

وينبغـي أن لانـتغافل جـانـب «أصالة السياق» في الآيـات فإنّها محفـوظة حسب طبيعتها الأوّليـة، بمعنى أنّ الأصل الأولـيّ هو البنـاء على أنّ الترتـيب القـائم هو ترتيب الـنزول، إلّا إذا ثـبت خلافه بدلـيل، ولم يـثبت إلّا نادراً... ولأنّ ما ثبــت قليـلاً خلاف موضعه الأصلي، فإنّما كان بـأمر النـبيّ (صلى الله عليه وآله) وبـإرشاده الخاصّ، فلابدّ من مناسبة ملحوظة في ذلك، وكفى بذلك في حكمة السياق..

وسـنتعرّض لهذا الجانـب بتفصيل عند الـكلام عن سياق الآيات في فصل «الإعجاز البياني» إن شاء الله تعالى.

ترتيب السور:

وأمّا جمع السور وترتـيبها بصـورة مصحف مؤلّف بين دفّتين، فهـذا قد حصل بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله):[٢] **انقضى العهد النبويّ والقرآن منثور على**

---

(١) الدرالمنثور: ج ٢ ص ٢٥٩.

(٢) قال السيد الطباطبائي: «ان القرآن لم يكن مؤلفاً في زمن النبي -ص- ولم يكن منه إلا سور وآيات متفرقة في ايدي الناس» (الميزان ج٣ ص٧٨-٧٩).

العسب واللخاف[1] والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع و بعض الحرير والقراطيس وفي صدور الرجال.

كانت السور مكتملة على عهده (صلى الله عليه وآله وسلم) مرتبة آياتها وأسماؤها، غير أنّ جمعها بين دفّتين لم يكن حصل بعد. نظراً لترقب نزول قرآن على عهده (صلى الله عليه وآله) فمادام لم ينقطع الوحي لم يصحّ تأليف السور مصحفاً إلّا بعد الاكتمال وانقطاع الوحي، الأمر الذي لم يكن يتحقّق إلّا بانقضاء عهد النبوّة واكتمال الوحي.

قال جلال الدين السيوطي: «كان القرآن كتب كلّه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتّب السور»[2].

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): يا علي! القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه[3].

وأوّل من قام بجمع القرآن بعد وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله) مباشرة، و بوصيّة منه (صلى الله عليه وآله) هو الامام علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) ثم قام بجمعه زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر. كما قام بجمعه كلّ من ابن مسعود وأُبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وغيرهم، حتى انتهى الأمر الى دور عثمان، فقام بتوحيد المصاحف وإرسال نسخ موحّدة الى أطراف البلاد، وحمل الناس على قراءتها وترك ماسواها. على ماسنذكر.

كان جمع علي (عليه السلام) وفق ترتيب النزول: المكيّ مقدّم على المدنيّ. والمنسوخ مقدّم على الناسخ. مع الإشارة الى مواقع نزولها ومناسبات النزول.

قال الكلبي: لمّا توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) قعد علي بن أبي طالب

---

(١) العسيب: جريدة النخل إذا كشط خوصها. واللخف: حجارة بيض رقاق. والأدم: الجلد المدبوغ.

(٢) الإتقان: ج١ ص٥٧. ومناهل العرفان: ج ١ ص ٢٤٠.

(٣) بحارالأنوار: ج ٩٢ ص٤٨ ح٧ عن تفسير علي بن ابراهيم.

(عليه السلام) في بيته فجمعه على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير[١] وقال عكرمة: لو اجتمعت الإنس والجنّ علىٰ أن يألّفوه كتأليف علي بن أبي طالب (عليه السلام) مااستطاعوا[٢].

وأمّا جمع غيره من الصحابة فكان على ترتيب آخر: قدّموا السور الطوال على القصار، فقد اثبتوا السبع الطوال (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس) قبل المئين (الأنفال[٣]، براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الاسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصافّات) ثمّ المثاني (هي التي تقلّ آياتها عن المائة وهي عشرون سورة تقريباً) ثم الحواميم (السورالتي افتتحت بحم) ثم المفصّلات (ذوات الآيات القصار) لكثرة فواصلها. وهي السور الأخيرة في القرآن.

وهذا يقرب نوعا مامن الترتيب الموجود الآن على ماسيأتي.

نعم لم يكن جمع زيد مرتّباً ولا منتظما كمصحف، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن عن الضياع، وضبط آياته وسوره حذراً عن التلف بموت حامليه، فدوّنت في صحف وجعلت في إضبارة، واودعت عند أبي بكر مدة حياته، ثم عند عمربن الخطاب حتى توفّاه الله، فصارت عند ابنته حفصة، وهي النسخة التي اخذها عثمان لمقابلة المصاحف عليها، ثم ردّه عليها، وكانت عندها الى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية، فأمربها فشقّت.

وسنذكر كلّ ذلك بتفصيل.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ج ١ ص ٤.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ٥٧.

(٣) هذا في مصحف ابي بن كعب. لكنّها في مصحف ابن مسعود من المثاني، لأنّها تقل من المائة، آياتها: ٧٥. راجع القائمة الآتية.

تمحيص الرأي المعارض:

ما قدّمناه هو المعروف عن رواة الآثار، وعند الباحثين عن شؤون القرآن، منذ الصدر الأوّل فإلى يومنا هذا، ويوشك أنّ يتّفق عليه كلمة أرباب السير والتواريخ ولكن مع ذلك نجد من ينكر ذاك التفصيل في جمع القرآن، ويرى أنّ القرآن بنظمه القائم وترتيبه الحاضر كان قد حصل في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله).

وقد ذهب الى هذا الرأي جماعة من علماء السلف كالقاضي وابن الأنباري والكرماني والطيبي[1]، ووافقهم علم الهدى السيد المرتضى (قدس سره) قال: كان القرآن على عهده (صلى الله عليه وآله وسلم) مجموعاً مؤلفاً على ماهو عليه الآن. واستدلّ على ذلك بأنّ القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنّه كان يعرض على النبيّ (صلى الله عليه وآله) ويتلى عليه.

وإنّ جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود وأُبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبيّ (صلى الله عليه وآله) عدّة ختمات. وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمّل على أنّه كان مجموعاً مرتبا غير مبتور ولامبثوث[2].

لكن حفظ القرآن هو بمعنى: حفظ جميع سوره التي اكتملت آياتها، سواء أكان بين السور ترتيب أم لا. وهكذا ختم القرآن هو بمعنى: قراءة جميع سوره من غير لحاظ ترتيب خاصّ بينها. أو الحفظ كان بمعنى الاحتفاظ على جميع القرآن النازل لحدّ ذاك والتحفظ عليه دون الضياع والتفرقة، الأمر الذي لايدلّ على وجود ترتيب خاصّ كان بين سوره كما هو الآن.

هذا. وقد ذهب الى ترجيح هذا الرأي أيضاً، سيّدنا الأُستاذ الإمام الخوئي

---

(١) الإتقان: ج١ ص٦٢.

(٢) مجمع البيان: ج١ ص١٥.

(دام ظله) نظراً الى الأُمور التالية:

أوّلا: أحاديث جمع القرآن بعد وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله) بنفسها متناقضة، تتضارب مع بعضها البعض، ففي بعضها تحديد زمن الجمع بعهد أبي بكر، وفي آخر بعهد عمر وفي ثالث بعهد عثمان. كما أنّ البعض ينصّ على أنّ أوّل من جمع القرآن هو زيد بن ثابت. وآخر ينصّ على أنه أبو بكر، وفي ثالث أنّه عمر.. الى أمثال ذلك من تناقضات ظاهرة.

ثانياً: معارضتها بأحاديث دلّت على أنّ القرآن كان قد جمع على عهده (صلى الله عليه وآله) منها حديث الشعبي، قال: جمع القرآن على عهده (صلى الله عليه وآله) ستة أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عبيد، وأبو زيد. وفي حديث أنس أنّهم أربعة: أُبي، ومعاذ، وزيد، وأبو زيد. وأمثال ذلك.

ثالثاً: منافاتها مع آيات التحدّي، التي هي دالة على اكتمال سور القرآن وتمايز بعضها عن بعض. ومتنافية أيضاً مع إطلاق لفظ الكتاب على القرآن في لسانه (صلى الله عليه وآله وسلم) الظاهر في كونه مؤلفاً كتاباً مجموعاً بين دفّتين.

رابعاً: مخالفة ذلك مع حكم العقل بوجوب اهتمام النبيّ (صلى الله عليه وآله) بجمعه وضبطه عن الضياع والإهمال.

خامساً: مخالفته مع إجماع المسلمين، حيث يعتبرون النصّ القرآني متواتراً عن النبيّ نفسه (صلى الله عليه وآله) في حين أنّ بعض هذه الروايات تشير الى اكتفاء الجامعين بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بشهادة رجلين أو رجل واحد!

سادساً: استلزام ذلك تحريفاً في نصوص الكتاب العزيز، حيث طبيعة الجمع المتأخّر تستدعي وقوع نقص أو زيادة في القرآن. وهذا مخالف لضرورة الدين[1].

---

(١) راجع البيان في تفسير القرآن: ص٢٥٧ ـ ٢٧٨.

وزاد بعضهم: ان في المناسبة الموجودة بين كل سورة مع سابقتها ولاحقتها لدليلا على ان نظمها وترتيبها كان بأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) اذ لا يعرف المناسبة بهذا الشكل المبدع البالغ حد الاعجاز غيره (صلى الله عليه وآله).

* * *

لكن يجب ان يعلم: ان قضية جمع القرآن حدث من احداث التاريخ، وليست مسألة عقلانية قابلة للبحث والجدل فيها. وعليه فيجب مراجعة النصوص التاريخية المستندة، من غير ان يكون مجال لتجوال الفكر فيها على أية حال!

وقد سبق اتفاق كلمة المؤرخين ونصوص ارباب السير واخبار الامم، ووافقهم اصحاب الحديث طراً، على ان ترتيب السور شيء حصل بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) ولم يكن بالترتيب الذي نزلت عليه السور.

وبعد.. فلا نرى أي مناقضة بين روايات جمع القرآن، اذ لاشك ان عمر هوالذي اشار على ابي بكر بجمع القرآن، وهذا الأخير امر زيداً ان يتصدى القضية من قبله، فيصح اسناد الجمع الأوّل الى كلّ من الثلاثة بهذا الاعتبار.

نعم نسبة الجمع الى عثمان كانت باعتبار توحيده للمصاحف ونسخها في صورة موحدة. وأما نسبة توحيد المصاحف الى عمرفهو من اشتباه الراوي قطعاً. لأنّ الذي فعل ذلك هو عثمان بإجماع المؤرّخين.

وحديث ستّة أو أربعة جمعوا القرآن على عهده (صلى الله عليه وآله وسلم) فمعناه: الحفظ عن ظهر القلب، حفظوا جميع الآيات النازلة لحدّ ذاك الوقت، أمّا الدلالة على وجود نظم كان بين سوره فلا. ١

وأمّا حديث التحدّي فكان بنفس الآيات والسور، وكلّ آية أو سورة قرآن، ولم يكن التحدّي يوماً ما بالترتيب القائم بين السور، كي يتوجّه الاستدلال المذكور!

على أنّ التحدّي وقع في سور مكـيّة أيضاً[١]، ولم يجمع القرآن قـبل الهجرة قطعيّاً.

واهتمام النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن القرآن، شيء لاينكر، ومن ثم كان حريصاً على ثـبت الآيات ضـمن سورها فـور نزولها، وقـد حصل النظم بين آيات كلّ سورة في حياته (صلى الله عـليه وآله) أمّا الجمع بين السور وترتيبها كمصحف مـوحّـد، فلم يحصل حـيـنذاك ، نظراً لترقّـب نزول قرآن عليـه، فالم ينـقطع الـوحي لايصحّ جمع القـرآن بين دفّتين كـكتـاب. ومـن ثمّ لـمّا أيـقن بـانقطاع الـوحي بوفـاتـه (صلى الله عليـه وآله)، أوصى الى علي (عـليه السلام) بجمعه.

ومعنى تواتر النّص القرآنـيّ: هوالقطع بكونه قـرآناً، الأمرالذي كان يحصل بـأخـبار جماعـة وشـهـادة آخـريـن بأنّـه قـرآن ولاسيّما مـن الصحـابة الأوّلين، الأمرالذي كان قـد التزمـه زيد في الجمع الأوّل كما يـأتي. وليس التـواتر ـ هنا ـ بمعناه المصطلح عند المتأخرين.

وأمّا استلزام تـأخّر الجمع تحريفاً في كتاب الله، فهو احتمال مجرّد لاسند له بعد معرفـتنا بضبط الجامـعين وقرب عهدهم بنزول الآيات وشدّة احتياطهم على الوحي بما لايدع مجالاً لتسرّب احتمال زيادة او نقصان.

وأخيراً فإنّ قـولـة البعض الأخيرة، فـهي لاتعدو خيـالاً فارغاً إذ لامناسـبة ذاتـيّـة بين كـلّ سورة وسـابـقتهـا أو تـالـيتهـا، سوى مـازعـمـه بعض المفسّـرين المتـكلّـفين، وهو تمـحّل بـاطل بعد إجماع الامـة على أنّ ترتـيـب السور كان على خلاف ترتيـب الـنزول بلاشكّ. وقد تـقدّم حديث الفـساطيط المضروبة لتـعليم القرآن على خلاف الترتيب المألوف[٢].

* * *

---

(١) يونس: ٣٨. وهود: ١٣. والاسراء: ٨٨. وهنّ مكيّات.

(٢) ارشاد المفيد: ص ٣٦٥ ط نجف. وبحارالأنوار: ج ٥٢ ص ٣٣٩ ح ٨٥.

وقد يتراءى لبعض الباحثين الجدّد، أن التعبير بلفظ «المصحف» الوارد في أحاديث الرسول وعلى لسانه ـصلّى الله عليه وآله ـ ليصلح شاهداً على وقوع الجمع وتنسيق السور مع بعضها، في ذلك العهد، اذ لو لم يكن هناك تدوين وجمع، بالمعنى الذي يتبادر الى الذهن، لما صحّ هذا التعبير ولا كان ثمة مبرّر لاطلاق لفظ «مصحف» او «مصاحف» على القرآن[1].

لكن لا موضع لهذا الاستشهاد، بعد ان كان «المصحف» اسماً لمجموعة صحائف مكتوبة انضم بعضها الى بعض، وربما ربطت بخيط ونحوه، او وضعت في ملفّة او إضبارة وماشاكل، حفظاً لها عن التفرق والضياع، سواء أكان بينها تنسيق ونظم، ليصح اطلاق التدوين عليها، ام لم يكن.

قال ابن دريد: والصُحف، واحدتها صحيفة، وهي القطعة من أدم ابيض أو رقّ يكتب فيه. وتجمع صحائف، وربما جمعوا الصحيفة صحافاً... والمصحف ـبكسر الميم ـ لغة تميمية، لأنه صحفٌ جُمعت، فأخرجوه مخرج مِفعَل ممّا يتعاطى باليد. وأهل نجد يقولون: المصحف ـبضم الميم ـ لغة علويّة، كأنهم قالوا: أُصحف فهو مصحف إذا جمع بعضه إلى بعض[2].

وقال الخليل: وسمّي المصحف مصحفاً، لأنه أُصحف، أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفّتين[3].

وكانت السورة القرآنية تكتمل وتكتب آياتها منظمة ومرتبة حسب النزول، حتى تنزل بسورة اخرى بنزول بسملتها. وكانت تكتب في ورقة من قرطاس او قطعة من أديم اورق، وتحفظ برأسها. وهكذا كل سورة سورة. ومن طبيعة الحال ان هذه السور المكتملة كانت تحتفظ وتجمع في مكان. في نحو ملفّة أو اضبارة ونحو ذلك. ولكن من غير ان يجعل بينها ترتيب او تنظم بتقديم الطوال على القصار على غرار

---

(١) حقائق هامة: ص٨٢.

(٢) جمهرة اللغة: ج٢ ص١٦٢.

(٣) العين: ج٣ ص١٢٠.

تنظيمها الحاضر. وذلك لأن القرآن لمّا ينته نزوله. وكان يترتب نزول سور وآيات، مادام الوحي القرآني لم ينقطع، والرسول ـصلّى الله عليه وآله ـ على قيد الحياة.

إذن فمجموعة السور النازلة في كل عام ولحدّ ذاك الحين، وكانت مكتوبة على صحائف، كانت تُحتفظ في وعاء، وربما كانت متعددة لدى الصحابة، كلٌّ له مجموعة منها في بيته وبذلك صحّ اطلاق لفظ «المصحف» على كلٍّ من تلك المجموعات، بهذا الاعتبار لاغير.

وبذلك تعرف ترادف لفظي القرآن والمصحف، غير أن الاول كان باعتبار اللفظ المقروء، وكان الثاني باعتبار اللفظ المكتوب على صحيفة. فكما أن القرآن يطلق على قليله وكثيره، ومن غير دلالة على تنسيق سوره ذلك الحين، فكذلك لفظ المصحف من غير فرق.

ومن ثمّ نجد تبديل لفظ المصحف بالقرآن في نفس الروايات التي استشهد بها المستدلّ. وقد اعترف بذلك [١].

هذا على فرض صحة اسناد الروايات التي جاء فيها لفظ «المصحف» مسنداً له الى النبيّ ـصلّى الله عليه وآله ـ ولم يكن من تعبير الراوي، نقلاً بالمعنى حسب متفاهم عهده المتأخر، والأرجح انه كذلك نقل بالمعنى لا بالنصّ!

إذاً لايملك معارضونا دليلا يثنينا عن الذي عزمنا عليه من تفصيل حديث الجمع [٢]، وإليك :

جمع علي بن أبي طالب (عليه السلام):

أوّل من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله) مباشرة، وبوصيّة منه [٣] هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) قعد في بيته مشتغلا بجمع القرآن وترتيبه على مانزل، مع شروح وتفاسير لمواضع مبهمة من الآيات، وبيان

(١) الحقائق: ص٨٥.　　(٢) وقد عرفت كلام الطباطبائي ص٢٨٠ رقم ٢.

(٣) راجع تفسير القمي: ص٧٤٥. وبحارالأنوار: ج٩٢ ص٤٨ ح٥ وص٥٢ ح١٨

أسباب النزول ومواقع النزول بتفصيل حتى أكمله على هذا النمط البديع.

قال ابن النديم- بسند يذكره-: إنّ علياً (عليه السلام) رآى من الناس طيرة عند وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فأقسم أن لايضع رداءه حتى يجمع القرآن. فجلس في بيته ثلاثة أيام[١] حتى جمع القرآن. فهو أوّل مصحف جمع فيه القرآن من قلبه[٢] وكان هذا المصحف عند آل جعفر.

قال: ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني (رحمه الله) مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب، يتوارثه بنو حسن[٣].

وهكذا روى أحمد بن فارس عن السدّي عن عبدخير عن علي (عليه السلام)[٤].

وروى محمد بن سيرين عن عكرمة، قال: لمّا كان بدء خلافة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته يجمع القرآن. قال: قلت لعكرمة: هل كان تأليف غيره كما انزل الأوّل فالأوّل؟ قال: لو اجتمعت الإنس والجنّ على أنّ يألفوه هذا التأليف ماستطاعوه.

قال ابن سيرين: تطلبت ذلك الكتاب وكتبت فيه الى المدينة فلم أقدر عليه[٥].

---

(١) ولعله سهو من الراوي: لأنّ الصحيح أنّه (عليه السلام) أكمل جمع القرآن لمدة ستة أشهر، كان لايرتدي خلالها إلاّ للصلاة. المناقب: ج ٢ ص ٤٠.

(٢) قال ابن عباس: فجمع الله القرآن في قلب علي، وجمعه علي بعد موت رسول الله بستة أشهر. نفس المصدر.

(٣) الفهرست: ص٤٧- ٤٨.

(٤) في كتابه «الصاحبي» ص١٦٩. هامش تأويل مشكل القرآن: ص٢٧٥ ط ٢.

(٥) الإتقان: ج ١ ص٥٧، وراجع الطبقات: ج ٢ ص ١٠١. والاستيعاب بهامش الاصابة: ج ٢ ص٢٥٣.

قال ابن جزي الكلبي: كان القرآن على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) مفرّقاً في الصحف وفي صدور الرجال فلمّا توفي جمعه علي بن أبي طالب على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبيرولكنه لم يوجد[١].

قال الإمام الباقر (عليه السلام): ما من أحد من الناس يقول أنّه جمع القرآن كلّه كما أنزل الله إلّا كذّاب. وما جمعه وما حفظه كما أنزل الله إلّا علي بن أبي طالب[٢].

قال الشيخ المفيد ـ في المسائل السروية ـ: وقد جمع أمير المؤمنين (عليه السلام) القرآن المنزل من أوّله الى آخره، وألّفه بحسب ماوجب تأليفه، فقدّم المكيّ على المدنيّ والمنسوخ على الناسخ، ووضع كلّ شيء منه في حقّه[٣].

وقال العلّامة البلاغي: من المعلوم عند الشيعة أنّ علياً أمير المؤمنين بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يرتد برداء إلّا للصلاة حتى جمع القرآن على ترتيب نزوله وتقدّم منسوخه على ناسخه. وأخرج ابن سعد وابن عبدالبّر في الاستيعاب عن محمد بن سيرين، قال: نبئت أنّ علياً أبطأ عن بيعة أبي بكر، فقال: أكرهت إمارتي؟ فقال: آليت بيميني أن لاأرتدي برداء إلّا للصلاة حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا أنّه كتبه على تنزيله. قال محمد: فلو أصبت ذلك الكتاب كان فيه علم[٤].

قال ابن حجر: وقد ورد أنّ عليا جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرجه ابن أبي داود[٥].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: ج ١ ص ٤.

(٢) بحارالأنوار: ج ٩٢ ص ٨٨ ح ٢٧.

(٣) نفس المصدر.

(٤) آلاء الرحمان: ج ١ ص ١٨ بالهامش. وراجع الطبقات: ج ٢ ص ١٠١ والاستيعاب بهامش الاصابة: ج ٢ ص ٢٥٣.

(٥) الإتقان: ج ١ ص ٧١ ـ ٧٢.

قال ابن شهرآشوب: ومن عجب أمره في هذا الباب أنّه لاشيءمن العلوم إلّا وأهله يجعلون علياً قدوة، فصار قوله قبلة في الشريعة. فمنه سمع القرآن. ذكر الشيرازي في نزول القرآن عن ابن عباس قال: ضمّن الله محمداً أن يجمع القرآن بعده علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: فجمع الله القرآن في قلب عليّ، وجمعه عليّ بعد موت رسول الله بستة أشهر...

قال: وفي أخبار أبي رافع: أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال في مرضه الذي توفي فيه ـ لعلي ـ: يا عليّ هذا كتاب الله خذه إليك، فجمعه علي في ثوب ومضى الى منزله، فلمّا قبض النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) جلس عليّ فألفه كما أنزل الله، وكان به عالماً.

قال: وحدّثني أبوالعلاء العطار، والموفّق خطيب خوارزم في كتابيهما بالإسناد عن علي بن رباح: أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر علياً بتأليف القرآن فألّفه وكتبه.

وروى أبونعيم في الحلية والخطيب في الأربعين بالإسناد عن السدي،عن عبدخير، عن علي (عليه السلام) قال: لمّا قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) أقسمت أن لاأضع ردائي على ظهري حتى أجمع مابين اللوحين، فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن.

قال: وفي أخبار أهل البيت عليهم السلام: أنّه (عليه السلام) آلى على نفسه أن لايضع رداءه على عاتقه إلّا للصلاة حتى يؤلّف القرآن ويجمعه، فانقطع عنهم مدة الى أن جمعه، ثم خرج إليهم به في إزار يحمله وهم مجتمعون في المسجد، فأنكروا مصيره بعد انقطاع مع الالبة. فقالوا: لإمر ماجاء أبوالحسن، فلمّا توسّطهم وضع الكتاب بينهم، ثم قال: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إنّي مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي. وهذا الكتاب، وأنا العترة. فقام إليه الثاني وقال له: إن يكن عندك

قرآن فعندنا مثله، فلا حاجة لنا فيكما. فحمل (عليه السلام) الكتاب وعاد به بعد أن ألزمهم الحجّة.

وفي خبر طويل عن الإمام الصادق (عليه السلام): أنّه حمله وولّى راجعاً نحو حجرته، وهو يقول: «فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ»(١).

وصف مصحف علي (عليه السلام):

امتاز مصحفه (عليه السلام) أوّلا: بترتيبه الموضوع على ترتيب النزول، الأوّل فالأوّل في دقّة فائقة.

ثانياً: إثبات نصوص الكتاب كما هي من غير تحوير أو تغيير أو أن تشذّ منه كلمة أو آية.

ثالثاً: إثبات قراءته كما قرأه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حرفاً بحرف.

رابعاً: اشتماله على توضيحات ـ على الهامش طبعاً ـ وبيان المناسبة التي استدعت نزول الآية، والمكان الذي نزلت فيه، والساعة التي نزلت فيها، والأشخاص الذين نزلت فيهم.

خامساً: اشتماله على الجوانب العامّة من الآيات بحيث لا تخصّ زماناً ولا مكاناً ولا شخصاً خاصّاً. فهي تجري كما تجري الشمس والقمر. وهذا هو المقصود من التأويل في قوله (عليه السلام): ولقد جئتهم بالكتاب مشتملا على التنزيل والتأويل(٢).

فالتنزيل هي المناسبة الوقتيّة التي استدعت النزول. والتأويل هو بيان

---

(١) المناقب: ج٢ ص٤٠ ـ ٤١. آل عمران: ١٨٧. وراجع بحار الأنوار: ج٩٢ ص٥١ ـ ٥٢ ح١٨.

(٢) آلاء الرحمان: ج١ ص٢٥٧.

المجرى العام.

كان مصحف علي (عليه السلام) مشتملاً على كلّ هذه الدقائق التي أخذها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) من غير أن ينسى منها شيئاً أو يشتبه عليه شيء.

قال (عليه السلام): ما نزلت آية على رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلاّ أقرأنيها وأملاها عليّ، فأكتبها بخطّي. وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها. ودعاالله لي أن يعلّمني فهمها وحفظها، فمانسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي مادعا [١].

وعن الأصبغ بن نباتة، قال: قدم أميرالمؤمنين (عليه السلام) الكوفة، صلّى بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم سبّح اسم ربّك الأعلى، فقال المنافقون: لاوالله مايحسن ابن أبي طالب أن يقرأ القرآن، ولو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بناغير هذه السورة! قال: فبلغ ذلك علياً (عليه السلام) فقال: ويلهم إنّي لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه، من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه، والله ما من حرف نزل على محمد (صلى الله عليه وآله) إلاّ أنّي أعرف فيمن أنزل وفي أي يوم وفي أيّ موضع. ويلهم أما يقرأون: «إِنَّ هٰذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولىٰ.صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسَى»[٢] والله عندي، ورثتهما من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقدأنهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من إبراهيم وموسى (عليهما السلام) ويلهم والله أنا الذي أنزل الله فيّ: «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»[٣] فإنّما كنّا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيخبرنا بالوحي فاعيه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفاً؟[٤].

---

(١) تفسير البرهان: ج١ ص١٦ ح١٤.

(٢) الاعلى: ١٨-١٩.

(٣) الحاقة: ١٢.

(٤) تفسير العياشي: ج١ ص١٤ ح١.

هذا... و لليعقوبي وصف غريب عن مصحف علي (عليه السلام): يجزّؤه سبعة أجزاء كلّ جزء يحتوي على ستّ عشرة أو خمس عشرة سورة، لتكون مجموع السور مائة وإحدى عشرة سورة!! وكلّ جزء لابدّ أن تبلغ آياته ثمانمائة وستاً وثمانين آية، فيكون مجموع آيات المصحف ستة آلاف واثنتين ومائتي آية.!

ويجعل مبدأ الجزء الأوّل: سورة البقرة ثم سورة يوسف ثم العنكبوت، وينتهي الى سورة الأعلى والبيّنة. ويسمّيه جزء البقرة.

ويجعل مبدأ الجزء الثاني: آل عمران ثم هود والحج، وينتهي الى سورة الفيل وقريش. ويسمّيه جزء آل عمران.

ويجعل مبدأ الجزء الثالث: سورة النساء، وآخره النمل. ويسمّيه جزء النساء.

ومبدأ الجزء الرابع: المائدة وآخره الكافرون. ومبدأ الجزء الخامس: الأنعام، ومنتهاه التكاثر. ومبدأ الجزء السادس: الأعراف، ومنتهاه النصر. ومبدأ الجزء السابع: الأنفال وآخره الناس.

وهكذا يوزّع السور الطوال على مبادئ الأجزاء السبع ويتدرّج الى القصار ويسمي كلّ جزء باسم السورة التي بدأ بها[١].

وهذا الوصف يخالف تماماً وصف الاخرين: إنّه كان مرتباً حسب النزول. قال جلال الدين: كان اوّل مصحف علي (عليه السلام) سورة اقرأ ثم سورة المدّثر ثم نون ثم المزمّل ثم تبت ثم التكوير... وهكذا الى آخر ترتيب السور حسب نزولها[٢] ومن ثم فهذا الوصف مخالف لإجماع أرباب السير والتاريخ.

ومن الغريب أنّه جعل الم تنزيل والسجدة سورتين. وحم والمؤمن سورتين. وطس والنحل سورتين. وطسم والشعراء سورتين. في حين أنّ كلّا منهما سورة

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١١٣.

(٢) الإتقان: ج ١ ص ٦٢.

واحدة. وعبّر عن سورة الأنبياء بسورة اقتربت، في حين أنها تبتدئ بقوله تعالى: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ».

وهذه الغفلة من مثل أحمد بن الواضح الكاتب الإخباري غريبة جداً!

أمد مصحف علي (عليه السلام):

روى سليم بن قيس الهلالي عن **سلمان الفارسي (رضوان الله عليه)** قال: لمّا **رأى أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)** غدر الناس به لزم بيته وأقبل على القرآن يؤلّفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه. وكان في الصحف والشظاظ والاشار والرقاع[1].

وبعث القوم إليه ليبايع فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أياماً حتى جمعه في ثوب واحد وختمه ثم خرج الى الناس- وفي رواية اليعقوبي: حمله على جمل وأتى به الى القوم[2]- وهم مجتمعون حول أبي بكر في المسجد، وخاطبهم قائلا: إنّي لم أزل منذ قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مشغولا بغسله وتجهيزه، ثم بالقرآن حتى جمعته كلّه في هذا الثوب الواحد ولم ينزل الله على نبيّه آية من القرآن إلّا وقد جمعتها، وليس منه آية وقد أقرأنيها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلّمني تأويلها. إن تقولوا غداً إنّا كنّا عن هذا غافلين!

فقام إليه رجل من كبار القوم- وفي رواية أبي ذر: فنظر فيه فلان وإذا فيه أشياء[3]- فقال: يا علي، اردده فلاحاجة لنا فيه، ما أغنانا بما معنا من القرآن،

---

(١) الصحف: جمع صحيفة، وهي الورقة من كتاب أوقرطاس. والشظاظ: خشبة محدّدة، يجمع على أشظة. والأشار خشبة أو صفحة أو عظمة مرققة مصقولة.والرقاع: جمع رقعة،وهي القطعة من الورق يكتب عليه.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص١١٣.

(٣) احتجاج الطبرسي: ص٨٢.

عمّا تدعونا إليه، فدخل علي (عليه السلام) بيته[١].

وفي رواية: قال علي (عليه السلام): أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنّما كان عليّ أن أخبركم حين جمعته لتقرأوه[٢].

وقد تقدّم كلام ابن النديم: كان مصحف عليّ يتوارثه بنو الحسن[٣] والصحيح عندنا: أنّ مصحفه (عليه السلام) يتوارثه أوصياؤه الائمّة من بعده، واحداً بعد واحد لايرونه لأحد[٤].

وفي عهد عثمان حيث اختلفت المصاحف وأثارت ضجّة بين المسلمين، سأل طلحة الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام) ليخرج للناس مصحفه الذي جمعه بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأتى به الى القوم فرفضوه. قال: ومايمنعك ـ يرحمك الله ـ أن تخرج كتاب الله الى الناس؟! فكفّ (عليه السلام) عن الجواب أوّلا، فكرّر طلحة السؤال، فقال: لاأراك يا أباالحسن أجبتني عمّا سألتك من أمر القرآن ألا تظهره للناس؟

قال (عليه السلام): يا طلحة عمداً كففت عن جوابك. فأخبرني عمّا كتبه القوم أقرآن كلّه أم فيه ماليس بقرآن؟ قال طلحة: بل قرآن كلّه. قال (عليه السلام): إن أخذتم بما فيه نجوتم من النار ودخلتم الجنة.. قال طلحة: حسبي أمّا إذا كان قرآناً فحسبي[٥].

هكذا حرص الإمام وأوصياؤه (عليهم السلام) على حفظ وحدة الامّة فلا تختلف بعد اجتماعها على ماهو قرآن كلّه.

---

(١) كتاب سليم بن قيس: ص ٧٢.

(٢) تفسير الصافي: ج ١ ص ٢٥.

(٣) الفهرست: ص ٤٨.

(٤) بحارالأنوار: ج ٩٢ ص ٤٢ ح ١.

(٥) سليم بن قيس: ص ١١٠. وبحارالأنوار: ج ٩٢ ص ٤٢ ح ١.

جمع زيد بن ثابت:

كان ذاك الرفض القاسي لمصحف علي (عليه السلام) يستدعي التفكير في القيام بمهمّة جمع القرآن مهما كلّف الأمر، بعد أن أحسّ الناس بضرورة جمع القرآن في مكان، ولاسيّما كانت وصيّة نبيّهم (صلى الله عليه وآله) بجمعه لئلا يضيع، كما ضيّعت اليهود توراتهم[١].

هذا والقرآن هو المرجع الأوّل للتشريع الإسلامي، والأساس الركين لبناية صرح الحياة الإجتماعيّة في كافّة شؤونها المختلفة آنذاك، ولايصحّ أن يبقى مفرّقاً على العسب واللخاف أوفي صدور الرجال، ولاسيّما وقد استحر القتل بكثير من حامليه، ويوشك أن يذهب القرآن بذهاب حامليه، فقد قتل منهم سبعون في واقعة اليمامة، وفي رواية: أربعمائة[٢].

وهذه الفكرة أبداها عمر بن الخطاب، واقترح على أبي بكر ـ وهو وليّ المسلمين يوم ذاك ـ أن ينتدب لذلك من تتوفر فيه شرائط القيام بهذه المهمّة الخطيرة، فوقع اختيارهم على زيد بن ثابت، وهو شاب حدث فيه مرونة حداثة السنّ، وله سابقة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتيّة من غير أن يخشى منه على جوانب الخلافة الفتيّة في شيء، كما كان يخشى من غيره من كبار الصحابة، وفيهم شيء من المناعة والجموح وعدم الانقياد التام لميول السلطة واتجاهاتها آنذاك .

قال زيد: أرسل اليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، وعمر جالس عنده. قال: انّ هذا ـ وأشار الى عمر ـ أتاني وقال: إنّ القتل قد استحر يوم اليمامة بقرّاء

---

(١) تفسير القمي : ص٧٤٥.

(٢) فتح الباري: ج٧ ص٤٤٧. وفي تفسير الطبري: ج٣ ص٢٩٦. قتل من المهاجرين والأنصار من قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلثمائة ومن التابعين ثلثمائة، وفي كتاب أبي بكر الى خالد: ص٣٠٠: دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفّف بعد...

القرآن، وأخاف أن يستحربهم القتل في سائر المواطن فيذهب كثير من القرآن، وأشار عليّ بجمع القرآن. فقلت لعمر كيف نفعل مالم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني عمر حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت الذي رآى عمر!

قال زيد: قال لي أبوبكر: إنّك شابّ عاقل لانتّهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتتبّع القرآن واجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلّفوني نقل جبل من مكانه لم يكن أثقل عليّ ممّا كلّفوني به قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فلم يزل أبوبكر وعمر يلحّان عليّ حتي شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر و عمر.

قال زيد: فقمت اتتبّع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال...[١].

منهج زيد:

قام زيد بتنفيذ الفكرة، فجمع القرآن من العسب واللخاف والأدم والقراطيس، وكانت متفرّقة على أيدي الصحابة أو في صدورهم، وعاونه على ذلك جماعة.

وأوّل عمل قام به: أن وجّه نداء عاماً الى ملأ الناس: «من كان تلقّى من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شيئاً من القرآن فليأت به».

وألّف لجنة من خمسة وعشرين عضواً ـ كماجاء في رواية اليعقوبي[٢] ـ وكان عمر يشرف عليهم بنفسه.

---

(١) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٥. ومصاحف السجستاني: ص٦. والكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٦ وج٢ ص٢٤٧. والبرهان: ج١ ص٢٣٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١١٣.

وكـان اجتماعهم على باب المسجد يومياً، والناس يأتونهم بآي القرآن وسوره، كلّ حسب ماعنده من القرآن.

وكانوا لايقبلون من أحد شيئاً حتى يأتي بشاهدين يشهدان بصحّة ماعنده من قرآن. سوى خزيمة بن ثابت، أتى بالآيتين آخر سورة براءة، فقبلوهما منه من غير استشهاد، لأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) اعتبرشهادته وحده شهادتين[1].

قال زيد: ووجدت آخر سورة براءة مع [أبي] خزيمة الأنصاري لم أجده مع أحد غيره[2] وسنتكلّم عمّا جاء بين المعقوفتين.

ومن غريب الأمر: أنّ عمرجاء بآية الرجم وزعمها من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله» لكنّه واجه بالرفض، ولم تقبل منه، لأنّه لم يستطع أن يقيم على ذلك شاهدين[3] وبقي أثر ذلك في نفس عمر، فكان يقول -أيام خلافته-: لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي- يعني آية الرجم[4].

* * *

ثمّ أنّ زيداً لم ينظّم سور القرآن ولم يرتّبهنّ كمصحف، وإنّما جمع القرآن في صحف، أي اودع الآيات والسور في صحف وجعلها في ملف، فكان جمعاً عن التفرقة والضياع، ومن ثم لم يسمّ جمعه مصحفاً.

قال المحاسبي: كان القرآن مفرّقاً في الرقاع والأكتاف والعسب وإنّما أمر الصديق بنسخها من مكان الى مكان مجتمعاً، وكان ذلك بمنزلة أوراق فيها القرآن منتشراً، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لايضيع منها شيء[5].

---

(١) راجع اسدالغابة: ج٢ ص١١٤. ومصاحف السجستاني: ص٦- ٩.

(٢) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٥.

(٣) الإتقان: ج١ ص٥٨

(٤) تفسير ابن كثير: ج٣ ص٢٦١. والبرهان: ج٢ ص٣٥. والإتقان: ج٢ ص٢٦.

(٥) الإتقان: ج١ ص٥٩.

وقال ابن حجر: والفرق بين الصحف (التي جاءت في رواية جمع زيد) والمصحف: أنّ الصحف هي الأوراق المجرّدة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر، وكانت سوراً مفرّقة، كلّ سورة مرتّبة بآياتها على حدة، لكن لم يرتّب بعضها إثر بعض، فلمّا نسخت ورتّب بعضها إثر بعض صارت مصحفاً[١].

وقال أحمد أمين: وفي عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن، لكن لا في مصحف واحد، بل جمعت الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره، وأُودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر[٢].

وقال الزرقاني: صحف أبي بكر كانت مرتّبة الآيات دون السور[٣].

* * *

وهذه الصحف أُودعت عند أبي بكر، فكانت عنده مدة حياته، ثم صارت عند عمر، وبعده كانت عند ابنته حفصة، وفي أيام توحيد المصاحف استعارها عثمان منها ليقابل بها النسخ، ثم ردّها إليها، فلمّا توفيت أخذها مروان ـ يوم كان والياً على المدينة من قبل معاوية ـ من ورثتها وأمر بها فشقت[٤].

* * *

جاء في نصّ البخاري: ووجدت آخر سورة براءة مع أبي خزيمة... ومن ثم يتساءل البعض: من هو أبوخزيمة؟

قال القسطلاني: هو: ابن أوس بن يزيد بن حزام، المشهور بكنيته من غير أن يعرف اسمه[٥].

واحتمل ابن حجر: أنّه الحرث بن خزيمة، كماجاء في رواية أبي داود[٦].

والصحيح أنّه من زيادة الراوي أو الناسخ خطأ، وإنّما هو خزيمة من غير إضافة الأب إليه. بدليل أنّ زيداً قبل شهادته مكان شهادتين. وليس في

(١) فتح الباري: ج ٩ ص ١٦.
(٢) فجر الاسلام: ص ١٩٥.
(٣) مناهل العرفان: ج ١ ص ٢٥٤.
(٤) ارشاد الساري: ج ٧ ص ٤٤٩.
(٥) فتح الباري: ج ٧ ص ٤٤٧.
(٦) فتح الباري: ج ٩ ص ١٢.

الصحابة من يتّسم بهذه السمة الخاصّة سواه[١] وهكذا جزم الإمام بدرالدين الزركشي أنّه خزيمة الذي جعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) شهادته بشهادة رجلين[٢] ومن ثم أدرجه في النّص هكذا بلا إضافة الأب[٣].

أو يقال: إنّ أبا خزيمة هو خزيمة بن ثابت، كان يقال له: أبوخزيمة أيضاً، كماجاء في نصّ ابن اشتة: أبوخزيمة بن ثابت[٤].

وفي سائر الروايات -غير رواية البخاري- خزيمة بن ثابت، بلا إضافة الأب [٥]،ومن ثم رجّحنا خطأ النسخة.

* * *

وسؤال آخر: ماذا كان يعني بالشاهدين في جعلهما شرط قبول النّص القرآني؟ كماجاء في نصّ ابن داود بإسناد معتبر، وتلقّته أئمّة الفنّ بالقبول[٦].

قال ابن حجر: وكأنّ المراد بالشاهدين: الحفظ والكتابة[٧].

وقال السخاوي: شاهدان يشهدان على أنّ ذلك المكتوب كُتب بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو المراد: أنّهما يشهدان بصحّة قراءتها، وأنّها من الوجوه التي نزل بها القرآن.

قال أبوشامة: وكأن الغرض من ذلك أن لايكتب إلّا من عين ماكتب بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) لامن مجرد الحفظ.

قال جلال الدين: أو المراد: أنّهما يشهدان على أنّ ذلك ممّا عرض على النبيّ (صلى الله عليه وآله) عام وفاته، وكانت هى القراءة الأخيرة التي اتفق عليها الصحابة ويقرؤها الناس اليوم[٨].

قلت: المراد: أنّ شاهدين عدلين- أحدهما الذي أتى بالآية وعدل آخر-

---

(١) راجع الطبقات: ج ٤ ص ٩٠.
(٢) البرهان: ج ١ ص ٢٣٤.
(٣) البرهان: ج ١ ص ٢٣٩.
(٤) الإتقان: ج ١ ص ٥٨.
(٥) راجع الدرالمنثور: ج ٣ ص ٢٩٦.
(٦) راجع الإتقان: ج ١ ص ٥٨.
(٧) فتح الباري: ج ٩ ص ١٢.
(٨) راجع الإتقان: ج ١ ص ٥٠ و ٥٨.

يشهدان بسماعهما قرآناً من النبيّ (صلى الله عليه وآله) بدليل قبول شهادة خزيمة بن ثابت الذي جاء بآخر سورة براءة، مكان شهادة رجلين. وهكذا جاء في نصّ ابن اشتة، أخرجه في المصاحف عن الليث بن سعد، قال: وكان الناس يأتون زيدبن ثابت، فكان لايكتب آية إلّا بشاهديّ عدل وأنّ آخر سورة براءة لم يجدها إلّا مع أبي خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، فقال: اكتبوها، فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب. وإنّ عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها، لأنّه كان وحده[1].

شكوك واعتراضات:

يقول بلاشير: لماذا اختار أبوبكر لهذه المهمة الخطيرة مثل زيد وهو شابّ حدث لم يتجاوز العشرين، في حين وجود ذوي الكفاءات من كبار الصحابة؟ ولنفرض عكورة المورد حالت دون اللجوء الى شخصيّة كبيرة مثل علي بن أبي طالب فلماذا أغفلوا سائر فضلاء الصحابة ممّن لهم سابقة وعهد قديم بنزول القرآن وصحبة الرسول؟ وهل أنّ واقعة اليمامة أطاحت بجميع قرّاء الصحابة القدامى، ولم يبق سوى زيد وهو حديث العهد بالقراءة وبالقرآن؟ الأمر الذي يثير شكوكنا في القضية ولانكاد نصدّق بأنّ زيداً هوالذي جمع القرآن.

اضف الى ذلك أنّ التاريخ لم يحدّد بالضبط بدء قيامه بهذا العمل، ومتى انتهى منه؟ فلوصحّ أنّه قام بجمع القرآن بعد واقعة اليمامة، لكان بقي من عمر أبي بكر خمسة عشر شهراً، وهذه فترة تضيق بإنجاز هكذا عمل خطير، الذي يتطلب جهوداً واسعة لجمع المصادر والإلتقاء مع رجال كانت عندهم آيات أو سور وكانوا قد انتشروا في البلاد، فإنّ هذا وذاك يتطلّبان وقتاً أوسع وأعواناً كثيرين، ممّا لايمكن إنجازه في تلك المدة القصيرة.

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ٥٨.

هذا والرواية تقول: إنّ زيدا جمع القرآن في صحف وأودعها عند أبي بكر، ثم صارت عند عمر ثم ورثتها ابنته حفصة.!

فإذا كانت الغاية من جمع القرآن هي ملاحظة المصلحة العامّة كما ينبّه على ذلك أنّ ورثة أبي بكر لم يختصّوا بتلك الصحف، وإنّما انتقلت الى عمر، الخليفة بعده، فلماذا خصّصها عمر بابنته حفصة ولم يجعلها في متناول المسلمين عاماً؟ كما أنّه لِمَ صارت الصحف وديعة اختصاصيّة عند أبي بكر من غير أن تجعل في مكان هو معرض عامّ؟

وهكذا اعترض المستشرق شفالي على قضيّة جمع زيد للقرآن.

والذي يستنتجه بلاشير من شكوكه هذه: أنّ كبار الصحابة هم الذين قاموا بجمع القرآن بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ورتّبوه ورتّبوا سوره، الأمر الذي كانت وظيفة الخلافة الإسلاميّة أن تقوم به ولكنّها غفلت عنه. وربّما أدّت هذه الغفلة الى الطعن في القائمين بأعضادها. ومن ثم أوعزت الى شابّ حدث لايتهموه أن ينسخ عن بعض مصاحف الصحابة مصحفاً يمتاز به الخليفة أيضاً أمّا أصل القيام بجمع القرآن فلا[1].

* * *

قلت: إذا كانت شرائط إنجاز عمل - مهما كان ضخماً - متوفّرة، وفي المتناول القريب، فإنّ إنجازه يتحقّق في أقرب وقت ممكن. ولاسيّما إذا كان العمل فوتيّاً يحاول المتصدّون إنجازه في أقرب فرصة ممكنة. وهكذا كانت قضيّة جمع القرآن في الصدر الأوّل..

أمّا المصادر الأوّلية فكانت متوفّرة في نفس المدينة، محفوظة على أيدي الصحابة الأُمناء، وكان حملة القرآن وحفظته موجودين لايفارقون مسجد سيّدهم

(١) مترجم وملخص عن مجلة «خواندنيها» الفارسية في سنتها الثامنة العدد: ٤٤ بتاريخ ١٣ بهمن ١٣٢٦هـ ش طهران.

الذي ارتحل من بينهم في عهد قريب ـليل نهارـ والاتصال بهم سهل التناول. لاسيّما وسور القرآن كانت مكتملة، وبقي جمعها في مكان، لاأكثر. إذن فقد كانت الأسباب مؤاتية والظروف مساعدة. أضف إليها: أنّ السلطةـ وبيدها القدرةـ إذا حاولت إنجاز هكذا عمل متهيّىءالأسباب، فإنّه لايستدعي طولا في مدة العمل بعد توفّر هذه الشروط.

هذا وزيدلم يعمل سوى جمع القرآن في مكان وحفظه عن الضياع والانبثاث ولم يعمل فيه نظما ولا ترتيباً ولاأيّ عمل فكريّ آخر، فإنّ هكذا عملاً بسيطاً لا يتطلّب جهوداً طويلة ولافراغاً واسعاً.

نعم كانت الغاية من ذلك هي مراعاة المصلحة العامّة: حفظ القرآن عن الضياع، الأمر الذي تحقّق بإيداع الصحف المشتملة على تمام القرآن في مكان أمين ولم يكن يومذاك احتياج الى مراجعة تلك الصحف بعد أن كان حفظة القرآن وحاملوه منتشرين بين أظهر الناس بكثرة، والناس يومذاك حافظون لجلّ آيات ترتبط والحياة المعيشيّة والسياسيّة وما أشبه.

هذا.. وفي أواخر عهد عمر أصبحت نسخ المصاحف المحتوية على جميع آي القرآن وسوره كثيرة، ومجموعة على أيدي كبار الصحابة الموثوق بهم رآى أنّ الحاجة العامّة الى تلك الصحف المودعة عنده هبطت الى درجة نازلة جداً، ومن ثم تملكها هو، ولم تعد حاجة إليها سوى في دور توحيد المصاحف على عهد عثمان.

جدارة زيد:

وأمّا قضيّة اختيار مثل زيد لهكذا عمل خطير..

فقال الزرقاني: إنّ أبابكر رآى بنورالله أن ينتدب لتحقيق هذا العمل رجلاً من خيرة رجالات الصحابة، هو زيد بن ثابت، لأنّه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن مالم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفّاظ

القرآن. ومن كتّاب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله). وشهد العرضة الأخيرة للقرآن. وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله. وشدّة ورعه. وعظم أمانته وكمال خلقه. واستقامة دينه[1].

تلك نعوت ثمانية عدّدها الزرقاني، زعمها متوفّرة في زيد وحده، لم تجتمع جميعاً في غيره من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله) الموجودين آنذاك..!

(١) هذا مالانكاد نصدّقه بتاتا...!

(٢) إنّا نعلم: أنّ الذين جمعوا القرآن كلّه وحفظوه على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد كان أمر الناس بالرجوع إليهم واستقراء القرآن منهم- على ماجاء في صحيح البخاري وغيره- أربعة، ليس فيهم زيد، هم: عبدالله بن مسعود وأُبي بن كعب. ومعاذ بن جبل. وسالم مولى حذيفة[2].

وكانوا على وفرة من سائر النعوت التي ذكرها الزرقاني، فلماذا لم يختر أبوبكر واحداً من هؤلاء؟!

أمّا الذي شهد العرضة الأخيرة فهو ابن مسعود، ولم يكن زيداً..! قال ابن عباس كان القرآن يعرض على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كلّ رمضان مرّة إلّا العام الذي قبض فيه، فإنّه عرض عليه مرّتين، وقد حضره عبدالله بن مسعود، فشهد مانسخ وبدّل[3].

هذا وسابقة ابن مسعود بالقرآن وبعناية الرسول (صلى الله عليه وآله) الذي

---

(١) مناهل العرفان: ج ١ ص٢٤٣.

(١) صحيح البخاري: ج٥ ص٣٤ وج٦ ص٢٢٩.

وجاء في حديث أنس: لم يجمع القرآن على عهده (صلى الله عليه وآله) غير أربعة: أبوالدرداء ومعاذبن جبل وزيدبن ثابت وأبوزيد.. صحيح البخاري: ج٦ ص٢٣٠، لكنه زعم زعمه أنس ومن ثم ردّ عليه أئمّة النقد والتمحيص. راجع فتح الباري: ج٩ ص٤٢. والإتقان: ج١ ص٧١.

وإذا كان زيد ممّن جمع القران على عهده(صلى الله عليه وآله) فلماذا استعظم ذلك عند ما اقترح عليه أبوبكر أن يقوم بجمع القرآن؟!

(٣) الطبقات: ج٢ ص٣٤٢.

كان يعلّمه القرآن من فيه معروفة[١].

وكان أُبي بن كعب أقرأ أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله) وقد أمره الله أن يعرض القرآن كلّه على أبي[٢] وكان معروفاً بسيّد القراء[٣].

وكذلك معاذبن جبل الذي قال الرسول (صلى الله عليه وآله) في حقّه: هو إمام العلماء رتوة ـ أي اعتلاء ـ وخلفه في أهل مكة يفقههم ويقرئهم القرآن[٤].

الأمرالذي يجعل من زيد معوزاً كفاءة سائر الصحابة الكبار! كما أنّ قضية كتابته للوحي كانت عند فقد الآخرين. قال ابن عبدالبرّ: كان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا لم يكن أُبي بن كعب حاضراً دعى زيداً ليكتب له[٥] هذا... ولم يأت الزرقاني لماذكره من نعوت خاصّة بمستند!

نعم، كان الذي يختص به زيد دون سائر رجالات الأصحاب هو: امتيازه بصفة جاءت الإشارة إليها في نصّ البخاري: «إنّك شابّ عاقل ـ! ـ لانتهمك».! كان ذانزعة متلائمة مع أهداف السلطة القائمة، وقد أبدى ذلك يوم السقيفة، وقف موقف المدافع الجاد دون المهاجرين، وهو أنصاريّ قائلا: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان من المهاجرين و كنّا أنصاره وإنّما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره... فانبسط وجه أبي بكر لهذا الكلام المبتكر وجزاه خيراً: قال: جزاكم الله خيراً من حيّ يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم ـ يعني زيداً ـ والله لوقلتم غير هذا ماصالحناكم... وقال له يوماً: أنت عندنا كلّنا أمين..[٦].

---

(١) راجع صحيح البخاري: ج٥ ص ٣٥ وج٦ ص ٢٢٩ و ٢٣٠. والطبقات: ج٢ ص٣٥٥. ومستدرك الحاكم: ج٢ ص٢٢٠.

(٢) راجع صحيح البخاري: ج٦ ص ٢٣٠. والطبقات: ج٢ ص٣٤١.

(٣) تهذيب التهذيب: ج١ ص١٨٧.

(٤) راجع الطبقات: ج٢ ص٣٤٧ـ ٣٤٨.

(٥) الاستيعاب بهامش الاصابة: ج١ ص٢٩ واسدالغابة: ج١ ص ٥٠.

(٦) تهذيب ابن عساكر: ج٥ ص٢٤٤ و٤٤٦ وج٦ ص ١٣٢.

ولم ينس له ابوبكر هذا الموقف الخطير، ومن ثم انتدبه لجمع القرآن، معتمداً عليه كلّ الاعتماد، من غير أنّ يتّهمه في عقله الذي كان يعرف اتّجاه الرياح من اين تهب!

نعم كان على وفرة من الذكاء،وكان عند مقدم النبيّ (صلى الله عليه وآله) المدينة ابن أحد عشرة سنة فاستخدمه النبيّ لكتابة رسائله بالعبرية وقراءتها بعد أن كلّفه تعلّم العبريّة والخطّ في مدارس «ماسلة» اليهوديّة آنذاك [١].

وتولّى كتابة المصاحف على عهد عثمان أيضاً في نفر من أغلمة قريش، سعيدبن العاصي وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمان بن الحارث[٢].

مصاحف أخرى:

في الفترة بعد وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قامت جماعة من كبار الصحابة بتأليف القرآن وجمع سوره بين دفّتين، كلّ بنظم وترتيب خاصّ، وكان يسمّى مصحفا.

يقال: أوّل من جمع القرآن في مصحف، أي رتّب سوره ككتاب منظّم، هو سالم مولى حذيفة. فائتمروا فيما يسمّونه؟ فقال بعضهم: سمّوه السفر. فقال سالم: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه. فقال: رأيت مثله في الحبشة يسمّى المصحف. فاجتمع رأيهم على أن يسمّوه المصحف. أخرجه ابن أشتة في كتاب المصاحف [٣].

وهكذا قام بجمع القرآن ابن مسعود. وأُبي بن كعب. وابوموسى الأشعري، وكان سمّى مصحفه: لباب القلوب[٤]. والمقداد بن الأسود. ومعاذبن جبل.

---

(١) الطبقات: ج ٢ ص١١٥ـ ١١٧. (١) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٦.

(٣) الإتقان: ج ١ ص٥٨. وراجع المصاحف للسجستاني: ص١١ـ ١٤.

(٤) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥.

ويبدو من حديث العراقي الذي جاء الى عائشة يطلب إليها أن تريه مصحفها أنّ لها أيضاً مصحف كان يخصّها. روى البخاري عن ابن ماهك ، قال: انّي عند عائشة إذ جاءها عراقيّ فسألها عن مسائل: منها: أنّه طلب أن تريه مصحفها، قال: يا أُمَّ المؤمنين أريني مصحفك. قالت: لم؟ قال: لعلّي أُولّف القرآن عليه، فإنّه يقرأ غير مؤلّف- أي غير مرتّب ولامنظّم، او لاختلاف الناس في نظم آيه وعددها[١]- قالت: ومايضرّك أيّه قرأت... الى أن قال: فأخرجت له مصحفاً وأملت عليه آي السور[٢] أي عدد آيها.

وحاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامي آنذاك ، فكان أهل الكوفة يقرأون على مصحف عبدالله بن مسعود وأهل البصرة يقرأون على مصحف أبي موسى الأشعري. وأهل الشام على مصحف أُبي بن كعب. وأهل دمشق خاصّة على مصحف المقدادبن الأسود. وفي رواية الكامل: أنّ أهل حمص كانوا على قراءة المقداد[٣].

أمدهذه المصاحف:

كان أمد هذه المصاحف قصيراً جداً انتهى بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان. فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق والحرق.

قال أنس بن مالك : أرسل عثمان الى كلّ افق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بماسواه من القرآن في كلّ صحيفة أو مصحف أن يحرق[٤].

نعم حظيت بعض هذه المصاحف عمراً أطول، كالصحف التي كانت

---

(١) احتمله ابن حجر في فتح الباري: ج٩ ص٣٦.

(٢) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٨.

(٣) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥. وراجع صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٥. والمصاحف للسجستاني: ص١١- ١٤. والبرهان: ج١ ص٢٣٩- ٢٤٣.

(٤) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٦.

عند حفصة، طلبها عثمان ليقابل بها نسخ المصاحف فأبت أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردّنها عليها[1] ومن ثم ردّها وبقيت عندها حتى توفيت، فأمرها مروان فشقّت.

ويبدو من رواية أبي بكر بن أبي داود: أنّ ولد أُبي بن كعب كانوا قد احتفظوا بنسخة من مصحف أبيهم بعيداً عن آخرين قال: قدم اناس من العراق يريدون محمد بن أُبي، فطلبوا إليه أن يخرج لهم مصحف أبيه! فقال: قد قبضه عثمان، فألحّوا عليه ولكن من غير جدوى، الأمر الذي كان يدلّ على مبلغ خوفه من الحكم القائم، فلم يخرجه للعراقيّين[2].

وفي رواية الطبري: أنّ ابن عباس دفع مصحفاً الى أبي ثابت، ووصفه بأنّه على قراءة أُبي بن كعب. وبقي الى أن انتقل الى نصيربن أبي الأشعث الأسديّ الكوفي فأتاه يحيى بن عيسى الفاخوري يوماً وقرأ فيه: «فما استمتعتم به منهن الى اجل مسمى»[3] الأمر الذي يدلّ على أنّ هذا المصحف عاش حتى أواخر القرن الثاني، لأنّ يحيى بن عيسى توفي عام ٢٠١[4].

قال الفضل بن شاذان: أخبرنا الثقة من أصحابنا، قال: كان تأليف السورفي قراءة أُبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها «قرية الأنصار» على رأس فرسخين عند محمدبن عبدالملك الأنصاري (توفي سنة ١٥٠). أخرج إلينا مصحفاً قال: هو مصحف أُبي. رويناه عن آبائنا، فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل وعدد الآي..[5]

وجاء في روايات أهل البيت (عليهم السلام) قول الصادق (عليه السلام): أمّا نحن فنقرأ على قراءة أُبي- أي ابن كعب[1].

---

(١) المصاحف للسجستاني: ص٩.

(٢) المصاحف للسجستاني: ص٢٥.

(٣) تفسر الطبري: ج٥ ص٩.

(٤) تهذيب التهذيب: ج ١١ ص٢٦٣.

(٥) الفهرست لابن القديم: ص٢٩.

(٦) وسائل الشيعة: باب ٧٤ من أبواب القراءة في الصلاة ج١٧ ص١١ ح٤.

أمّا ابن مسعود فامتنع أن يدفع مصحفه الى رسول الخليفة، وظلّ محتفظاً به في صرامة بالغة أدّت الى مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عثمان، كان فيها إبعاده عن عمله وأخيراً حتفه.

عندما جاء رسول الخليفة الى الكوفة لأخذ المصاحف، قام ابن مسعود خطيباً قائلا: أيّها الناس إنّي غالّ مصحفي، ومن استطاع أنّ يغلّ مصحفاً فليغلل، فإنّه من غلّ يأت يوم القيامة بما غلّ ونعم الغلّ المصحف[1].

وهكذا كان يحرّض الناس على مخالفة الحكم القائم، الأمر الذي جرّ عليه الويلات، فأشخصه الخليفة الى المدينة وجرى بينهما كلام عنيف انتهى الى ضربه وكسر أضلاعه وإخراجه من المسجد بصورة مزرية.

روى الواقدي بإسناده وغيره: أنّ ابن مسعود لمّا استقدم المدينة دخلها ليلا، وكانت ليلة جمعة، فلمّا علم عثمان، بدخوله، قال: أيّها النّاس إنّه قد طرقكم الليلة دويبة، من يمشي على طعامه يقيء ويسلح.

قال ابن مسعود: لست كذلك ولكنّني صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر، وصاحبه يوم أُحد، وصاحبه يوم بيعة الرضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين...

وصاحت عائشة: يا عثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟! فقال عثمان: اسكتي.

ثم قال لعبدالله بن زمعة بن الأسود: أخرجه إخراجاً عنيفاً! فأخذه ابن زمعة، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضلعا من أضلاعه. فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان.

قال الراوي: فكأني أنظر الى حموشة ساقي عبدالله بن مسعود، ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان، حتى أُخرج من المسجد، وهو يقول: أنشدك الله

---

(١) المصاحف للسجستاني: ص١٥.

الا تخرجني من مسجد خليلي رسول الله (صلى الله عليه وآله)[١].

قيل: واعتلّ ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده، فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرت الذي فعلته بي، إنّك أمرت بي فوطئ جوفي فلم أعقل صلاة الظهر ولا العصر، ومنعتني عطائي، قال عثمان: فإنّي أُقيدك من نفسي، فافعل بي مثل الذي فعل بك ... وهذا عطاؤك فخذه: قال ابن مسعود: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطيني وأنا غنيّ عنه! لاحاجة لي به ... فأقام ابن مسعود مغاضبا لعثمان حتى توفي، وصلّى عليه عمّار بن ياسر في ستر من عثمان. وهكذا لـمّامات المقداد صلّى عليه عمّار بوصيّة منه، فاشتدّ غضب عثمان على عمّار. وقال: ويلي على ابن السوداء أما لقد كنت به عليما![٢].

* * *

هذا... ورغم ذلك كلّه فقد بقي مصحفه متداولا الى أيام متأخّرة: يقول ابن النديم (٢٩٧ـ ٣٨٥هـ): رأيت عدّة مصاحف ذكر نسّاخها أنّها مصحف عبدالله بن مسعود، وقد كتب بعضها منذ مائتي سنة[٣].

وهكذا يبدو من الزمخشري: أنّ هذا المصحف كان معروفا حتى القرن السادس، لأنّه يقول: وفي مصحف ابن مسعود كذا... وظاهر هذه العبارة أنه هو وجدها في نفس المصحف، لاأنّه منقول إليه[٤].

وصف عامّ عن مصاحف الصحابة:

كان الطابع العامّ الذي كانت المصاحف آنذاك تتسم به: هو تقديم السور الطوال على القصار نوعاًما فى ترتيب منهجي خاصّ:

---

(١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد):ج ٣ ص ٤٣ـ ٤٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٦٠.

(٣) الفهرست: ص ٤٦.

(٤) راجع الكشاف: ج ٢ ص ٤١٠ وج ٤ ص ٤٩٠.

١- ابتداء من السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، الأعراف، الأنعام، المائدة،يونس[١].

٢- ثم المئين، وهي السور تربو آياتها على المائة، وهي ماتقرب من اثنتي عشرة سورة.

٣- ثم المثاني، وهي السور لا تبلغ آياتها المائة، وهي ما تقرب من عشرين سورة. وسمّيت مثاني لأنّها تثنى أي تكرر قراءتها أكثر ممّا تقرأ غيرها من الطوال والمئين.

٤- ثم الحواميم، وهي السور بدأت بـ «حم»: سبع سور.

٥- ثم الممتحنات، وهي تقرب من عشرين سورة.

٦- ثم المفصّلات، تبتدئ من سورة الرحمن الى آخر القرآن.

وسمّيت بذلك لقرب فواصلها وكثرة فصولها.

هذا هو الطابع العامّ لمصاحف الصحابة، والنظر في الأكثر الى مصحف ابن مسعود. وإن كانت المصاحف تختلف مع بعضها في تقديم بعض السور على بعض وتأخيرها عنها، أو يزيد عدد سور بعضها على بعض. على تفصيل يأتي.

وصف مصحف ابن مسعود:

كان تأليف مصحف عبدالله بن مسعود وفق الترتيب التالي[٢]:

١- السبع الطوال: البقرة، النساء، آل عمران، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس.

---

(١) تلك السبع الطوال في مصاحف الصحابة، غير أنّ عثمان عمد الى تقديم سورة الأنفال فزعمها مع سورة براءة سورة واحدة جعلهما من السبع الطوال. وسيأتي الكلام في ذلك راجع الإتقان: ج ١ ص ٦٠. ومستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٢٢١.

(٢) على ماجاء في نصّ ابن اشتة (الإتقان: ج ١ ص ٦٤) وأكملنا ما سقط منه على نصّ ابن النديم (الفهرست: ص ٤٦) وأرمزنا له بعلامة (ن).

٢ـ المئين: براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الإسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصافّات.

٣ـ المثاني: الأحزاب، الحجّ، القصص، النمل، النور، الأنفال، مريم، العنكبوت، الروم، يس، الفرقان، الحجر، الرعد، سبأ، فاطر، إبراهيم، ص، محمد (صلى الله عليه وآله)، لقمان، الزمر.

٤ـ الحواميم: المؤمن، الزخرف، فصّلت، الشورى، الأحقاف، الجاثية، الدخان.

٥ـ الممتحنات: الفتح، الحديد(ن)، الحشر، السجدة، ق(ن)، الطلاق، القلم، الحجرات، الملك، التغابن، المنافقون، الجمعة، الصفّ، الجنّ، نوح، المجادلة، الممتحنة، التحريم.

٦ـ المفصّلات: الرحمن، النجم، الطور، الذاريات، القمر، الحاقّة (ن)، الواقعة، النازعات، المعارج، المدّثر، المزّمل، المطففين، عبس، الإنسان، المرسلات، القيامة، النبأ، التكوير، الانفطار، الغاشية، الأعلى، الليل، الفجر، البروج، الانشقاق، العلق، البلد، الضحى، الطارق، العاديات، الماعون، القارعة، البيّنة، الشمس، التين، الهمزة، الفيل، قريش، التكاثر، القدر، الزلزال، العصر، النصر، الكوثر، الكافرون، المسد، التوحيد، الانشراح.

تلك مائة واحدى عشرة سورة. بإسقاط سورة الفاتحة وسورتي المعوذتين. على ما سنذكر.

* * *

جهة أُخرى ـ اختصّ بها مصحف ابن مسعود ـ: إسقاطه سورة الفاتحة، لا اعتقاداً أنّها ليست من القرآن، بل لأنّ الثبت في المصحف كان قيداً للسور دون الضياع، وهذه السورة (الفاتحة) مأمونة عن الضياع بذاتها، لايزال المسلمون يقرأونها كلّ يوم عشر مرات أو أكثر. ذكره ابن قتيبة فيما يأتي.

أو لعلّه رآها عدلا للقرآن في قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»[١]. والسبع المثاني هي سورة الفاتحة.

وعلى أي تقدير فقد اتفق أئمّة الفن على خلوّ مصحفه من سورة الحمد، نقل ذلك ابن النديم عن الفضل بن شاذان، وقال: إنّه أحد الأئمّة في القرآن والروايات. ومن ثم يرجح ماذكره الفضل على ماشهده بنفسه[٢].

وقال جلال الدين السيوطي: وأمّا إسقاطه الفاتحة فقد أخرجه أبوعبيد بسند صحيح[٣] وكان قد ذكر الرواية قبل ذلك[٤].

وقال ابن قتيبة: وأمّا إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لجهله بأنّها من القرآن، كيف وهو أشدّ الصحابة عناية بالقرآن. ولم يزل يسمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) يؤمّ بها، ويقول: لاصلاة إلّا بسورة الحمد، وهي السبع المثاني وامّ الكتاب. لكنّه ذهب فيما يظنّ أهل النظر (المحقّقون) الى أنّ القرآن إنّما كتب وجمع بين اللوحين (الدفّتين) مخافة الشكّ والنسيان والزيادة والنقصان، ورآى أنّ ذلك مأمون على سورة الحمد، لقصرها ولأنّها تثنى في كلّ صلاة، ولوجوب تعلّمها على كلّ مسلم. فلمّا أمن عليها العلّة التي من أجلها كتب المصحف، ترك كتابتها، وهو يعلم أنّها من القرآن[٥].

* * *

جهة ثالثة: إسقاطه سورتي المعوذتين (الفلق والناس)، اعتقاداً منه أنّهما عوذة يتعوّذ بهما لدفع العين أو السحر، كما ورد أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) تعوّذ بهما من سحر اليهود، وقال: ما تعوّذ متعوّذ بأفضل من «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...»[٦].

وقد صحّ الإسناد الى ابن مسعود: أنّه كان يحكّ المعوذتين من المصاحف، ويقول: لاتخلطوا بالقرآن ماليس منه، إنّهما ليستا من كتاب الله، إنّما أمر النبيّ

(١) الحجر: ٨٧.
(٢) الفهرست: ص٤٦.
(٣) الإتقان: ج١ ص٨٠.
(٤) الإتقان: ج١ ص٦٥.
(٥) تأويل مشكل القرآن: ص٤٨ـ٤٩ـ ط ٢.
(٦) الدرالمنثور: ج٦ ص٤١٦ـ٤١٧.

(صلى الله عليه وآله) أن يتعوّذ بهما.. وكان ابن مسعود لايقرأ بهما في صلا ته[١].

هذا.. وقد أنكر بعضهم صحّة هذه النسبة الى ابن مسعود، كالرازي وابن حزم- فيما نقل عنهما ابن حجر- وردّ عليهما بصحّة إسناد الرواية قال: والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لايقبل. بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل[٢].

وأخذ الباقلاني في بيان هذا التأويل، قال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنّما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنّه كان يرى أن لايكتب في المصحف شيئاً إلّا أن كان النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أذن في كتابته فيه. وكأنّه لم يبلغه الإذن في ذلك، فهذا تأويل منه وليس جحداً لكونهما قرآناً...

قال ابن حجر: وهذا تأويل حسن، إلّا أن الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك، حيث جاء فيها: ويقول إنّهما ليستا من كتاب الله. نعم يمكن حمل لفظ كتاب الله على المصحف، فيتمشّى التأويل المذكور[٣].

قلت هذا التأويل الأخير أيضاً لايلتئم مع قوله: «لاتخلطوا بالقرآن ماليس منه»[٤].

(ملحوظة): قديزعم البعض أنّ مانسب الى ابن مسعود يناقض القول بتواتر النصّ القرآني!

لكن غير خفيّ: أنّ ابن مسعود لم ينكر كونهما وحياً- بالمعنى العامّ- وإنّما أنكر كونهما وحياً قرآنياً- بسمة كونهما من كتاب الله- فالاتفاق على أنّ المعوذتين وحي من الله حاصل من الجميع، وإنّما الاختلاف جاء في توصيفهما

---

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٥٧١. والدرالمنثور: ج٦ ص٤١٦.

(٢) فتح الباري: ج٨ ص ٥٧١.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الدرالمنثور: ج ٦ ص٤١٦- ٤١٧.

الخاصّ: هل هما من كتاب الله (القرآن) أم لا؟. وهذا لايضرّ بعد الاتفاق المذكور.

* * *

جهة رابعة: قال صاحب الإقناع: كانت البسملة ثابتة لبراءة في مصحف ابن مسعود. قال: ولا يؤخذ بهذا[١].

ويعني بكلامه الأخير: أنّ ابن مسعود كانت له مخالفات شاذّة، نبذها الصحابة والتابعون. ولعلّها كانت اجتهادات شخصيّة خطّأه الآخرون عليها. كمذهبه في التطبيق[٢]. قال ابن حزم: والتطبيق في الصلاة لايجوز، لأنّه منسوخ. وكان ابن مسعود يفعله، وكان يضرب الأيدي على تركه. وكذلك كان أصحابه يفعلونه. وفي ذلك قال ابن مسعود ـ فيما روينا عنه ـ: علّمنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) الصلاة فكبّر. فلمّا أراد أن يركع طبق يديه بين ركبتيه وركع. فبلغ ذلك سعد بن أبي وقاص، فقال: صدَقَ أخي، قد كنّا نفعل هذا، ثمّ أمرنا بهذا، أي الإمساك بالركب[٣].

قال الإمام الرازي ـ بشأن مخالفات ابن مسعود ـ: يجب علينا إحسان الظنّ به، وأن نقول: إنّه رجع عن هذه المذاهب[٤].

* * *

جهة خامسة: اختلاف قراءته مع النصّ المشهور في كثير من الآي. وهذا الاختلاف كان يرجع الى تبديل كلمة الى مرادفتها في النصّ وكان ذلك غالبياً لغرض الإيضاح والإفهام.

والمعروف من مذهب ابن مسعود: توسيعه في قراءة ألفاظ القرآن، فكان

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ٦٥.

(٢) هو: تطبيق بطن الكفّين إحداهما على الأُخرى وجعلهما بين الركبتين حالة الركوع.

(٣) المحلّى: ج ٣ ص ٢٧٤. وراجع لسان العرب: مادة طبق.

(٤) التفسير الكبير: ج ١ ص ٢١٣.

يجوّز أن تبدّل كلمة الى اخرى مرادفتها، إذا كانت الثانية أوضح ولا تغيّر شيئاً من المعنى الأصلي.

قال: لقد سمعت القرّاء ووجدت أنّهم متقاربون، فاقرأوا كما علّمتم ـ أي كيفما علّمكم القارئ الأُستاذ ـ فهو كقولكم: هلم وتعال[١].

وكان يعلّم رجلا أعجمياً القرآن، فقال: «إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم». فكان يقول الرجل: طعام اليتيم، ولم يستطع أن يقول: الأثيم. فقال له ابن مسعود: قل: طعام الفاجر. ثم قال ابن مسعود: إنّه ليس من الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان «العليم» «الحكيم». بل أن يضع آية الرحمة مكان آية العذاب[٢].

ومن هذا القبيل مارواه الطبري: كان ابن مسعود يقول: الياس هو إدريس، فقرأ: وإنّ ادريس لمن المرسلين. وقرأ: سلام على إدراسين[٣].

وذكر ابن قتيبة: أنّ ابن مسعود كان يقرأ: «وتكون الجبال كالصوف المنفوش»[٤] بدل «العهن المنفوش» لأنّ العهن هو الصوف، وهذا أوضح وآنس للإفهام.

* * *

هذا.. ومن ثم تعوّد بعض المفسّرين القدامى، إذا أشكل عليهم فهم كلمة غريبة في النّص القرآني، أن يراجعوا قراءة ابن مسعود في ذلك، فلابدّ أنّه أبدلها بكلمة أُخرى مرادفة لها أوضح وأبين للمقصود الأصلي.

قال مجاهد: كنّا لاندري ما الزخرف، حتى رأيناه في قراءة ابن مسعود: أو

---

(١) معجم الادباء لياقوت الحموي: ج ٤ ص ١٩٣ رقم: ٣٣ في ترجمة أحمدبن محمد بن يزدادبن رستم ط دارالمأمون. وفي طبعة مرجليوث: رقم ٢٤ ج ٢ ص ٦٠. وراجع ـ أيضاً ـ النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ٢١. والإتقان: ج ١ ص ٤٧.

(٢) التفسيرالكبير: ج ١ ص ٢١٣

(٣) الصافات: ١٢٣ و ١٣٠. جامع البيان: ج ٢٣ ص ٩٦.

(٤) القارعة: ٥. تأويل مشكل القرآن: ص ٢٤.

يكون لك بيت من ذهب[١].

وفسّر الزمخشري اليدين في قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» باليمينين، لأنّ ابن مسعود قرأ: فاقطعوا أيمانهما[٢].

وذكر الغزالي من آداب البيع: إقامة لسان الميزان، فإنّ النقصان والرجحان يظهر بميله، واستشهد بقراءة ابن مسعود: وأقيموا الوزن باللسان ولا تخسروا الميزان،قال:لأن القسط ـ في القراءة المشهورة ـ إنّما يقوم بلسان الميزان[٣].

وفي بعض طبعات إحياء العلوم صحّحوه وفق النصّ المشهور، ففاتهم غرض استشهاد المؤلّف.

وهكذا قرأ: «إنّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ ـ صمتا ـ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إنسيّاً»[٤] بدل «صوماً» لأنّ الصوم المنذور كان صوم صمت.

وقرأ: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ـ أمهلونا ـ نَقْتَبِس مِن نُورِكُمْ»[٥] بدل «انظرونا» لأنّ المقصود هو الإمهال.

وقرأ: «إن كَانَتْ إلَّا ـ زقية ـ وَاحِدَةً»[٦] بدل «صيحة واحدة».

قال العلّامة الطبرسي: هو من زقي الطير: إذا صاح. وكأنّ ابن مسعود استعمل هنا صياح الديك تنبيهاً على أنّ البعث بما فيه من عظيم القدرة واستثارة الموتى من القبور، سهل على الله تعالى كزقية زقاها طائر. فهو كقوله تعالى: «مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»[٧].

(ملحوظة): قد يأخذ البعض من هذا الاختلاف في قراءة النصّ القرآني ذريعة للطعن عليه، كما جاء في كلام المستشرق الألماني العلّامة نولدكه، في كتابه: مذاهب التفسير الإسلامي، الذي وضعه لهذا الغرض.

---

(١) الاسراء: ٩٣ تفسير الطبري: ج١٥ ص١٦٣.
(٢) المائدة: ٣٨. الكشاف: ج١ ص٤٥٩.
(٣) الرحمان: ٩. احياء العلوم: ج٢ ص٧٧.
(٤) مريم: ٢٦.تذكرة الحفاظ: ج١ ص٣٤٠.
(٥) الحديد: ١٣. الإتقان: ج١ ص٤٧.
(٦) يس: ٢٩ و٥٣.
(٧) لقمان: ٢٨.مجمع البيان: ج٨ ص٤٢١.

لكنّها محاولة فاشلة بعد أن علمنا أنّ الاختلاف كان في مجرّد القراءة خارج النّص الثابت في المصحف. فالنّص القرآني شيءلم يختلف فيه اثنان، وهو المثبت في المصحف الشريف منذ العهد الأوّل الإسلامي حتى العصر الحاضر، ومن ثم لم يمسّوه حتى لإصلاح اخطائه الإملائيّة. تحفّظاً على نصّ الوحي يبقى بلا تحوير.

نعم جاءت قضيّة مراعاة جانب التسهيل على الأمة، من بعض السلف، لتجوّز القراءة بأي نحو كانت، مادامت تؤدّي نفس المعنى الأصلي من غير تحريف فيه. الأمرالذي يكون خارج النّص المثبت قطعيّاً.

ومن ثم أجاز ابن مسعود: أن ينطق ذلك الاعجمي بدل طعام الأثيم بطعام الفاجر[1]. فاستبدل من النّص الصعب التلفّظ بالنسبة إليه، لفظا أسهل... لكنّه لم يثبته في المصحف كنّص قرآني. ولم يكن ذلك منه تجويز التبديل في نصّ الوحي.. حاشاه!

وهكذا كان تجويزعائشة لذلك العراقي: ومايضرّك أيّه قرأت[2]. توسعة في مقام القراءة فقط، لا توسعة في ثبت النصّ القرآني الذي هو وحي السماء، في المصحف، ولاشكّ أنّ مصحفها كان ذاثبت واحد **قطعاً**.

* * *

جهة سادسة: ربّما كان ابن مسعود يزيد في لفظ النّص زيادات تفسيريّة كانت أشبه بتعليقات إيضاحيّة ادرجت ضمن النّص الأصليّ.

وهذا أيضاً كان مبنيّاً على مذهبه: التوسعة في اللفظ، لغرض الإيضاح، مع التحفّظ على نفس المعنى الأصيل.

وهكذا اعتبر ائمّة الفنّ هذه الزيادات في قراءة ابن مسعود تفسيرات، ولم يعتبروها نصاً قرآنياً منسوباً الى ابن مسعود، ليكون اختلاف بين السلف في

(١) تقدم ذلك في صفحة: ٣١٥.

(٢) راجع صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٨

نصّ الوحي ..!

نعم كانت هذه التوسعة من ابن مسعود محاباة غير مستحسنة بالنصّ القرآني، ربّما كانت تؤدّي بالنّص الأصلي وتجعله عرضة للتحريف والتغيير، الأمر الذي كان يتنافى تماماً مع تلك الحيطة والحذر على نصّ القرآن النازل من السماء. وقد تمسّك بعض الأغبياء بذلك وجعله دليلاً على جواز إدخال ماليس من القرآن في القرآن إذا كان الغرض هو التفسير والإيضاح[1] لكنّه تفريع على أصل باطل.

* * *

وعلى أي تقدير فقد نسب الى ابن مسعود زيادات جاءت في قراءته، نذكر منها مايلي، والزيادة هي التي بين معقوفتين:

قرأ: «كَانَ النّاسُ امَّةً واحِدَةً [فاختلفوا] فَبَعَثَ الله النَّبِيّينَ مُبشِرينَ وَمُنْذِرينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُم الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ»[2].

وهذه الزيادة ترفع إبهاماً كان في وجه الآية: هل كانت بعثة الأنبياء سبباً للاختلاف، أم كان العكس؟ وذيل الآية يعيّن هذا الأخير. وجاءت الزيادة توضّح هذا الجانب أكثر.

وقرأ: «النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [وهو أب لهم] وَأَزْوَاجُهُ امَّهَاتُهُمْ»[3] فجاءت الزيادة انسجاماً مع ذيل الاية، وتوضيحاً لسبب ولايته (صلى الله عليه وآله) على المؤمنين.

وقرأ: «وَجِئْتُكُم بآيات ـ والنّص: بِآيَةٍ ـ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا الله [لما جئتكم من الآيات] وأَطِيعُونِ [فيما أدعوكم إليه]»[4].

وقرأ: «وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ [وهو قاعد] فَضَحِكَتْ»[5].

---

(١) راجع الزرقاني على الموطأ: ج ١ ص ٢٥٥.

(٢) البقرة: ٢١٣. الكشاف: ج ١ ص ٢٥٥.

(٣) الأحزاب: ٦. الكشاف: ج ٢ ص ٥٢٣

(٤) آل عمران: ٥٠. الكشاف: ج ١ ص ٣٦٥

(٥) هود: ٧١. الكشاف: ج ٢ ص ٤١٠.

وقرأ: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا اللهـ والنّص: إِلَّا هُوَـ رَابِعُهُمْ [ولا أربعة إلا الله خامسهم] وَلَا خَمْسَةٍ إِلّا الله ـ والنّص: إِلَّا هُوَـ سَادِسُهُمْ ولا أقلّ ـ والنّص: وَلا أَدْنَى ـ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلَّا الله ـ والنصّ: إِلّا هُوَـ مَعَهُمْ [إذا نتجوا]»[1].

وقرأ: «إِنَّ هذَا اخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً [انثى] وَلِى نَعْجَةٌ [انثى]»[2].

وقرأ: «وَأَنْذِرْ عَشِيرتكَ الأَقْرَبِينَ [ورهطك منهم المخلصين]»[3].

* * *

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أنّه قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [إنّ علياً مولى المؤمنين] وإن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَالله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»[4].

والظاهر: أنّه أراد تفسير الآية، وأنّها كانت على عهده (صلى الله عليه وآله) هكذا تفسّر.

وقرأ: «بَلْ عَجِبْت وَيَسْخَرُونَ» ـ بضمّ التاء ـ[5] والقراءة المشهورة هي بالفتح.

وأنكر ذلك شريح وقال: إنَّ الله لا يعجب إنما يعجب من لا علم له. قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي. فقال: إنّ شريحا كان معجبا برأيه، أن عبدالله قرأ «بل عجبتُ» بالضم، وعبدالله أعلم من شريح. وإضافة العجب الى الله وردّ الخبر به كقوله: عجب ربّكم من شابّ ليس له صبوة. وعجب ربّكم من إلّكم وقنوطكم. ويكون ذلك على وجهين: عجب ممّا

---

(١) المجادلة: ٧. الكشاف: ج ٤ ص ٤٩٠.

(٢) ص: ٢٣. الكشاف: ج ٤ ص ٨٥. وتأويل مشكل القرآن: ص ٢٩ و٧٣.

(٣) الشعراء: ٢١٤. مجمع البيان: ج ٧ ص ٢٠٦. وبحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٦٤.

(٤) المائدة: ٦٧. دار المعارف: ج ٤ ص ١٥٥.

(٥) الصافات: ١٢. الكشاف: ج ٤ ص ٣٨. وتفسير الطبري: ج ٢٣ ص ٢٩.

يرضى. ومعناه: الاستحسان والخبر عن تمام الرضا. وعجب ممّا يكره، ومعناه: الإنكار له والذم[١]. والإلّ ـ بكسر الهمزة وتشديد اللام: شدّة اليأس أو رفع الصوت بالبكاء على إثره. وصحّحنا الحديث على نهاية ابن الأثير.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله وإنّما هو روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء والله تعالى لايجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يجرّد العجب لمعنى الاستعظام. والثاني: أن يتخيّل العجب ويفرض. وقد جاء في الحديث: «عجب ربّكم من إلّكم وقنوطكم وسرعة إجابته إيّاكم»[٢].

وقد أوردنا هذا البحث هنا كنموذج هو دليل على مبلغ اهتمام المفسّرين واعتناء الأئمّة بقراءات ابن مسعود الرجل العظيم.

* * *

ومن غريب قراءته النقص أيضاً. قرأ: «والذّكَرَ وَالأُنْثَىٰ»[٣] بدل «ومَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ».

روى البخاري في صحيحه: قال: قدم أصحاب عبدالله الى الشام، وفيهم علقمة. فجاءهم أبوالدرداء وقال: أيّكم يقرأ على قراءة عبدالله؟ قالوا: كلّنا. قال: فأيّكم يحفظ؟ فأشاروا الى علقمة. قال: كيف سمعته يقرأ «واللَيْلِ إذَا يَغْشَىٰ...»؟ قال علقمة: «والذَّكَرَ والأُنثَىٰ» قال أبوالدرداء: أشهد أني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني على أن أقرأ «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ» والله لا أُتابعهم[٤].

وأسند الزمخشري هذه القراءة الى النبيّ (صلى الله عليه وآله)[٥].

وفي رواية الأعمش عن ابن مسعود: أنه قرأ: «حم سق» بلاعين. وهكذا

---

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٤٤٠.
(٢) الكشاف: ج٤ ص٣٧.
(٣) الليل: ٣.
(٤) صحيح البخاري: ج٦ ص٢١١ وج٥ ص٣٥.
(٥) الكشاف: ج٤ ص٧٦١.

قرأ ابن عباس أيضاً[١].

وصف مصحف اُبي بن كعب:

كان ترتيب مصحف اُبي قريباً من مصحف ابن مسعود، غير أنّه قدّم سورة الأنفال، وجعلها بعد سورة يونس وقبل سورة براءة. وقدّم سورة مريم والشعراء والحج على سورة يوسف. وهكذا ممّا سيتبيّن في الجدول الآتي.

وقد اشتمل مصحفه على مائة وخمس عشرة سورة. جعل سورتي الفيل وقريش سورة واحدة. وزاد سورتي الخلع والحفد، وسنذكرهما.

وكان مصحفه مفتتحاً بسورة الحمد، ومختتماً بالمعوذتين، كمصحفنا اليوم[٢].

جهة اخرىٰ: اشتمال مصحفه على دعاءي القنوت،باعتبارهما سورتين فيما زعم. أمّا الخلع فهي: «بسم الله الرحمان الرحيم. اللهمّ إنّا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير. ولا نكفرك . ونخلع ونترك من يفجرك ». وأمّا الحفد فهي: «بسم الله الرحمان الرحيم. اللهمّ إيّاك نعبد ولك نصلّي ونسجد. وإليك نسعى ونحفد. نخشى عذابك ونرجو رحمتك . إنَّ عذابك بالكفّار ملحق»[٣].

جهة ثالثة: كان قد ترك البسملة بين سورتي الفيل وقريش، باعتبارهما سورة واحدة[٤] وقد ورد في أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) أيضاً: أنّهما سورة واحدة، ولكن مع فصل البسملة بينهما. فإذا قرأ المصلّي: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ » يجب أن يقرأ معها: «لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ». فهما سورة واحدة قراءة ولكنّهما سورتان ثبتاً، على عكس ما في مصحف أُبي.

روى العياشي عن أبي العباس عن أحدهما (الإمام الباقر والإمام الصادق

---

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٢١.

(٢) الإتقان: ج١ ص٦٤ و٦٥.

(٣) الإتقان: ج١ ص٦٥.

(٤) نفس المصدر.

عليهما السلام) قال: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ، وَلِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، سورة واحدة[١].

وهكذا روينا بشأن سورتي الضحى والانشراح: أنّهما سورة واحدة[٢].

وقد أفتى بذلك علماؤنا الأعلام. قال المحقّق الحلي (قدّس سره): روى أصحابنا أنّ الضحى وألم نشرح سورة واحدة: وكذا الفيل ولايلاف. ولايجوز إفراد إحداهما عن صاحبتها في كلّ ركعة[٣].

وفي مجمع البيان: روى أنّ أُبي بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه[٤].

جهة رابعة: كان افتتح سورة الزمر في مصحفه بـ «حم». فيكون عدد الحواميم عنده ثمانية. أخرجه ابن اشتة في كتاب المصاحف، قال: ثم الزمر أوّلها حم[٥].

جهة خامسة: اختلاف قراءته مع النّص المشهور على نحو اختلاف قراءة ابن مسعود، وإليك نماذج من قراءاته الشاذّة:

قرأ: «قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ هبنا مِن مَرْقَدِنا» بدل «مَنْ بَعَثَنَا»[٦].

وقرأ: «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مرّوا فِيهِ». وقرأ ـ أيضاً ـ: «سعوا فيه» بدل «مَشَوا فيه»[٧].

وقرأ: «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ (متتابعات) فِي الْحَجِّ»[٨]. نظراً لأنّه يجب التتابع فيها، فأوضحها بهذه الزيادة!

وقرأ: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ (الى أجل مسمّى) فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

---

(١) و(٢) راجع وسائل الشيعة: باب ١٠ من أبواب القراءة في الصلاة ج ٤ ص٧٤٤ ح٦ وج ٤ ص٧٤٣ ح٣.

(٣) راجع جواهر الكلام: ج ١٠ ص ٢٠.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٤٤.

(٥) الإتقان: ج ١ ص ٦٤.

(٦) يس: ٥٢. مجمع البيان: ج ٨ ص ٤٢٨.

(٧) البقرة: ٢٠. الإتقان: ج ١ ص ٤٧.

(٨) البقرة: ١٩٦. الكشاف: ج ١ ص ٢٤٢.

فَرِيضَةً»[١] للتنصيص على إنّها متعة النكاح.

وقرأ: «إنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيَها (من نفسي فكيف أُظهركم عليها)»[٢]. شرح وتفسير للآية.

وقرأ: «إذْ جَعَلَ الَّذينَ كَفَروا فِي قُلُوبهم الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ (ولوحميتم كما حموا لفسد المسجدالحرام) فأنْزَل الله سَكِينَته علىٰ رسُولِهِ وَعلىٰ الْمُؤمِنينَ»[٣].

* * *

وفيما يلي جدول يقارن بين مصاحف السلف وترتيب مصحفنا اليوم. أخذناه من نصّ ابن اشتة[٤] وأكملنا سقطاته على نصّ ابن النديم. وأرمزنا له بعلامة (ن) واعتمد هذا الأخير على رواية الفضل بن شاذان، اعتماداً يرجّحه على ماشاهده بنفسه. قال: رأيت عدة مصاحف ذكر نسّاخها أنّها مصحف عبدالله بن مسعود، ليس فيها مصحفان متّفقان. وأكثرها في رقّ كثير النسخ. وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فاتحة الكتاب. والفضل بن شاذان أحد الأئمة في القرآن والروايات، فلذلك ذكرنا ماقاله دون ما شهدناه[٥].

(١) النساء: ٢٤. جامع البيان: ج٥ ص٩.

(٢) طه: ١٥. تأويل مشكل القرآن: ص٢٥.

(٣) الفتح: ٢٦. عبقات الأنوار ـ طبعة الهند ـ مجلد حديث مدينة العلم: ص٥١٨.

(٤) الإتقان: ج١ ص٦٤.

(٥) الفهرست: ص٤٦.

جدول يقارن بين ثلاثة مصاحف

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أُبي	المصحف الحاضر
١	....	الفاتحه	الفاتحة
٢	البقرة	البقرة	البقرة
٣	النساء	النساء	آل عمران
٤	آل عمران	آل عمران	النساء
٥	الأعراف	الأنعام	المائدة
٦	الأنعام	الأعراف	الأنعام
٧	المائدة	المائدة	الأعراف
٨	يونس	يونس	الأنفال
٩	براءة	الأنفال	التوبة
١٠	النحل	براءة	يونس
١١	هود	هود	هود
١٢	يوسف	مريم	يوسف
١٣	الكهف	الشعراء	الرعد
١٤	الإسراء	الحج	إبراهيم
١٥	الأنبياء	يوسف	الحجر
١٦	طه	الكهف	النحل

١٧	المؤمنون	النحل	الإسراء
١٨	الشعراء	الأحزاب	الكهف
١٩	الصافّات	الإسراء	مريم
٢٠	الأحزاب	الزمر (أولها حم)	طه
٢١	الحج	طه	الأنبياء
٢٢	القصص	الأنبياء	الحج
٢٣	النمل	النور	المؤمنون
٢٤	النور	المؤمنون	النور
٢٥	الأنفال	سبأ	الفرقان
٢٦	مريم	العنكبوت	الشعراء
٢٧	العنكبوت	المؤمن (غافر)	النمل
٢٨	الروم	الرعد	القصص
٢٩	يس	القصص	العنكبوت
٣٠	الفرقان	النمل	الروم
٣١	الحجر	الصافات	لقمان
٣٢	الرعد	ص	السجدة
٣٣	سبأ	يس	الأحزاب
٣٤	فاطر	الحجر	سبأ
٣٥	إبراهيم	الشورى	فاطر
٣٦	ص	الروم	يس
٣٧	محمد	الزخرف (ن)	الصافّات
٣٨	لقمان	فصلت (ن)	ص
٣٩	الزمر	إبراهيم (ن)	الزمر
٤٠	المؤمن	فاطر(ن)	غافر

٤١	الزخرف	الحديد (١)	فصّلت
٤٢	فصلت	الفتح	الشورى
٤٣	الشورى	محمد	الزخرف
٤٤	الأحقاف	المجادلة	الدخان
٤٥	الجاثية	الملك	الجاثية
٤٦	الدخان	الفرقان (ن)	الأحقاف
٤٧	الفتح	السجدة	محمد
٤٨	الحديد (ن)	نوح	الفتح
٤٩	الحشر	الأحقاف	الحجرات
٥٠	السجدة	ق	ق
٥١	ق (ن)	الرحمن	الذاريات
٥٢	الطلاق	الواقعة	الطور
٥٣	القلم (٢)	الجن	النجم
٥٤	الحجرات	النجم	القمر
٥٥	الملك	المعارج	الرحمن
٥٦	التغابن	المزمل	الواقعة
٥٧	المنافقون	المدثّر	الحديد
٥٨	الجمعة	القمر	المجادلة
٥٩	الصفّ	الدخان	الحشر
٦٠	الجن	لقمان	الممتحنة
٦١	نوح	الجاثية	الصفّ

(١) جعلها ابن النديم بعد سورة محمد (صلى الله عليه وآله). (٢) جعلها ابن النديم بعد سورة الواقعة.

٦٢	المجادلة	الطور	الجمعة
٦٣	الممتحنة	الذاريات	المنافقون
٦٤	التحريم	القلم	التغابن
٦٥	الرحمن	الحاقّة	الطلاق
٦٦	النجم	الحشر	التحريم
٦٧	الطور (١)	الممتحنة	الملك
٦٨	الذاريات	المرسلات	القلم
٦٩	القمر	النبأ	الحاقّة
٧٠	الحاقّة (ن)	الدهر (ن)	المعارج
٧١	الواقعة	القيامة	نوح
٧٢	النازعات	التكوير	الجن
٧٣	المعارج	الطلاق	المزمّل
٧٤	المدثّر	النازعات	المدثّر
٧٥	المزمّل	التغابن	القيامة
٧٦	المطففين	عبس (٢)	الإنسان
٧٧	عبس	المطفّفين	المرسلات
٧٨	الدهر	الانشقاق	النبأ
٧٩	المرسلات (٣)	التين	النازعات
٨٠	القيامة	العلق	عبس
٨١	النبأ	الحجرات	التكوير

---

(١) جعلها ابن النديم بعد سورة الذاريات.

(٢) جعلها ابن النديم بعد سورة الغاشية.

(٣) جعلها ابن النديم بعد سورة القيامة.

٨٢	التكوير	المنافقون	الانفطار
٨٣	الانفطار	الجمعة	المطفّفين
٨٤	الغاشية	التحريم	الانشقاق
٨٥	الأعلى	الفجر	البروج
٨٦	الليل	البلد	الطارق
٨٧	الفجر	الليل	الأعلى
٨٨	البروج	الانفطار	الغاشية
٨٩	الانشقاق	الشمس	الفجر
٩٠	العلق	البروج (ن)	البلد
٩١	البلد	الطارق	الشمس
٩٢	الضحى	الأعلى	الليل
٩٣	الطارق	الغاشية	الضحى
٩٤	العاديات	الصف [١]	الشرح
٩٥	الماعون	البيّنة	التين
٩٦	القارعة	الضحى	العلق
٩٧	البيّنة	الانشراح	القدر
٩٨	الشمس	القارعة	البيّنة
٩٩	التين	التكاثر	الزلزلة
١٠٠	الهمزة	العصر	العاديات
١٠١	الفيل	الخلع	القارعة
١٠٢	قريش	الحفد	التكاثر
١٠٣	التكاثر	الهمزة	العصر

(١) جعلها ابن النديم بعد سورة البيّنة.

١٠٤	القدر	الزلزلة	الهمزة
١٠٥	الزلزلة	العاديات	الفيل
١٠٦	العصر	الفيل	قريش
١٠٧	النصر	قريش (١)	الماعون
١٠٨	الكوثر	الماعون	الكوثر
١٠٩	الكافرون	الكوثر	الكافرون
١١٠	المسد	القدر	النصر
١١١	التوحيد	الكافرون	المسد
١١٢	الانشراح (٢)	النصر	الإخلاص
١١٣	...	المسد	الفلق
١١٤	...	التوحيد	الناس
١١٥	...	الفلق	...
١١٦	...	الناس (٣)	...

(١) جعلها ابن النديم بعد سورة الضحى.

(٢) جعلها ابن النديم بعد سورة المسد.

(٣) تلك مائة وست عشرة سورة. لكن بما أنّ سورتي الفيل وقريش في مصحف أُبي واحدة فمجموع سورة ١١٥ سورة.

٢ـ توحيد المصاحف

* اختلاف المصاحف.
* نماذج من اختلاف العامّة.
* عثمان يأتمر صحابة الرسول.
* عقد لجنة توحيد المصاحف.
* موقف الصحابة تجاه المشروع.
* عام تأسيس اللجنة.
* منجزات المشروع المصاحفي.
* عدد المصاحف العثمانيّة.
* تعريف عامّ بهذه المصاحف.

١- الترتيب

٢- النقط والتشكيل.

تحسينات متأخّرة.

٣ـ مخالفات في رسم الخط.

٤ـ اختلاف المصاحف

٢ـ توحيد المصاحف

سبق أنّ الفترة بعد وفاة النبيّ (صلى الله عليه وآله) كانت فترة جمع القرآن، فقد اهتم كبار الصحابة بتأليف سور القرآن وجمع آياته، حسب ما اوتوا من علم وكفاءة، كلّ في مصحف يخصّه. وآخرون أعوزتهم الكفاءة فلجأوا الى غيرهم ليستنسخوا لهم مصاحف أو يجمعوا لهم آيات وسوراً في صحف. وهكذا أخذت نسخ المصاحف تتزايد، اطراداً مع اتساع رقعة الإسلام. كان المسلمون وهم في كثرة مطردة، ومنتشرون في أطراف البلاد المترامية، قد أحسّوا بحاجتهم القريبة الى نسخ من كتاب الله، حيث كان الدستور السماوي الوحيد الذي كان المسلمون ينظّمون عليه معالم حياتهم العامّة في جميع جوانبها، فهو مصدرهم في الأحكام والتشريعات والتنظيمات.

وقد أحرز بعض هذه المصاحف في العالم الإسلامي آنذاك مقاماً رفيعاً حسب انتسابه الى جامعه. كمصحف عبدالله بن مسعود الصحابي الجليل. كان مرجع أهل الكوفة وهو بلد العلم ومعهد الدراسات الإسلامية العليا. ومصحف أُبي بن كعب في الأقطار الشاميّة. ومصحف أبي موسى الأشعري في البصرة. ومصحف المقداد بن الأسود في دمشق... وهكذا.

اختلاف المصاحف:

ولمّا كان جامعوا المصاحف متعدّدين ومتباعدين، ومختلفين بحسب الكفاءة

والمقدرة والاستعداد، وكانت كلّ نسخة منها تشتمل على ماجمعه صاحبها، وما جمعه واحد لا يتّفق تماماً مع ما جمعه آخرون.. كانت طبيعة الحال تقضي باختلاف في تأليف تلكم المصاحف، اسلوباً وترتيباً وقراءة وغيرها. وقد تقدّم حديث مابين مصاحف السلف من اختلاف.

وهذا الاختلاف في المصاحف وفي القراءات، كان بلاشكّ يستدعي اختلافاً بين الناس، عندما تجمعهم ندوة أو مناسبة، على مختلف نزعاتهم واتجاهاتهم يومذاك. فربّما كان المسلمون يجتمعون في غزوة أو احتفال، وهم من أقطار متباعدة، فيقع بينهم نزاع وجدل، وإنكار أحدهم على الآخر، فيما يتعصّبون له من مذهب أو عقيدة أو رأي.

نماذج من اختلاف العامّة:

وفيما يلي عرض موجز عن نماذج من اختلاف العامّة على المصاحف فيما تعصّبوا له من قراءات أصحابها:

١ـ في غزو مرج أرمينية: بعدما قفل حذيفة راجعاً من غزو الباب (مرج أرمينية ـ آذربيجان) قال لسعيدبن العاص، وكان بصحبته: لقد رأيت في سفري هذا أمراً، لئن ترك ليختلفنّ في القرآن، ثم لايقومون عليه أبداً! قال سعيد: وماذاك ؟ قال: رأيت أُناساً من أهل حمص يزعمون أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنّهم أخذوا القرآن عن المقداد،ورأيت أهل دمشق يقولون: إنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وإنّهم قرأوا على ابن مسعود. وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وإنّهم قرأوا على أبي موسى الأشعري، ويسمّون مصحفه «لباب القلوب».

فلمّا وصل ركب حذيفة وسعيد الى الكوفة، أخبر حذيفة الناس، بذلك، وحذّرهم مايخاف. فوافقه أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكثير من التابعين.

وقال له أصحاب ابن مسعود: ماتنكر، ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود؟!

فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنّما أنتم أعراب فاسكتوا، فإنّكم على خطأ. وقال حذيفة: والله لئن عشت لآتينّ أميرالمؤمنين -يعني عثمان- ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك.

فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرّق الناس. وغضب حذيفة وسارالى عثمان...[(١)].

٢ـ في مسجد الكوفة: عن يزيد النخعي، قال: إنّي لفي المسجد ـ مسجد الكوفة ـ زمن الوليدبن عقبة ـ وكان والياً على الكوفة من قبل عثمان ـ في حلقة فيها حذيفة بن اليمان. وليس إذ ذاك حجزة ولا جلاوزة ـ أي لم يكن للمسجد آنذاك سدنة وحفظة ـ إذ هتف هاتف: من كان يقرأ على قراءة أبي موسى، فليأت الزاوية التي عند باب كندة. ومن كان يقرأ على قراءة عبدالله بن مسعود، فليأت الزاوية التي عند دار عبدالله. واختلفا في آية من سورةالبقرة،قرأ هذا: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للبيت». وقرأ هذا: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ»!

فغضب حذيفة واحمرّت عيناه، ثم قام ففرز قميصه في حجزته وهو في المسجد، فقال أمّا أن يركب الى أميرالمؤمنين وأمّا أن أركب. فهكذا كان من قبلكم...

وفي رواية أبي الشعثاء: فقال حذيفة: قراءة ابن أُمّ عبد! وقراءة أبي موسى الأشعري! والله إن بقيت حتى آتي أميرالمؤمنين، لآمرنّه بجعلها قراءة واحدة..

فغضب عبدالله، فقال كلمة شديدة فسكت حذيفة...

وفي رواية ثالثة: قال حذيفة: يقول أهل الكوفة: قراءة عبدالله! ويقول

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥.

أهل البصرة: قراءة أبي موسى! والله لئن قدمت على أميرالمؤمنين لآمرنّه بغرق هذه المصاحف! فقال له عبدالله: أما والله لئن فعلت ليغرقنّك الله في غير ماء يعني سقر[١]. وروى ابن حجر: أنّ ابن مسعود قال لحذيفة: بلغني عنك كذا، قال: نعم، كرهت أن يقال قراءة فلان وقراءة فلان، فيختلفون كما اختلف أهل الكتاب[٢].

٣ـ في نفس المدينة: أخرج ابن اشتة عن أنس بن مالك، قال: اختلفوا في القرآن على عهد عثمان، جعل المعلّم يعلّم قراءة الرجل ـ أحد اصحاب المصاحف ـ والمعلّم يعلّم قراءة الرجل ـ آخر من أصحاب المصاحف ـ فكان الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك الى المعلّمين، فجعل يكفّر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان بن عفان، فقال: عندي تكذبون به وتلحنون فيه، فمن نآى عنّي كان أشدّ تكذيباً ولحنا...[٣].

وعن محمدبن سيرين، قال: كان الرجل يقرأ حتى يقول الرجل لصاحبه: كفرت بما تقول!. فرفع ذلك الى عثمان فتعاظم في نفسه، فجمع اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار...[٤].

وعن بكير الأشجّ قال: إنّ أُناساً بالعراق كان يسأل أحدهم عن الآية، فإذا قرأها، قال ـ أي السائل ـ: ألا أني أكفر بهذه القراءة. ففشا ذلك في الناس، فتكلّم بعضهم مع عثمان في ذلك[٥].

وهكذا وقعت حوادث حول اختلاف قراءة القرآن كانت تنذر بسوء ووقوع فتن ربّما لاتحمد عقباها، لولا تداركها من قبل رجال نابهين أمثال حذيفة بن اليمان وأضرابه، رضوان الله عليهم.

---

(١) المصاحف للسجستاني: ص ١١ـ ١٤. (٢) فتح الباري: ج ٩ ص ١٥.

(٣) الإتقان: ج ١ ص ٥٩. والمصاحف للسجستاني: ص ٢١.

(٤) الطبقات: ج ٣ ق ٢ ص ٦٢. والمصاحف للسجستاني: ص ٢٥.

(٥) فتح الباري: ج ٩ ص ١٦.

قدوم حذيفة المدينة:

عندما رجع حذيفة من غزو أرمينية، ناقماً اختلاف الناس في القرآن، استشار من كان بالكوفة من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن معالجة القضيّة قبل تفاقم الأمر. فكان رأيه حمل عثمان على أن يقوم بتوحيد نسخ المصاحف، وإلجاء الناس على قراءة واحدة، فاتفقت كلمة الصحابة على صواب هذا الرأي[١]، سوى عبدالله بن مسعود. ومن ثم أزمع في الامر وسار الى المدينة يستحثّ عثمان على إدراك أُمّة محمد (صلى الله عليه وآله) قبل تفرّقها، قال: يا أميرالمؤمنين، أنا النذير العريان أدرك هذه الأُمّة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى! قال عثمان: وماذاك ؟ قال: غزوت مرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أُبي بن كعب، ويأتون بمالم يسمع أهل العراق. وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة ابن مسعود. ويأتون بمالم يسمع أهل الشام، فيكفّر بعضهم بعضاً![٢].

عثمان يأتمر الصحابة:

تلك حوادث وأضرابها كانت وخيمة المآل، دعت بعثمان أن يهتمّ بالأمر ويقوم بساعد الجدّ، لولا أن تهيّبته القضيّة وهي فاجئة مباغتة، لم يسبقه إليها غيره ممّن تقدّمه. مضافاً الى ماكان يراه من صعوبة العمل في مرحلة تنفيذه، حيث انتشار نسخ المصاحف في البلاد، ومن ورائها رجال من كبار الصحابة لايستهان بشأنهم في المجتمع الإسلامي آنذاك ، فربّما يقومون بحمايتها والدفاع عنها فيشكّلون عرقلة عويصة تسدّ وجه الطريق!

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥.

(٢) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٥. والمصاحف للسجستاني: ص١٩ ـ ٢٠.والكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥.

ومن ثم جمع أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من كان حاضراً بالمدينة، واستشارهم في الأمر. فلم يكن منهم سوى اتفاقهم على ضرورة القيام به مهما كلّف الأمر. قال ابن الأثير: فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر، فأعظموه ورأوا جميعاً مارأى حذيفة[١].

لجنة توحيد المصاحف:

وأخيراً ازمع عثمان على تنفيذ الفكرة، فوجّه ـ أوّلا ـ نداءه الى عامّة الصحابة: يا أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً[٢]. ثم ندب نفراً يخصّونه، وهم أربعة: زيدبن ثابت، وهو أنصاري. وسعيدبن العاص. وعبدالله بن الزبير. وعبدالرحمان بن الحارث بن هشام، وهم قرشيّون .. وهؤلاء الأربعة أعضاء أوّليّة، انعقدت بهم لجنة توحيد المصاحف[٣]. وكانت لزيد سمة رئاسة على الآخرين. كما يظهر من تذمّر ابن مسعود واستنكاره استثمار زيد لهذا المنصب. قال: يا معشر المسلمين، أأعزل عن نسخ المصاحف ويتولاها رجل ـ والله لقد أسلمت وإنّه لفي صلب رجل كافر ـ يريد زيدبن ثابت[٤].

وكان عثمان هو يتعاهدهم بنفسه[٥].

لكن هؤلاء الأربعة لم يستطيعوا القيام بصميم الأمر، وكانت تعوزهم الكفاءة لهكذا عمل خطير. ومن ثم استعانوا بأُبي بن كعب. ومالك بن أبي عامر. وكثير بن افلج. وأنس بن مالك. وعبدالله بن عباس. ومصعب بن

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥.

(٢) الإتقان: ج١ ص٥٩ عن مصاحف ابن اشتة. وراجع المصاحف للسجستاني: ص٢١.

(٣) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٦.

(٤) فتح الباري: ج٩ ص١٧. والمصاحف للسجستاني: ص١٥.

(٥) المصاحف للسجستاني: ص٢٥.

سعد[١] وعبدالله بن فطيمة[٢] الى تمام الاثني عشر على ماجاء في رواية ابن سيرين وابن سعد وغيرهما[٣].

وفي هذا الدور كانت الرئاسة مع أُبي بن كعب، فكان هو يملي عليهم ويكتب الآخرون. قال أبوالعالية: إنّهم جمعوا القرآن من مصحف أُبي بن كعب. فكان رجال يكتبون يملي عليهم أُبي بن كعب[٤].

قال ابن حجر: وكأن ابتداء الأمر كان لزيد وسعيد، حيث سأل عثمان: من أكتب الناس؟ قالوا: زيد. ثم قال: فأي الناس أفصح؟ قالوا: سعيد. فقال: فليمل سعيد وليكتب زيد[٥].

قال: ثم احتاجوا الى من يساعدهم في الكتابة بحسب الحاجة الى عدد المصاحف التي ترسل الى الآفاق. فأضافوا الى زيد من ذكر، ثم استظهروا بأُبي ابن كعب في الإملاء[٦]

موقف الصحابة تجاه المشروع المصاحفي:

سبق أنّ حذيفة بن اليمان كان أوّل من فكّر في توحيد المصاحف وحلف ليأتينّ الخليفة وليأمرنّه بجعلها قراءة واحدة[٧] كما استشار هو من كان بالكوفة من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله) فوافقوه على ماعزم، سوى ابن مسعود[٨].

---

(١) ارشاد الساري: ج٧ ص٤٤٩.
(٢) المصاحف للسجستاني: ص٣٣.
(٣) المصدر: ص٢٥.وراجع الطبقات: ج٣ ص٦٢.
(٤) المصاحف للسجستاني: ص٣٠.
(٥) فتح الباري: ج٩ ص١٦. جاء ذلك في رواية مصعب بن سعد. لكن في صحّة ما تضمنته الرواية من فحوى، كلام ونقاش!
(٦) نفس المصدر. وراجع الطبقات: ج٣ ص٦٢. وتهذيب التهذيب: ج١ ص١٨٧.
(٧) فتح الباري: ج٩ ص١٥.
(٨) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥.

وجمع عثمان من كان بالمدينة من الصحابة فأتمرهم في ذلك فهبوا جميعاً يوافقون فكرة توحيد المصاحف، قال ابن الأثير: فجمع الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً مارآى حذيفة[١].

وهكذا الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام) أبدى رأيه موافقا للمشروع ذاتياً. أخرج ابن ابي داود عن سويد بن غفلة، قال: قال علي (عليه السلام): فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلّا عن ملأ منّا. استشارنا في أمر القراءات، وقال: بلغني أنّ بعضهم يقول: قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً. قلنا: فماذارأيت؟ قال: أرى ان يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت[٢].

وفي رواية اخرى قال: لووليّت في المصاحف ماولّى عثمان لفعلت كما فعل[٣] وأخرج ابن أبي داود ـ أيضاً ـ عن سويدبن غفلة، قال: قال عليّ (عليه السلام) ـ حين حرق عثمان المصاحف ـ: لولم يصنعه هو لصنعته[٤].

* * *

وكان (عليه السلام) ـ بعدما تولّى الخلافة ـ أحرص الناس على الالتزام بالمرسوم المصحفي ـ حتى ولوكانت فيه أخطاء إملائيّة ـ حفظا على كتاب الله من أن تمسّه يد التحريف فيما بعد باسم الإصلاح. قال (عليه السلام) بهذا الصدد:

---

(١) الكامل في التاريخ: ج٣ ص٥٥.

(٢) المصاحف للسجستاني: ص٢٢ قال جلال الدين: والسند صحيح. والإتقان: ج١ ص٥٩. ونقل السيد ابن طاووس في سعدالسعود: ص٢٧٨ ط نجف من كتاب اختلاف المصاحف لأبي جعفر محمدبن منصور، رواية محمدبن زيدبن مروان: أنّ القرآن جمعه زيدبن ثابت على عهد أبي بكر، ثم عاد عثمان فجمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام. ونقله أبوعبدالله الزنجاني أيضاً في تاريخ القرآن: ص٤٥. ونقل في ص٤٦ مايقرب ذلك من مقدمة تفسير الشهرستاني أيضاً.

(٣) النشر: ج١ ص٨. والمصاحف للسجستاني: ص٢٣.

(٤) المصاحف للسجستاني: ص١٢.

لايهاج القرآن بعد اليوم[١].

ذكروا: أنّه قرأ رجل بمسمع الإمام: «وَطَلْحٍ مَنضُودٍ»[٢] فجعل الإمام يترنّم في نفسه: ماشأن الطلح؟ إنّما هو طلع ـ كما في قوله تعالى: «لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ»[٣] ـ ولم يكن ذلك اعتراضاً من الإمام على القارئ، ولادعوة الى تغيير الكلمة، بل كان مجرّد حديث نفس ترنّم به الإمام (عليه السلام).

ولكن اناساً سمعوا كلامه فهبّوا يسألونه: ألا تغيّره؟ فانبرى الإمام (عليه السلام) مستغرباً هذا الطلب، وقال كلمته الحاسمة الخالدة، «إنَّ القرآن لايهاج اليوم ولايحوّل».

وهكذا سار على منهجه (عليه السلام) الأئمّة من ولده:

قرأ رجل عند الإمام أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) حروفاً من القرآن ليس على مايقرؤه الناس! فقال له الإمام: مه مه، كف عن هذه القراءة واقرأ كما يقرأ الناس.

وقال (عليه السلام) في جواب من سأله عن الترتيل في القرآن: اقرأوا كما علّمتم[٤].

ومن ثم وقع إجماع أصحابنا الإماميّة على أنّ ما بأيدينا هو قرآن كلّه[٥] لم تمسّه يد تحريف أصلا. وأنّ القراءة المشهورة هي القراءة الصحيحة، التي تجوز القراءة بها في الصلاة. وغيرها من أحكام أجروها على النّص الموجود، واعتبروه هوالقرآن الذي أُوحي الى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يعتبروا شيئا سواه.

---

(١) تفسير الطبري: ج ١٧ ص ٩٣. ومجمع البيان: ج ٩ ص ٢١٨.

(٢) الواقعة: ٢٩. وقد احتار المفسّرون في توجيه معنى الطلح هنا.

(٣) ق: ١٠.

(٤) وسائل الشيعة: باب ٧٤ من أبواب القراءة في الصلاة ج ٤ ص ٨٢١ ح ٣.

(٥) راجع: حديث طلحة مع الإمام. بحارالأنوار: ج ٩٢ ص ٤١ ـ ٤٢ ح ١.

وأمّا ابن مسعود فلا أظنّ مخالفته كانت جوهريّة، وإنّما أغضبه انتداب أشخاص غير أكفاء لهكذا مشروع جلل كان أمثاله جديرين بالانتداب له. كان يقول: إنّ رجالا لم يؤذن لهم قد تصرّفوا في القرآن من تلقاء انفسهم[1]. ومن ثم أبى إباء شديداً أن يدفع مصحفه الى رسول الخليفة. قال أبوميسرة أتاني رجل وأنا اُصلي فقال: أراك تصلّي وقد امربكتاب الله أن يمزّق كلّ ممزّق! فتجوّزت في صلاتي وكنت أجلس. فدخلت الدار ولم أجلس. ورقيت فلم أجلس. فإذا أنا بالأشعري، وحذيفة وابن مسعود يتقاولان. وحذيفة يقول لابن مسعود: ادفع إليهم المصحف. قال: والله لاأدفعه إليهم. أقرأني رسول الله (صلى الله عليه وآله) بضعاً وسبعين سورة ثم أدفعه إليهم؟! والله لا أدفعه إليهم[2].

عام تأسيس المشروع:

قال ابن حجر: كانت هذه القصة في سنة خمس وعشرين، في السنة الثالثه أو الثانية[3] من خلافة عثمان. قال: وغفل بعض من أدركناه فزعم أنّ ذلك كان في حدود سنة ثلاثين، ولم يذكر لذلك مستنداً[4].

وعدّها ابن الأثير- وتبعه بعض من تأخّر عنه من غير تحقيق- من حوادث سنة ثلاثين قال :وفي هذه السنة غزا حذيفة الباب مدداً لعبدالرحمان بن ربيعة

---

(١) الطبقات: ج٣ ص٢٧٠.

(٢) مستدرك الحاكم: ج٢ ص٢٢٨.

(٣) هذا الترديد ينظر الى الاختلاف في اليوم الذي بويع فيه لعثمان، فقيل: في العشر الأخير من ذي الحجة عام ٢٣. وعليه فعام تأسيس اللجنة يقع في صدر السنة الثالثة من خلافته. وقيل: في العشر الاول من محرم عام ٢٤. وعليه فيكون تأسيس اللجنة واقعاً في مؤخّرة السنة الثانية. راجع تاريخ الطبري: ج٣ ص٣٠٤. أو ج٤ ص٢٤٢ طبعة دارالمعارف.

(٤) فتح الباري: ج٩ ص١٥.

وفيها رأى حذيفة اختلافاً كثيراً بين الناس في القرآن، فلمّا رجع أشار على عثمان بجمع القرآن ففعل[١].

وأظنّ ابن الأثير متوهما في هذا التحديد:

أوّلا: كانت غزوة آذربيجان وأرمينية سنة ٢٤ في رواية أبي مخنف، ذكرها الطبري. غزاها الوليد بن عقبة، لأنّهم حبسوا ماصالحوا عليه حذيفة اليمان عندما غزاهم سنة ٢٢ أيام عمربن الخطاب[٢].

وقال ابن حجر: أرمينية فتحت في خلافة عثمان، وكان أمير العسكر من أهل العراق: سلمان بن ربيعة الباهلي. وكان عثمان قد أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك، وكان أمير أهل الشام في ذلك العسكر: حبيب بن سلمة الفهري وكان حذيفة من جملة من غزا معهم،وكان هو على أهل المدائن، وهو من جملة أعمال العراق...

ثم قال: سنة خمس وعشرين هو الوقت الذي ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه، أوّل ولاية الوليد بن عقبة بن أبي معيط، على الكوفة من قبل عثمان[٣].

ثانياً: كانت الغزوة التي غزاها عبدالرحمان بن ربيعة، هي في سنة اثنتين وعشرين. وكان الذي بصحبته حذيفة بن أُسيد الغفاري، لاحذيفة بن اليمان العنسي[٤].

ثالثاً: في سنة ثلاثين عيّن سعيد حاكماً على الكوفة مكان الوليد، وفي نفس الوقت تهيّأ لغزو طبرستان. وصحبه في الغزو ابن الزبير وابن عباس والحذيفة[٥]. ولم يرجع سعيد الى المدينة حتى سنة ٣٤ وفي السنة التالية كان

---

(١) الكامل في التاريخ:ج٣ ص٥٥. والفتوحات الاسلامية (زيني دحلان): ج١ ص١٧٥.

(٢) تاريخ الطبري- طبعة دارالمعارف-: ج٤ ص٢٤٦- ٢٤٧.

(٣) فتح الباري: ج٩ ص١٣- ١٤.

(٤) تاريخ الطبري طبعة دارالمعارف : ج٤ ص١٥٥. (٥) المصدر: ص٢٦٩- ٢٧١.

مقتل عثمان(١).

كلّ ذلك لايلتئم وكون سعيد عضواً ثانياً للّجنة إذا كانت تأسّست عام ٣٠ وهكذا ابن الزبير وابن عباس على ما تقدّم.

رابعاً: ذكر الذهبي فيمن توفي عام ثلاثين« ابي بن كعب». قال: وقال الواقدي: هو أثبت الأقاويل عندنا(٢) مع العلم أنّ أبياً كان ممليا على الأعضاء، وكان مرجعهم الأعلى في النسخ والمقابلة.

خامساً: في حديث يزيد النخعي الآنف: إنّي لفي المسجد زمن الوليد... الخ(٣).

الأمرالذي يدلّ على وقوع القصة قبل سنة ثلاثين. وفي لفظ ابن حجر: أنّه كان في بدء ولاية الوليد على الكوفة(٤) ولابدّ أنّه كذلك، إذ كان تعيّن الوليد على الكوفة في مفتتح سنة ٢٦. وفي رواية سيف: أنّها كانت سنة ٢٥(٥).

سادساً: وربّما هو أقوى دليل: روى ابن ابي داود، عن مصعب بن سعد، قال: خطب عثمان ـ بدء قيامه بجمع القرآن ـ فقال: إنما قبض نبيّكم منذ خمس عشرة سنة، وقد اختلفتم في القرآن! عزمت على من عنده شيءمن القرآن سمعه من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لمّا اتاني به..(٦).

هذه الخطبة تحدّد بالضبط بدء تأسيس المشروع المصاحفي، وأنّه كان عام ٢٥ بعد الهجرة.

وأخيراً فابن الأثير متفرد عن الطبري في سرد قضيّة حذيفة، ضمن حوادث سنة ثلاثين. ولاسيّما والتفصيل الذي أتى عليه في تاريخه، جاء في صورة لانكاد نصدّقها مأخوذة عن مستند تاريخي، وأغلب الظنّ أنّها مجموعة

---

(١) المصدر: ص ٣٣٠ و٣٦٥.

(٢) ميزان الاعتدال: ج٢ ص٨٤. وراجع الطبقات: ج٣ ص٦٢.

(٣) تقدم ذلك في الصفحة: ٣٣٣.

(٤) فتح الباري: ج٩ ص١٣ـ ١٤.

(٥) تاريخ الطبري: ج٤ ص٢٥١.

(٦) المصاحف للسجستاني: ص٢٤.

روايات منضمّة بعضها الى بعض زعمها مقترنة، فأوردها ضمن حوادث تلك السنة!!

ملحوظة: لايعتمد الطبري نفسه على التحديدات الزمنيّة التي يذكرها هو قيداً للحوادث، فهو يتردّد أحيانا في حادثة، بين وقوعها سنة ١٨ أوسنة ٢١، كواقعة نهاوند[١] ـ مثلاً ـ فلابدّ إذن لمعرفة تاريخ كلّ حادثة من البحث عن ملابساتها والتحقيق عن مناشئها وأسبابها، دون الاعتماد السريع على مايذكره المؤرخون من توقيت.

منجزات المشروع:

اجتازت اللجنة المصاحفيّة في عملها ثلاث مراحل أساسيّة:

١ـ جمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن، من أطراف البلاد الإسلاميّة وإمحائها.

٢ـ البحث عن مستندات ومنابع صحيحة لغرض النسخ عليها مصاحف متحدة وبثّها بين المسلمين.

٣ـ مقابلة هذه المصاحف الموحّدة، لغرض التأكّد من صحتها أوّلا، وعدم وجود اختلاف بينها ثانياً.

وأخيراً إلزام المسلمين كافّة على قراءتها ومنع غيرها من قراءات.

واللجنة ـ وإن اجتازت هذه المراحل ـ ولكنّها في شيءمن التساهل وإهمال جانب الدقّة الكاملة، ولاسيّما في المرحلة الثالثة التي كانت بحاجة شديدة الى اهتمام أكثر.

في مرحلة جمع المصاحف وإمحائها فقد أرسل عثمان الى كلّ افق من يجمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن وأمرها أن تحرق[٢].

---

(١) يصرّح الطبري: بترديده بشأن واقعة نهاوند: ج٤ ص١١٤ حوادث سنة ٢١.

(٢) صحيح البخاري: ج٦ ص٢٢٦.

قال اليعقوبي: وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحار والخلّ. وقيل: أحرقها. فلم يبق مصحف إلّا فعل به ذلك، خلامصحف ابن مسعود، فامتنع أن يدفع مصحفه الى عبدالله بن عامر. فكتب إليه عثمان أن اشخصه. فدخل ابن مسعود المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنّه قد قدمت عليكم دابّة سوء. فكلّم ابن مسعود بكلام غليظ. فأمر به عثمان فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان: فتكلّمت عائشة وقالت قولاً كثيراً[١].

* * *

وفي المرحلة الثانية، كان عثمان في بدء الأمر زعمها هينة، ومن ثم اختارلها جماعة غير أكفاء، ثم لجأ أخيراً الى جماعة آخرين وفيهم الأكفاء مثل سيّد القرّاء[٢] الصحابي الكبير أُبي بن كعب. كما وأرسل الى الربعة التي كانت في بيت حفصة، وهي الصحف التي جمع فيها القرآن أيام أبي بكر. فطلبها لتكون سنداً وثيقاً للمقابلة عليها والاستنساخ منها. فأبت حفصة لأوّل أمرها أن تدفعها إليه، ولعلّها خافت أن تأخذ مصيرها الى الحرق والتمزيق كسائر المصاحف! حتى عاهدها عثمان ليردّنها فبعثت بها إليه[٣].

وهكذا وجّه نداء عامّاً الى كافة المسلمين: عزمت على من عنده شيء من القرآن سمعه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أتاني به[٤].

فجعل الرجل يأتيه باللوح والكتف والعسيب فيه القرآن. وربّما كانوا ينتظرون أُناساً كانوا أحدثهم بالعرضة الأخيرة، حتى يأتوهم بالقرآن.

قال ابن سيرين: كانوا إذا تدارؤا في شيء ـ أي اختلفوا في آية ـ أخّروه قال بعضهم: ولعلّهم كانوا يؤخّرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) تهذيب التهذيب: ج ١ ص ١٨٧. والطبقات: ج ٣ ص ٦٢.

(٣) المصاحف للسجستاني: ص ٩. وصحيح البخاري: ج ٦ ص ٢٢٦.

(٤) المصاحف للسجستاني: ص ٢٤.

فيكتبونها على قوله[١].

وقال أنس بن مالك: كنت فيمن أملي عليهم، فربّما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقّاها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولعلّه يكون غائباً أو في بعض البوادي، فيكتبون ماقبل الآية ومابعدها، ويدعون موضعها حتى يجيء الرجل أو يرسل إليه[٢].

هذا... وربّما كان أُبي بن كعب يملي عليهم القرآن فيكتبونه، أو يرسلون إليه فيصحّح لهم ما اشتبهت عليهم قراءتها.

جاء في حديث أبي العالية: أنّهم جمعوا القرآن من مصحف أُبي. فكان رجال يكتبون يملي عليهم أُبي بن كعب[٣].

وقال عبدالله بن هانئ البربري ـ مولى عثمان ـ: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف ـ أي يقابلون النسخ مع بعضها البعض ـ فأرسلني بكتف شاة الى أُبي بن كعب فيها: «لم يتسن» وفيها: «لاتبديل للخلق الله»، وفيها: «فامهل الكافرين» فدعا أُبي بدواة فمحى اللامين وكتب «لخلق الله». ومحى «فأمهل». وكتب «فهل» وكتب «لم يتسنه» فألحق فيها الهاء[٤].

* * *

أمّا المرحلة الثالثة فكان التساهل فيها أوضح، حسب ما أودعت في المصحف العثماني من أخطاء ومناقضات إملائيّة بالايستهان بها، كما ولم تتحد نسخ المصاحف مع بعضها البعض، فكان بين المصاحف المرسلة الى الآفاق اختلاف. الأمر الذي يؤخذ على أعضاء اللجنة، ولاسيّما عثمان نفسه، الذي عثر على تلك الأخطاء وأهملها تساهلا بالأمر!

يحدّثنا ابن أبي داود عن بعض أهل الشام، كان يقول: مصحفنا ومصحف

---

(١) المصدر: ص٢٥.

(٢) المصدر: ص٢١.

(٣) المصدر: ص٣٠.

(٤) الإتقان: ج١ ص١٨٣.

أهل البصرة أحفظ من مصحف أهل الكوفة. لأنّ عثمان لمّا كتب المصاحف بلغه قراءة اهل الكوفة على حرف عبدالله. فبعث إليهم بالمصحف قبل أن يعرض- أي قبل مقابلته على سائر النسخ- وعرض مصحفنا ومصحف أهل البصرة قبل أن يبعث بهما[١].

وهو تسريع في إرسال المصحف الى قطر كبير قبل مقابلته بدقة.

كما وأنّ وجود اختلاف بين مصاحف الأمصار- على ما يحدّثنا ابن أبي داود أيضاً[٢]- لدليل على مدى الإهمال الذي سمحوا به في ناحية المقابلة والإتقان من صحّة النسخ.

وجانب أفضح من هذا التساهل الغريب: ماروى ابن أبي داود- أيضاً-: أنّهم عندما فرغوا من نسخ المصاحف أتوا به الى عثمان، فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم. أرى فيه شيئا من لحن!- لكن- ستقيمه العرب بألسنتها؟ثم قال: لوكان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا.![٣].

قلت: ماهذا الإيتكال الغريب، والفرصة في قدرته؟! ألم يكن كتاب الله العزيز الحميد جديراً بالاهتمام به ليكون خلواً من كلّ خطأ أو لحن؟! ثم ماهذا التمنّي الكاذب، وفي استطاعته بدء الأمر أن يختارمملياً من هذيل وكتبة من ثقيف، وهو يعلم أنّ فيهم الجدارة والكفاءة، الأمر الذي كان يعوزه من انتدبهم من بطانته حينذاك !!

نعم كانت مغبّة هذا التساهل أن حصلت اختلافات في القراءة فيما بعد، وكان كرّاً على مافرّوامنه. وسنفصّل كلّ ذلك في فصول قادمة.

عددالمصاحف العثمانية:

اختلف المورّخون في عدد المصاحف الموحّدة التي أُرسلت الى الآفاق. قال ابن

---

(١) المصاحف للسجستاني: ص٣٥.

(٢) المصدر: ص٣٩- ٤٩. وسنذكره في فصل قادم. (٣) المصدر: ص٣٢- ٣٣.

أبي داود: كانت ستة حسب الأمصار المهمّة ذوات المركزيّة الخاصّة: مكة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن. وحبس السابعة ـ وكانت تسمّى الأُمّ أوالإمام ـ بالمدينة[١] وزاد اليعقوبي: مصر والجزيرة[٢].

إذاً فعدد المصاحف التي نسختها لجنة توحيد المصاحف هي تسعة، واحدة هي الامّ أوالإمام، كانت بالمدينة والبقيّة ارسلت الى مراكز البلاد الإسلاميّة آنذاك.

وكان المصحف المبعوث الى كلّ قطر يحتفظ عليه في مركز القطر، يستنسخ عليه ويرجع إليه عند اختلاف القراءة. ويكون هو حجّة، والقراءة التي توافقها تكون هي الرسميّة، وكلّ نسخة أو قراءة تخالفها تعدّ غير رسميّة وممنوعة يعاقب عليها.

أمّا مصحف المدينة (الإمام) فكان مرجعاً للجميع بصورة عامّة، حتى إذا كان اختلاف بين مصاحف الأمصار، فإنّ الحجة هو المصحف الإمام بالمدينة، فيجب أن يصحّح عليه.

وروي: أنّ عثمان بعث مع كلّ مصحف قارئاً يُقرئ الناس على قراءة ذلك المصحف. فبعث مع المصحف المكيّ ـ مثلاً ـ عبدالله بن السائب. ومع المصحف الشاميّ المغيرة بن شهاب. ومع المصحف الكوفيّ أبا عبدالرحمان السلميّ. ومع المصحف البصريّ عامر بن عبدالقيس.. وهكذا. وكان قارئ المدينة والمقرئ من قبل الخليفة هو زيد بن ثابت[٣].

هذا.. وكانت شدة الاهتمام بهذه المصاحف والتحفّظ عليها من قبل السلطات، وشدة حرص الناس على محافظتها ودراستها، تستدعي بقاءها مع الخلود. غير أنّ تطوّرات حصلت عليها فيما بعد: تنقيط وتشكيل وتحزيب وأخيراً

---

(١) **المصاحف** للسجستاني: ص ٣٤.

(٢) **تاريخ** اليعقوبي: ج ٢ ص ١٦٠.

(٣) مناهل العرفان: ج ١ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

تغيير الخطّ من الكوفيّ البدائي الذي كتبت به المصاحف على عهد عثمان، الى الكوفيّ المعروف، وبعده الى خطّ النسخ العربي الجميل وخطوط أُخرى تداولت فيا بعد. كلّ ذلك جعل من المصاحف العثمانيّة الأُولى على مدرج النسيان، فأمست مهجورة ولم يعد لها أثر في الوجود.

* * *

هذا... وذكر ياقوت الحموي (توفي سنة ٦٢٦هـ) أنّ في جامع دمشق مصحف عثمان بن عفان. قالوا: إنّه خطّه بيده[١].

وهذا المصحف رآه ابن فضل الله العمري (توفي سنة ٧٤٩هـ). قال: والى الجانب الأيسر من جامع دمشق المصحف العثماني بخطّ عثمان بن عفان[٢].

ولم يحفظ لعثمان أنّه خط مصحفاً بيده، فلعلّه مصحف الشام بقي لذلك العهد.

وهذا المصحف يذكره ابن كثير (توفي سنة ٧٧٤هـ) من غير أن ينسبه إلى خطّ عثمان. قال: وأمّا المصاحف العثمانيّة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة. وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها الى دمشق في حدود سنة ٥١٨هـ.وقد رأيته كتاباً ضخماً بخطّ حسن مبين قوي، بحبر محكم، في رق أظنّه من جلود الإبل[٣].

وقال الرحالة ابن بطوطة (توفي سنة ٧٧٩هـ): وفي الركن الشرقي من المسجد ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجّهه عثمان بن عفان الى الشام، وتفتح تلك الخزانة كلّ يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم. وهناك يحلّف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئاً[٤].

---

(١) معجم البلدان: ج ٢ ص ٤٦٩.

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ج ١ ص ١٩٥.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير: ص ٤٩.

(٤) رحلة ابن بطوطة: ج ١ ص ٥٤.

ويقال، إنَّ هذا المصحف بقي في مسجد دمشق حتى احترق فيه سنة. ١٣١٠هـ[١].

قال الدكتور صبحي صالح: وقد ذكر لي زميلي الأُستاذ الدكتور يوسف العش: انّ القاضي عبدالمحسن الاسطواني أخبره بأنّه قد رأى المصحف الشامي قبل احتراقه، وكان محفوظا بالمقصورة وله بيت خشب[٢].

قال الأُستاذ الزرقاني: ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانيّة الآن فضلا عن تعيين أمكنتها.

أمّا المصاحف الأثريّة التي تحتويها خزائن الكتب المصريّة، ويقال عنها: إنّها مصاحف عثمانيّة، فإننّا نشكّ كثيراً في صحّة هذه النسبة، لأنّ بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور، ولبيان أعشار القرآن. ومعلوم أنّ المصاحف العثمانيّة كانت خالية من كلّ هذا ومن النقط والشكل.

نعم في خزانة المشهد الحسيني مصحف منسوب الى عثمان، مكتوب بالخطّ الكوفيّ القديم، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً. ورسمه يوافق رسم المصحف المدنيّ أو الشاميّ، حيث رسم فيه كلمة «من يرتدد» من سورة المائدة بدالين مع الفك ،فأكبر الظنّ أنّ هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانيّة على رسم بعضها[٣].

* * *

وهكذا نسب الى خطّ الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام) مصحف بعض أوراقه محفوظة بالخزانة العلويّة في النجف الأشرف. بخطّ كوفيّ قديم، كتب على آخره: كتبه علي بن أبوطالب في سنة أربعين من الهجرة. قال الأُستاذ أبوعبدالله الزنجاني: ورأيت في شهر ذي الحجّة سنة ١٣٥٣هـ في دار الكتب

(١) انظر خطط الشام: ج٥ ص٢٧٩.
(٢) مباحث في علوم القرآن: ص٨٩ بالهامش.
(٣) مناهل العرفان: ج١ ص٣٩٧ـ ٣٩٨.

العلويّة في النجف مصحفاً بالخط الكوفيّ كتب على آخره: كتبه علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة ولتشابه «أبي» و «أبو» في رسم الخطّ الكوفي قد يظنّ من لاخبرة له أنّه كتب علي بن أبوطالب بالواو[1].

وفي خزانة الآثار بالمسجد الحسيني بالقاهرة أيضاً مصحف يقال: أن علي بن أبي طالب كتبه بخطه، وهو مكتوب بخطّ كوفيّ قديم. قال الأستاذ الزرقاني. من الجائز أن يكون كاتبه علياً، أو يكون قد أمر بكتابته في الكوفة[2].

* * *

ويذكر ابن بطوطة: أنّ في مسجد أميرالمؤمنين علي (عليه السلام) بالبصرة، المصحف الكريم الذي كان عثمان يقرأ فيه لمّا قتل. وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: «فَسَيَكْفِيكَهم اللهُ وهُو السَميعُ العَليمُ»[3] وهو غريب!

* * *

وروى السمهودي عن محرر بن ثابت، قال: بلغني أنّ مصحف عثمان صار الى خالد بن عمرو بن عثمان، فلمّا استخلف المهدي (العباسي) بعث بمصحف الى المدينة، فهو الذي يقرأ فيه اليوم، وعزل مصحف الحجاج، فهو في الصندوق الذي دون المنبر.

وقال ابن زبالة: حدّثني مالك بن أنس أنّ الحجاج أرسل الى امّهات القرى بمصاحف، فأرسل الى المدينة بمصحف كبير، وكان هذا المصحف في صندوق، عن يمين الاسطوانة التي عملت علما لمقام النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان يفتح في يوم الجمعة والخميس فبعث المهدي بمصاحف لها أثمان فجعلت في صندوق ونحّي عنها مصحف الحجاج.

قال السمهودي: ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبّة التي بوسط

---

(١) تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني: ص٤٦.

(٢) مناهل العرفان: ج١ ص٣٩٨.

(٣) رحلة ابن بطوطة: ج١ ص١١٦.

المسجد المنسوب لعثمان في كلام أحد من متقدمي المؤرخين.

وفي كلام ابن النجّار ـ وهو أوّل من ترجم مصاحف المساجد ـ: أنّ المصاحف الأوّليّة قد دثرت على طول الزمان وتفرّقت أوراقها فلم تبق لها باقية بعد ذلك [1].

تعريف عام بالمصاحف العثمانيّة:

كانت المصاحف العثمانيّة ـ بصورة عامّة ـ ذات ترتيب خاصّ يقرب من ترتيب مصاحف الصحابة في أصل المنهج الذي سارت عليه بتقديم الطوال على القصار، مع اختلاف يسير.

وكانت خالية عن كلّ علامة تشير الى إعجام الحرف أو تشكيله. أو الى تجزئته من أحزاب وأعشار وأخماس..

وكانت مليئة بأخطاء إملائية ومناقضات في رسم الخطّ، ويرجع السبب الى بداءة الخطّ الذي كان يعرفه الصحابة آنذاك.

تلك أوصاف عامّة جرت عليها تلكم المصاحف نفصّلها فيما يلي:

١ ـ الترتيب:

تقدّم الكلام عن ترتيب المصحف العثماني، هو الترتيب الحاضر في المصحف الكريم، وهو الترتيب الذي جرت عليه مصاحف الصحابة حينذاك، ولاسيّما مصحف أُبي بن كعب. لكنّه خالفها في موارد يسيرة:

من ذلك: أنّ الصحابة كانوا يعدّون سورة يونس من السبع الطوال، فكانت هي السورة السابعة [2] أو الثامنة [3] في ترتيب مصاحفهم.

---

(١) راجع وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٦٦٧ ـ ٦٦٨.

(٢) في مصحف ابن مسعود.

(٣) في مصحف أُبي بن كعب.

لكن عثمان عمد الى سورة الأنفال فجعلها هي وسورة براءة سابعة السبع الطوال، زعمهما سورة واحدة وأخّر سورة يونس الى سورالمئين.

الأمرالذي أثار ابن عباس[١] ليعترض على عثمان، قائلا: ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال، وهي من المثاني[٢] وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم[٣] ووضعتموهما في السبع الطوال؟!

قال عثمان: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا. وكانت قصّتها شبيهة بقصّتها، فظننت أنّها منها، فقبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يبيّن لنا أنّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطوال.

قال الحاكم: والحديث صحيح على شرط الشيخين[٤].

وهذا يدلّ على اجتهاد الصحابة في ترتيب المصحف. فكان عثمان يعرف أنّ آيات من سور ربّما كان يتأخّر نزولها، فيأمر النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن توضع موضعها من السورة المتقدّمة. فزعم عثمان أنّ سورة براءة هي من تتمّة سورة الأنفال[٥] لتشابه ما بينهما في السياق العامّ: تعنيف بمناوئي الإسلام من

---

(١) سبق أنّ عضويته في لجنة توحيد المصاحف كانت متأخّرة.

(٢) لعلّه ينظر الى مصحف ابن مسعود الذي جعلها من المثاني. أمّا في مصحف أُبي بن كعب فهي من المئين.

(٣) أيضاً ينظر الى مصحف ابن مسعود الذي أثبت فيه البسملة لسورة براءة.

(٤) مستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٢٢١ و ٣٣٠.

(٥) وهكذا روى العياشي: ج ٢ ص ٧٣ ح ٣ بسنده عن أحدهما (عليهما السلام) قال: الأنفال وسورة ←

كافرين ومنافقين. وتحريض بالمؤمنين على الثبات والكفاح لتثبيت كلمة الله في الأرض. وحيث لم يرد نقل بشأنهما فقرن بينهما وجعلهما سورة واحدة هي سابعة الطوال.

ولعلّه لم يتنبّه أنّ سورة براءة نزلت نقمة بالكافرين، ومن ثم لم تنزل معها التسمية التي هي رحمة، حيث لا يتناسب بدء نقمة برحمة. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): البسملة أمان، و براءة نزلت بالسيف[1].

وهكذا اختلافات يسيرة جاءت في المصحف العثمانيّ مع بقيّة المصاحف، لا في أُصول منهج الترتيب العامّ، بل في سور كلّ نوع من التنويع المتقدّم. وكان الجدول السابق[2] كفل بيان هذا الاختلاف.

٢ـ النقط والتشكيل:

كانت المصاحف العثمانية خلواً عن كلّ علامة مائزة بين الحروف المعجمة والحروف المهملة، وفق طبيعة الخطّ الذي كان دارجاً عند العرب آنذاك. فلا تميز بين الباء والتاء، ولا بين الياء والثاء. ولا بين الجيم والحاء والخاء. وهكذا كان مجرداً عن الحركة والإعراب... وكان على القارئ بنفسه أن يميز بينهما عند القراءة حسب ما يبدو له من قرائن. كما كان عليه أن يعرف هو بنفسه وزن الكلمة وكيفيّة إعرابها أيضاً.

ومن ثم كانت قراءة القرآن في الصدر الأوّل موقوفة على مجرّد السماع

براءة واحدة.

وهناك اختلاف بين العلماء في انّهما سورة واحدة ام اثنتان؟ راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٢. وربّما كان يرجّح القول بأنّهما سورة واحدة ماورد: إنّما كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداء للأُخرى. تفسير العياشي: ج ١ ص ١٩ ح ٥.

(١) مستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٣٣٠. والإتقان: ج ١ ص ٦٥. ومجمع البيان: ج ٥ ص ٢.

(٢) تقدم ذلك في الصفحة: ٣٢١-٣٣٢.

والنقل فحسب. ولولا الإسماع والإقراء كانت القراءة في نفس المصحف الشريف ممتنعة تقريباً.

مثلاً: لم تكن كلمة «تبلو» تفترق في المصحف عن كلمة «نبلو» أو «نتلو» أو «تتلو» أو «يتلو»... وكذا كلمة «يعلمه» لم تكن تتميّز عن كلمة «تعلمه» أو «نعلمه» أو «بعلمه»..

وهكذا قوله: «لتكون لمن خلفك آية» ربّما قرأه بعضهم: «لمن خلقك».

وفيما يلي أمثلة واقعيّة، اختلفت القراءة فيها، مغبّة خلوّ المصاحف من النقط: «نُنشزُها»-«ننشرها»-«تنشرها»[1].

«يُعَلِمُهُ». «نعلمه»[2].

«تَبْلُو». «تتلو»[3].

«نُنَجِّيكَ». «ننحيكَ»[4].

«لَنُبَوِّئَنَّهُمْ». «لنثوينّهم». «لنبوينهم»[5].

«نُجازي». «يجازي»[6].

«فَتَبَيَّنُوا»-«فتثبتوا»[7].

الى غيرها من أمثلة وهي كثيرة.

* * *

هذا... وخلّو المصاحف الأوّلية من علائم فارقة، كان عمدة السبب في اختلاف القراءات فيا بعد. إذ كان الاعتماد على الحفظ والسماع، وبطول الزمان

---

(١) البقرة: ٢٥٩. راجع مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٦٨.

(٢) آل عمران: ٤٨. راجع مجمع البيان: ج ٢ ص ٤٤٤.

(٣) يونس: ٣٠. راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٠٥.

(٤) يونس: ٩٢. راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٣٠.

(٥) العنكبوت: ٥٨. راجع مجمع البيان: ج ٨ ص ٢٩٠.

(٦) سبأ: ١٧. راجع مجمع البيان: ج ٨ ص ٣٨٤.

(٧) الحجرات: ٦. راجع مجمع البيان: ج ٣ ص ٩٤ وج ٩ ص ١٣١.

ربّما كان يحصل اشتباه في النقل أو خلط في السماع، مادام الإنسان هو عرضة للنسيان، والاشتباه حليفه مهما دقّق في الحفظ، لولم يقيده بالكتابة. ومن ثم قيل: ما حُفظ فرّوما كتب قرّ.

أضف الى ذلك تخلخل الأُمم غير العربيّة في الجزيرة وتضخّم جانبهم مطرداً مع التوسعة في القطر الإسلامي العريض. فكان على أعضاء المشروع المصاحفي في وقته أنّ يفكرو في مستقبل الأُمّة الإسلامية، ويضعوا علاجاً لما يحتمل الخلل في قراءة القرآن قبل وقوعه. ولكن أنّى وروح الإهمال والتساهل كان مسيطراً تماماً على المسؤولين آنذاك .

هذا .. وقد أغرب ابن الجزري، فزعم أنّ المسؤولين آنذاك تركوا وضع العلائم عن عمد وعن قصد، لحكمة! قال: وذلك ليحتمل الخطّ ما صحّ نقله وثبتت تلاوته عن النبي (صلى الله عليه وآله) إذ كان الإعتماد على الحفظ والسماع لاعلى مجرد الخطّ[1].

ووافقه الزرقاني على هذا التبرير المفضوح، قال: كانوا يرسمونه بصورة واحدة خالية من النقط والشكل، تحقيقاً لهذا الاحتمال[2].

لكن لامجال لهذا التبرير بعد أن نعلم أنّ الخطّ عند العرب حينذاك كان بذاته خالياً عن كلّ علامة مائزة. وكان العرب هم في بداءة معرفتهم بالخطّ والكتابة، فلم يكونوا يعرفون من شؤون الإعجام والتشكيل وسائر العلائم شيئاً لحدّ ذاك الوقت.

نشأة الخطّ العربيّ:

ليس في آثار العرب بالحجاز مايدلّ على معرفتهم بالكتابة، إلّا قبيل الإسلام. والسبب في ذلك أنّ العرب كان قد غلب على طباعهم البداوة،

---

(١) النشر في القراءات العشر: ج١ ص٧. (٢) مناهل العرفان: ج١ ص٢٥١.

فكانـوا في ترحال وارتحال أو حـروب وغارات، وكانت تصرفهم عـن التفكّر في شؤون الصناعات، والكتابة من الصناعات الحضريّة.

لكن بعض العرب ممّن رحلوا الى الشام والعراق في تجارة أو سفارة، جعلوا يتـخلّقـون بأخـلاق تلكـم الأُمم المـتحضّرة. فـاقتبسوا منهم الـكتابة والخطّ على سـبيل الاستعارة، فعـادوا وبعضهم يكتـب بـالخطّ النبطي أو الخطّ السرياني. وظلّ الخطّان معروفين عند العرب الى مابعد الفتح الإسلامي.

وقد تخلّف عـن الخطّ النبطـيّ الخطّ النسخيّ ـ وهو المعروف الـيوم ـ وتخلّف عن الخطّ السريانيّ الخطّ الكوفي. وكان يسمّى الخط الحيري، نسبة الى الحيرة ـ مدينة عربية قـديمة بجوار الكوفة اليوم ـ لأنّ هذا التحوّل حصل فيها. ثم بعد بناء الكوفة وانتقال الحضـارة العربيّة إليها، تحوّل اسـم هذا الخطّ الى الخطّ الكوفيّ. وظـلّ هذا الخطّ هو المعروف والمتداول بين العرب في فترة طويلة.

والخطّ النبطـيّ ـ المتحوّل الى الخطّ الـنسخيّ ـ تـعلّمتـه العرب مـن حوران، أثناء تجارتهم الى الشام. أمّا الخطّ الحـيريّ أو الكوفيّ فقد تـعلّموه من العراق. فكانوا يستـخدمون القلـمين جميعاً: الأوّل في المراسـلات والكتابات الاعتيادية والثاني للكتابات ذوات الشأن كالقرآن والحديث.

ودليـلا على تخلّـف الخطّ الكوفـيّ عن السـريانـيّة: أنّهـم كـتـبوا في القرآن «الكتب» بدل «الكتّاب». و«الرحمن» بدل «الرحمان». وتلك قاعدة مطّردة في الخطّ السريانيّ، يحذفون الألفات الممدودة في أثناء الكلمة.

جاء الإسلام والخطّ غير معروف عند الـعرب الحجازيين، فلم يكـن يعرف الكتابة إلّا بضـعة عشر رجلاً، واسـتـخدمهم الـنبيّ (صلى الله عليه وآلـه وسلم) لكتابة الوحي. لكنّه جعل يحرّض المسلمين على تعلّم الخطّ حتى نموا وكثروا.

وقد بقي الخطّان: النسخ والكوفـيّ، هما المعروفين بين المسلمين، يعملون في تطويرهما وتحسينهما، حتى نـبغ ابن مقلة في مفتتح القرن الرابع الهجري، وأدخل في خطّ النسـخ تحسينات فائـقة. وهـكذا بلغ الخط النسـخيّ الـعربيّ ذروته في

الكمال على نحو ماهو عليه الآن.

وظلّ الخطّ الكوفيّ، على عكس ازدهار الخطّ النسخيّ وتقدّمه، يتدهور الى أن هجر تماماً، وكتبت المصاحف بعدئذ بالخطّ النسخي الجميل. وقد كانت تكتب بالخطّ الكوفي نحو قرنين أو أكثر[١].

أوّل من نقّط المصحف:

كان الخطّ عندما اقتبسته العرب من السريان والأنباط، خاليا من النقط، ولا تزال الخطوط السريانيّة بلانقط الى اليوم. وهكذا جرت عليه العرب يكتبون بلانقط حتى منتصف القرن الأوّل، وبعده بقليل جعل الخطّ العربي ينتقل الى دوره الجديد، دور تشكيل الخطّ وتنقيطه، وسيأتي الكلام عن التشكيل.

وفي ولاية الحجاج بن يوسف الثقفيّ على العراق من قبل عبدالملك بن مروان (٧٥ـ ٨٦هـ) تعرّف الناس على نقط الحروف المعجمة وامتيازها عن الحروف المهملة. وذلك على يديحيى بن يعمر ونصربن عاصم، تلميذيّ أبي الأسود الدؤلي[٢].

والسبب في ذلك: أنّ الموالي في هذا العهد قد كثروا، وازدحم القطر الإسلاميّ بأجانب عن اللغة العربيّة، وكان منهم العلماء والقرّاء، والعربيّة

---

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين، لفريد وجدي: ج٣ ص٦٢١. وتاريخ التمدّن الإسلاميّ، لجرجي زيدان: ج٣ ص٥٨ـ ٦٠. والمقدّمة لابن خلدون: ص٤١٧ـ ٤٢١. وأصل الخط العربيّ، لخليل يحيى نامي، المجلد الثالث. والخطّ العربيّ الإسلاميّ، لتركي عطيّة: ص٢٢. وانتشار الخط العربيّ، لعبد الفتاح عبادة: ص١٣ـ ١٥. ومصوّر الخطّ العربيّ لناجي المصرف: ص٣٣٨. وتاريخ الخطّ العربيّ، لمحمد طاهر الكرديّ: ص٥٤.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين: ج٣ ص٧٢٢. ومناهل العرفان:ج١ ص٣٩٩ـ ٤٠٠.وتاريخ القرآن: ص٦٨.

ليست لغتهم، فكان لابدّ أن يقع في تلفّظهم لحن، ومن ثم كثر التصحيف في القراءات، وهال المسلمين ذلك.

حكى أبو أحمد العسكري[١] أن الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة الى أيام عبد الملك بن مروان، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج بن يوسف الى كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات. فيقال: إنَّ نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها...[٢].

وقال الأُستاذ الزرقاني: أوّل من نقّط المصحف هو يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم تلميذا أبي الأسود الدؤلي[٣].

أوّل من شكّل المصحف:

وهكذا كان الخطّ العربيّ آنذاك مجرّداً عن التشكيل (علائم حركة الكلمة وإعرابها) وبطبيعة الحال كان المصحف الشريف خلواً عن كلّ علامة تشير الى حركة الكلمة أو إعرابها.

بيد أنّ القرآن في الصدر الأوّل كان محفوظاً في صدور الرجال ومأمونا عليه من الخطأ واللحن، بسبب أنّ العرب كانت تقرؤه صحيحاً حسب سليقتها الفطريّة التي كانت محفوظة لحدّ ذاك الوقت. أضف الى ذلك شدّة عنايتهم بالأخذ والتلقي عن مشايخ كانوا قريبي العهد بعصر النبوّة. فقد توفّرت الدواعي على حفظه وضبطه صحيحاً حينذاك.

أمّا وبعد منتصف القرن الأوّل حيث كثر الدخلاء وهم أجانب عن اللغة فإنّ السليقة كانت تعوزهم، فكانوا بأمسّ حاجة الى وضع علائم ودلالات

---

(١) في كتاب التصحيف: ص١٣.

(٢) ابن خلكان: ج ٢ ص ٣٢ في ترجمة الحجاج.

(٣) مناهل العرفان: ج ١ ص٣٩٩.

تؤمّن عليهم الخطأ واللحن.

مثلاً:لفظة «كتب» كانت العرب تعرف بسليقتها الذاتية، أنّها في قوله تعالى: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»[١] تقرأ مبنيّاً للفاعل، وفي قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ»[٢] مبنيّاً للمفعول. أمّا الرجل الأعجميّ فكان يشتبه عليه قراءتها معلومة أو مجهولة.

كما أنّ أبا أسود سمع قارئا يقرأ: «أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهُ»[٣]ـ بكسر اللام ـ فقال: ماظننت أنّ أمر الناس آل الى هذا، فرجع الى زيادبن أبيه ـ وكان واليا على الكوفة (٥٠ـ ٥٣هـ) وكان قد طلب إليه أن يصنع شيئاً يكون للناس إماماً، ويعرف به كتاب الله، فاستعفاه أبوالأسود، حتى سمع بنفسه هذا اللحن في كلام الله ـ فعند ذلك عزم على إنجاز ماطلبه زياد[٤] فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليبغ لي كاتباً مجيداً يفعل ما أقول. فأتوه بكاتب من عبد قيس فلم يرضه، فأتوه بآخر وكان واعياً فاستحسنه.

قال أبوالأسود للكاتب: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه من أعلاه. وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف[٥] وفي لفظ ابن عياض: زيادة قوله: فإذا أتبعت ذلك غنّة فاجعل النقطة نقطتين ففعل[٦].

وظلّ الناس بعد ذلك يستعملون هذه النقط علائم للحركات، غير أنهم

(١) الأنعام: ٥٤.

(٢) البقرة: ١٨٣.

(٣) التوبة: ٣.

(٤) يقال: إنّ زياداً هوالذي دبّر هذه الطريقة ليجبربها أباالأسود على قبول ماطلبه منه. فأوعزالى رجل من أتباعه أن يقعد في طريق أبي الأسود ويتعمّد اللحن في القراءة (تركي عطية: الخطّ العربيّ الإسلاميّ:ص٢٦) و (يوسف أحمد: الخطّ الكوفي: ص٢٣).

(٥) الفهرست: ص٤٦ الفنّ الأوّل من المقالة الثانية.

(٦) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، السيد حسن الصدر: ص٥٢.

-في الأغلب- كانوا يكتبونها بلون غيرلون خطّ المصحف. والأكثر يكتبونها بلون أحمر.

والظاهر أنّ تبديل النقط االسود الى نقط ملوّنة حدث بعد وضع الإعجام على يد نصربن عاصم الآنف، للفرق بين النقطة التي هي علامة الحركة، والتي هي علامة الإعجام.

قال جرجي زيدان: وقد شاهدنا في دارالكتب المصريّة مصحفاً كوفيّاً منقّطاً على هذه الكيفيّة، وجدوه في جامع عمروبن العاص بجوار القاهرة، وهو من أقدم مصاحف العالم، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون، فالنقطة من فوق الحرف فتحة وتحتها كسرة وبين يديها ضمّة، كما وصفها أبو الأسود[1].

وقد جرى بالأندلس استعمال أربعة ألوان للمصاحف هي: اللون الأسود، للحروف. واللون الأحمر، للشكل بطريقة النقط. واللون الأصفر، للهمزات. واللون الأخضر، لألفات الوصل[2].

تحسينات متأخرة:

قال جلال الدين: كان الشكل في الصدر الأوّل نقطاً، فالفتحة نقطة على أوّل الحرف، والضمّة على آخره والكسرة تحت أوّله. وعليه مشى الداني. والذي اشتهر الآن الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، وهوالذي أخرجه الخليل بن أحمد الفراهيدي[3] فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف، والكسر كذلك تحته، والضمّ واو صغيرة فوقه، والتنوين زيادة مثلها... قال: وأوّل من

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ج٣ ص٦١.

(٢) الخطّ العربيّ الإسلاميّ (تركي عطية): ص٢٧. نقلاً عن عثمان بن سعيد الداني في كتابه «المقنع». وتاريخ القرآن لأبي‌عبدالله الزنجاني: ص٦٨.

(٣) هو أوّل من صنّف النقط ورسمه في كتاب وذكر علله (المحكم: ٩).

وضع الهمز والتشديد والروم والإشمام الخليل أيضاً[(١)].

وهكذا كلّما امتدّ الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بالقرآن وتيسير رسمه من طور الى طور، حتى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري، بلغ الرسم ذروته في الجودة والحسن، وأصبح الناس يتنافسون في اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميزة، حتى جعلوا لسكون الحرف رأس خاء، ومعناها: أنّ الحرف المسكّن أخفّ من الحرف المتحرّك . أو برأس ميم، ومعناه: أنّ الحرف مسكّن فلا تحرّكه. وعلامة التشديد ثلاث سنايات، ومعناها: شدّ الحرف شديداً ووضعوا لألفات الوصل رأس صاد، ومعناه: صل هذا الحرف .. وهكذا لطفت صناعة رسم الخطّ لطفا، ورقّت حاشيته تهذيباً حسنا وظرفاً[(٢)].

وأمّا وضع الأعشار والأخماس وغيرهما من علائم التحزيب والتجزئة، فقيل: إنّ المأمون العباسي هوالذي أمر بذلك .

وقيل: إن الحجاج فعل ذلك ، قال أحمدبن الحسين: بعث الحجاج الى قرّاء البصرة فجمعهم واختار منهم جماعة. وقال: عدّوا حروف القرآن، فجعلوا يعدّونها أربعة أشهر، وإذا هي: ٧٧٤٣٩ كلمة. و٣٢٣٠١٥ حرفا. وفي رواية: ٣٤٠٧٤٠ حرفا. وينتصف القرآن على الفاء من قوله: «وَلْيَتَلَطَّفْ»[(٣)]. وعدد آياته ـ في قول علي (عليه السلام): ٦٢١٨ آية. **وفي رواية (٦٢٣٦).**

وقد اشتهر تحزيب القرآن وتجزئته الى ثلاثين جزء تسهيلاً لقراءته في المدارس وغيرها.

وأطول سورة في القرآن هي البقرة، وأقصرها الكوثر.

وأطول آية في القرآن آية الدين[(٤)] تحتوي على ١٢٨ كلمة وهي ٥٤٠ حرفاً.

---

(١) الإتقان: ج ٢ ص ١٧١. وكتاب النقط لأبي عمرو الداني: ص١٣٣.

(٢) المصباح لسلامة بن عياض (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٥٢).

(٣) الكهف: ١٩.

(٤) البقرة: ٢٨٢.

وأقصر آية «وَالضُّحَىٰ» ثم «وَالْفَجْرِ». حروفها: ٥ لفظا و٦ رسماً.

وأطول كلمة في القرآن: «فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»[١] أحد عشر حرفاً لفظاً ورسماً[٢].

وأخرج أحمد في مسنده عن أوس بن حذيفة، قال: كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) كانوا أسلموا من ثقيف من بني مالك فأنزلنا في قبة له، فكان يختلف الينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلّى العشاء الآخرة انصرف إلينا يحدّثنا مالقي من قومه بمكة وبعد المهاجرة الى المدينة. فمكث عنّا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء قال: قلنا: ما أمكثك عنّا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: طرأ عنّي حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أصبحنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ست سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصّل من سورة ق حتى تختم[٣].

والظاهر أنّ الجملة الأخيرة هي من كلام أوس نفسه، تفريعاً على ماذكره أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنّ القرآن لم يؤلّف حينذاك مصحفاً بين دفّتين. وإنّما كانت السور مكتملة، فكانوا يقسمون السور الى أعداد متساوية لتسهل قراءتها حسب تقسيم الأيام أو الأوقات.

٣ـ مخالفات في رسم الخط:

لاشكّ أنّ الخط وضع ليعبّر عن المعنى بنفس اللفظ الذي ينطق به، فالكتابة في الحقيقة قيد للّفظ المعبّر عن المعنى المقصود. وعليه فيجب أن تكون الكتابة

---

(١) الحجر: ٢٢.

(٢) راجع البرهان: ج١ ص٢٤٩ ـ ٢٥٢.

(٣) مسند احمد: ج٤ ص٣٤٣.

مطابقة للفظ المنطوق به تماماً، ليكون الخطّ مقياساً للّفظ من غير زيادة عليه أو نقصان.

غير أنّ أساليب الإنشاء والكتابة تختلف عن هذه القاعدة بكثير. ولكن لابأس بذلك مادام الاصطلاح العامّ جارياً عليه، فلايسبّب اشتباهاً أو التباساً في المراد.

هذا... ورسم الخطّ في المصحف الشريف تخلّف حتى عن المصطلح العامّ ففيه الكثير من الأخطاء الإملائيّة وتناقضات في رسم الكلمات، بحيث إذا لم يكن سماع وتواتر في قراءة القرآن، ولايزال المسلمون يتوارثونها جيلا بعد جيل، في دقّة وعناية بالغة، لولا ذلك لأصبح قراءة كثير من كلمات القرآن، قراءة صحيحة، مستحيلة.

ويرجع السبب ـ كماتقدّم ـ الى عدم اضطلاع العرب بفنون الخطّ وأساليب الكتابة ذلك العهد. بل ولم يكونوا يعرفون الكتابة غير عدد قليل، خطّا بدائيّاً رديئاً للغاية. كما يبدو على خطوط باقية من الصدر الأوّل[١].

كما ويبدو أنّ الذين انتدبهم عثمان لكتابة المصحف كانوا غاية في رداءة الخطّ وجهلاء بأساليب الكتابة، حتى ولو كانت بدائية آنذاك.

يحدّثنا أبن أبي داود ـ كماسبق ـ: أنّهم بعد ما أكملوا نسخ المصاحف، رفعوا الى عثمان مصحفاً فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها. ثم قال: أما لوكان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا[٢].

يبدو من هذه الرواية أنّ عثمان كان يعلم من هذيل معرفتها باسلوب الإنشاء ذلك الوقت، ومن ثقيف حسن كتابتها وجودة خطّها. الأمر الذي

---

(١) راجع مقدّمة ابن خلدون: ص٤١٩ ـ ٤٣٨.

(٢) المصاحف، للسجستاني:ص ٣٢ ـ ٣٣.

فقده في المصحف الذي رفع إليه. ومن ثم يؤخذ عليه انتدابه الأوّل الذي تمّ من غير دقة ولاعناية!

وروى الثعلبي في تفسيره ـ عند قوله تعالى: «إِنْ هَذانِ لَسَاحِرَانِ»[1] ـ أنّ عثمان قال: إنّ في المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتها. فقيل له: الا تغيّره؟ ـ أي ألا تصحّحه؟ ـ فقال (عن تكاسل أو تساهل): دعوه فإنّه لا يحلّل حراما ولا يحرّم حلالا[2].

هذا... ولابن روزبهان ـ هنا ـ محاولة فاشلة. قال: وأمّا عدم تصحيح لفظ القرآن، لأنّه كان يجب عليه (على عثمان) متابعة صورة الخط، وهكذا كان مكتوباً في المصاحف، ولم يكن له التغيير جائزاً، فتركه لأنّه لغة بعض العرب.![3].

ماندري ماذا يعني بقوله: كان مكتوباً في المصاحف، أي مصاحف؟ وكيف يجمع بين قوله هذا وقوله أخيراً: لأنّه لغة بعض العرب؟!

وعلى أيّ تقدير فإنّ تساهل المسؤولين، ذلك العهد، أعقب على الامّة ـ مع الأبد ـ مكابدة أخطاء ومناقضات جاءت في المصحف الشريف، من غير أن تجرأ العرب أو غيرهم على اقامتها عبر العصور.

نعم لم يمسّوا القرآن بيد إصلاح بعد ذلك قط لحكمة، هي خشية أن يقع القرآن عرضة تحريف أهل الباطل بعدئذ بحجّة إصلاح خطئه أو إقامة أوده، فيصبح كتاب الله معرضاً خصباً لتلاعب أيدي المغرضين من أهل الأهواء.

وقد قال علي (عليه السلام) كلمته الخالدة: إنّ القرآن لايهاج اليوم ولا يحوّل[4] فأصبحت مرسوماً قانونياً التزم به المسلمون مع الأبد.

---

(١) طه: ٦٣.

(٢) دلائل الصدق للمظفر ج٣ ص١٩٦.

(٣) المصدر: ص١٩٧.

(٤) تفسير الطبري: ج١٧ ص٩٣.

(ملحوظة): ليس وجود أخطاء إملائية في رسم المصحف الشريف بالذي يمسّ كرامة القرآن:

أولا: القرآن ـ في واقعه ـ هو الذي يقرأ، لا الذي يكتب. فلتكن الكتابة بأيّ اسلوب، فإنّها لا تضرّ شيئًا مادامت القراءة باقية على سلامتها الأُولى التي كانت تقرأ على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وصحابته الأكرمين.

ولاشكّ أنّ المسلمين احتفظوا على نصّ القرآن بلفظه المقروء صحيحاً، منذ الصدر الأوّل فإلى الآن، وسيبقى مع الخلود في تواتر قطعيّ.

ثانياً: تخطئة الكتابة هي استنكار على الكتبة الأوائل: جهلهم أو تساهلهم، وليست قدحاً في نفس الكتاب، الذي «لايَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»[1].

ثالثاً: انّ وجود أخطاء ظلّت باقية لم تتبدّل، يفيد المسلمين في ناحية احتجاجهم بها على سلامة كتابهم من التحريف عبر القرون. إذ أنّ أخطاء إملائية لاشأن لها، وكان جديراً أن تمدّ إليها يد الاصلاح، ومع ذلك بقيت سليمة عن التغيير، تكريماً بمقام السلف فيما كتبوه، فأجدر بنصّ الكتاب العزيز أن يبقى بعيداً عن احتمال التحريف والتبديل رأساً. وقلنا ـ آنفاً ـ: إنَّ الحكمة في الإبقاء على تلكم الأخطاء كانت هي الحذر على نفس الكتاب: أن لا تمسّه يد سوء بحجّة الاصلاح، ومن ثم أصبحت سدّاً منيعاً دون أطماع المغرضين، وبذلك بقي كتاب الله يشقّ طريقه الى الأبديّة بسلام.

* * *

(ملحوظة أخرى): بأيدينا آثار ـ رويت بأسانيد، حكم أرباب النقد والتمحيص بصحّتها ـ تنسب الى كثير من الصحابة والتابعين اعتقادهم بخطأ رسم المصحف العثماني، وعدم ثقتهم بالكتبة الأُولى، فيما كانوا يتشكّكون في

(١) فصلت: ٤٢.

ثبت آية أو كلمة هل كانت كما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ وهذا يبدو غريباً للغاية.!

نعم ان دلّت فإنّما تدلّ على أنّ الثقة بالرسم القائم من قبل الكتاب الذين انتدبهم عثمان، كانت قد زالت عند الصحابة والتابعين، إذ وجدوهم غير أكفاء لهكذا مشروع جلل. وقد أخذوا من لحن المرسوم دليلا على قصورهم في الأمر، ومن ثم لم يثقوا بالرسم الموجود.

هذا غاية ماتدلّ عليه تلكم الآثار، أمّا المحتوى فلانكاد نصدّقه على أي تقدير. وفيما يلي نماذج من ذلك:

١ـ روى ابن أبي داود وأبوعبيد بسندهما الى عروة بن الزبير، قال: سألت عائشة عن لحن القرآن في ثلاث آيات: «إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ»[١]. و«إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ»[٢]. و«لَكِنِ الرَّاسِخونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ والْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»[٣]؟!

فقالت: يا ابن اختي، هذا عمل الكتاب، أخطأوا في الكتابة[٤].

قال جلال الدين السيوطي: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين[٥].

٢ـ روى أحمد بن حنبل بسنده الى أبي خلف مولى بني جمح: أنّه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة في سقيفة زمزم، ليس في المسجد ظلّ غيرها، فرحّبت

---

(١) طه: ٦٣. والقاعدة تقتضي نصب اسم إنَّ. وعن أبي عمرو: إنّي لأستحي أن أقرأ «انْ هـذان لَسَاحِرَانِ».! التفسير الكبير: ج ٢٢ ص ٧٤.

(٢) المائدة ٦٩: ومقتضى القاعدة هو النصب لأنّه عطف على اسم إنّ.

(٣) النساء: ١٦٢. ويجب الرفع، لأنّه عطف على مرفوع.

(٤) المصاحف للسجستاني: ص ٣٤. وفضائل القرآن لأبي عبيدالقاسم بن سلام. والانتصار للباقلاني: ص ١٨٤. وتأويل مشكل القرآن: ص ٢٥ـ ٢٦.

(٥) الإتقان: ج ١ ص ١٨٢ـ ١٨٤.

بعبيد بن عمير، وقالت: ماجاء بك؟ قال: جئت أن أسألك عن آية في كتاب الله، كيف كانَ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرؤها؟ فقالت: أيّة آية؟ فقال: «والَّذينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا ـ أو ـ يأتون ماأتوا»[١]؟

فقالت: أيّتهما أحبّ إليك؟. قال: والذي نفسي بيده لاحداهما أحبّ اليّ من الدنيا جميعاً! قالت: أيّتهما؟ قال: «يأتون ماأتوا»!

قالت: أشهد أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كذلك كان يقرؤها، وكذلك انزلت، ولكن الهجاء حرف[٢].

* * *

٣ـ روى أبوجعفر الطبري والحاكم النيسابوري ـ وصحّحه[٣] ـ عن ابن عباس، قال في قوله تعالى «لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّىٰ تَسْتَأْنِسوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا»[٤]: هي من خطأ الكاتب. وإنّما هي: حتى تستأذنوا وتسلموا...[٥].

٤ـ وأخرج أبوعبيد عن ابن عباس، قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيّكم «ووصى رَبُّك أن لاَ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ»[٦] فالتصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس «وَقَضىٰ رَبُّكَ» ـ ولم يكن المصحف منقوطاً آنذاك ـ قال: ولونزلت على القضاء ماأشرك به أحد[٧].

---

(١) المؤمنون: ٦٠. أي ممدوداً مزيداً فيه أو مقصوراً مجرّداً؟

(٢) مسند أحمد: ج٦ ص٩٥. والثابت في المصحف هوالمد، ماضيا مزيداً فيه. والمعنى يختلف على القراءتين: فعلى المد: يعطون الشيء وهم يخشون أن لايقبل منهم عندالله. وعلى القصر: يعملون العمل وهم يخافون الله. راجع مجمع البيان: ج٧ ص١١٠.

(٣) الإتقان: ج١ ص١٨٥.

(٤) النور: ٢٧.

(٥) جامع البيان: ج١٨ ص٨٧.

(٦) الاسراء: ٢٣.

(٧) الدرالمنثور: ج٤ ص١٧٠.

وفي لفظ ابن اشتة: استمدّ الكاتب مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصاد[١].

٥ـ وأخرج ابن المنذر وسعيدبن منصور عن ابن عباس: أنّه كان يقرأ. «ولَقدْ آتَيْنا مُوسىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً ـ والقراءة المشهورة: وَضِيَاءً»[٢] ثم قال: خذوا ـ أوانزعوا ـ هذه الواو من هنا، واجعلوا هاهنا: في أوّل قوله تعالى: «ـ و ـ الّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ»[٣] لأنّه زعمها عطفا على الموصول قبلها. ![٤] قال ابن حجر: هو إسناد جيّد[٥].

٦ـ أخرج أبوجعفر الطبري وابن الأنباري عن ابن عباس، كان يقرأ: «أفَلَمْ يتبين الّذينَ آمَنُوا أن لَوْيَشاءُ الله لَهَدى النّاسَ جَمِيعاً». فقيل له: إنّها في المصحف «أفَلَمْ يَيْأَسِ»[٦] فقال: الكاتب كتبها وهو ناعس.

وفي لفظ الطبري: كتب الكاتب، الأُخرى ـ أي القراءة المشهورة ـ وهو ناعس. قال ذلك بصورة جزم[٧].

قال ابن حجر: هذا حديث رواه الطبري وعبدبن حميد بإسناد صحيح، كلّهم من رجال البخاري عن ابن عباس[٨].

وقد بالغ الزمخشري في الإنكار على صحّة الأثر[٩]. فقال ابن حجر في رده: هذا إنكار من لاعلم به بالرجال.. وتكذيب المنقول بعد صحّته ليس من

---

(١) الإتقان: ج ١ ص ١٨٥.

(٢) الانبياء: ٤٨.

(٣) آل عمران: ١٧٣. والآية غير مصدرة بالواو في القراءة المشهورة.

(٤) الإتقان: ج ١ ص ١٨٥. والدرالمنثور: ج ٤ ص ٣٢٠.

(٥) فتح الباري: ج ٨ ص ٢٨٣.

(٦) الرعد: ٣١.

(٧) جامع البيان: ج ١٣ ص ١٠٤. والإتقان: ج ١ ص ١٨٥.

(٨) فتح الباري: ج ٨ ص ٢٨٢.

(٩) الكشاف: ج ٢ ص ٥٣٠ ـ ٥٣١.

دأب أهل التحصيل، فلينظر في تأويله بما يليق به.

* * *

٧ـ وعن الضحّاك أنّه قال: كيف تقرأ هذا الحرف...؟ قال: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ»؟ قال: ليس كذلك نقرؤها نحن ولا ابن عباس، إنّما هي: وَوَصّى ربك، وكذلك كانت تقرأ وتكتب. فاستمدّ كاتبكم فاحتمل القلم مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصاد ثم قرأ: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا الله»[١]. ولو كانت قضى من الربّ لم يستطع أحد ردّ قضائه. ولكنّه وصيّة أوصى بها العباد[٢].

* * *

٨ـ أخرج ابن أبي داود عن سعيدبن جبير، قال: في القرآن أربعة أحرف لحن: «الصَّابِئُونَ»[٣]. «وَالْمُقِيمِينَ»[٤]. «فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ»[٥]. «إِنْ هَذانِ لَسَاحِرَانِ»[٦][٧].

٩ـ أخرج ابن أبي داود ـ أيضاً ـ عن أبي خالد، قال: قلت لأبان بن عثمان: كيف صارت «وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ». وما بين يديها وما خلفها رفع؟! قال: من قبل الكاتب. كتب ما قبلها. ثم سأل المملي ما أكتب؟ قال: اكتب المقيمين الصلاة. فكتب ما قيل له[٨].

١٠ـ أخرج الطبري عن قيس بن سعد؛ قال: قرأ رجل عند علي (عليه

---

(١) النساء: ١٣١.

(٢) الإتقان: ج١ ص١٨٥.

(٣) المائدة: ٦٩. والقاعدة: النصب.

(٤) النساء: ١٦٢. والقاعدة: الرفع.

(٥) المنافقون: ١٠. والقاعدة: نصب «واكون».

(٦) طه: ٦٣. والقياس: النصب.

(٧) المصاحف للسجستاني: ص٣٣ـ ٣٤.

(٨) نفس المصدر.

السلام) «وَطَلْحٍ مَنضُودٍ»[١]. فقال (عليه السلام): ما شأن الطلح، إنّما هو «وطلع منضود» ثم قرأ: «لها طَلعٌ نضيدٌ»[٢] فقلنا: أوَلا نحوّلها؟ فقال: إنّ القرآن لايهاج اليوم ولا يحوّل[٣].

* * *

تلك نماذج عشرة عرضناها، أردنا بذلك لازم مدلولاتها: وهو عدم ثقة السلف بالكتبة الأُولى، فلم يطمأنّوا الى ما أثبتوه أن تكون هي القراءة الصحيحة الثابتة. فلو كانوا عرفوا فيهم الكفاءة والاتقان لماتردّدوا في صحّة ما أثبتوه... هذا غاية ما تدلّنا عليه تلكم الآثار، أمّا نفس المحتوى وصحّة ما تضمّنته من تبديل نصّ المصحف الشريف، فهذا شيء لانكاد نصدّقه البتة. لأنّه هو التحريف الذي أجمعت الامّة الإسلامية على عدم تسرّبه الى كتاب الله العزيز الحميد: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»[٤]. فلابدّ من الأخذ في تأويلها الى وجه معقول أو رفضها رأساً[٥].

وأجاب ابن اشتة عن هذه الآثار بأنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، وهي القراءات السبع، كلّها مأثورة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) - فيما زعموا - فالوارد في هذه الروايات يكون المقصود: أنّ الكتبة الأوائل أخطأوا في القراءة التي وقع اختيارهم عليها، فكان ينبغي أن يختاروا للثبت في المصحف تلك القراءة التي رجّحها أصحاب هذه الروايات كعائشة وابن عباس والضحّاك وسعيد بن جبير وأبان بن عثمان و علي (عليه السلام).

وجنح ابن الأنباري الى تضعيف إسناد الروايات. فوقف جلال الدين السيوطي في وجهه: أنّها روايات صحيحة الإسناد، بشهادة أئمّة الفن، كابن

---

(١) الواقعة: ٢٩.

(٢) ق: ١٠.

(٣) جامع البيان: ج٢٧ ص١٠٤.

(٤) الحجر: ٩.

(٥) وسوف نوفي البحث في تفنيد هكذا مزاعم مهزولة تجاه عظمة القرآن الضخمة الفخمة، عند الكلام حول صيانة القرآن من التحريف، إن شاء الله.

حجر والحاكم وغيرهما، فالجواب الأوّل أولى[١].

هذا... وأمّا الأخطاء الإملائية الموجودة في الرسم العثماني، فشيء لا يمكن إنكاره الأمر الذي يدلّ دلالة قطعيّة على ضعف مقدرة السلف في ناحية الإملاء وأُصول الكتابة الصحيحة، ومن ثم ذلك اللحن والتناقض في رسم الكلمات. وفيما يلي نماذج من اللحن الواقع في الرسم العثماني.

نماذج من مخالفات الرسم:

وربّما نرسم جدولا يستوعب الأخطاء الواقعة في الرسم العثماني مستقصاة، ونشيرهنا ـ الآن ـ الى أهمّ أخطاء وقعت فيه كنماذج بارزة:

١ ـ «وَاخْتِلَٰفِ الليْلِ وَالنَّهارِ» البقرة: ١٦٤. والصحيح: وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ...

٢ ـ «عَلَّمُ الْغُيُوب» المائدة: ١٠٩. والصحيح: عَلّامُ....

٣ ـ «يَأْتِيهِمْ أنبَؤا» الأنعام: ٥. والصحيح: أنبَاءُ...

٤ ـ «وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ» الأنعام: ٢٦. والصحيح: يَنْأَوْنَ عَنْهُ.

٥ ـ «بِالْغَدَوٰةِ» الأنعام: ٥٢. والصحيح: بِالْغَدَاةِ. والواو زائدة في الرسم بلا سبب معروف.

٦ ـ «فيكُمْ شُرَكوا» الأنعام: ٩٤. والصحيح: شُرَكاءُ.

٧ ـ «مَا نَشَؤُا» هود: ٨٧. والصحيح: مَا نَشَاءُ.

٨ ـ «إِنَّهُ لاَيَايْئَسُ» يوسف: ٨٧. والصحيح: لايَيْأَسُ.

٩ ـ «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا» إبراهيم: ٩. والصحيح: نَبَأٌ...

١٠ ـ «فَقَالَ الضُّعَفَؤُا» إبراهيم: ٢١. والصحيح: الضُّعَفَاءُ.

١١ ـ «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَائْءٍ» الكهف: ٢٣. والصحيح: لِشَيْءٍ.

---

(١) الاتقان: ج ١ ص ١٨٥ بتوضيح منا.

١٢ـ «لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتَ» الكهف: ٧٧. والصحيح: لاَ تَّخَذْتَ.

١٣ـ «قَالَ يَبْنَؤُمَّ» طه: ٩٤. والصحيح: يَا ابْنَ أُمَّ.

١٤ـ «أَوْ لا اذْبَحَنَّهُ» النمل: ٢١. والصحيح: لأَذْبَحَنَّهُ. وقد زيدت ألف في الرسم بلاسبب معقول.

١٥ـ «يَا أَيُّها الْمَلَؤُا» النمل: ٢٩. والصحيح: الْمَلأُ.

١٦ـ «شُفَعَؤُا» الروم: ١٣. والصحيح: شُفَعَاءُ.

١٧ـ «لَهُوَ الْبَلَؤُا الْمُبِينُ» الصافات: ١٠٦. والصحيح: الْبَلاَءُ.

١٨ـ «وَأَصْحابُ لَيْكَةِ» ص: ١٣. والصحيح: الأَيْكَةِ.

١٩ـ «وَجاىءَ بالنَّبِيينَ» الزمر: ٦٩. والصحيح: وَجِيء.

٢٠. «وَما دُعَؤُا الْكافِرِينَ» غافر: ٥٠. والصحيح: وَمَا دُعَاءُ...

تلك نماذج عشرون كان اللحن فيها عجيباً جداً، ولاسيّما إذا علمنا أنّ المصاحف آنذاك مجردة عن كلّ علامة تشير الى إعجام الحرف أو إلى حركة الكلمة أو هجاها الصحيح. مثلاً: من أين يعرف قارئ المصحف أن «لتخذت» مشدّدة التاء، وأي فرق بينها وبين «لتخذت» مخفّفة بلام تأكيد؟! أو كيف يعرف أنّ ألف «لااذبحنه» زائدة لا تقرأ؟! أو أنّ إحدى الياءين زائدة في قوله: «وَالسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ»[1]؟ وكذلك لايدري في «نشؤا» ـ بلاعلامة ـ أنّ الواو زائدة، والألف ممدودة والهمزة تلفظ بعد الألف. إذ ليس في اللفظ مايشير الى ذلك بتاتا وهكذا...!

مناقضات في الرسم العثماني:

والشيء الأغرب وجود مناقضات في رسم المصحف، بينما الكلمة مثبتة في موضع برسم خاصّ، وإذا هي بذاتها مرسومة في موضع آخر بما يخالفها، الأمر الذي يثير

---

(١) الذاريات: ٤٧.

العجب، ويبعث على الاعتقاد بأنّ الكتبة الأوائل كانوا أبعد شيءعن معرفة اصول الكتابة أو الإتقان من وحدة الرسم على الأقلّ.!

وإليك نموذجاً من ذلك التناقض الغريب:

(الكلمة برسمه الملحون)	(الكلمة برسمها الصحيح)
١ـ لوشِئْتَ لَتَّخَذْتَ. الكهف: ٧٧	إذاًلا تَخَذُوكَ . الاسراء: ٧٣
٢ـ أصحاب لئيْكَةالشعراء: ١٧٦وص:١٣	أصحاب الأيْكةِ. الحجر:٧٨وق: ١٤
٣ـ فقَالَ الضُّعَفؤُا. ابراهيم: ٢١	لَيْسَ عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ. التوبة: ٩١
٤ـ فَلاَ يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً. يونس. ٤٩	لاَيَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً. الاعراف: ٣٤
٥ـ ومَادُعؤُا الْكَافِرِينَ. غافر: ٥٠	وَمَادُعَاءُ الْكَافِرِينَ. الرعد: ١٤
٦ـ لَيْسَ بِظَلّم لِلْعَبِيدِ. الحج: ١٠	لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيدِ. آل عمران: ١٨٢
٧ـ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَلَ. الفرقان: ٩	ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ. الاسراء: ٤٨
٨ـ وَيَمْحُ الله الْبَاطِلَ. الشورى: ٢٤	يَمْحُواالله مايَشَاءُ[1] . الرعد: ٣٩
٩ـ فَأَحْيكُمْ ثُمَّ يميتكُمْ. البقرة: ٢٨	أَحْيا كُمْ ثُمَّ يُمِيتكُمْ. الحج: ٦٦
١٠ـ إي لَفِهِمْ رِحْلةَ. قريش: ٢	لإيلفِ قُرَيْشٍ[2] . قريش: ١
١١ـ قَالَ يَبْنؤُمَّ. طه: ٩٤	قَالَ ابْنَ أُمَّ. الاعراف: ١٥٠
١٢ـ فِي أَمْوالِنا مَانَشَؤُا. هود: ٨٧	فِي الأَرْحَامِ مَانَشَاءُ. الحج: ٥.
١٣ـوإن تَعُدُّوانِعْمَت الله. إبراهيم: ٣٤	وَإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله. النحل: ١٨
١٤ـ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله. فاطر: ٤٣	وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةَ الله. الفتح: ٢٣
١٥ـ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ. فاطر: ٤٠	عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ. محمد: ١٤
١٦ـ لَدَا الْبَاب. يوسف: ٢٥	لَدَى الْحَنَاجِرِ. غافر: ١٨
١٧ـ طَغَا المَاءُ. الحاقة: ١١	إنَّهُ طَغَىٰ. النازعات: ١٧

---

(١) وإن كان ثبت الألف بعد الواو أيضاً خطأ، لأنّه مفرد.

(٢) وإن كان حذف الألف أيضاً لحنا.

١٨ـ وَلا تَقُولَنَّ لِشاْىْءٍ: الكهف: ٢٣ وكَانَ اللهُ على كُلِّ شَىْءٍ. الكهف: ٤٥
١٩ـ فَقَالَ الْمَلَؤُا. المؤمنون: ٢٤ وَقالَ الْمَلأُ. المؤمنون: ٣٣
٢٠ـ أَيُّهَ الثَّقَلانِ. الرحمان: ٣١ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ. يس: ٥٩

تلك ـ أيضاً ـ أمثلة عشرون اخترناها من التناقض الموجود في الرسم العثماني. وربّما تزداد غرابتك ـ أيّها القارئ ـ إذا ما لاحظت التناقض في إملاء سورة واحدة، كالمثال رقم: ١٨ سورة الكهف. ورقم: ١٩ سورة المؤمنون، كما رسموا «بسطة» في البقرة: ٢٤٧ بالسين، وفي الأعراف: ٦٩ بالصاد. وكذلك «يبسط» في الرعد: ٢٦ بالسين، وفي البقرة: ٢٤٥ بالصاد. وهذا أيضاً من التناقض في سورة واحدة.. الى غير ذلك وهو كثير.

غلوّ فاحش:

قد يغلو بعض المتزمّتين بالرسم القديم، فيزعمونه توقيفياً كان بأمر النبي (صلى الله عليه وآله) الخاصّ، ولم يكن للكتبة الأوائل دخل في رسمه بالهيأة الموجودة. وإنّ وراء هذه المخالفات الإملائية سرّاً خفيّا وحكمة بالغة لايعلمها إلّا الله:

نقل ابن المبارك عن شيخه عبدالعزيز الدبّاغ أنّه قال: «رسم القرآن سرّ من أسرارالله المشاهدة وكمال الرفعة. وهو صادر من النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وهوالذي أمرالكتّاب أن يكتبوه على هذه الهيأة، فما نقصوا ولازادوا على ماسمعوه من النبيّ (صلى الله عليه وآله)».

ثم قال: «ماللصحابة ولالغيرهم في رسم المصحف، ولاشعرة واحدة، وإنّما هو توقيف من النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وهوالذي أمرهم أن يكتبوه على الهيأة المدوّنة بزيادة الألف ونقصانها. لأنّها أسرار لاتهتدي إليها العقول، وهو سرّ من أسرارالله، خصّ الله به كتابه العزيز، دون سائر الكتب السماويّة.

وكما أنّ نظم القرآن معجز، فرسمه أيضاً معجز.

وكيف تهتدي العقول الى سرّ زيادة الألف في «مائة» دون «فئة». والى سرّ زيادة الياء في «باييد» و«باييكم»!

أم كيف تتوصّل الى سرّ زيادة الألف في «سعوا» في سورة الحج، ونقصانها من «سعو» في سورة سبأ!

والى سرّ زيادتها في «عتوا» حيث كان. ونقصانها من «عتو» في سورة الفرقان!

والى سرّ زيادتها في «آمنوا» وإسقاطها من «بأو. جاؤ. تبوّؤ. فأو» بالبقرة!

ثم يقول: وكيف تتوصّل الى حذف بعض التاءات وربطها في بعض!

فكلّ ذلك لأسرار إلهيّة وأغراض نبويّة. وإنّما خفيت على الناس لأنّها أسرار باطنيّة لا تدرك إلّا بالفتح الربّاني. فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المقطّعة التي في أوائل السور، فإنّ لها أسراراً عظيمة ومعاني كثيرة وأكثر الناس لايهتدون الى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعاني الإلهيّة التي أُشير إليها، فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف»[1].

* * *

هذا وقد كشف بعضهم عن هذا السرّ الخفيّ، وأبدى تمحّلات غريبة، فزعم أنّ زيادة الألف في «لااذبحنه» إنّما كانت للدلالة على أنّ الذبح لم يقع. وأنّ زيادة الياء في «والسماء بنيناها بأييد» للإيماء الى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء، وأنّها لا تشبهها قوّة، على حدّ القاعدة المشهورة: زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني[2].

وقد أوضح في ذلك وأسهب أبوالعباس المراكشي الشهير بابن البناء (توفي سنة: ٧٢١هـ) في كتابه «عنوان الدليل في مرسوم التنزيل»، وبين أنّ هذه

(١) مناهل العرفان: ج ١ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ نقلاً عن ابن المبارك في كتابه «الابريز».

(٢) مقدمة (ابن خلدون): ص ٤١٩. ومناهل العرفان: ج ١ ص ٣٦٧.

الأحرف إنّما اختلف حالها في الخطّ بحسب اختلاف وأحوال معاني كلماته، من حكم خفيّة وأسرار بهيّة، منها: التنبيه على العوالم الغائب والشاهد، ومراتب الوجود والمقامات. والخطّ إنّما يرتسم على الأمر الحقيقي لا الوهمي...

ونذكر فيما يلي مقتطفات من كلامه تدلّك على مبلغ غلوّه بشأن الرسم وتكلّفه في الاختلاق الباهت:

١ـ زيدت الألف في «لاذبحنه» تنبيهاً على أنّ الذبح أشدّ من العذاب الذي ذكر في صدر الآية «لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْلأَاذْبَحَنَّه»[1].

٢ـ زيدت الألف في «يرجوا» و«يدعوا» للدلالة على أنّ الفعل أثقل من الاسم، لتحمّله ضمير الفاعل. ومن ثم لمّا استخفوا بالفعل حذفوا منه الألف وإن كان جمعاً، كقوله: «سَعَوْفي آيَاتِنَا مُعَاجِزينَ»[2]. فإنّه سعي باطل لايصحّ له ثبوت في الوجود.

٣ـ زيدت الألف بعد الهمزة من قوله: «كَأَمْثالِ اللُّؤْلؤ»[3] تنبيها على معنى البياض والصفاء بالنسبة الى ماليس بمكنون، ومن ثم لم تزد بعد قوله: «كأنّهُمْ لُؤلُؤ»[4] للإجمال وخفاء التفصيل.

٤ـ زيدت الالف في «وَجاىءَ يَوْمَئذٍ بِجَهَنَّمَ»[5]. دليلا على أنّ هذا المجيء هو بصفة من الظهور ينفصل بها عن معهود المجيء.

٥ـ زيدت الألف في «مائة» دون «فئة»، لأنّه اسم يشتمل على كثرة مفصّلة بمرتبتين: آحاد وعشرات.

٦ـ زيدت الواو في «سَأُورِيكُمْ آيَاتِي»[6] للدلالة على الوجود في أعظم رتبة العيان.

---

(١) النمل: ٢١.
(٢) سبأ: ٥.
(٣) الواقعة: ٢٣.
(٤) الطور: ٢٤.
(٥) الفجر: ٢٣.
(٦) الأنبياء: ٣٧.

٧ـ زيدت الياء في «بِأَيْيْدٍ» [١]. فرقاً بينها وبين «الأيدي» الذي هو جمع اليد. وأنّ القوّة التي بنى الله بها السماء هي أحقّ بالثبوت في الوجود من الأيدي. فزيدت الياء لاختصاص اللفظة بمعنى أظهر في دراك الملكوتي في الوجود.

٨ـ سقطت الواو من «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» [٢]. لأنّ فيه سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوّة البطش.

٩ـ سقطت الواو من «وَيَدْعُ الإنْسانُ بِالشَّرِّ» [٣]. للدلالة على أنّه سهل عليه ويسارع فيه كما يعمل في الخير.

١٠ـ كتبت «بسطة» في البقرة: ٢٤٧ بالسين. وفي الأعراف: ٦٩ بالصاد، لانها بالسين: السعة الجزئية وبالصاد السعة الكليّة [٤].

* * *

قال الدكتور صبحي صالح: لاريب أنّ هذا غلوّ في تقديس الرسم العثماني، وتكلّف في الفهم مابعده تكلّف. فليس من المنطق في شيءأن يكون أمر الرسم توقيفيّا، ولاأن يكون له من الأسرار مالفواتح السور، ولامجال لمقارنة هذا بالحروف المقطّعة التي تواترت قرآنيّتها في أوائل السور، وإنّما اصطلح الكتبة على هذا اصطلاحاً في زمن عثمان، ووافقهم الخليفة على هذا الاصطلاح [٥].

وقال العلّامة ابن خلدون: ولا تلتفتنّ في ذلك الى مايزعمه بعض المغفّلين، من أنّ الصحابة كانوا محكمين لصناعة الخطّ، وأنّ مايتخيّل من مخالفة خطوطهم لأُصول الرسم ليس كما يتخيّل، بل لكلّها وجه.

يقولون في مثل زيادة الألف في لااذبحنه: أنّه تنبيه على أنّ الذبح لم يقع،

---

(١) الذاريات: ٤٧.
(٢) العلق: ١٨.
(٣) الإسراء: ١١.
(٤) راجع البرهان: ج ١ ص ٣٨٠ـ ٤٣٠.
(٥) مباحث في علوم القرآن: ص ٢٧٧.

وفي زيادة الياء في بأييد: أنّه تنبيه على كمال القدرة الربّانيّة. وأمثال ذلك ممّا لا أصل له الاّ التحكم المحض[١].

قال ابن الخطيب: لمّا كان أهل العصر الأوّل قاصرين في فنّ الكتابة، عاجزين في الإملاء،لاميّتهم وبداوتهم ، وبعدهم عن العلوم والفنون، كانت كتابتهم للمصحف الشريف سقيمة الوضع، غير محكمة الصنع، فجاءت الكتبة الأُولى مزيجاً من أخطاء فاحشة ومناقضات متباينة في الهجاء والرسم[٢].

* * *

هذا... وقد أغرب محمد طاهر الكردي- وهو يستطلع القرن الخامس عشر الهجري- فتراجع القهقراء وأخذ في الغلوّ الفاحش بشأن الرسم العثماني القديم!

قال- بعد استعراض جملة من أخطاء الرسم العثماني والتناقض الموجود فيه بصورة غريبة-:«بقي علينا أن نعرف لماذا لم يكتب الكتبة الأُولى المصحف على قواعد الكتابة الصحيحة، ولماذا لم يمشوا في كتابته على وتيرة واحدة؟»

«هذا سؤال يجب أن يوجّه الى الذين كتبوه بأمر عثمان، وأنّى يكون ذلك وقد دفنهم التراب؟ ومن هنا يقول العلماء: إنّ رسم المصحف سرّ من الأسرار لا يطّلع عليه أحد...»!

قال: «ولا تتوهمنّ عليهم السهو أو الخطأ أو الجهل باصول الكتابة، إنّ هذا وهم باطل... ونحن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الصحابة كانوا يعرفون قواعد الإملاء والكتابة حقّ المعرفة. ونستدلّ على قولنا هذا استدلالا فنيّاً بثلاثة امور:

الأوّل: إنّ العلاّمة الآلوسي قال في تفسيره روح المعاني: الظاهر أنّ الصحابة كانوا متقنين رسم الخطّ، عارفين بقواعد الكتابة، غير انّهم خالفوا القواعد في بعض المواضع عن قصد، لحكمة ...!!(ولعلّه يريد تمحّلات

---

(١) مقدمة(ابن خلدون): ص٤١٩و٤٣٨.

(٢) الفرقان (لابن الخطيب): ص٥٧.

المراكشي الآنفة).

قال: فالآلوسي ـ وهو العالم المتبحّر وصاحب التفسير الكبير ـ لايقول هذا إلّا بعد النظر والتحقيق، وإن لم يذكر شواهد تؤيّد قوله(!!!)

الثاني: إنّهم كانوا يراسلون الملوك والأُمراء فلابدّ من إتقان كتابتهم.

الثالث: إنّه قدمرّ على نشرالكتابة في الجزيرة الى عهد عثمان أكثرمن ربع قرن، فهل يعقل أنّ الصحابة لم يتقنوا الكتابة في هذه الفترةالطويلة...[1].

قلت: ويكفينا جواباً عن سفاسفه ماذكره العلّامة ابن خلدون: ولا تلتفتن الى مايزعمه بعض المغفّلين...[2].

وقد أسهب ابن الخطيب في الرد على هذه المزعومة الفاضحة، وأتى بالكلام مستوفى. نقتطف منه مايلي.

قال: قال الجعبري في سياق كلامه عن هجاء المصحف: «وأعظم فوائده أنّه حجاب يمنع أهل الكتاب أن يقرأوه على وجهه»[3].

قال: وبمثل هذا الهراء ينطق أحد أئمّة القرّاء. وبمثل هذا الكلام يحتجّ القائلون بوجوب الهجاء القديم. مع أنّ هذا القول واضح البطلان بادي الخسران.

وفي القرآن آيات كثيرة تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم الى الإيمان فكيف عن تلاوته يحجبون؟!

ثم قال: ومن أشنع ما يتصف به إنسان سليم العقل، صحيح العرفان ماذكره الصباغ: «إنّ فوائد هذا الرسم كثيرة وأسراره شتّى، منها عدم الاهتداء الى تلاوته على حقّه إلّا بموقف، شأن كلّ علم نفيس يتحفّظ عليه».

---

(١) تاريخ القرآن. محمد طاهر الكردي: ص ١٠١ـ ١٢٠.

(٢) تقدّم ذلك في الصفحة: ٣٧٨.

(٣) راجع مناهل العرفان: ج ١ ص٣٦٦ فإنّه أيضاً أتى بسفاسف زعمها فوائد مترتّبة على الرسم العثماني القديم!

فقال: يا للداهية الدهياء، لقد صار القران مثل علم اليازرجات واللوغارتمات والطلسمات والاصطرلابات وضرب الرمل والتنجيم وماشاكل ذلك من العلوم يزعمون نفاستها لما تحتويه من أسرار لا تنال إلّا بجهد جهيد وتلقّ طويل الأمد.

هذا.. وقد قال تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ للذكْر»[١]. وأنتم تقولون أنّه أبعدهم منه وأضلّهم عنه! فما أكبرهذاالزعم! وما أعظم هذه الفرية!

قال: ولو تساءلنا: هل وضع رسم المصحف ليقرأ أو ليكون رمزاً ويظلّ طلسماً، يتناقله القرّاء وحدهم، ويلقّنونه لمن يريدون تلقينه، ممّن يتزلّف إليهم بماله ونفسه ويمنعونه عمّن يرون منعه ممّن لم يرزق جاهاً ولامالاً!

قال: ولقد رأيت بعيني وسمعت بأُذنيّ، كثيراً من ذوي الثقافات والادب يلحنون في قراءة القرآن، لعدم أُنسهم بهذا الرسم الغريب وعدم معرفتهم بأساليب القراءة على وجهها المأثور[٢].

لرأي الحاسم:

هكذا يرجّح ابن الخطيب تصحيح رسم المصحف الى مايعرفه جمهور الناس واستقرّعليه اصطلاح أرباب الثقافة اليوم.

وهذا رأي جمهور المحقّقين، ذهبوا الى جواز تبديل الرسم القديم الى الرسم الحاضر بعد أن لم يكن رسم السلف عن توقيف، وإنّما هو اصطلاح منهم أو كانت الكتابة في بداءة أمرها غير متقنة، أمّا مع تقدّم أساليب الكتابة وفيها من التوضيح ما يجعل امر القراءة سهلا على الجميع، فلابدّ من تغيير ذاك الرسم الى المصطلح الحاضر الذي يعرفه كافة الأوساط وليكون القرآن في متناول عامّة الناس، وفي ذلك تحقيق للغرض الذي نزل لأجله هذا الكتاب الخالد ايكون

---

(١) القمر: ١٧.

(٢) الفرقان (لابن الخطيب): ص٦٣ - ٨٦.

هدى للناس جميعاً مع الأبد.

وبهذا الصدد يقول القاضي محمدبن الطيّب أبوبكر الباقلاني (توفي سنة ٤٠٣ هـ) في كتابه «الانتصار»: وأمّا الكتابة فلم يفرض الله على الأُمّة فيها شيئا، إذ لم يأخذ على كتّاب القرآن وخطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لايدرك إلّا بالسمع والتوقيف. وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه، أن رسم القرآن وضبطه لايجوز إلّا على وجه مخصوص وحدّ محدود لايجوز تجاوزه. ولا في نصّ السنة مايوجب ذلك ويدلّ عليه. ولا في إجماع الأُمّة مايوجب ذلك، ولا دلّت عليه القياسات الشرعيّة.

بل السنة دلّت على جوازرسمه بأي وجه سهل، لأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يأمر برسمه ولم يبيّن لهم وجهاً معيّناً، ولانهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف فنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأنّ ذلك اصطلاح وأنّ الناس لايخفى عليهم الحال. ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخطّ الأوّل، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخطّ والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كلّ واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنّه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدّ محدود مخصوص، كما أُخذ عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أنّ الخطوط إنّما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكلّ رسم دالّ على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحّته وتصويب الكاتب به على أي صورة كانت.

وبالجملة فكلّ من ادعى أنّه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه ان يقيم الحجّة على دعواه وأنّى له ذلك؟... انتهى. هذا مالخصّه الشيخ عبدالعظيم الزرقاني من كلام القاضي أبي بكر الباقلاني، لكنّه تابعه بالردّ عليه من وجوه ونقول لايخفى وهنها وضعفها تجاه هذا التحقيق المنيع(١).

ومن ثم قال الدكتور صبحي صالح ـ تعقيباً على هذا الكلام ـ: وإنَّ رأي القاضي أبي بكر لجدير أن يؤخذ به، وحجّته ظاهرة، ونظره بعيد، فهو لم يخلط بين عاطفة الإجلال للسلف وبين التماس البرهان على قضيّة دينيّة تتعلّق برسم كتاب الله. وأمّا الذين ذهبوا الى أن الرسم القرآنيّ توقيفيّ أزليّ فقد احتكموا في ذلك الى عواطفهم، واستسلموا استسلاماً شعريّاً صوفيّاً الى مذاويقهم ومواجيدهم، والأذواق نسبيّة لادخل لها في الدين، ولايستنبط منها حقيقة شرعيّة(٢).

---

(١) راجع مناهل العرفان: ج١ ص٣٧٣ـ ٣٧٨.

(٢) مباحث في علوم القرآن: ص٢٧٩.

سبعة الآف مخالفة في رسم الخط!

قديستغرب الباحث إذا ماعثرعلى نيف وسبعة آلاف مخالفة في الرسم العثماني القديم، ويعدّه رقماً كبيراً إذا ماقاسه الى عددآي القرآن،وهي نيف وستة آلاف آية..! لكن الحقيقة تشهد بذاتها على صحّة هذا الرقم الضخم، وإليك عدد ما في كلّ سورة من مخالفة جاءت في الرسم القديم:

السورة	العدد
الفاتحة:	٤
البقرة:	٤٨٠
آل عمران:	٣٣
النساء:	٢٩٢
المائدة:	٢٢٥
الأنعام:	٢٣٨
الأعراف:	٣٠٣
الأنفال:	٦٨
براءة:	٢١٨
يونس:	١٣٦
هود:	١٣٦
يوسف:	١٥٣
الرعد:	٧٢
إبراهيم:	٦٠
الحجر:	٧٥
النحل:	١٥٩
الاسراء:	١٤٢
الكهف:	١١٦
مريم:	٩٢
طه:	١١٤
الانبياء:	١٧٠
الحج:	١٠٤
المؤمنون:	١٢٥
النور:	١٣٦
الفرقان:	٧٨
الشعراء:	١١٠

النمل: ١٠٧
القصص: ١٣٩
العنكبوت: ١٠٨
الروم: ٨٠
لقمان: ٤٨
السجدة: ٤١
الأحزاب: ١٤٤
سبأ: ٧٣
فاطر: ٥٢
يس: ٧٤
الصافّات: ١٠٦
ص: ٧٠
الزمر: ١٠٠
غافر: ١١٥
فصّلت: ٧٤
الشورى: ٦٧
الزخرف: ٩٠
الدخان: ٣٧
الجاثية: ٥٣
الأحقاف: ٥٨
محمّد: ٥٣
الفتح: ٣٧
الحجرات: ٣٠
ق: ٢٦
الذاريات: ٣٤
الطور: ٢٧
النجم: ٣٠
القمر: ٢٥
الرحمان: ٣٠
الواقعة: ٤٥
الحديد: ٥٨
المجادلة: ٤٥
الحشر: ٥٨
الممتحنة: ٣٥
الصف: ٢٧
الجمعة: ٢١
المنافقون: ١٨
التغابن: ١٧
الطلاق: ٢٤
التحريم: ٣٢
الملك: ٢٠
القلم: ٤٢
الحاقّة: ٢١
المعارج: ٢٤
نوح: ١٦
الجنّ: ٢٠
المزمّل: ١٢
المدثّر: ١٦

القيامة:	١٢	التين:	٦
الإنسان:	٢١	العلق:	٤
المرسلات:	١٨	القدر:	٤
النبأ:	٢٢	البيّنة:	٩
النازعات:	٣٣	الزلزلة:	٢
عبس:	٥	العاديات	٤
التكوير:	٦	القارعة:	٤
الانفطار:	٦	التكاثر:	٢
المطفّفين:	١١	العصر:	٣
الانشقاق:	٧	الهمزة:	١
البروج:	١١	الفيل:	١
الطارق:	٥	قريش:	٣
الأعلى:	٣	الماعون:	١
الغاشية:	٦	الكوثر:	١
الفجر:	١١	الكافرون:	٣
البلد:	٨	النصر:	...
الشمس:	١٧	المسد:	...
الليل:	٣	الإخلاص:	...
الضحى:	٦	الفلق:	١
الشرح:	...	الناس:	١

تلك ستة آلاف وسبعمائة وسبعة وسبعون مخالفة (٦٧٧٧) جاءت في رسم المصحف العثماني، موزّعة على السور.

واذا أضفنا الى هذا العدد، حذف الألف من «بسم» و «الرحمن» في البسملة، وهي مكرّرة في القرآن (١١٤) مرّة، فيرتفع الرقم الى (٧٠٠٥).

هذا مع غضّ النظر عن حذف الألف من لفظ الجلالة، وهو مكرّر في القرآن (٢٥٥٠) مرّة. وفي البسملة (١١٤) مرّة. فيبلغ عدد مخالفة الرسم القديم الى تسعة آلاف وستمائة وتسع وستين (٩٦٦٩). وهو عدد كبير هائل. وللعثور على مواضع هذه المخالفات، بدقّة وتفصيل، راجع: البرهان للزركشي: ج ١ ص ٣٨٠- ٤٣١ والمصحف الميسّر، تنظيم الأستاذ عبدالجليل عيسى، شيخ كليّة أصول الدين بالجامع الأزهر. غير أنّ هذا الأخير اشتبه في مواضع، منها: ص ٧٧٥ رقم ٥، زعم «وءاتوا» لحنا فصحّحه على «واوتوا». وص ٧٩٤ رقم ١، صحح «المؤدة» على «المودّة»!

وقد لخص جلال الدين هذه المخالفات في قواعد ستة استوفى فيها جميع ما في الرسم العثماني من مخالفات املائية. ذكرها في الإتقان: ج ٢ ص ١٦٦- ١٧٠. ونقلها الزرقاني برمّتها في مناهل العرفان: ج ١ ص ٣٦٢- ٣٦٦.

* * *

وإليكَ الآن جدولا تفصيليّا يقارن بين رسم الكلمة في إملائها القديم، ورسمها بالإملاء المعاصر. ما عدا حذف الألفات في مثل «الرحمن» و«العلمين» و«الصرط» وهي كثيرة في المصحف، جاءت موافقة للخطّ الكوفي القديم المنحدر من خط السريان، كانوا يكتبون الكلم بلاألف. وكذلك لم نتعرّض لكلمات جاءت فيها الواو أو الياء بدلا عن الألف كالصلوة والزكوة[1] والتورية وهدين، لكثرتها وتكرّرها.

كما ولم نذكر من الكلمة المتكررة سوى التي جاءت في أُولى آية، وتركنا ذكرها في آيات وسور تالية، وأرمزنا لذلك بعلامة «ك».

ونبدأ بالكلمة على إملائها القديم، ثم نقابلها بإملائها المعاصر، مرتّبة حسب ترتيب السور في المصحف الشريف.

---

(١) كانت لغة قريش تميل بهذه الالفات نحو الواو، ومن ثمّ كتبوها كذلك.

جدول تفصيليّ

يقارن بين رسم الكلمة بإملائها القديم ورسمها بالإملاء المعاصر

رقم الآية		
	(من سورة البقرة)	
٣٣	يَأدم (١)	يا آدم
٤٠	اسرٰءيل «ك»	إسرائيل
٧١	الٰن «ك» (٢)	الآن
٨٧	عيسى ابن مريم	عيسى بن مريم
٩٠	بئس ما «ك»	بئسما
١٦٤	اليل «ك»	الليل
٢٢٦	فاءُو	فاؤا
٢٤٠	في ما «ك»	فيما
٢٧٥	الربوا «ك»	الربا
٢٨٢	تسموا (٣)	تسأموا
	(سورة آل عمران)	
٣٥	امرأت «ك»	امرأة
٧٥	الامين (٤)	الأُمّيّين
٧٩	ربنين (٥)	ربانيّين
١٤٤	افاين «ك»	أفإن
١٥٣	تلون (٦)	تلوون

(١) برسم همزة فوق الألف.

(٢) برسم همزة أمام اللام.

(٣) برسم همزة فوق الميم.

(٤) و(٥) برسم ياء كوفيّة صغيرة فوق الباء.

(٦) برسم واو صغيرة فوق الواو.

رقم الآية		
	(سورة النساء)	
١٦	الذان	اللذان
٢٣	التي «ك»	اللاتي
٢٥	فمن ما «ك»	فمّا
٧٨	فمال هؤلاء «ك»	فما لهؤلاء
	(سورة المائدة)	
١٨	ابنؤا	أبناء
٢٩	جزؤا «ك»	جزاء
٣١	سوءة	سوأة
	(سورة الانعام)	
٥	انبؤا «ك»	أنباء
٣٤	نباءى	نبأ
٥٢	بالغدوة (١)	بالغداة
٩٤	شركؤا «ك»	شركاء
١١٥	كلمت «ك»	كلمة
١٤٤	اما «ك»	ام ما
	(سورة الأعراف)	
٦	فلنسلن (٢)	فلنسألن
٢٠	ماورى (٣)	ماووري
٥٦	رحمت «ك»	رحمة

(١) برسم ألف صغيرة فوق الواو.

(٢) برسم همزة فوق السين.

(٣) برسم واو صغيرة فوق الواو.

رقم الآية		
٦٩	بصطة (١)	بسطة
١٠٥	أن لا	ألّا
١٢٧	نستحى ى	نستحيي
	(سورة الأنفال)	
٣٨	سنّت	سنّة
	(سورة التوبة)	
٤٧	ولا اوضعوا	ولا وضعوا
	(سورة يونس)	
١٥	تلقاءى	تلقاء
٣٤	يبدؤا	يبدأ
٣٥	أمّن	أم من
	(سورة هود)	
٨٦	بقيّت	بقيّة
٨٧	مانشؤا	مانشاء
٩٧	وملاءيه	وملأه
	(سورة يوسف)	
٢٥	لدا	لَدىٰ
٨٧	تايسوا (٢)	تيأسوا
٨٧	يايس (٣)	ييأس
١٠١	ولى ى	وليي
١١٠	استيس (٤)	استيأس

---

(١) برسم سين صغيرة تحت الصاد.

(٢) و (٣) و (٤) برسم همزة فوق الياء.

رقم الآية		
	(سورة الرعد)	
٣٩	يمحوا	يمحو
	(سورة ابراهيم)	
٩	نبؤا	نبأ
٢١	الضعفؤا	الضعفاء
	(سورة الحجر)	
٩٥	المستهزءين	المستهزئين
	(سورة النحل)	
٤٣	فسلوا[١]	فسألوا
٤٨	يتفيؤا	يتفيأ
٨٦	رءا «ك»	رآى
٩٠	وايتاءى	وايتاء
	(سورة الاسراء)	
١١	يدع	يدعو
	(سورة الكهف)	
٢٣	لشاىء	لشيء
٣٨	لكنا	لكن
٤٨	ألن	أن لن
٦٣	أرءيت	أرأيت
٧٧	لتخذت	لاتخذت

(١) برسم همزة قبل اللام.

١١٠	يرجوا «ك»	يرجو
	(سورة مريم)	
٢٨	يأخت	يا أُخت
٤٤	يأبت	يا أبت
٤٦	يابرهيم	يا إبراهيم
	(سورة طه)	
١٨	اتوكؤا	اتوكّأ
٩٤	يبنؤم	يا ابن أُم
١١٩	لا تظمؤا	لا تظمأ
١٢١	سوءتهما (١)	سوءاتهما
١٣٠	ءاناءى	آناء
	(سورة الأنبياء)	
٣٧	سأوريكم «ك»	سأريكم
	(سورة المؤمنون)	
٢٤	الملؤا«ك»	الملأ
٤٤	كلّ ما «ك»	كلّما
	(سورة النور)	
٨	ويدرؤا	ويدرأ
١٣	جاءو «ك»	جاؤا
٤٣	عن من	عمّن
	(سورة الفرقان)	
٢١	وعتو	وعتوا

(١) برسم ألف صغيرة فوق الهمزه

رقم الآية		
٣٨	وثمودا «ك»	وثمود
٤٩	لنحى [١]	لنحيي
	(سورة الشعراء)	
٩٢	أين ما	أينما
٩٤	الغاون «ك»	الغاوون
	(سورة النمل)	
٢١	لااذبحنه	لأذبحنه
٦٤	يبدؤا «ك»	يبدأ
٩٢	أتلوا	أتلو
	(سورة القصص)	
٣	نتلوا	نتلو
٤	يستحى ى «ك»	يستحيي
٩	قرّت	قرّة
	(سورة الروم)	
١٣	شفعؤا	شفعاء
١٦	لقاءى	لقاء
٢٤	فيحى ى	فيحيي
٣٠	فطرت	فطرة
٣٩	ليربوا «ك»	ليربو
	(سورة الاحزاب)	
٣٧	لكي لا	لكيلا

(١) برسم ياء صغيرة فوق الياء.

رقم الآية		
	(سورة سبأ)	
٥	سعو	سعوا
	(سورة غافر)	
١٥	التلاق	التلاقي
٣٢	التناد	التنادي
	(سورة فصلت)	
٢٩	الّذين (١)	اللّذين
	(سورة الشورى)	
٢٤	ويمح	ويمحو
٣٠	ويعفوا «ك»	ويعفو
٣٢	الجوار	الجواري
٤٠	جزؤا	جزاء
٥١	وراءى	وراء
	(سورة الدخان)	
٤٣	شجرت	شجرة
	(سورة الذاريات)	
١٣	يوم هم	يومهم
٤٧	باييد	بأيد
	(سورة القمر)	
٦	يدع	يدعو
٦	الداع	الداعي
	(سورة المجادلة)	
٩	معصيت	معصية

(١) بصيغة المثنىٰ.

رقم الآية		
	(سورة الممتحنة)	
٤	برءؤا (١)	برءاء
	(سورة التحريم)	
١١	امرأت	امرأة
١٢	بكلمت (٢)	بكلمات
	(سورة القلم)	
٦	باييكم	بأيّكم
	(سورة التكوير)	
٨	الموءدة (٣)	الموؤدة
	(سورة الانشقاق)	
١١	يدعوا	يدعو
	(سورة الغاشية)	
٢٢	بمصيطر (٤)	بمسيطر
	(سورة الفجر)	
٤	يسر	يسري
٢٣	وجاىء	وجيء
	(سورة قريش)	
٢	إلفهم (٥)	إيلافهم

(١) برسم ألف صغيرة فوق الهمز.

(٢) برسم ألف صغيرة فوق الميم.

(٣) برسم واو صغيرة بعد الهمز.

(٤) برسم سين صغيرة تحت الصاد.

(٥) برسم ياء كوفيّة صغيرة ومنفصلة بعد الهمز.

٤ـ اختلاف المصاحف:

كانت الغاية من إرسال المصاحف الى الآفاق، هي رعاية جانب وحدة الكلمة لئلا تختلف، وليجتمع المسلمون على قراءة واحدة ونبذ ماسواها. فكان يجب أن تكون هذه المصاحف مستنسخة على نمط واحد، وأن تكون موحدة من جميع الوجوه. ومن ثم كان يجب على أعضاء المشروع أن يتحققوا من وحدتها ويقابلوا النسخ مع بعضها في دقّة كاملة.

غير أنّ الواقعيّة بدت بوجه آخر، وجاءت المصاحف يختلف مع بعضها البعض. كان المصحف المدنيّ يختلف عن المصحف المكيّ، والمصحف المكيّ يختلف عن الشاميّ، وهذا عن البصريّ، والكوفيّ وهكذا. الأمر الذي يدلّ بوضوح أنّ اللجنة تساهلت في أمر المقابلة ـ أيضاً ـ فلم يأخذوا بالدقّة الكاملة في جانب توحيد المصاحف المرسلة الى الآفاق.

وصار هذا الاختلاف في المصاحف، من أهم أسباب نشوء الاختلاف القرائي فيما بعد، وفتح باب جديد لاختلاف القراءات في حياة المسلمين.

كان قاري كلّ مصر ومقرئها يلتزم ـ طبعاً ـ بقراءة ما في مصحفهم من نصّ. وكان عليه أيضاً أن يختار نوع الحرف والشكل حسب مايبدو له من ظاهر الكلمة المثبتة في المصحف بلا نقط ولا تشكيل. ومن ثم كانت السلائق والمذاويق، وكذلك الأنظار والأفهام تختلف في هذا الاختيار.

أمّا الرواية والسماع عن الشيخ، فهي لا تنضبط تماماً وفي جميع الوجوه إذا لم تكن مثبتة في سجلّ أو في نصّ المصحف ذاته. فلابدّ أن يقع فيها خلط أو اشتباه من جانب النقل أو السماع، ولاسيّما إذا طالت الفترة بين الشيخ الأوّل والقارئ الأخير.

ومن ثم ظهرت قراءة مكة. وقراءة المدينة. وقراءة البصرة. وقراءة الكوفة وقراءة الشام. وهكذا... الأمر الذي كان كراً على ما فروا منه!

وزعم الزرقاني: أنّ هذا الاختلاف في النصّ كان عن عمد منهم وعن قصد، لحكمة تحمّل اللفظ كلّ قراءة ممكنة. قال: وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها، لأنّ عثمان قصد اشتمالها على الأحرف السبعة. فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه نحو «فتبيّنوا» و«ننشزها».

أمّا الكلمات التي لاتحتمل أكثر من قراءة، فإنّهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم وفي بعض آخر برسم آخر، كوصيّ بالتضعيف وأوصى بالهمز. وكذلك «تحتها الأنهار» في مصحف و «من تحتها الأنهار» بزيادة «من» في مصحف آخر...![1].

قلت: هذا تعليل عليل، بعد أن كان الغرض من نسخ المصاحف وتوحيدها هو رفع الاختلاف في القراءات. كان أحدهم يقول: قرائتنا خير من قراءتكم.فلئلا يقع مثل هذا الجدل المرير تأسس المشروع المصاحفي باتفاق من آراء الصحابة. أمّا وبعد أن أنجزت اللجنة مهمتها وإذا بدواعي الاختلاف: الاختلاف في القراءة ذاتها، موجودة.

أمّا قضية الأحرف السبعة المفسّرة الى القراءات السبع، فحديث مشتبه ربّما بلغ تفسيره الى أربعين معنى[2]. و أوهن المعاني هو تفسيره بالقراءات، إذ لم يثبت أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ القرآن على سبعة وجوه. كما أنّ لاختلاف القرّاء في قراءآتهم عللا وأسباباً تخصّهم هم، وقد فصّلها أبومحمد مكيّ بن أبي‌طالب في كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» فراجع. وسوف نتكلم عن حديث الأحرف السبع في فصل قادم والمختار هو إرادة اللهجات المختلفة في التعبير والأداء فحسب.

هذا ... وأمّا الأُستاذ الأبياري فإنّه يرى أنّ هذا الاختلاف إنّما كان بين

---

(١) مناهل العرفان: ج ١ ص ٢٥١.
(٢) راجع الإتقان: ج ١ ص ٤٥.

مصاحف سبقت مصحف عثمان. وجاء هذا الأخير ليرفع تلكم الاختلافات [١].

لكنّها نظرة تخالف النّص القائل بأنّ الاختلاف كان في نفس مصاحف عثمان [٢].

وعلى أيّة حال فإنّ الاختلاف بين المصاحف المبعوثة الى الآفاق، شيء واقع، ويؤسف عليه، وكانت البذرة الاولى التي انبثق منها اختلاف القراءات فيما بعد.

وفيما يلي عرض نموذجي عن اختلاف مصاحف الآفاق، اعتمدنا فيه على نصّ ابن أبي داود في كتابه «المصاحف» (ص: ٣٩ الى ٤٩).

(ملحوظة): مصحفنا اليوم يتوافق ـ أكثرياً ـ مع مصحف الكوفة، سوى مواضع نرمز إليها في الجدول التالي بعلامة (*).

غير أنّ مصحف البصرة كان أدقّ من سائر المصاحف ـ كما أشار إليه حديث الشامي الآنف [٣] ـ تدلّنا على ذلك، الآية: ٨٧ من سورة المؤمنون: أنّها في مصحف البصرة: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ اللهُ». وهي في مصحف الكوفة وغيرها: «سَيَقُولُونَ: لله».

وكذلك الآية: ٨٩ من نفس السورة، والآية: ٣٣ من سورة فاطر، مثبتة في مصحف البصرة: «مِن ذَهبٍ وَلؤلؤٍ». وفي غيره «وَلؤلؤا».

وهكذا الآية: ١٦ من سورة الإنسان في مصحف البصرة: «قَوَارِيراً قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ». وفي غيره «قَوَارِيرا قَوَارِيرا مِن فِضَّةٍ»... الى غير ذلك.

وإليك جدولا نموذجياً يعيّن مواضع الاختلاف من مصاحف الآفاق: الشام، الكوفة، البصرة، مكة. أهمّ البلاد التي ارسلت إليها المصاحف، ومقارنتها مع المصحف الإمام «مصحف المدينة».

---

(١) تاريخ القرآن إبراهيم الأبياري: ص٩٩.

(٢) راجع المصاحف للسجستاني: ص٣٩.

(٣) تقدم ذلك في الصفحة: ٣٤٥-٣٤٦.

جدول نموذجي يعين مواضع الاختلاف من مصاحف الافاق

السورة	الآية	مصحف المدينة	مصحف الشام	مصحف الكوفة	مصحف البصرة	مصحف مكة
البقرة	١١٦	قالوا اتخذوا الله ولداً	قالوا	وقالوا	وقالوا •••	
»	١٣٢	وأوصى بها ابراهيم	وأوصى	ووصّى	ووصّى •••	
آل عمران	١٣٣	سارعوا الى مغفرة من ربكم	سارعوا	وسارعوا	وسارعوا •••	
»	١٨٤	جاؤوا بالبينات وبالزبر	وبالزبر	والزبر	••• والزبر	
النساء	٦٦	• • • • •	مافعلوه الا قليلا	الا قليل	••• الا قليل	
»	١٧١	• • • • •	• • •	فامنوا بالله ورسله	فامنوا بالله ورسله	••• ورسله
المائدة	٥٣	يقول الذين آمنوا	يقول	ويقول	ويقول •••	
»	٥٤	من يرتدد	من يرتدد	من يرتد	من يرتد	
الأنعام	٣٢	• • • •	ولدار الآخرة	وللدار الآخرة	وللدار الآخرة	
»	٩٣	لئن انجيتنا	• • •	لئن انجانا	لئن انجيتنا	
الاعراف	٣	قليلا ماينذكرون	يتذكرون	تذكرون	••• تذكرون	
»	٤٣	ما كنا لنهتدي	ما كنا	وما كنا	وما كنا •••	
»	٧٥	قال الملأ	قال الملأ	وقال الملا *	وقال الملأ	
»	٤١	واذ أنجاكم	واذ أنجاكم	واذ أنجيناكم	واذ أنجيناكم	
»	١٩٥	ثم كيدوني	ثم كيدوني	ثم كيدون	ثم كيدون	
الانفال	٦٧	• • • • •	ما كان للنبي	ما كان لنبي	ما كان لنبي	
التوبة	١٠٠	• • • • •	• • •	• • • •	تجري تحتها الانهار	تجري من تحتها الأنهار
»	١٠٧	الذين اتخذوا مسجداً ضراراً	الذين	والذين	والذين •••	
يونس	٢٢	هو الذي ينشركم	هو الذي ينشركم	هو الذي يسيركم	هو الذي يسيركم	
الرعد	٤٢	وسيعلم الكافر	• • •	وسيعلم الكفار	وسيعلم الكفار	
الاسراء	٩٣	قال سبحان ربي	• • •	قل سبحان ربي	قل سبحان ربي	
الكهف	٣٦	لأجدن خيراً منهما	منهما	منها	••• منها	
»	٩٥	قال ما مكني	مكنني	مكنني	••• مكنني	

جدول نموذجي يعين مواضع الاختلاف من مصاحف الافاق

السورة	الآية	مصحف المدينة	مصحف الشام	مصحف الكوفة	مصحف البصرة	مصحف مكة
الانبياء	٤	قل ربي يعلم	. . .	قال ربي يعلم	قال ربي يعلم	
»	١١٢	. . . .	. . .	قال رب احكم	قل رب احكم	
المؤمنون	٨٧	قل من رب السموات... سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون الله	
»	٨٩	قل من بيده ملكوت. .سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون الله	
»	١١٢	قال كم لبثتم	. . .	قال كم لبثتم	قل كم لبثتم	
الشعراء	٢١٧	فتوكل على العزيز	فتوكل	وتوكل	وتوكل ...	
فاطر	٣٣	من ذهب ولؤلؤاً	. . .	ولؤلؤاً	... ولؤلؤ	
يس	٣٥	وما عملته	. . .	وما عملت *	وما عملته	
غافر	٢١	كانوا هم اشد منكم	كانوا هم اشد منكم	منهم	... منهم	
»	٢٦	وان يظهروا في الأرض	وأن	أو أن	أو أن ...	
الشورى	٣٠	بما كسبت ايديكم	بما كسبت ايديكم	فبما كسبت ايديكم	فبما كسبت ايديكم	
الزخرف	٦٨	ياعبادي	ياعبادي	يا عباد	يا عباد	
»	٧١	ما تشتهيه الانفس	ما تشتهيه الأنفس	ماتشتهي الانفس*	ما تشتهي الانفس	
الاحقاف	١٥	بوالديه حسناً	. . .	بوالديه احساناً	بوالديه احساناً	
محمد ﷺ	١٨	ان تأتيهم بغتة	. . .	. . .	ان تاتيهم ...	ان تأتهم ..
الرحمن	١٢	والحب ذا العصف .	والحب ذا العصف	والحب ذو العصف	والحب ذو العصف	
»	٧٨	تبارك اسم ربك ذو الجلال	ذو الجلال	... ذي الجلال	... ذي الجلال	
الحديد	١٠	وكل وعد الله الحسنى	وكل . . .	وكلا ...	وكلا ...	
»	٢٤	ان الله الغني الحميد	ان الله الغني	ان الله هو الغني	ان الله هو الغني ...	
الجن	٢٠	قال انما ادعوا ربي	. . .	قل انما ادعو ربي	قل انما ادعو ربي	
الانسان	١٦	قواريرا . قواريراً من	. . . .	قواريرا قواريراً من*	قواريرا . قوارير من	
الشمس	١٥	فلا يخاف عقباها	فلا يخاف	ولا يخاف ...	ولا يخاف ...	

القرآن
في أطوار الإناقة والتجويد

لم يزل القرآن ـمنذ الصدرالأوّل ـ في طور التجويد والتحسين، لاسيّما في ناحية كتابته وتجميل خطه من جميل الى أجمل. وقد أسهم الخطّاطون الكبار في تجويد خطّ المصاحف وتحسين كتابتها.

وأوّل من تنوّق في كتابة المصاحف وتجويد خطّها، هو خالدبن أبي الهياج ـصاحب أميرالمؤمنين علي (عليه السلام)ـ (ت ح ١٠٠هـ) وكان مشهوراً بجمال خطّه وإناقة ذوقه. ويقال إنّ سعداً ـ مولى الوليد وحاجبه ـ اختاره لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبدالملك (٨٦ـ ٩٦) فكان هوالذي خطّ قبلة المسجد النبويّ بالمدينة بالذهب من سورة الشمس الى آخر القرآن. وكان قد جدّد بناءه وأوسعه عمر بن عبدالعزيز واليا على المدينة من قبل الوليد وبأمر منه، وفرغ من بنائه سنة ٩٠[١].

وطلب إليه عمربن عبدالعزيز أن يكتب له مصحفا على هذا المثال، فكتب له مصحفاً تنوّق فيه، فأقبل عمر يقلّبه ويستحسنه، ولكنه استكثر من ثمنه فردّه عليه. والظاهر أنّ ذلك كان أيام خلافته (٩٩ـ ١٠١) التي كان قد تزهّد فيها.

قال محمدبن إسحاق ـابن النديمـ: رأيت مصحفاً بخطّ خالدبن أبي

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ٣٠ و٣٦.

الهياج، صاحب علي (عليه السلام) وكان في مجموعة خطوط أثريّة عند محمدبن الحسين المعروف بابن أبي بعرة، ثم صار الى أبي عبدالله بن حاني رحمه الله[(١)].

وقد ظلّ الخطّاطون يكتبون المصاحف بالخطّ الكوفيّ، حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ثم حلّ محله خطّ النسخ الجميل في أوائل القرن الرابع، على يد الخطاط الشهير محمدبن علي بن الحسين بن مقلة (٢٧٢ـ ٣٢٨).

قيل: إنّه أوّل من كتب خطّ الثلث والنسخ، وأوّل من هندس الحروف ـ إذ كان بارعاً في علم الهندسة ـ ووضع قواعدها واصول رسمها. واتفق الباحثون أنّ الفضل الأكبر في تطوير وتحسين الخطّ العربيّ الإسلاميّ وتنويعه يرجع الى هذا الخطاط الماهر، الذي لم تنجب الاُمّة الإسلاميّة لحد الآن خطاطاً بارعاً مثله.

وقد نسب عدد من المخطوطات الأثريّة إليه، كالمصحف الموجود في متحف هراة بافغانستان. ويقال: إنّه كتب القرآن مرّتين[(٢)].

وقد بلغ خطّ النسخ العربيّ ذروته في الجودة والحسن في القرن السابع على يد الخطاط المستعصمي ياقوت بن عبدالله الموصليّ (ت ٦٨٩) كتب سبع مصاحف بخطّه الرائع الذي كان يجيده إجادة تامّة، ويكتب بأنواعه المختلفة حتى صار مثلاً يقتدى به[(٣)].

وهكذا صارت المصاحف تكتب على اُسلوب خطّ ياقوت حتى القرن الحادي عشر، ومنذ مفتتح القرن الثاني عشر اهتمّ الأتراك العثمانيّون عنايتهم بالخطّ العربيّ الإسلاميّ لاسيّما بعد فتح سلطان سليم مصر وزوال حكم

---

(١) الفهرست: الفنّ الأوّل من المقالة الاُولى ص٩. والفنّ الأوّل من المقالة الثانية ص٤٦.

(٢) الخطّ العربيّ الإسلاميّ: ص١٥٥. والخطّاط البغدادي: ص١٦.

(٣) المصدر: ص ١٧١ ومصوّر الخط العربي ناجي المصرف: ص٩٢.

المماليك عنها، فجعل الخطّ العربيّ يتطوّر على أيد الخطّاطين الفرس الذين استخدمهم العثمانيّون في امبراطوريّتهم.

وقد نقل السلطان سليم جميع الخطّاطين والرسّامين والفنّانين الى عاصمته، وأضافوا للخطّ العربيّ أنواعاً جديدة، لازالت تستعمل في الكتابات الدارجة، كالخطّ الرقعي والخطّ الديواني والخطّ الطغرائي والخطّ الإسلامبولي وغيرها.

ومن الخطّاطين العثمانيّين الذين ذاع صيتهم: الحافظ عثمان (ت ١١١٠). والسيّدعبدالله أفندي (ت ١١٤٤). والأستاذ راسم (ت ١١٦٩). وأبوبكر ممتاز بك مصطفى أفندي الذي اخترع خطّ الرقعة، وهو أسهل الخطوط العربيّة وأبسطها استعمالاً، وقد وضع قواعده وكتب به لأوّل مرّة، في عهد السلطان عبدالمجيد خان سنة ١٢٨٠هـ[١].

أمّا طباعة المصحف الشريف فقد مرّت ـ ككتابته خطاً ـ بأطوار التجويد والتحسين. فلأوّل مرّة ظهر القرآن مطبوعاً في البندقيّة في حدود سنة ٩٥٠ هـ = ١٥٣٠م. لكن السلطات الكنسيّة أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره.

ثم قام «هنلكمان» بطبع القرآن في مدينة «هانبورغ» ـ ألمانيا ـ سنة ١١٠٤هـ=١٦٩٤م ثم تلاه «مراكي» بطبعه في «بادو» سنة ١١٠٨هـ = ١٦٩٨م.

وقام مولاي عثمان بطبع القرآن طبعة إسلاميّة خالصة، في مدينة «سانت بترسبورغ» ـ روسيا ـ سنة ١٢٠٠هـ = ١٧٨٧م. وظهر مثلها في «قازان».

وقام «فلوجل» بطبعته الخاصّة للقرآن في مدينة «لينزبورغ» سنة ١٢٥٢هـ = ١٨٣٤م. فتلقّاها الاوروبيون بحماسة منقطعة النظير، بسبب إملائها السهل. ولكنّها ـ كسائر الطبعات الأوروبيّة ـ لم تنجح في العالم الإسلامي

وأوّل دولة إسلامية قامت بطبع القرآن، فكان نصيبها النجاح، هي

---

(١) الخط العربي الإسلامي: ص١٢٣.

إيران[١]. طبعت طبعتين حجريّتين جميلتين ومنقّحتين في حجم كبير، مع ترجمة موضوعة تحت كلّ سطر من القرآن، ومفهرستين بعدّة فهارس. إحداهما كانت في طهران سنة ١٢٤٣هـ = ١٨٢٨م والأُخرى في تبريز ١٢٤٨هـ = ١٨٣٣م.

وظهرت في الهند ـ في هذا العهد ـ أيضاً عدّة طبعات.

ثمّ عنيت الأُستانة ـ تركيا العثمانيّة ـ ابتداء من سنة ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م بطبع القرآن طبعات أنيقة ومنقّحة جدّاً.

وقامت روسيا الملكيّة عام ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م بطبع قرآن كتب بخطّ كوفيّ قديم، في حجم كبير، يظنّ أنّه أحد المصاحف العثمانيّة الأُولى، خال عن النقط والتشكيل، سقطت من أوّله ورقات، وناقص من آخره أيضاً. يبتدى من قوله تعالى: «ومِنَ الناس من يقُولُ آمنا بالله وباليَوْم الآخِر. وما هُمْ بمؤمنين»[٢] وينتهي الى قوله: «وإنَّهُ في أُم الكتاب لَدَيْنا لَعَليٌّ حَكيمٌ»[٣] عثروا عليه في سمرقند، فامتلكته المكتبة الملكية في بترسبورغ. ثم تولّى معهد الآثار في طشقند طبعه طبعة فتوعرافيّة على نفس الرسم والحجم في خمسين نسخة، وأهداها الى أهمّ جامعات البلاد الاسلاميّة. ومنها نسخة في مكتبة جامعة طهران، مسجّلة برقم المطبوعات: DSS / ١٤٤٠٣.

وأخيراً قامت مصر بطبعة ممتازة للمصحف الشريف سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م، تحت إشراف مشيخة الأزهر. وبإقرار لجنة عيّنتها وزارة الأوقاف. وقد تلقّى العالم الإسلامي هذه الطبعة بالقبول، وجرت عليها سائر الطبعات.

كما ظهرت في العراق سنة ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م طبعة بارزة أنيقة للقرآن.

---

(١) الدكتور صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن: ص ٩٩. وينقل عن المستشرق «بلاشير» معلومات هامة بهذا الصدد، اعتمدناها في هذا العرض.

(٢) البقرة: ٨.

(٣) الزخرف: ٤ .

وهكذا اهتمت الأُمم الإسلامية في مختلف الأقطار بطبع هذا الكتاب ونشره على أحسن أُسلوب وأجمل طراز. ولا تزال.

والحمد لله أوّلاً وآخراً حمداً لا نهاية له ولا زوال

قم المقدسة ـ محمد هادى معرفة

شوال المكرّم ١٣٩٦هـ



الفهارس



فهرس الآيات

(٢) سورة البقرة

(٣) سورة آل عمران

(٤) سورة النساء

(٧) سورة الأعراف

(٨) سورة الأنفال

(٩) سورة التوبة

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة إبراهيم

(١٥) سورة الحجر

* * *

(١٦) سورة النحل

(١٧) سورة الإسراء

(١٨) سورة الكهف

(١٩) سورة مريم

(٢٠) سورة طه

(٢١) سورة الأنبياء

(٢٢) سورة الحج

(٢٦) سورة الشعراء

(٢٧) سورة النمل

(٢٨) سورة القصص

(٣٢) سورة السجدة

(٣٣) سورة الاحزاب

(٣٤) سورة سبأ

(٣٥) سورة فاطر

(٣٦) سورة يس

* * *

(٤٠) سورة غافر

(٤١) سورة فصّلت

(٤٢) سورة الشورىٰ

(٥٧) سورة الحديد

(٥٨) سورة المجادلة

* * *

(٦٩) سورة الحاقة

(٧٢) سورة الجنّ

(٧٣) سورة المُزمّل

(٧٥) سورة القيامة

* * *

فهرس الأحاديث

(أ)

(ب)

(ث)

(ر)

(س)

(ض)

(ظ)

* * *

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الأشعار

فهرس الفِرق والمذاهب

(أ)

(خ)

(ش)

(ع)

(م)

(ن)

(ي)

فهرس البلدان والأماكن

(أ)

(ب)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الجماعات والقبائل

(أ)

(ب)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ي)

فهرس مواضيع الكتاب

نزول القرآن

معرفة اسباب النزول

تاريخ القرآن



الحمد لله وصلّى الله على محمّد نبيّ الله وعلى آله آل الله

لقد قامت مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم المشرّفة بنشاطات واسعة في مجال نشر المعرفة وإحياء التراث الاسلامي وإليكم سرداً لبعض منشوراتها:

من الكتب التي تمّ طبعها

١ـ أحاديث المهدي من مسند أحمد بن حنبل	إعداد السيّد محمّد جواد الجلالي
٢ـ أدب الحسين وحماسته	تأليف الشيخ أحمد الصابريّ الهمداني
٣ـ إرشاد الأذهان (ج١ و٢)	=العلّامة الحلّي
٤ـ الاسلام السعوديّ الممسوخ	=السيّد طالب الخرسان
٥ـ الأسير في الاسلام	=الشيخ علي الأحمدي الميانجي
٦ـ الاصطلاحات في الرسائل العمليّة	=الشيخ ياسين عيسى العاملي
٧ـ الامام الصادق(ع) (ج١ و٢)	=الشيخ محمّد حسين المظفّر
٨ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (ج١ و٢)	إشراف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
٩ـ ايضاح الاشتباه	=العلّامة الحلّي
١٠ـ البحث في رسالات عشر	=الشيخ محمّد حسن القديري
١١ـ بحوث في الفقه، وتشمل على:	=الشيخ محمّد حسين الاصفهاني
أـ صلاة الجماعة	
بـ صلاة المسافر	تحقيق مؤسّسة النشر الاسلامي
جـ الاجارة	